المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء

عبد الله العروي

الفريق

رواية

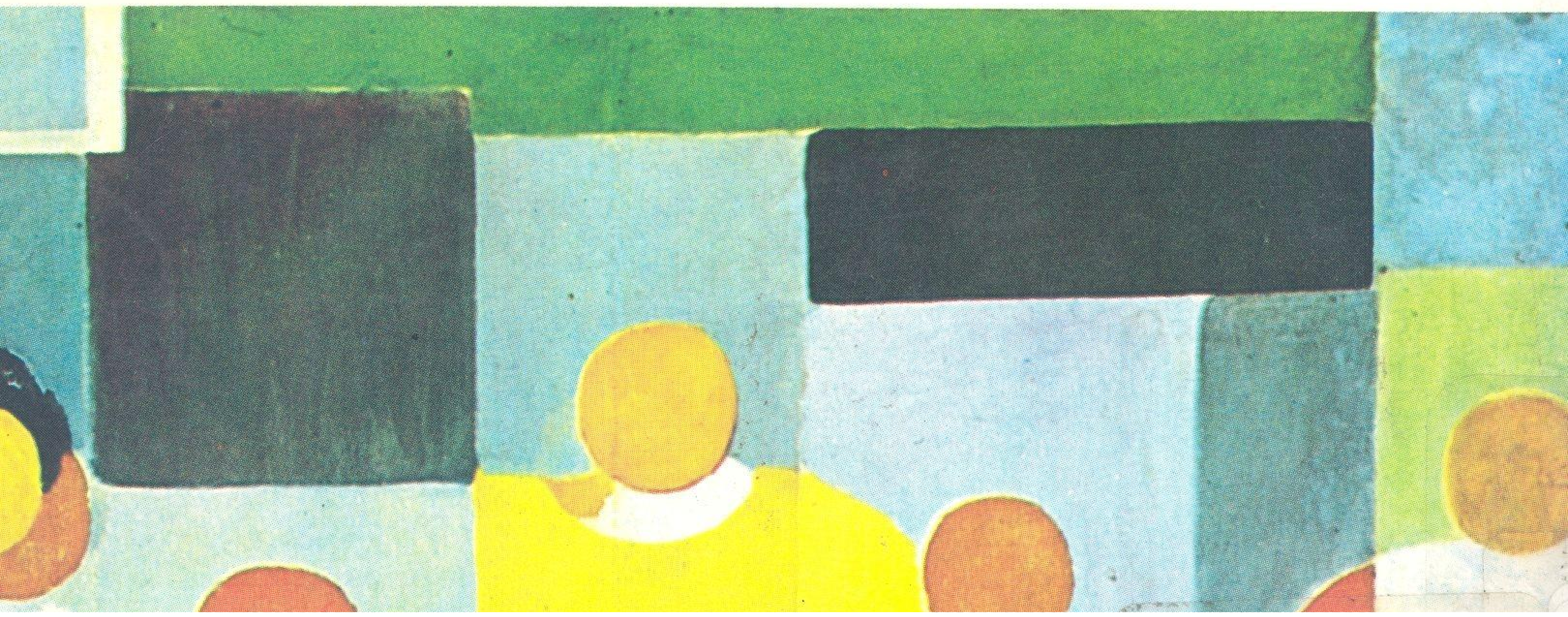

الفـريق

عبدالله العروي

روايـة

الفـريق

الخميس 3/11

I

الموسيقى تقوم النفس
والرياضة تطوع الجسم
وبذلك يتحقق الايقاع

أفلاطون

(1)

مارس شهر لا يطمئن إليه المرء . . تارة بارد ممطر إذا كانت الرياح شمالية غربية وطوراً جاف حارّ إذا كانت الرياح جنوبية شرقية . قلّ ما يكون الطقس فيه مشمساً دافئاً . . تختفي الشمس وتتغمّم السماء فتحتفظ البيوت ببرودة ورطوبة الشتاء ، أو تصحو السماء فتبعث الشمس أشعّة محرقة في جو متلألىء . تصفرّ المزروعات ويكاد الناس يختنقون في ثيابهم الصوفية . . يتهافتون على جوانب الطرق المظلّلة ، أوجههم ممتقعة ، مزاجهم حادّ ، حركاتهم مضطربة . .

مارس شهر الأخطاء والأخطار . .

(2)

إستيقظ شعيب قبل الفجر بربع ساعة من نوم عميق هادىء كأنما نقل فجأة من العدم إلى الوجود . إضجع في فراشه وقال بصوت مسموع : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . . يا رب اقبل عذرنا وأعف عنّا يا أرحم الراحمين .

خرج إلى المراح واستنشق الهواء فعرف أن النهار سيكون صيفياً . منذ أن كان طالباً في مدرسة ابن يوسف وهو يستطيع أن يتنبّأ بما سيكون عليه الطقس أثناء النهار بمجرّد أن يستنشق هواء الصبح . هذا يوم من أيام مارس الصيفية حارّ مشمس أبيض متعب للاعبين والمتفرّجين حتى لو تأخّرت المقابلة إلى ما بعد الثالثة . قرّر شعيب أن يستغني عن حركاته المعتادة ليصل إلى الملعب مع المبكّرين . أخذ السطل الذي هيّأته له أمّه قبل أن تأوي إلى فراشها وبدأ يتوضّأ . وبعد برهة سمع أمّه ترتب من جديد الأواني القليلة التي كانت قد

رتّبتها بالأمس .

شعيب إبن الصدّيقية الوفي غادرته زوجته بدون سبب ظاهر . كان يحبّها في صمت ولا يستحضر عبارات الأفلام القاهرية فظنّت أنه لا يفهم لهجة العصر وتركته وحيداً يناجي ربّه في المدينة العتيقة . مرّت الأيّام وشعيب سجين المساجين يسجّل الأسماء ، يستقبل الآباء والأمّهات ، يفتح الرسائل والمطبوعات ، ومن حين إلى حين يحاور الشبّان ويذكّرهم بتجارب الماضي فيشعر بالإرتياح . ثم جاءه الخبر أن زوجته الفارّة حامل وأنها في حيرة من أمرها . فكتب لها على التوّ ليُذكّرها أنّها حرّة . . إن أرادت إحتفظت بالمولود وتحمّل هو المصاريف وإن أرادت أن تتحرر تماماً ساعدها على ما تريد . إختارت الزوجة الحلّ الثاني إذ كانت لها مطامع . وهكذا ذهب شعيب وأمه إلى البيضاء وبحثا طويلاً عن بيت في حي من الأحياء الجديدة حيث لا تعرف الأزقّة إلا بالأرقام . طرقا الباب فخرجت إمرأة في منتصف العمر وأدخلتهما إلى غرفة في بهو الدار معتذرة لغياب الزوجة العاقّة ثم قدّمت لهما الرضيع ملفوفاً في إزار من القطن قائلة :

ـ سبحان الله أبوه في كل شي . .

أخذت أم شعيب الرضيع وضمّته إلى صدرها في صمت وثبات . سأل شعيب :

ـ والتسمية قمتم بالواجب أو لا ؟

ـ سميناه . . سيدي محمد . . و . . أنت فقيه تعرف الواجب .

شكر شعيب المرأة واستعد لمغادرة الدار . على العتبة قال :

ـ أنا دائماً موجود . . عمري ما أقول لا . . عملوا هذا في البال . . والله يزيّن أعمالنا .

وهكذا انتهى بلا فاجعة عهد الزوجية في حياة شعيب وبدأ عهد الأبوّة . لم تعلّق أم شعيب على ما حدث ، إنما كانت من حين لآخر تقول لنفسها :

ـ بنات اليوم !. بنات اليوم !.

وتتنهّد دون أن يدرك أحد هل هي حزينة لوحدانية ابنها أم مسرورة بعودته إليها مصحوباً برضيع يذكّرها بالأيام الخوالي .

عاد شعيب إلى مقرّ عمله ثم حين أنشئت إدارة خاصة مكلّفة بمساعدة عائلات الشهداء طلب أن ينقل إليها . قبل طلبه واستقرّ في العاصمة . وجد فيها عدداً من أولاد البلد ، منهم من كان يعرفه بالفعل ومنهم من كان يسمع به . أنعش علاقات قديمة وربط أخرى جديدة . كان يتردّد على الصدّيقية لزيارة ولده ووالدته وكان السكّان يرحّبون به أكثر من ذي قبل ويهنّئونه على الترقية . ثم وصل مرّة كعادته يوم السبت ومكث الأحد ثم الأثنين ثم الثلاثاء ثم الأيام التالية . فراجت الشائعات وكثرت التساؤلات إلى أن تعوّد السكّان على حضوره بينهم فوجّهوا اهتمامهم لحوادث أخرى .

منذ شهور وشعيب مقيم في بيت درب العرصة حيث تنبت شجرة التفّاح الشهيرة في البلدة بكبر وحلاوة ثمارها مؤنساً لأمه مستأنساً بإبنه . كانت الأم تعيش في عالم الأشباح ولا ترى ضرورة للكلام . . الصمت محيطها الطبيعي ، صمت يعمّ الغرفة والبيت والدرب والمدينة . لا تفهم أم شعيب أن ابنها لحقته عدوى الكلام ، يقضي مع إبنه الساعات الطوال يراقبه يتحسّس الأشياء ، يرميها ثم يعود إليها ويتفحّصها من جديد ، يراه يجرّب تباعاً كل عضو من أعضائه كالميكانيكي يجرّب دوالب محرك سيارة . يمسك شعيب إبنه ويرميه في الهواء ثم يتقدم ويتلقّاه منحرفاً أو يجلسه على وسادة ويعينه على رفع ذراعيه في حركات متلاحقة منسّقة فتدخل الأم مولولة :

ـ يا حفيظ يا ستّار ! خلّ عليك وليدي ، بغيت تقوّس له الظهر ؟

يخاطب شعيب إبنه بعد أن فاتته مخاطبة زوجه الناشز .

(3)

إستيقظ علي نور كعادته على الساعة السابعة ، لكنه لا كعادته لم ينهض في الحين ليتهيّأ ويصل لباب المدرسة عشر دقائق قبل أن يدقّ الجرس . فتح عينيه وبقي مستلقياً على الفراش يراقب النور المتسرّب من شقائق النافذة من خلف الخامية الزيتية الكثيفة . كان يعلم أن الخادم ستصل متأخرة فقرّر أن يمكث في البيت النهار كلّه ، يقرأ ، يصحّح بعض الأعمال ، يحرّر رسالة أو رسالتين . توقّع أن تبقى العمارة هادئة ويظلّ الشارع فارغاً الصباح كلّه ، ما

عدا فترة قصيرة يتوجّه أثناءها المدعوون إلى قصر العمالة .

إعتاد علي نور منذ شهور أن يلزم البيت بدون لزوم لا يغادر الفراش إلا مكرهاً . قيل له إن جو المدينة منعش لقربها من الجبل ولأن الفصول فيها متميّزة . . الشتاء بارد والصيف حارّ والخريف دافيء . إلا أن جسمه لسبب مجهول لم يتجاوب مع المحيط الجديد . أصبح يحسّ بصداع دائم وفي بعض الأحيان كانت ركبته اليمنى تخونه فيكاد يسقط على الأرض . فحصه الطبيب وقال :

ـ تحرّك . . اذهب إلى المسبح ! هذا كل ما في الأمر .

كان ماء المسبح البلدي المجلوب من الجبال قارّاً يقطع الأنفاس . لم ترق السباحة علي نور لكنه واظب عليها حتى تحسّنت حاله .

سمع المفتاح يخشخش في الضبّة ثم الباب يصرّ فعلم أن فاطنة غاضبة . كانت لها وسيلة خاصّة تعبّر بها عن حالة نفسها وذلك من خلال فتح وإقفال الأبواب. عليه إذن أن يتركها مع نفسها حتى تهدأ أعصابها . تابع أصداء المطبخ : سيل الماء في المغسل ، فرك الصحون والكؤوس ، فأدرك أن غضب فاطنة أعمق مما تصوّر . فتح المذياع :

« . . المقابلة الكبرى التي ستجري يوم الأحد والتي ستنقل لكم مباشرة من الملعب الشرفي يصفها بحماسه المعهود الأخ الحدّاوي تتلوها ندوة الأسبوع بمشاركة رئيس العصبة . . » .

قام علي ودخل الحمّام . غسل وجهه ببطء ونشّفه ثم لبس المحمّة التي يستعملها كمبدل وقصد المطبخ :

ـ فاطنة صباح الخير . . فقت على غير خاطرك ؟

تنهّدت :

ـ صباح الرباح . . لو كان الناس كلهم بحال سيدي !

ـ هذا يوم فرح ما تخلّي في نفسك .

لم تحوّل أنظارها من المغسل ولم تجب . ألحّ علي :

ـ قولي . . آش كاين ؟

رفعت يديها عن المواعين . مسحتهما في منديـل معلّق في تكّتها ثم قـالت بحزم :

ـ أنا واقفة عند مول الحليب واخذة نوبتي ما عليّ مابيّ . . جاء المسخـوط من الشمال وقال الجـريدة . قلت في خـاطري مـاكاين بـاس . خاذ الجـريدة وبدا يفتّش في جيبه . فتّش فتّش وقـال نسيت يلعن الشيطان نصف حليب . خـاذ الحليب وبدا يفتّش ثـاني ومن بعـد قـال الله يثبتنـا عـلى الشهـادة خبـزة طويلة . قلت هذي حيلة خنقطرة . تلفتّ له آسيـدي أنا مـا عجبتك ؟ قـال واه انت وقتـك طويـل . قلت واللّي في الـدار وقته قصير ؟ ما عـرفتيـه صبي مريض عجوز ؟ قـال ودابا الـلي عطاه الله عـطاه ما بقى كـلام . هنا طلع لي الدم لو اعتـذر أو طلب المسامحـة ما كـان باس ولكن يتقـابح حـاجبه مقـوّس يشوف في السما هذا ما هو حق . .

سأل علي باهتمام :

ـ ايواه . . آش وقع ؟

ـ آش وقـع ؟. عرف من أنـا . لما طلقت لسـاني عاد فـاق . الـلّي كـان قدامي حاني راسه بدا يقول ايه والله ما هو حق كل واحد بنوبته .

ـ ومول الحانوت ؟

ـ هذي عنده فراجة بلا خلاص . . بقيت على المسخـوط حتى حنى راسـه وتبع الطريق . .

ـ آش قلت له ؟

ـ واه يا سيدي هذا ما هو محل كلام الزنقة .

عادت فاطنة إلى غسل المواعين تحاور نفسها :

ـ الأصل والتاصيلة امرأة ونص خدامة عند سيـدي ومولاي خـدمت غير في الديار الكبـار أخوي في ألمـانيا أختي في هـولندة لا بـدّ حتى مول الحـانوت يسمع على ودنه عامل راسه يسمـع الأخبار مـرة اخرى يعـرف مع من يتكلّم المسخـوط كحّل لي النهـار يكحّل ايّـامه كلهـا تلقاه عجـاجة تقلعـه من الجذر الدنيا وما فيها خزيت في خزيت . .

أخذ علي الجريدة من فوق الطاولة وخرج من المـطبخ دون أن يعلّق عـلى

كلام فاطنة . لا يستطيع أن يسرحها . كانت تلحّ على أن تشتغل كل يوم :

ـ الشغل يطول العمر .

عاد علي إلى غرفة النوم وبسط الجريدة أمامه فوق المكتب :

توجد البلاد تحت منطقة ضغط مرتفع . رغم تسرّب بعض السحب من الشمال طقس جميل وحارّ . ترتفع درجة الحرارة إلى ثلاث وعشرين . انقلاب في أكراه .

انجلترا تتخلى عن عزلتها وتتولى النظام العشري خلال خمس سنوات . مركبة سوفياتية تصل الى كوكب الزهرة بعد أن قطعت أكثر من مائة مليون كيلومتر في ظرف ثلاثة شهور ونصف .

ستة وعشرون مليوناً من المغاربة سنة ست وثمانين . انحباس المطر منذ شهر ديسنبر .

قرعت فاطنة الباب ودخلت تحمل طبقاً فيه إبريق قهوة . وضعت الطبق فوق المائدة وأفرغت القهوة الفائرة في كأس صغير ثم قالت :

ـ آش تحب الخاطر اليوم ؟

ابتسم علي :

ـ هذا كاف الآن . . أشوف من بعد .

لم تقل شيئاً وغادرت الغرفة مسرعة كأنها توشك أن تنفجر .

طوى علي الصحيفة ورمى بها على الأرض ثم قام من الكرسي واقترب من المائدة . تناول كأس القهوة ورشف منها ثم فتح المذياع فوجد مغني المناسبات يبكي على أيامه الحلوة . جلس إلى مكتبه وأغمض عينيه يفكر في السباق على استغلال الفضاء والمراهنة على القمر أو الزهرة . أخذ كنّاشاً وقرأ ما كتب قبل يومين :

أي عدوّ هذا الذي يقصدنا الأثنين أنا الفارس وأنت حافر الرصيف ؟ إنه الموت . الموت هو العدوّ . سأقوم في وجهك يا موت لا أميل ولا أتراجع . وانكسرت الأمواج على الشاطيء . .

أنا الفارس أنتظر على الرصيف والفرس تحتي يحفر الأرض وفي الأفق شبح يحمل علينا . من يكون ؟ انه الموت انه العدو . يا موت سأقصدك غير

هيّاب ولا واهن . وتتكسّر الأمواج على الشاطيء .

جملة واحدة تصوّر لوحة تامّة . تتكسّـر الأمواج آخـر النهار . رجـل على الشاطيء يفحص البحر بعـد أن غشاه الـظلام فتتحقّق الرؤ يـا . يرى نفسـه ممتـطياً جـواداً على الـرصيف كأحـد فرسـان الحرس الملكي أثنـاء إستعـراض رسمي . الجواد يكشط الرصيف بحافره وإذا بفارس يـطلع في الأفق شاهـراً سيفه. هذه هي اللوحة يأتي بعدها التعليق في شكـل مناجـاة . يحمل العـدو على الفارس والفرس فيقول الأول للثاني : إن من يحمل علينـا بهذه الشـراسة لا بـدّ أن يكون عـدواً لي ولك ، أتـدري من هو؟ إنـه المـوت . المـوت هـو العـدو ، العـدو الأبـدي . لا فـرار من المـواجهـة . الجـواب : لا خـوف لا تراجع ، إلى الأمام إلى الأمام . مع الموت لا ينفـع حوار ولا حيلة ، لا شيء سوى الهجوم الصادق بلا هوادة ولا أمل . أنا متأهّب يا موت ! .

ثم التعليق على اللوحة بما فيها الرؤ يا . . انها رؤ يا . الواقع هو الـرجل الـذي يشاهـد البحر ويناجي نفسه بعـد أن غـربت الشمس ، الـواقـع هـو الشاطيء هو الطبيعة بعد أن رأى الإنسان نفسه في أحضانها وتكلم مـع نفسه فيها وأوشك أن يفارقها . تدوم الطبيعة وتدوم الأمواج ، أشكال آنيـة ، أبنية لحظية تتعالى لتهوى على الشاطيء ، عـلى الحدّ الفـاصل بـين اليابس والمبتـلّ الجامد والحي .

والآن الجملة ـ اللوحة :
وحصان أركبه يكشط الرصيف بحافره
أسرّ إليه وفي الأفق شبح يتقدّم
أي عدو هذا الذي نلمحه
إنه الموت الموت العدو الأدوم
وعلى الرمل يتكسر الموج .

(4)

منذ أن أقلعت الحافلة من الصدّيقية والفرحة بادية على السائق . يرحّب بالركاب خاصةالفتيات والفتيان. يردّد الأنغام التي تبثّها الإذاعة .يرفـع يده تحيـة لسـائقي الحـافـلات الأخـرى. ثم من حـين إلى حـين يقـول بلهجـة صارمة :

ـ حق . . حق . . أفراحنا دائمة الحمد لله والشكر لله .
قال المذيع معلقاً على النشرة الجوية :
ـ إذن طقس مناسب .
ـ تماماً . مناسب لجو الفرح والابتهاج الذي نعيش فيه منذ يوم الخميس .
ـ الأخ الحداوي كلّمنا عن النشاط الرياضي وخاصة في ميدان كرة القدم .
ـ نعم كل واحد بلا شك سمع بالمقابلة التي ستجري في الملعب الشرفي اليوم على الساعة الثالثة ونصف . .
ـ هذا يوم كبير .
ـ يوم تاريخي بالنسبة لجمهور الرياضيين .
ـ بهذه المناسبة لا بدّ أن نعبّر عن تقديرنا الكبير لما قامت به العصبة من مجهود . . الأخ الحداوي يمكن لك أن تفصّل لنا الكلام على هذا المجهود .
ـ الحقيقة ان بلادنا دخلت الرياضة العالمية من بابها الواسع . . إلى حد الساعة كانت كرة القدم عندنا هواية فقط ، أما في البلاد المتقدمة فهي حرفة . شغل اللاعب الدائم هو التهيؤ للمباريات من جميع النواحي . يتهيأ جسمياً وعقلياً ونفسياً . وهكذا يستطيع يوم المقابلة ان يبقى حاضراً في الملعب وبصفة فعالة تسعين دقيقة بتمامها . في نفس الوقت يستطيع أن يطبق التعليمات التي تلقنها أثناء التداريب ، وأخيراً يستطيع أن يضبط نفسه في جميع الظروف . يخضع لأوامر الحكم ، يواجه الخصم بالطرق القانونية ولا يتحمل مسؤولية افساد جو المقابلة .
ـ وهذه أمور غير متوفرة ، في نظرك ، عند اللعّابة المغاربة ؟
ـ لا ، لا ، موجودة عند البعض وفي بعض الأحيان وهذا غير كاف . أريد أن أقول ان هذه المزايا ليست طبيعية ، هي وليدة تربية طويلة وشاقة ، والتربية معناها التفرغ ، أي أن تصبح الكرة حرفة . أما نظام الهواية فلا يمكن ان يوجد اللاعب الممتاز . إذا كان اللاعب لا يفكر في الكرة إلا يوم السبت أو الأحد ، والأيام الأخرى يشغل عقله بأمور أخرى ، فلا يمكن أن

يحتفظ بمستواه الفطري حتى ولو كان صاحب مواهب عالية . عندنا العنصر البشري ، هذا صحيح . .

ـ ولكن الوزارة قامت بمجهود . .

ـ مجهود جبّار ، لا ينكر . . وضمن هذا المجهود السياسة التي اختارتها العصبة والرامية إلى إطلاع الجمهور ، وخاصة المهتمين بكرة القدم ، على الكيفية التي تمارس بها الآن في العالم .

ـ وضح لنا هذه النقطة من فضلك .

ـ خلال الشهور الخمسة المقبلة سنشاهد فرقة عربية افريقية واخرى أوروبية شرقية وفرقتين من اوروبا الغربية وفرقة من امريكا الجنوبية . وهكذا يمكن لنا أن نقارن بين كل انواع اللعب . .

ـ وهذه سياسة جديدة ؟

ـ يعني توسيع لما كنّا نقوم به حتى الآن . كنا نرى مقابلات بين فريق وطني وفريق زائر فنظن ان أسلوب الأجنبي واحد ونحاول ان نقلد ذلك الأسلوب الذي ربما لا يوافقنا . الآن سنرى لعب فريق يعيش في ظروف قريبة من ظروفنا وآخر يعيش في ظروف مختلفة تماماً .

ـ هذا بالنسبة للمدربين والمتخصصين ، وبالنسبة للمتفرج العادي هل تعده بلعب حلو شيق ؟

ـ لا شك ، حسب ما نعرف عن الفرق المذكورة . . أما مباراة اليوم فستكون بلا شك متكافئة لكن كما تعلم الأذواق تختلف . هذا المتفرج يفضل عنصر المباغتة ، أن يرى في رمشة عين الكرة وهي في قلب الشبكة ، وهذا يفضل أن يرى كل طور من أطوار الحركة من البداية إلى النهاية . .

ـ إذن مقابلة مهمة ، ممتازة يجب ان يحضرها أكبر عدد ممكن من المتفرجين في هذا اليوم المشمس . لنا موعد آخر مع الأخ الحداوي وكذلك مع الأخ بحبوح . في حوار عام مع رئيس العصبة الملكية . . شكراً وإلى اللقاء . . » .

ردّ شعيب في نفسه على المذيع : « الأخلاق الرياضية هي ما ينقصنا

اليوم : العمل ، النشاط ، الجد ، المثابرة ، إجهاد النفس . . من أفسد الجمعيات القديمة ؟ الأجنبي ؟ الطمع ؟ المهم . . المهم هو أن نستعيد الأخلاق الحميدة ، برياضة اليوم . . أما رياضة الأمس . ! » .

وقف أمام المقهى جنب محطة الحافلات ، ينظر إلى عقرب الساعة المعلقة فوق الكنتور . . العاشرة ونصف . ألقى نظرة على كراسي المقهى الفارغة ثم التفت إلى عربات الأجرة الحمراء المصطفة أمام المحطة وإلى الطريق المؤدي إلى الميدان الكبير . قرر أن يجلس في المقهى يقرأ الجريدة ويشرب فنجان قهوة .

ـ أهلاً ! أهلاً ! زارتنا البركة . . خليني أشم فيك رائحة البلد ، الحنة والخرقوم .

حقق فيمن عنقه بحرارة ، فإذا به حميدة ، بوجهه الأصفر المتنفخ وأسنانه الاصطناعية البراقة وشعره الملمع الأسود . ارتمى عليه مرة ثانية وعنقه كما لو كان قافلاً من الحج .

ـ عمرك طويل يا سي حميدة ، فكرت فيك هذه الدقيقة . قلت لازم أعثر عليه .

ـ آش جابك لهنا ؟

ـ الرياضة يا أخي ، الرياضة ، اين ما كانت أنا معها .

ـ كاينة اليوم حاجة ؟

ـ كيف ؟ ساكن قرب الملعب الكبير وما عارف ما يجري فيه ؟ اليوم مقابلة تاريخية قامت عليها القيامة ، في الإذاعة وغير الإذاعة .

ـ تعال يا فقيه ، نشرب قهوة ونفرق اللغى .

قبض حميدة على ذراع شعيب وقاده إلى داخل المقهى ومن بعيد أومأ إلى النادل أن يناولهما قهوتين وذلك برفع أصبعيه على شكل ما كان يفعل زعيمه المفضل . أخرج علبة سجاير وزرع لفافة بين شفتيه أشعلها بعناية كبيرة ثم قال والكلمات تتصادم في فمه كقطع نقد :ـ « حاصل القول ، يا سيدي شعيب ، ان الشغل قضى علينا . ما عندنا وقت للراديو ولا غير الراديو . . أجري من هذي الحومة لذيك . . » تعجب شعيب :ـ هذه كلها خدمة ؟

ـ الخدمة عندي هي الاتصال أولاً ؟ المدينة كبرت واتسعت . . أحياء جديدة ، عمارات ، فيلات . . ولا واحد يبقى في محله . . الرجال اليوم سبقوا أرزاقهم . . أنت كنت في راحه . . المساجين دائماً مساجين ما عندهم إلى اين أوْ لا ؟

أدى ثمن القهوتين ثم شرب من كوب الماء البارد وقال موكداً على العبارة : « عندنا ما نقوله لبعضنا . . اياك ، بايت معنا الليلة ؟

ـ ايواه !

ـ لا ، ما فيه ايواه ولا حتى ، الكلام طويل . أنا مشغول وأنت مشغول ، خليك معنا نذكر الأيام الفايتة . . ما قلت لك ما صار في قضية « أخبار الصديقية » لا بد تبقى معنا . . انت عارف المحل وراء الملعب . وقت ما جيت أدخل ، كنت أو ما كنت ، الدار دارك ، ادخل وتوسع . . الوالدة عارفة . متى المقابلة ؟

ـ الثالثة ونصف . . ولكن اليوم لازم الوصول مع الأولين ، زحام كثير ، عملوا دعاية . .

ـ على ما حال ، ما تنسى الموعد مؤكّد .

(5)

قال مختار بعد ان استمع إلى المذيع يعلن عن المقابلة الكبرى التي ستجري في الملعب الشرفي : « بالأسف ، ضاعت الفرصة . . كان سمعت الخبر من قبل كان ركبت القطار في الصبح » .

أجابت زوجته فطومة وهي تحمل الصينية بعد ان انتهت العائلة من تناول طعام الافطار : « قلنا لك اخرج من الدار ساعة ساعة . . تلاق الناس وتسمع منهم الأخبار . .

ـ عندك الحق يا ولية ! » .

أخذ سيجارة من علبة كازاسبور وراح يفكر في الأيام التي كان يحضر المقابلات الرياضية مرفوقاً بزوجته الفتية . كان يقول : هذه فتاة لا يمكن أن أتركها في الدار وحدها . ثم لما انجبت الأطفال كان هؤلاء يرفضون أن يمكثوا في البيت أو أن يتركوا أمّهم وحدها . فكانت العائلة تذهب إلى الملعب

ثم قبل أن تعود إلى البيت تجلس في مقشدة . . نعم كانت أيام سعيدة . . خاصة في الإقليم الشرقي . . مناخ عجيب والسكان . . أصحاب كلمة وعفّة . . رجعت الزوجة من المطبخ وقالت :

ـ النهار طلع يا سيدي الرجل ، اليوم الحوانيت تفتح حتى الظهر . . انهض ، اغسل وبدّل . .

ـ ولا عليك ، أنا نايض . . أكمل هـذي و . .

ـ غير ما تسرح ثاني وتنسانا . .

ـ أسرح ؟ لاين ؟

ـ لدنيا الخيال يا حبيب الروح .

كانت فطومة تلبس سروالاً طويلاً أحمر من القطن وقميصاً أبيض بلا كمّ ، شعرها مسرّح إلى الوراء ، عيناها مكحّلتان . كانت تهوى الأفلام المصرية . تكلّمه من حين إلى حين كما كانت تكلّم أطفالها بعبارات عاطفية سخيفة .

ـ أين نوره ؟ قل لها تجي معي .

ـ نوره !. نوره !

دخلت فتاة في الثالثة عشرة ، طويلة القامة ، عارية الساقين والذراعين ، شعرها السلس مسدول على كتفها .

ـ يا الله قم ، بابا ، فات الوقت .

ـ همّ مختار أن يضمّ ابنته إليه . ثم أحجم لأنه كان يعرف أنها تكره رائحة الدخان . أطفأ السيجارة وقام ليدخل بيت الحمّام . فحص وجهه في المرآة ، عينيه الغائرتين وراءالنظّارات السميكة ، اللمّة البيضاء البادية من الأنف ، الشعر الكثيف الذي يعلو الذقن . قال في نفسه : اجتمعوا ، سيروا لقصر العمالة ، اسمعوا الخطبة !. لما جيت لهذي المدينة التعسة خطبت أمام الوزير خطبة مشكولة موزونة من أولها لآخرها . ما تعثرت ولا غلطت . صفق الجميع . قالوا : والله فصاحة وبلاغة . . بخلت علينا بها . . سيروا في العشية للمهدية وابدوا التقصيرة بلوازمها . لعن الله الشيطان ، المسخوط ، ولد الزنا . . اه تلون بحال الثعلب ، هو اللي افسد الناس . قبل

كـانوا كلهم طيبـين . هو نفسـه كان يتمسّـح . . انا مـاشي للسّـوق يـا سي مختار ، خاصك حاجة ؟ قل ما تحب ، كل شيء يحضر . ثم انقلب ، وجهه على قفـاه . . يـا لـطيف ! مـا تخـرج جـرتـه بخـير . الحمـد لله بعّـدت من جماعتهم . خلّيت كل واحد يعوم ببحره . . سبحان مبدّل القلوب ! .

صاحت نوره : « بابا! يا الله ، عندي شغل » .

أجاب مختار وهو يرتدي قميصاً أبيض : « ما هو ، الشغل ؟

ـ مطالعة .

ـ خوذي الكتاب معك ، نقراه في الطريق » .

نزل مختار الدرج حاملاً قفّة كبيرة . تتقدمه نوره تقرأ في كتاب المطالعة . حاول عبثاً أن يفهم ما تقرأ . كـان ذهنه يـرجع دائـماً إلى الشيطان المـارد . . نعم ، يـوشوش مـع هذا ، يـوشوش مـع ذاك ، في القهوة ، في الـزنقة ، في المكتب . . إذا قربت منه قطع . إذا سألت ردّ بوقاحـة : لا شيء ، ما كـاين شي . . غدرتك ودنك . لعنه الله ، هو يوشـوش ويقول دخلني الـوسواس ! لكن ولد الزنا ما عنده حشمة !

قالت نوره : « واه ــ اسمعني يا بابا !

ـ يا الله قولي . .

ـ هـذا رجل يسـأل آخـر : عنـدك سـاعـة ؟. يـرد الثـاني : لا . يقـول الأول : وها هي في يدك . يرد الثاني : تسأل عن صاحب الساعة ؟

ـ عاودي يا بنيتي ، ما تبّعت . .

ـ بابا ، بابا ، دائماً سرحان . . هذا لغز ، خلي بالك معي .

ـ انا معك ، انا معك » .

(6)

السـماء صافيـة ، تبدو بعيـدة جداً عن همـوم الناس . الشمس في وسط مدارها منحدرة نحو الشرق . كل أبواب الملعب مقفلة سوى المدخل المفتـوح في السياج الخارجي المكـون من قضبان حـديديـة سميكة مسبـوغة بـالأخضر الداكن يحرسه عدد كبير من الشرطيين . بعد ساعتين ستقطع الطريق المؤديـة

إليه وتعترض كل من يريد ولوج الملعب ثلاثة حواجز . يتأكد شرطي من ان الداخل لا يخفي أي شيء يمكن ان يستعمل للتعبير عن الفرحة أو السخط : عصا ، عكاز ، زجاجة كتاب مسفر ، ماعون معدني . . ، ثم يتعرض له أحد أعضاء التدخل السريع مدققاً في قسمات وجهه كأنه طبيب ماهر يفحص المرضى ، وأخيراً يطلب منه أحد الحراس ان يدلي بتذكرته .

أغلب الوافدين في هذا الوقت المبكر جاءوا من الأحياء النائية ، ممن يفتقرون إلى ثمن النقل فيبكرون مشياً على الأقدام . تتراوح أعمارهم بين خمس عشرة وخمس وعشرين سنة ، منهم من لا يزال يتابع الدراسة دون أمل في ان يحصل على شهادة ومنهم من انقطع عنها وراح يبحث عن شغل منذ شهور أو سنوات . بعد قليل سيصل الأطفال ويتضاعف عددهم بسرعة فائقة . يتصافون جنب الباب وكلما رأوا متفرجاً غير مصحوب وضعوا أصابع أيديهم اليمنى على شفاههم متوسلين بالله والنبي والوالدين أن يدخل بعضهم معه . قبل بداية المقابلة بدقائق سيلج أغلب هؤلاء الصبيان الملعب ، طائرين في الهواء أو غامسين في الأرض ويعود شغل رجال التدخل السريع هو منع الأطفال من احتكار المقاعد . . عندما يزداد الجو لمعاناً وتكاد الأبصار تعجز عن التمييز بين المرئيات يسمع الحراس يتصايحون : « البز ! . خزي ، لعنهم الله . . يا حفيظ ! يا ستّار ! فيران ، اليوم متسابقين على القعود ، وغدا على الخبز . .

- وابواتهم ؟

- الله . . الله . . تفكّوا منهم ، ما يبدا العيد عندهم حتى يسترحوا منهم .

- ايواه ! الله يهديك ، هذي زيادة . .

- زيادة في الزحام ، زيادة في الفوضة » !

كلام يسمع حتى قبل الساعة الثانية ، وقت وصول أصحاب العربات لابسين الجلباب بالمناسبة ، متأبطين وسادة مدورة أو سجاداً صغيراً مرفوقين بأبنائهم . هؤلاء يمشون بتؤدة ، الابتسامة على شفاههم . يردون التحية بمثلها ويقصدون بخطى محسوبة الجانب المغطى يجلسون على الوسادة أو

السجاد وينتظرون في صمت وثبات بداية المقابلة . حينما يرتفع صوت المتخاصمين أو تطلق كلمة نابية يضحكون بقدر ، حاضرين ، متميزين . .

قبل أن يصل أصحاب السيارات يكون أصحاب الجاكتات قد احتلوا مقاعدهم منذ زمن ، يتكلمون بأصوات مرتفعة وينادي بعضهم البعض من صف إلى صف . يحوّلون المقابلات إلى حفلات صاخبة . يعلّقون على كل لعبة مصفّقين أو مصفّرين ، مهلّلين أو مولولين . يجمعون بين الحيوية والثبات ، بين النشاط والانتظام . وإذا كان بعضهم مصحوباً بامرأة فلأنه لا يزال في عهد الخطوبة . الملعب محرّم عن الزوجات الصالحات والبنات العفيفات : الشمس والغبار ، الصياح وكلام الزنقة ، كل هذا ممنوع عن بنات الخير . . كرة القدم رياضة جماهيرية ، رياضة الفحول .

وصل شعيب إلى مشارف الملعب قبل أن يمنع المرور في الشارع المؤدي الى المدخل الرئيسي . لم يطلب منه الشرطي أن يفتح الجاكتة التي كان يحملها مطوية على ذراعه الأيمن . اقترب من المدخل فخاطبه طفل لا يتجاوز الثامنة :

ـ دخلني معك الله يرحم الوالدين .

سأله :

ـ من أين جيت ؟

ـ من سيدي عبد الرحمن .

تقدم شعيب والطفل بجانبه وقبل أن يفتح الحارس فمه انطلق الطفل مثل السهم في اتجاه رواق الشخصيات ـ خزره الحارس ولم يقل شيئاً . قال شعيب في نفسه : أعطف على الأطفال وأحب الرياضة ، كيف أخيب أمل طفل قطع ميلين لمشاهدة مقابلة رياضية ؟ . كان جلّ زملائه في اليوسفية يهتمون بكتب الرياضة والمجاهدة . قرأ بعضها وفهم ما كان يقصد بعض شيوخه في دروسهم التطوعية . لكنه لم يميز أبداً بين رياضة النفس ورياضة الجسم . لم يترك جهاده ليعتنق جهادهم . كانوا يقولون : تحرر من الجسم . وهو يقول : إن للجسم عليك حقّاً . ويعني بالكلمة غير ما يعنون . سكن بنيقة بلا هواء وجاب شوارع مراكش الضيقة ولم يمنعه أي عائق من مزاولة

حركاتـه . لم تتغير قسمـات وجهه ولا عضـلات جسمه ، بـل بقيت بشرتـه صافية ومفاصله مرنة رغم رطوبة الصديقيـة . رأى يومـاً بين يـدي صديقـه إدريس ، قبل أن يخاصم إدريس الخلق ويخلو بنفسه ، كتاباً مزيّنـاً بالصـور . قـال له : هـذا كتاب عن آلهـة يونـان . إن الإغريق كـانوا يعـدّون الريـاضة البدنية فنّاً من الفنون الجميلة . كتب افلاطون أن هدف الريـاضة والمـوسيقى واحد ، وهو تنظيم حركات الروح والجسم وإرغامهما على التناسق والتناغم . نعم أخذنا الطرب وتركنا الريـاضة بـل استعملنا الـطرب للتخلص من قبضة الجسم . الرياضة منبع الجمال في هذه الـدنيا . . أمـا رأيت صاحب السيـارة كيف يغسلها ويزيّتها لكي تبقى جاهزة للاستعمال . الجسم مطية فحافظ على مطيتك . . نعم نصائح ، نصـائح ، مـا شاء الله . . استـرجع شعيب وعيـه ونظر إلى الميدان المخضرّ المسقي ثم إلى المدرج المقابل له حيث كان الأطفـال يتـطاردون ويتصايحون وكأنهم عـلى شـاطيء البحـر . أغمض عينيـه وتخيّـل شاطيء الصديقية وقت الظهيرة . .

(7)

زادت الشمس انحداراً وبدأ الظل يتطاول ويغطّي عدداً أكبر من مقاعـد الصفوف اليمنى التي تجمع فيها أغلب المتفـرجين . أمـا الميدان فقـد كان لا زال يتلقّى كلّه الأشعّة اللامعة الساقرة . بعد أن انتهى العمـال من تـنظيفه تركوه سطحَ بحيرة يُنظر إليها من خـلال أوراق غابـة كثيفة . دخـل إليه منـذ دقائق بعض اللاعبـين وشرعـوا يمررون فيمـا بينهم الكرة دون أن ينتبـه إليهم أحد من المتفرجين . من جميع جهات الملعب وقف الشرطيون متأهبين لحمايـة اللاعبين والمسؤولين .

كان شعيب قد قرأ الصحيفة من أولها إلى آخرهـا بإمعـان وتدبّـر ما فيهـا تـدبّـره لشـرح ميّـارة عـلى الـزقّـاق . كـان جـالسـاً جنب الـرواق المخصص للشخصيات والذي كان في هذه الساعة المبكـرة فارغـاً تقريبـاً . كان بجـانبه رجل يرتدي جلباباً فضفاضاً قاعداً على بطّانية عسكرية مطوية على أربـع وبين ساقيه سلّة قصبية يخرج منهـا مرّة سـاندويش بيض ومـرة زجاجة كوكـا ومرّة أخرى تفّاحة حمراء . . أحد هواة الكرة المدرّبين على خـداع الحرّاس ورجـال

الأمن . يأكل ويشرب ويتلذّذ ولا يلتفت إلى الطفل القابع جنبه .

سمع شعيب صوتاً آتياً من الصفوف الأمامية :

ـ قلت ذاك النهار عمر داود ما يعاود !

تبعت السؤال قهقهة طويلة :

ـ ولدالجن قابض عليّ الحساب . . اليوم غير البارح . . ما سمعت الراديو ؟

ـ تثق بالراديو ؟

ـ اليوم فراجة . . النهار حامي يا أخي !

وبغتة سُمع صفير حادّ . التفت الحاضرون يميناً وشمالاً فلم يروا سوى صاحب الحلويات ، بالجاكتة السوداء والقميص الأبيض والكرفات والتكّة السوداوين :

ـ لوز أسبانيا ! . لوز أسبانيا ! . طنجة اشبيلية برشلونة ألمرية .

صاح الرجل بالطاقية المبرقعة :

ـ بومبا أطوميكا !

فردّ الآخر رافعاً حاجبيه :

ـ طوروس ! . طوروس ! .

ومن بعيد لمح شعيب رجلاً عاري الرأس كثّ اللحية ، على كتفه سلهام أسود يخترق الدروج دون أن يعبأ بالجالسين ينظر قدامه ولا يكترث بمن حواليه . وراءه أطفال كثيرون يتصايحون . قطع الصف من أوله إلى آخره ثم قفز إلى الصف الذي يليه ليقوم بنفس العملية . وعندما وصل إلى وسط الصف الثاني توقف فجأة ثم رفع رأسه صارخاً :

ـ يحيى المغرب .

فصفّق الحاضرون بحرارة كما لو كانوا ينتظرون شيئاً لا قبل لهم به .

بدأت منذ دقائق عدة المقابلة بين فريقين من أبطال الجمارك دون ان ينتبه إليها أحد كما لو كان اللاعبون لا زالوا يقومون بحركات تسخينية ، حتى الحكم كان لا يصفّر الأخطاء . . كان الجميع ينتظرون المقابلة التي جاءوا من أجلها . كان الملعب قد امتلأ وتغيرت نبرة الأصوات . امتزج الصراخ

والصفير والكلام والغناء فتكوّن غلاف سمعي لا ينقر طبـل الأذن مثلما كانت تفعـل صيحات الأطفـال وهم يتسابقـون في الصفـوف الفـارغـة . وفي نفس الوقت تغير لون الأشياء كـأن الغلاف السمعي منـع أشعة الشمس من طـرق أرضية الملعب. لم يبلغ الظل حدود الميدان ، لكن لـون الخضير مـال من أصفر حجري إلى زيتي باهت . .

ـ أكحز، الله يخليك !

ـ ما كاين غير هذا المحل ؟

ـ واه . . هذا صاحبي !

التفت شعيب إلى اليمين فرأى المدعوين الرسميين . . الجـاكته والكرفات والقميص الأبيض والنظارات السميكة المذهبة . رنا اليهم واحداً واحداً . . بينهم تشابه في قسمات الوجه وتسريحة الشعر والجلسـة على المقعـد الخشبي . ألقى نظرة على عناوين الجريـدة وقد بـدأ يتغير لـونها من تأثـير أشعة الشمس وعرق اليد ثم رفع رأسه مصوباً نظره إلى زوجين في أحد الصفوف السفلية ، الشابة بجلبـاب عادي والشـاب بقميص أبيض فوقـه صدريـة مفتوحـة ، هو يكلمها وهي متجهة بعناد نحو الأشباح المتحركـة فوق الميـدان . يرى شعيب بوضوح حركة شفتي الشاب ، بل يستطيع أن يقرأ على شفتيـه ما يقـول . أما هي فلايلحظ منها إلا الأنف المستقيم والشعر المشدود بسفيفة سوداء . أشـاح عنها شعيب ثم عاد إليها وعادت به الذكرى إلى الأيام الغبراء .

ـ شوف يتعطل الكبار ، هذي المرة بحال الفايتة أو لا ؟

ـ هذا المرة ما كاين تأخير . . الوقت هو الوقت . . الأمور واجدة ! .

ـ المرة الأخرى ما بدوا حتى بعد الخامسة بحّ الناس وكانت قربلة . .

ـ كاين اللي هذا هو شغله . . إذا ما صاح ما يفرح

ـ اليوم رآهم ساكتين !

ـ ساكتين ؟ . ودنك ثقيلة يا أخي . . أو انت متعود عليه . .

انقطع تيار الذكريات لسبب غميس في أعماق النفس والتفت شعيب إلى صفّ المدعوين . اعترض بصره بصر أحد الجالسين فقام في الحين قائلاً :

ـ سي عمر ؟

بعد تردّد قصير جاء الردّ :
ـ ايواه ! . شعيب الصّباغ . . من البلد ياك ؟
اقترب شعيب متكئاً على الحائط الفاصل بين المنصّة الرسميّة ومقاعد العموم . شدّ بحرارة على اليد الممدودة نحوه قائلاً :
ـ نعم هو أنا . . أيام هذه ما تلاقينا !
لاحظ أن مخاطبه لم يحاول أن يقوم على ساقيه .
ـ ياك لا بأس ؟
أشار عمر إلى عكّاز يقبضه بيده اليسرى :
ـ الله يحفظك . . مكتوب ، زلقت داخل الدار بحال الدراري الصغار .
ـ العين يا سيدي ، العين حق !
ـ هذا شهر وأنا أتوكأ على العصى .
ـ والطبيب قال حاجة ؟
ـ كلمة واحدة . . عليك بالرياضة !
ـ كلام الجدّ .
وابتسم ابتسامة واسعة . سأله عمر :
ـ والآن أنت فين ؟
ـ في البليدة . . مدّة هذه . . رضى الوالدين . . وأنت ؟ دائماً في الرباط ، العمل هو العمل ؟
ـ لا . . غيّرنا . . ما يبقى الانسان في موضع واحد .
بعد صمت :
ـ كلامنا طويل . . إذا جيت للرباط زرنا لا بدّ .
دار الحوار على رؤوس الحاضرين . فهم شعيب أن عمر لا يستطيع أن يتحوّل من مقعده ولا أن يطيل الكلام . قال :
ـ نشوفك بلا عكاز قريباً أن شاء الله .
وعاد الى مقعده .

(8)

« . . حضر إلى الملعب الشرفي في هذا اليوم المشرق ثلاثون ألف متفرج

تقريباً . . عدد مهم رغم أن المنظمين كانوا يتوقعـون رقماً أعـلى . . لكن هذه بداية الربيع ، من الناس من خرج متنزهاً إلى شاطيء البحر ومنهم من انتهـز العطلة لزيارة عائلاتهم . حضر جميع المسؤولين عـلى قطاع كـرة القدم وحـجّ ايضاً إلى الملعب عدد لا يستهـان به من المـدعوين . . الحـراس واقفون عـلى جنبات الميدان صفوفاً متراصة . ولم يبق إلا دقائق معدودات ويخرج اللاعبون من مخابئهم . بجانبي الزميل العموري . . لا احتاج إلى تقـديمه فهـو مشهور كنـار على علم كـما يقال . « مـرحباً بـك ! » ـ « شكراً ايهـا الأخ الكـريم » ـ « مـاذا تنتظر من المقـابلة » ؟ ـ « اولاً جس نبض الفريق الـوطني لنعـرف اين وصـل مستواه ، وثـانياً إطلالة عـلى الكـرة العـالميـة ، لا ننسى ان عـدداً من اللاعبين في الفريق الزائر قد تدربوا في فرق أوروبية وبالتالي تعـرفوا عـلى فن الكرة كما ترتضيه اليوم جماهير البلدان المتقدمة » . ـ « هذا كلام المتخصص . الآن بصفتك أحد المتفرجين العاديين مـاذا تتمنى » ؟ ـ « ان تسجل إصـابات كثيرة ومتنوعة » ـ « الاصابات ضرورية في نظرك » ؟ ـ « يا سيدي مقـابلة بلا إصابة كـالخبز الفـطير » . . ألاحظ بعض الاضطراب في صفـوف الحراس ، حـان وقت خروج الـلاعبين . من يسبق إلى الميدان، الخضر أم الحمـر ؟ لن يـطول الانتـظار الآن . يـرى المراقبـون هنـا ان البـدايـة ستتسم بشيء من البـرودة ، حتى يتعـرف كـل فـريق عـلى الآخـر . بعـد ذلـك تبـدأ المقـابلة الحقيقية . وبلا شك سنشاهد أطواراً شيقة . هذا ما خطط له المسؤولون وما يتمناه المتفرجون . . عددهم كما قلنا يفوق ثلاثين ألفاً . . » .

(9)

كانت خميطة جالسة وراء آلتهـا الحاسبـة تدخن ومن حـين إلى حين تعـدّ شرائط نشيش اللحم وعناقيد البصل المتدلية من السقف المصبوغ بـالأحمر . . اللون الذي يبعد الذباب عن صالة الأكـل . . تتذكـر قول الأسبـاني العجوز وهـو يودّعهـا بعد أن بـاع لها المـطعم : « سنيورة عليـك بالنـظافة وإلا . . » كانت متضايقـة من صوت المـذياع المفتـوح في المطبـخ . همّت ان تدخـل إلى المـطبخ وتقفله بنفسهـا، خاصـة وان المطعم يـوشك ان يقفـل أبوابـه . . الآلة الجهنمية توتّر أعصابها وتمنعها من الإنصات إلى موسيقى هادئة رتيبة مسكنة .

لكن هيهات ! هيهات !. كانت تعرف أطوار مأمون العفريت . تعرف ان الوقت غير مناسب . أعصابه متوترة اكثر من أعصابها هي . . هي تقدر ان تدخن السجائر الانجليزية القوية المغلفة في ورق ذهبي ، أما هو فإنه مفطوم طول النهار . وعدها بذلك ، حلف بمولاي عبد السلام عندما طلب منها ان تشغله إثر خروجه من السجن . كانت تعلم منذ البداية انها مخاطرة ، لكنه أتاها بضامن وضامن وكثرت الوسائط . ماذا كان يمكنها ان تفعل ؟ كانت في حاجة ماسة إليه . أغلب الزبناء يأتون من أجله. يعرف المدينة داراً داراً . لا أحد يحسن مثله طبخ السمك على الطريقة البلنسية . يأتي الأسبان أنفسهم ليتذوقوا مطبوخاته ويقولون له:لا بد عندك حيلة يا ساحر ! اللوازم عندنا ومع ذلك ينقص شيء !. لا غنى عنه . إذا لعب الشيطان برأسه ، من يدري ؟ لا . . لا . . أطفأت خميطة سيجارتها لتشعل أخرى . . البار فارغ ، غائب خوان . . غائب ريكاردو . . غائب وليم . . هذه عادتهم أيام الأعياد . يقولون انهم يفضلون الخروج إلى البحر مع الصيادين . . والسبب الحقيقي ؟ ربما الرعب . . الرعب الذي يستولي عليهم من حين إلى حين كما لو كانوا وسط الربع الخالي ، بلا دليل . . رفعت خميطة عينيها إلى المائدة الوحيدة التي لم تكن فارغة . جلس إليها شاب طغت على وجهه لحية سوداء ، يلبس قميصاً قطنياً مخططاً بالأزرق والأحمر . تقابله امرأة ذات شعر أسود مسدول يكاد يصل إلى خصرها . . هل تحاول ان تستر سنها الحقيقي ؟ واضح انها أكبر منه سناً . حاولت خميطة منذ البداية ان لا تحدق فيهما أثناء تناولهما الطعام . . الآن قد انتهيا منذ فترة طويلة ، يرشفان القهوة ويطيلان الجلسة . هل يقصدان قلب البلد أم يقطعان البوغاز ؟ بداية مغامرة أم نهاية قصة ؟ مثل هؤلاء الأزواج لا يسعدون إلا في مدن الوحدة والظلام . أطفأت السيجارة ولما تدخنها كاملة ثم أشعلت لتوّها أخرى . رفعت يدها اليمنى المعروقة وحدقت في أصابعها المصفرة ، بدون حناء ، التي ترتعش نهاراً وتهدأ ليلاً . . يد جميلة ، رغم الرعشة ، أنيقة توافق اسم خميطة الحقيقي . . فعلاً يد بنت القاضي . .

وفجأة انفجر المطبخ : « ها هي !. طابت ! » - « لا . . نو !. نو !. »

التفت الشاب مستفهماً . فقالت خميطة : « الماتش » . ثم اردفت :

« اليوم الحالة هادئة نسبياً . . اما لو كان بين مدريد وبرشلونة لأنهار السقف على رؤ وسنا » .

قام الشابّ وتبعته رفيقته . أيقظتها صرخة مأمون الجنونية من سبات عميق وذكّرتها إلى الواجب . أدّى الشاب ثمن الحساب وهو يبتسم . ثم قبض على ذراع رفيقته وتوجّه الأثنان نحو الباب بجدّ ورصانة .تبعتهما طنجة ، ببصرها وهي تتساءل : يذكرني بشخص عرفته . أين ؟ ليس هنا في طبخة ، ليس من الأجانب . أيام باريس ؟ كاتب ؟ طالب ؟ مغربي بلا شك . . إيه ! دنيا الأشواق .

. . وعلى الشاطيء أخاطب الريح في انتظار عاشق غائب .

(10)

ـ جاءت المبادرة من الفريق الزائر . تركّز اللعب عندهم منذ البداية على الجناح الأيمن ، لكن بدون فائدة . ثم انقلب الى اليسار فانفلت البجاوي رقم ٩ . راوغ مرتين ثم قذف قذفة قوية . . كانت إصابة محقّقة لولا العارضة . . انتهى الشوط الأول بدون تسجيل .كانت المقابلة عبارة عن مناوشات وسط الميدان باستثناء المحاولة المذكورة. اما اللاعبون الحمر فإنهم اكتفوا بردّ الهجومات لاجئين إلى تمريرات طويلة منسّقة لكنها مملّة . . فريق دبّابات مقابل فريق فرسان . كلما أخذ الخضر الكرة احتفظوا بها وتقدموا ببطء عبر تمريرات هوائية بين الجناحين وأحياناً إلى خط الوسط . إذا انفلتت منهم الكرة وسط الميدان التفّوا حولها وانتزعوها من الخصوم ثم رجعوا إلى نفس التاكتيك بدون نتيجة . .

(11)

انتصب عمر متكئاً على عكازه وقصد الجهة التي كان يجلس فيها شعيب . لمحه هذا الأخير فقام بدوره واقترب من الحائط القصير الذي يفصله عن الرواق الرسمي . قال عمر :

ـ ما ظهر لي اللعب يتغير !

ـ لا مـا ظنيت . النغمة مـا تساوت . . لـو تفاهمـوا من البدايـة لكـانت المقابلة عجيبة .

ـ ومتى تجي للرباط ؟

ـ قريب ان شاء الله . عندي مشروع لازم أعرضه عليك .

ابتسم عمر ولم يعلّق . فاستطرد شعيب :

ـ مشروع رياضي . فكّرت فيه وأنا في طريقي إلى هنـا من الصديقيـة . وها أنت جابك الله . لا بد ينجح .

ـ غـير تلحق الربـاط كلّمني . النمرة في الكنـاش . أنا متقـاعـد الآن . عندنا كلام وكلام .

ودّعه عمر بحرارة وغير متـوقعة واختـرق جماعـات الرسميـين متكئاً عـلى عكازه . التفت شعيب الى المتفرجين حوله . كانوا في بدايـة المقابلة يصفّقـون بعنف ويهتفون لكل مراوغة ثم بعد ربع ساعة خف الحماس . فسكنوا كبـاراً وصغاراً وبدوا كأنهم في مسجد ينصتـون إلى كلام محـدث . كان شعيب يعلم من تجاربه ان المقابلات تنتهي كما تبدأ . هذه المقابلة ، حتى ولو غيروا نصف لاعبيها ، ستنتهي لا محالة بحصة بيضاء . ستستمر الكرة تتنقل وسط الميدان من رجـل إلى رجل ، أرضيـة أو هوائيـة ، دون ان تقترب من المـرمى إلا في فلتات قليلة . . تغمس خلالها في خطوط الخصم الدفاعيـة . . لا أحد يـريد أن يأخذ المبادرة . . دورة تدريبية . . ماذا يكون رد فعل المتفرجين ؟ على من يحتجون ؟ على الضيوف ام على المنظمين ؟

ـ اليوم الرماني ضد زحيليكه . . ياك ؟

ـ امل بوجنيبة ضد نادي بونقيبة . . اعطونا على حالنا .

ـ حتى الجـرى ما قـدروا عليه . . مـرة مـرة يتملمـل واحـد منهم بحـال الدكاكة . . خافوا الدم يسخن !

ـ والله هم اللي تفرجوا علينا .

ـ كل يوم برزقه . هذا ما كان .

ـ ظلم هـذا ظلم . . الفلوس والـزحـام وحـرقـة الـراس . . أصحــاب الطنجية هم اللي عملوا مزية في روحهم .

ـ واسمع تعلم تسمع الراديو !. مقابلة كبرى ، عجيبة . قلنا : والسلام ، نجرب مرة ثانية ، لكن بحال الفايتة زيّن حتى تعيى ، البايرة بايرة .

ـ بالأسف نسيت العدة !.

كانت التعاليق تطرق سمع شعيب من كل جانب وهو يتفحص الفتاة بأنفها المستقيم والسفيفة السوداء . تبتسم الآن لما يُسرّه لها رفيقها في أذنها . لم يتزوجها بعد . . هذا مؤكد . . يذوقان ألذّ أيام الحياة حتى ولو كانا لا يعلمان ذلك . . نبض القلب . . دبيب الحياة في العروق والشرايين . . السرّ الذي ينكشف مرة في حياة كل فرد . . يهفو اليها . . يخاطبها . . ينتظر منها الجواب . .

وبغتة اعتدت على اذان الحاضرين صرخة حادة جاءت من كل الجهات :

« المدد المدد يا مولاي ابراهيم » !

(12)

ـ الأخ العموري ؟.

ـ لا بد ان نقول بصراحة أن الجمهور لم يكن مرتاحاً . استمع إلى نصائح المنظمين، لم يعبر عن سخطه بكيفية صاخبة كما يفعل أثناء مقابلات البطولة ، لكن لم تظهر عليه علامات الفرحة والانشراح . لاحظنا جميعاً أن قسماً كبيراً غادر الملعب قبل النهاية وان الدقائق الأخيرة مرت في جو واضح من اللامبالاة. علي أي حال هذا هذا هو انطباعي . .

ـ الأخ الحداوي ؟.

ـ شخصياً لا أشاطر الأخ في حكمه القاسي . استمتعت بالمقابلة . كانت مخالفة لما تعوّدنا عليه . هدوء ، برودة أعصاب ، استعداد ، دقة في التنفيذ ، هذه خصال غائبة عند كثير من لاعبينا . كون المقابلة انتهت بلا إصابة ، هذا شيء غير مهمّ خاصة في تظاهرة حبية . أعترف ان الجمهور لم يقتنع وأنه خرج ساخطاً . في مناسبات مقبلة ، إذا لم يأت إلا عدد قليل من المتفرجين ، ستتضاعف مشاكل العصبة . .

ـ أستاذ ، استمعت إلى رأيين مختلفين في هذه التجربة ، ولا شك أن انتقادات أخرى ستوجه للعصبة في الأيام المقبلة ، فما هو الجواب ؟

ـ أولاً اشكركم على دعوتكم الكريمة وعلى هذه الفرصة المتاحة لي لمخاطبة الجمهور الكبير الذي يستمع إلينا الآن . . أحب أن أركز على نقطة قد ينساها أو يتناساها الكثيرون . تجربة هذه السنة لم تأت عفوياً ، بل جاءت نتيجة تجارب سبقتها وانتقدت في وقتها وفي هذا المنبر بالذات . نظمنا منذ سنوات مقابلات أعرض عنها الجمهور لأنها كانت بمثابة بطولة من درجة ثانية . بعد ذلك أستدعيا فرقاً من الخارج فكان الفرق في المستوى واضحاً ، مما ترك آثاراً سلبية لدى المتفرجين واللاعبين والمنظّمين . هنا قلنا نجرب مقابلات من نوع آخر ، وذلك ليرى الجمهور أنواعاً من اللعب ، ويحكم على كل مقابلة بتجرد ودون تحييز أعمى . فمقابلة اليوم داخلة في هذا الاطار . كل فريق كانت له طريقة خاصة ، أحد الفريقين متعود على الدفاع ، والفريق الآخر على الهجوم المستمر ، حصل تكافؤ سلبي ، لم يستطع هؤلاء ولا أولئك ان يأخذوا المبادرة . . وهذا يحصل حتى في مقابلات كأس العالم واشتكى منه المعلقون . لكن ، من الناحية التقنية كان اللعب في غاية الاتقان كما قال الأخ الحداوي ، التمريرات كانت غاية في الدقة ، قليلاً ما كانت الكرة تضيع من اللاعب . . لكي ينزع أحد الفريقين المبادرة من الآخر كان لا بد من حركة جماعية مدروسة . .

ـ الأخ العموري يريد ان يتدخل .

ـ أحب أن أعرف ، لمن يوجه هذا الكلام ؟ للمتفرج العادي أم للمدرب المتخصص ؟ لم نأت هنا لنشاهد استعراضاً لآخر تقنيات اللعب .

ـ المتفرج العادي له دور مهم . كل مقابلة هي بمثابة امتحان امام الجمهور . إذا أحس اللاعب ان الحاضرين يتجاوبون مع حركاته فإنه يتشجع ويحاول ان يظهر فوق طاقته . اما إذا كان التصفيق فقط حينما يراوغ ويقصد المرمى فإنه يحاول أن يستقل بالكرة ولا يلتفت إلى زملائه .

ـ هذه نقطة مهمة بصرف النظر عن مقابلة اليوم . الجمهور العارف هو الذي يتابع كل أطوار المقابلة ، من الأول إلى الآخر ، ويعيش كل لحظة من

لحظاتها . وعندما تسجل الإصابة يكون قد اتبع ولادتها ، مدركاً ان المسؤول عنها هو الفريق كله وليس اللاعب الذي وجد في اللحظة الأخيرة أمام المرمى . هذا أسميه الجمهور اليقظ الواعي ، أما الجمهور النائم الغائب ، الذي لا يستيقظ وينفجر إلا عندما تستقر الكرة في الشبكة فهذا في نظري جمهور أعمى ، يحضر ولا يرى اللعب .

ـ كلام جميل ، لكن الجمهور هو الجمهور . يجب ان نتعامل معه كما هو الآن . الا يمكن إيجاد حل وسط ، يعني ان ننظم مقابلات بين فرق متساوية ، تعرف الواحدة الأخرى ، أي ان تكون إحدى الفرقتين عازمة على أخذ الثار من الأخرى ، حتى تكون في المقابلة حيوية . أما ما شاهدناه اليوم ، فليس مقابلة أو مبارزة ، بل لقاء بين سكان الأرض وسكان المريخ . يعرف اللاعبون قواعد اللعب ، هذا هو الشيء الوحيد المتفق عليه . لم يقع تفاهم بين الفريقين ولا تجاوب مع الجمهور . . الكرة رياضة وفرجة . . هذا يوم عيد ، جاء الناس للاستمتاع ، وماذا شاهدوا ؟ حلقة تدريبية . لا أحد يقبل أن يعطي فلوسه ليرى تدريبات !

ـ في تدخل الأخ العموري ، المعروف بآرائه المتطرفة ، اقتراح وجيه وهو اختيار فرق متقاربة في مستواها ، ما رأيك يا استاذ ؟

ـ فعلاً ، هذا اقتراح يستحق الدرس . غير أن الإختيار ليس بأيدينا . نبعث الدعوات وننتظر . .

ـ ليس هناك برنامج ؟

ـ البرنامج موجود ، لكن الظروف . .

(13)

تجمع بعض الشبان أسفل المدرجات وطفقوا يصيحون : « غشاشين والله غشاشين » ! على نغمة : عبّاها . . عبّاها. لكن بدون كبير حماس . لم يكن الجو جو غضب ثائر . ماتت المظاهرة في مهدها . قتلها العدد الوافر من جنود التدخل السريع . فتفرق المتفرجون بسلام . خرج شعيب من الملعب بين صفين متراصّين من الشرطيين والحراس المستعدين لكل الاحتمالات . قصد بيت أغرام الموجود في بداية حي المعاريف الجديد ، زنقة الامام الترميذي .

كانت العمارة في أمس الحاجة إلى التبييض . . واضح أن البواب ، إن كان هناك بواب ، لا يقوم بواجبه . . زجاجة الباب الخارجي مكسرة . . صناديق بريد النزلاء من صفائح المعدن ومع ذلك منثورة كما لو كانت من الكارتون . . عمل شياطين الإنس . . البز والفار لا توريه باب الدار . طلع إلى الطابق الثاني . طرق الباب رقم 6 أولاً وثانياً . فتحت له الباب خادم شابة . قالت مقطّبة معنفة :

ـ على من تفتش ؟

ـ هذه سكنى سي اغرام ؟ انا شعيب الصباغ من الصديقية .

فانتفحت ملامح وجهها وقالت :

ـ مرحباً . . وصاني سيدي . . ادخل . . ها هو راجع .

قادته الى غرفة ضيقة ، يعرف تقريباً كل ما فيها من أثاث . . الجديد فيها تكاثر عدد الصور الملصقة على الحائط . كان أغرام يطلب من زبناء البريد الذين يسافرون إلى الخارج ان يرسلوا إليه صوراً تذكارية وكانوا في معظمهم يلبون الطلب . . كل بلاد الحوض المتوسط وجل بلاد أميركا وأوروبا ممثلة على حائط غرفة الاستقبال . .

تخيّل شعيب أحمد أغرام في حانوته أمام مكتب البريد . فاز بالشهادة ولم يجد وظيفاً مع الحكومة . كانت الأزمة ، الكريز بتعبير الشاوي ولد الزنى . أكرز الحزام ما كاين طعام . كانت المجاعة . طلع الناس من سوس والحوز عام الجراد ، عام رجع الموظفون المسرحون إلى البليدة ، عام نشطت تجارة بنحاس وصناعة الشيخات . من اين كانوا يحصلون على المال وهم بلا عمل ؟ في ذلك العام اكترى أغرام الحانوت واشترى آلة كاتبة قديمة وصار يحرر الرسائل لعائلات المجنّدين طيلة أيام الحرب . لما سمع بوصول الأميركان قرّر أن يتعلّم الانجليزية في الكتب . بعد الحرب وظف في مصلحة البريد في البيضاء وعاد لا يراسل معارفه إلا بلغة تشرتشل . لا يصل أحدٌ من سكان الصديقية إلى البيضاء ، في أي حي كان ، إلا ويصادف أغرام فسمي سيدي ريشة ، إسم الولي الذي كان يقال عنه إنه يوجد في نفس الوقت بجانب بئر زمزم وفي خلوته قرب ضريح الشيخ السارية ، بحساب المنجمين

وشهادة العدول . سيدي ريشه اليوم معنا وغداً يصبح في العمرة ، كذلك سي حميدة أينما كنت ناده يحضر . على م تجري يا حميدة ؟ على الأخوان أؤلف قلوبهم وأؤسس جمعية تجمع شمل كل من له صلة بالمدينة العتيقة . .

ـ نوّرت الدار يا فقيه . تأخرت ؟

ـ لا بأس . كنت أسمع لعظامي .

ـ والمقابلة كيف كانت ؟

ـ باردة ثلج .

ـ بسبب الحر ؟

ـ هذه سبّة ما فكّر فيها رؤ وساء العصبة .

نزع أغرام الجاكتة ووضعها بعناية فوق الصداري ثم جلس يقابل شعيباً . بعد قليل دخلت الخادم تحمل صينية الشاي . وضعتها أمام حميدة ثم خرجت لتأتي بمائدة صغيرة فوقها صحن مملوء بالبسكويت .

سأل شعيب :

ـ الوالدة ما زالت ساكنة معك ؟

ـ برضاها عائشين . هذي عشرين سنة وانا معها عمري ما فارقتها . قل لي وأخبار الصديقية ؟

ـ من فمك يا سي أغرام . كاين صدّيقي يجي للبيضاء وما تلقاه ؟ كأنك ساكن في كل الحوم ! غرغر أغرام مغتبطاً :

ـ رضى الوالدين . صلة الرحم واجبة . حق أو لا ؟ أفتش على أولاد البلد أينما كانوا ، واحد يجرّ الآخر .

ملأ أغرام ثلث الكأس بالشاي وناوله لشعيب ثم قدّم له البسكويت وبعد قليل سأل :

ـ آش جالس تعمل في البليدة ؟ كان سكنت البيضاء أو مدينة كبيرة أخرى كان أحسن لك .

ـ حالي هو حالك يا سي حميدة . عندي طفل والوالدة هي القائمة به . وفوق هذا عييت من الخدمة .

ـ والمادّة ؟

ضحك شعيب :

ـ المادّة ما خلتك تنام ياك ؟

ـ المادّة هي العدّة . اللي ما عنده فلوس كلامه مسوّس أو لا ؟

ـ حق . ندبّر والله في عون الجميع .

ـ أحّ عليك لقيت كنز سيدنا سليمان . تعلّمت تعزّم . أنا سمعت أنه كان معك في السجن فقيه من الساقية الحمراء علّمك تبرقم مع شمها روج .

ـ يا أخي حميدة ما بقي اليوم تعزيم . الكائن هو بركة الوالدين . ونتابع الإدارة حتى يحنّ الله .

ـ وكيف خرجت ؟

ـ كلام طويل . الحاصل ان ماعين شافت ما قلب وجع . عندنا في الصديقية البحر والواد ومع ذلك ما نعرف نعوم. الأحسن نخلّي الأمر لمواليه .

ـ عندك الحق . لكن ما تنسى نصيبك من الدنيا . اشرب ما تخلّى الكاس يبرد .

ملأ أغرام كاساًبالشاي الفائر وقدمه لشعيب مع صحن البسكويت وألح عليه ان يتناول قطعتين مختلفتين من الحلوى ثم أتمّ سلسلة الأسئلة :

ـ وامراتك ، ما زال الاتصال معها ؟

ـ لا

ـ تقطّع الحبل مرة واحدة !

« أمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » . . . اللي فات مات والله يسامح . . عملت في مزية كبيرة ، خلت لي الولّيد .

ـ كانت مغربية ياك ؟

ـ زيادة وتربية . أبوها كان من الحدادة . كان ترجمان بلدية مراكش ومات أيام الحرب وهي ما زالت طفلة . لما وصلت أنا لمراكش كان اسمه ما زال يجري على لسان الناس . سمعت انه كان ياكل بالشوكة والسكين ويشرب النبيذ . صح ؟ دعاية ؟ الله يعلم . هي عمرها ما تكلمت على عائلتها من جهة الأب . كانت سكّوتية .

ـ الله يهدي خلقه .

دخلت الخادم وهمّت أن تأخذ الصينية . فردّها أغرام بحركة من يده اليمنى . قال شعيب :

ـ والانجليزية ؟

ظهرت على أغرام علامات الانشراح . ابتسم ابتسامة عريضة وهو يجيب :

ـ إفري مورنينغ أي ريد تو بيجز فروم ذي تشرتشل وور سبيتشز .

ـ يعني ؟

ـ أتعلم من أكبر خطيب . . عقلت على الخطبة لما تم الانتصار للحلفاء وسحقوا ألمانيا ؟

ـ عاقل . . خرجت من البنيقة جنب البوسطة وفي يدك الجريدة متوسطها عنوان ضخم بالأحمر ، فيه كلمة كابيتولاسيون ، درت على تلاميذ المدارس ، حتى اللي كانوا في قسم الشهادة ، ولا واحد عرف الكلمة . منهم من قال : يعني هدم برلين حجرة حجرة ، ومنهم من قال : يعني توزيع المانيا .

ـ أكتب رسائل وأوجهها لأولاد البلد في المناسبات ، أحررها بلغة تشرتشل .

ـ ويردّوا عليك ؟

ـ لا ، ما يهم . أكتب للتحية وصلة الرحم . تعرف يا سي شعيب ، ما تتصور عدد الكتب المكتوبة على الصديقية بالانجليزية . الآن أحاول آخذ نسخ منها . مشيت للرباط واتصلت بأولاد البلد وكلهم استقبلوني كما يجب . .

ـ مشيت لغرض ؟

ـ ايواه . . مدير المدرسة ، اللي كان قبل مديرنا ، كتب على الصديقية . وصف جميع ما فيها حي أو جماد . والكتاب مطبوع على الماكينة في خزانة الرباط . مشيت على قبله وطلبته . قالوا ما يخرج إلا بإذن . ما انت استاذ ، ما انت طالب ، ما حاجتك به ؟ طرقت أولاد البلاد ، علّ وعسى يقدر واحد منهم ينفع مع المحافظ . . لكن من ذاك التاريخ ما رجعت للرباط .

ـ والكتاب آ ش فيه ؟
ـ أخبار مفصّلة حومة حومة .
ـ حتى أخبار جالوت ؟
ـ هذي لا ، المدير كافر !
فكر شعيب هنيهة ثم قال :
ـ وأولاد البلد ، أساميهم مكتوبة عندك ، أو حافظها في رأسك يا سي حميدة ؟
حدّق فيه أغرام مزهواً كأنه نجح في مباراة صعبة ثم أجاب :
ـ قم وتحقق بنفسك .

(14)

عاد أغرام وشعيب إلى الصالة فوجدا المائدة مهيأة للعشاء . جلس الأثنان وجاءت الخادم بالطست والابريق . قال شعيب وهو يغسل يديه :
ـ قمت اليوم ، توضيت ، صليت ، ركبت الحافلة ، سمعت الاذاعة وأقوال الناس في الملعب وتعليق رئيس العصبة ، فتكونت في ذهني فكرة وهي تأسيس فرقة في الصديقية .
تعجب أغرام :
ـ والفرقة الموجودة اللي أسستها أنت ودرّبتها ؟
ـ هذه فرقة من نوع جديد . كنت حتى الآن أجي مرة مرة وكان اللاعب يحضر على خاطره . القضية الآن جدّ والرياضة صنعة ، يلزم نتفرغ لها بالكل .
ـ ومن ينفق عليها ؟
ـ المادة ، ايه ؟
ـ ايواه ، المادة يا سيدي !
ـ هنا تنفع القائمة المضبوطة اللي شفناها الآن . نعرض الفكرة على أولاد البلد .. هذه أحسن وسيلة لجمع الشمل . . تأسيس جمعية لإحياء الرياضة بالصديقية . ما رأيك يا حميدة ؟
أطرق أغرام كأنه أمام عرض خطير يتطلب إعمال الفكر للكشف عن

كل خلفياته ونتائجه البعيدة . بعد حين رفع رأسه وتفرس في وجه شعيب ثم قال بلهجة صارمة :

ـ فكرة ممتازة . أنا كنت أعرض على الناس تأسيس جميعة ثقافية فكانوا مترددين . جمعية رياضية . . لا أحد يقول لا .

ـ المشكلة هي مشكلة اللعّابة .

ـ وأعضاء الفرقة الحالية ؟

ـ كبروا وشرفوا ، جلهم أصحاب تقصيرة . هذا شغل ما ينفع فيه غير الشاب المستعد للتضحيات . نبحث عليه داخل وخارج الصديقية .

ـ عندي فكرة ، كنت خازنها لوقت الانتخابات . ننظم حفلة ونستدعي أولاد البلد . لهذا كنت هيّأت القائمة في الأصل .

ـ و . . نقول لهم السبب ؟

ـ لا بد ، لا بد . نفسر لهم كل شيء . نقول ان الغرض هو مشاركة جميع أبناء البليدة في تأسيس الجميعة . والحفلة لازم تكون هنا في البيضاء ليحضر الجميع .

ـ من يرسل الدعوة ؟

ـ أكتبها أنا .

ـ بالانجليزية ، ايه ؟

رفع أغرام يده معلناً رفضه البات :

ـ لا . . هذي قضية ما يصلح لها إلا عمّي الحاج ، تشرتشل ما ينفع .

ثم بعد صمت :

ـ والله صدفة عجيبة . انا أبحث على كيف نجمع أولاد البليدة ، وأنت لقيت الوسيلة . . قدرة ربّانية . تعمر يا فقيه تعمر . . هذا يوم ضاوي ، يوم جمع الجمع .

الاثنين 4/13

II

لما بنى الناس في دنياك دورهم
بنيت في دارك الغراء دنياها

البريدي

(15)

انتظر الناس المطر مدة شهرين . وعمّ القلق البلاد من الشرق الى الغرب بعد أن انتشرت الأخبار عن حرائق في الأحياء الشعبية . . ثم مع حلول عيد الأضحى تغير الجو وبدأت الأمطار تتساقط ، أولاً في المنطقة الشرقية ثم في الغرب شمال الدار البيضاء : فظهرت الابتسامات من جديد على وجوه الفلاحين .

كان شعيب في طريقه إلى الرباط ، في إحداى حافلات الخطوط الوطنية ، جالساً إزاء شاب يطالع كتاباً بالفرنسية . ينظر إلى المطر يتساقط على الحقول المخضرّة ، وإلى الغيوم المتراكمة جهة البحر. منظر مخالف لما تعود عليه في الجنوب ، ستائر كثيرة تفصل بين الحقول ، لا ستائر من الحجر الكلسي المطلي بالصلصال ، بل من الصنوبر والقصب ، تمتدّ على مدى البصر إلى ان تحادي في الأفق زرقة المحيط . . هذا باب المغرب الآخر .

افتكر : الأستاذ الكبير ، الموظف السامي ، زهرة الجيل ، مفخرة الصديقية . . تتبعنا أخبار نجاحاتك المتوالية ، وصفقنا لانتصاراتك المتوالية ، أمجادك هي أمجادنا . . ونحن على يقين انك لن تنسى وطن آبائك وأجدادك ، الهواء الذي ملأ صدرك الكريم وماء النهر الذي ذاقه لسانك . . شاءت الأقدار ان تغادرنا في سن مبكر ، لكن الأصل هو الأصل ، الدار بالأساس والزهرة بالبذرة . .

. . يا بالغ ذروة المجد ومتسنّم قمم العلياء ، يا فارس السياسة وبطل المراوغة ، لا تنسى الأرض التي ترعرعت فوقها ، أرض الأبطال والشهداء ، الأرض المباركة ، تربة الولي الصالح الذي زيّن أعمالك وأقوالك في أعين رؤسائك ، الذي ألهمك في كل لحظة ووقاك من كل ورطة ، الذي قرّب منك الأصدقاء وأبعد عنك الأعداء . لولا رعايته الدائمة لك لما سبقت

أقرانك وأندادك ولما تحققت أشواقك وأمانيك . .

فصاحة تشرتشل . . روى أغرام عن بعض الصحفيين انه سأل تشرتشل عن سرّ فصاحته فأجابه : كنت أدرس لغتي القومية حين كان زملائي يتعلمون رطانة الأجانب . أنظر ، لسنا وحدنا مفتونين بلغتنا . .

ـ . . فصاحة تشرتشل ما تنفع لازم فصاحة عمّي الحاج . كيف كانت ؟ كان يرعد ويزبد يصرخ ويبصق حتى أن المذياع كان يهتزّ من شدّة الوقع . هكذا قيل . فصاحة الحجّاج يا أهل العراق والنفاق . بلاغة يوسف ما يكون تره . بلاغة الصمت أو العي . بلاغة ابن العميد . قال الصاحب بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد هو صدر المشرق وتاريخ المجد وغرّة الزمان وينبوع العدل والإحسان نادرة عطارد في البلاغة وواسطة عقد الدهر في السماحة مشرعاً لروائع الكلام وبدائع الأفهام وثمار الخواطر مجمعاً لصوب العقول وذوب العلوم ودرر القرائح . .

من مبلغ الأعراب أني بعدهم شاهدت رسطاليس والاسكندرا

ـ آش قلت ؟

التفت شعيب إلى الطالب الجالس بجنبه وفهم أنه نطق وفاه بنجواه . فتبسم :

ـ لا شيء . أسمح لي أزعجتك . ماذا تقرأ ؟

ـ كتاب اقتصاد .

ـ نحن تعلمنا الاقتصاد في الاعتقاد . ما أظن أن هذا موضوع كتابك .

ـ موضوعنا علم الخيرات ، انتاج وتوزيع الخيرات .

ـ يعني أن الإنسان يعلم الآن كيف توزّع الأرزاق .

ـ ما فهمت .

ـ لا عليك . هذه أمور مستعصية علي . الله يعاونك .

أشاح شعيب بوجهه نحو النافذة وراح يعد الأشجار على حافة الطريق . أطلقت الحافلة صفيراً حاداً ثم لوت على اليمين ودخلت زقاقاً ضيقاً يوجد فيه باب المحطة . توقفت دقيقة حتى يرفع الحارس الحاجز الحديدي ثم

تسلّلت عبر منفذ ضيق . رست على اليسار تاركة الجانب الأيمن للحافلات التي تتوقف قليلاً في الرباط قبل أن تتابع رحلتها نحو الشمال . أقفل الطالب كتابه ووضعه داخل محفظته .

ثم قام ملتفتاً نحو شعيب دون ان يودعه توديعاً صريحاً . تأنّى شعيب إلى ان فرغت الحافلة ثم نزل ولوى مسرعاً نحو المنفذ الضيق قبل ان يوضع الحاجز الحديدي من جديد . كان المطر قد خفّ ، لكن الأوحال ملأت الطرق والأرصفة ، . رأى الناس يتسابقون إلى التاكسيات فقرر ان ينتظر في مقهى المحطة وأن يكلم عمر في الهاتف فيما بعد .

كان في الصديقية أستاذ من أوائل الأساتذة المؤهّلين ، ولد في الجنوب وتربّى في الرباط . قرأ عليه جل أبناء المدينة العتيقة الذين نجحوا في الحياة ووظفوا في كبريات مدن المغرب . قام بعمله أحسن قيام لكنه كان يرى نفسه منفياً عن الحياة الحقيقية ، كما عرفها وهو طالب . أخيراً نقل إلى الرباط . عندما وطأتها رجلاه قال : هنا سيكون مثواي الأخير . . هكذا تؤثر الأحلام في عقول الشبان ! لكن بعد مدة قصيرة إكشتف أن حياته في العاصمة لا تختلف عن حياته في الصديقية . كان يسكن في الحي القديم مع أمه وزوجته ، يصافح كل صباح نفس الأشخاص . فلم يلبث ان سئم وجوه الرباط كما سئم وجوه الصديقية، وظن ان الدواء هو الانتقال إلى المدينة الكبرى . هناك إضطر إلى ان يبتاع دراجة ليتنقل في شوارعها الفسيحة . ويوماً من الأيام كان راكباً على دراجته منحازاً إلى اليمين . فجاءت شاحنة ضخمة ، غير عابئة بالرجالة وبأصحاب الدراجات والسيارات الصغيرة . سمع البوق يأمره أن يميل أكثر الى اليمين ففعل ، لكن الحافلة لم تمهله ، مسّت العجلة الخلفية فقد التوازن وسقط فوق الرصيف . سقط ولم يتحرك . إلتفّ حوله المارة ، حضرت الشرطة ، جاءت سيارة الإسعاف . . وفي المستشفى إكتشف الأطباء ان الأستاذ المحنك ، الذي كان يهوى الحياة في العواصم ، أصيب بنزيف في مخّه . . كان مؤدباً ، دمث الأخلاق ، سهل الانقياد ، راعياً لحقوق الخالق والمخلوقين . .

لم يتتلمذ شعيب عليه ورغم ذلك عندما جلس في مقهى المحطة مقابل

سور المدينة القديمة تذكّره وقصّ على نفسه قصته المأسوية . في وقته كان الناس يقولون رباط الفتح أنظف مدينة في المغرب كله . جميع ما فيها خلّاب لولا انقباض أهلها . فيجيب المجيب أعذرهم ضاعت منهم مدينتهم ، ملأها الأفاقيون وتركوهم غامسين في فقرهم ، ترفّعهم عبارة عن خيبة أمل . الناس يتتابعون ولا أحد فيهم من أهل البلد . البلديون يلبسون الجلباب الأبيض والطربوش والقميص بالكرفات ، لا يخرجون إلا بعد العصر ليتفسّحوا تحت الأقواس . عادة ورثوها من غابر العصور . أما هؤلاء فلباسهم جلباب صوف الدرعي يتسكّعون في الشوارع في كل وقت بلا قانون . .

قال الصوت في السمّاعة :

ـ هذي دار سي الغربي . . خارج . . عند الطبيب . . لكن وصّانا قال وقت ما كلّم الفقيه قولوا له ياخذ تاكسي ويجي في الحين .

(16)

قالت الكاتبة معتذرة :

ـ مسيو غربي صباح الخير كيف تطورت الأمور ؟

رفع عمر العكّاز وخطا خطوتين قائلاً :

ـ أنظري .

ـ طيب طيب ، تفضل أجلس . آمل أن لا يطول الانتظار . جاءتنا اليوم حالات فظيعة . شاحنة اصطدمت بصاري كهرباء عند مدخل تيفلت على الخامسة صباحاً .

ـ لا بد أن يكون المطر هو السبب .

ـ ممكن .

رنّ الجرس فابتسمت الكاتبة وابتعدت قاصدة الباب الخارجي . جلس عمر وألقى نظرة على رزمة المجلّات الصقيلة الملوّنة. أخذ واحدة منها وراح يتصفّحها فاحصاً الصور غير عابيء بالتعاليق . .

غوتشي الشريعة رقم 5 الجلد الممتاز والأشكال الفريدة . منذ أن انتظم عمر في سلك الإدارة متنقلاً من وزارة إلى أخرى ، تابعاً أصدقاءه وشركاءه

وهو مفتون بـالذوق الايـطالي . كان منـذ الصغر يميـل إلى البدانـة ولم يستطع أبداً ، رغم الأكل المختار والرياضة المنتـظمة ، ان يتخفّف من أرطـال اللحم والشحم الـزائدة . فكـان التفصيل الايـطالي يظهـره ممشوق القـامـة . نهض واستقـام أمام المـرآة الملصقة عـلى الحائط . أزال النـظارات المدخنـة وأبـدلها بـأخرى تصلح للنـظر من القرب وفحص وجهـه . عندمـا كـان يقـوم بعمله الشـاق المتواصـل كانت بشـرته تكـاد أن تكـون سمـراء ، لا كبشـرة السمـر الطبيعيين بل كبشرة من يحمّل أعصابه وقلبه وكبـده فوق المستـطاع . ثم أثناء السنة الماضية تحسّنت حالته وعادت إلى سـابق عهدهـا قبل أن يُتخـذ في حقه القرار الذي أبعده عن منصبه وحـاد به عن طـريق الضلال . إذا رأيت عمـر من بعيـد دون أن تحـدق في قسمـات وجهه ، إذا لمحت شعـره المسرح الـذي وخطه الشيب وحاجبيه المخفّفين وشاربه المقصـوص بدا لـك رجلاً أنيقـاً غنياً سليماً سعيداً يُحسد ولا يحسد .

عاد إلى مقعده إلى حقائب غوتشي .
صورة امرأة تشبه غاربو تستقلّ عربة خيلية .
تذكّر .

أول مرة هبط إلى ايطاليا قادماً من سويسـرا . إستقبله في محطة فلورنسـا الشيـخ ربّ نعمته الـذي فتح لـه أبواب النجـاح وأطلعه عـلى فـوائـد الـزي الايـطالي . قـال لـه لم تحتفظ المـوضـة الانجليـزيـة بتفـوقهـا إلا فيـما يتعلق بالمعاطف . قاده عند كبار مصممي الأزياء وعلّمـه كيف يزاوج بـين القميص والكـرفات والجـورب ، الشيء الوحيـد الذي فـاتـه هـو أن يحبّب إليـه لعبـة الغـولف . عند التفكـير كان عليـه أن يجتهد ويتعلم تلك اللعبـة التي تسهّـل الاتصالات . بين الضـربة والضـربة تشيّـد شركـات وتفسخ إتحـادات . قال الشيخ الأستاذ لنترك الماكينة هنا ولنأخذ عربة ، فلونسا مدينـة يجب أن يتفرج عليها المرء إمـا ماشيـاً على الأقـدام وإما مستقـلاً كرويلة . منـذ أن كان وهـو أعزب حتى انتقم منه القدر .

ترافقه صحفية ايطالية أنفها منقاد وعيناها سـوداوان مكـحّلتـان ، ترتـدي معـطفاً كـالسلهام وعـلى رأسها قبعـة سوداء تغـطي نصف وجهها . يحـاورها

الشيخ الأستاذ كأنه ولـد في المدينـة ولم يغادرهـا أبداً . تعـارضه من حـين إلى حين انا من روما هذه عـادات غريبـة عني . وهو لا ينفـكّ يوضّـح لها وجـوه الاختلاف بين أهل توسكانيا وسكان روما مستشهداً بأقوال صديقه العُمدة لا بيـرة وحميمه النـائب بتروتشي . إمـرأة مثقفة مجـربـة مستقلة طـالعت الكتب وتأمّلت الأحداث وسافرت في أرجاء الدنيا ، إمرأة حرّة عصريـة كما يتخيّلهـا كتّـاب القصص . وبغتة عنـد نهاية الجـولة ومغـادرة العربـة أطـرقت مجهشـة بالبكاء وجهها مستور وراء القبعة العريضـة ويدهـا مغطاة بـالقفاز ، لا شيء يكشف عن مغزى الانهيار . والشيخ الأستاذ بجانبها فاغر فاه مقوس الحاجب يفتكر . النساء النساء لا حياة معهن ولا حياة بدونهن !

ـ مسيو غربي الطبيب في انتظارك .

تقدم الطبيب بالبلوزة الناصعة والنظارات السميكة والابتسامة اللامعة .

ـ والساق كيف حالها ؟

ـ لا بأس على ما يظهر . أنام وأمشي بدون ألم .

ـ طيّب . العـظام في حالـة أحسن من الأعصاب عـلى مـا يبـدو . اخلع الثياب وتمدّد أتمنى أن تكون هذه آخر مرّة .

نزع عمر ثيابه محتفـظاً بالتسبيقـة والكالسـون . تمدّد فلم يلبث أن شعـر ببرودة الذراع الكاشفة إذ مسّت كوعه .

قال الطبيب :

ـ طقس غريب غير معتاد في المغرب .

أجاب عمر :

ـ الحرث في حاجة إلى الماء .

ـ هذه هي الـدنيـا. لمّا يفرح الفلاح يقـرح السواح . شكـراً . انتهينا . إذا كان عندك وقت انتظر النتيجة وإلا سأكلمك في الهاتف .

ـ أنا حرّ سأنتظر .

ارتـدى عمر مـلابسه وعـاد إلى غرفـة الانتظار فـوجد فيهـا رجـلاً واقفـاً يـدخّن ، أنيقاً شـاحب اللون ، يفـوق الخمسـين . حيّـاه ثم جلس . مـرّت دقائق ثم جاءت الكاتبة ونـطقت بإسم الـرجل المسن . أزال عقب سيجـارته

من فمه وعركه في طفاية بشدّة . لاحظ عمر أن بنصره كان مزيّناً بخاتم من الذهب الخالص . لم يكن يعرف هذا الوجه . أمر لا يحدث كثيراً في مدينة الرباط . من يكون ؟ زائر سائح ؟ مدّ عمر يده إلى رزمة المجلات وراح يفحص من جديد صور الأزياء .

غابت من حياته المرأة التي كانت سبب اهتمامه بكل هذه الأشياء ! مريم . احتملت واستحملت طوال السنين التي قضاها وكأنه في غيبوبة . يشتغل يتحرك يذهب كل صباح إلى مكتبه يقرأ الصحف والتقارير يجيب على الرسائل ويحبّر الخطب ، يقول فيها ما يوحى إليه ومن حين إلى حين ينتقم من الزمن الخادع بحذف فاصلة وإبدال مفردة بأخرى . الجميع راض عليه ومع ذلك كان في غيبوبة ، قدامه طريق معبّدة وهو يمشي على الحافة . ومن كان واعياً بالحال أكثر من مريم ؟ يعيش بجانبها ولا يراها . انتقل من بيت ضيّق يوجد فوق حانة إلى شقة واسعة في عمارة جديدة تطلّ على النهر ، ثم منها إلى فيلا بداية أكدال وأخيراً إلى أخرى في أعالي الحي محفوفة بالنخيل والصنوبر . كلّما سمع أن الحكومة استغنت عن موظف أجنبي ترامى على مسكن الموظف المسرّح قبل أن يفرغ وإذا ما أعجبه طلب من مريم أن تكيّفه من جديد . كانت كعادتها تقوم بوظيفها أحسن قيام . تبيّض تسبغ تفرش تؤثث بذوق رفيع وأثناء عملها تبدو فرحة مرحة . ثم يهيأ البيت وترحل إليه فتسترجع وعيها لتجد أن عمر لم يفق من غيبوبته . لا تسأل لا تشكو لا تعترض بل تلجأ إلى الموسيقى ومطالعة الروايات .

كانت العادة ان يسافر عمر وحده لكن مرة دعي إلى ايطاليا فعرض على مريم أن ترافقه . قبلت دون أن تبدي أي انفعال . وصلا إلى روما ونزلا في فندق قرب المحطة الجديدة ، فندق ماسّيمو أزيليو .

ـ من هو أزيليو هذا ؟

ـ من البيمون ، أحد وزراء عهد النهضة من عائلة ارستقراطية وطنية ذات أفكار إصلاحية .

ـ ارتستقراطية وطنية ؟

ـ نعم . نوع وجد في ذلك العصر . يحاول البعض اليوم ان يحيي

ذكرهم . تعرفين فيسكونتي ؟

- سمعت بـه .

بعد العشاء إلتحقا بالغرفة التي كانت تطلّ على الساحة الكبرى ، ساحة المحطة المحادية لحمّامات ديوقليزيان . وقف عمـر طويـلاً جنب النافـذة ينظر إلى المـارّة وهم يتمشّون تحت أضـواء المحطة وكـأنهم على مـوعد مـع شخص مجهول . كان يسمع حركـات مريم في الحمّـام تسرح شعـرها تصفّف أوعيـة التـزيين . ثم خيّم الصمت . إلتفت فـوجدهـا جالسـة على حـافة السـرير . اقترب منها حنا عليها قبّل شعرهـا . ظنّ انها ستبتهج . لم يـظهر عـلى وجهها أي انشراح . ثم تنهّدت :

ـ متى تنتهي الخدعة ؟

أول شكوة سمعها منها .

سأل :

ـ أي خدعة ؟

أجابت بصوت مرتفع حادّ :

ـ هاته التي نعيش فيها منذ البداية .

وارتمت بعنف على السرير . تأمّلها عمر . وجهها مدفـون في الوسـادة ، خاصرتها تعلو وتهبط من خلال منامتها الرهيفة ، ترفع كفّهـا الأيسر من حـين إلى حين وتخبطه على الفراش :

ـ أي مستقبل ؟ أي مستقبل ؟

لم يفكّر عمر لحظته إلا فيـما يمكن أن يخطر عـلى بال الجيـران . هل هـذا محـلّ المحاكمـة ؟ أما كـان يمكن أن تفتـح الملف من قبـل ؟ في الـربـاط ؟ في المطعم ؟ غداً ؟ لا . فتحته في روما في الفندق في منتصف الليل . ينظر إليها ببـرودة واشمئزاز كـأن لا شيء يربط بينهـما . لـو سـألـه سـائـل قبـل دقـائق لأجاب : اعطف عليها عطفاً لا حدّ له . والآن يتضايق منها ومن نحيبها . لم يـراجع نفسـه . لم يقـل : مـا كـانت لتنفجـر هـذا الانفجـار لـو لم تكن قـد استحملت فـوق استطاعتهـا . وبالفعـل قال لنفسـه هذا الكـلام فيها بعـد لما انتهت المسرحية وأطفئت الأنوار وأقفلت الأبواب .

خـطا خطوتـين وجلس عـلى جنب الفـراش . قبض عـلى رأسـه حـائـراً وهمس : مريم يا مريم هل هذا وقت مناسب للعتـاب والمحاسبـة؟ أما عنـدنا متّسـع ، غداً وبعـد غد ، أثنـاء رحلتنا إلى فلورنسـا . كنت عـلى علم بكـل الظروف عندما رضيت وقبلت . لم أخدعك لم أكذب عليك لم أرغمك . أي أمر يضايقك وأستطيع أن أغيره ؟ ماذا تريدين مني ؟ ماذا تريدين مني ؟

مرّت شهور واستحضر عمر هذه اللوحة فنـدم . تمنّى أن لم يكن قد قـال ما قال . قال ما لا يليق به ولا بغيره مهما تكن الظروف والأحوال . قال لمريم في منتصف الليل أنها عاشت معه عيشة ما كانت لتحلم بها لو بقيت في بلدها كما عرفها وحيدة مقطوعة من شجـرة تردّد نحن أولاد الحـرب ضحايـا غريـزة الموت .

ندم عمر حيث لا ينفع الندم .

قام منزعجاً . حدّق في المرآة . عكست له وجهه المقطّب . أخرج المشط من جيبه وسرّح شعـره مخاطبـاً نفسه : لمـاذا تعاودني هـذه الصور ؟ لمـاذا هذا الإلحاح ؟ عادة سيئة طارئة علي . لمّا كنت اشتغل ما كنت أضيع الوقت معيداً في مخيّلتي شريط حياتي . سنيما جوّانيه لا أحبها ابغضها .

كان في الواقع يتهيّب شريطـاً آخر يسـطو من حين إلى حـين على مخيّلتـه ويزعجه إزعاجاً لا مزيدعليه . قام من مقعده ليمنع ذهنه من التيه .

اقترب من الكاتبة . فابتسمت إليه واعتذرت :

ـ تأخرنا عليك .

ـ أظن اني سـأعـود إلى البيت . يمكن للطبيب أن يكلّمني هـاتفيـاً متى شاء .

ـ دقيقة من فضلك أكلّم الطبيب .

دقيقة وفتح البـاب وراء صالـة الاستقبال وظهـر الطبيب مبتسـماً ابتسامـة عريضة :

ـ بخير يا مسيـو غربي . العظم يلتحم بسرعـة مدهشـة . أنا الآن عـلى يقين أنه لن يبقى أي أثر بعد شهرين . إحتفظ بالعكّـاز أسبوعـاً أو أسبوعـين والرياضة نافعة على كل حال .

ـ عادت الأمور إلى حالتها الأولى اذن ؟

ـ تقريباً . سأبعث الكليشه إلى الدكتور اسماعيل وبالطبع الكلمة الأخيرة له . قلت لك مضمون التقرير الذي سأرفق به الكليشه . مرّة أخرى لا تقرب من المسبح وأنت لابس السموكينج .

ـ هذاوعد . لن أسبح أبداً بالسموكينج . كنت أظن أنها موضة .

ـ كانت موضة في موناكو قبل الحرب .

ـ شكراً يا دكتور . مع السلامة .

ـ مع السلام .

أدّى للكاتبة الواجب ثم خرج بسرعة فوجد أن المطر قد خفّ . كانت سيارته رابضة أمام باب العمارة . سار على الطريق المحادية للوادي . كانت فيلات السفارات تتابع واحدة بعد أخرى وفوقها أعلام ملوّنة منتكسة حزينة كأن الدنيا أدنت بالانقباض . عندما وصل إلى باب شالة خدعه من جديد الضوء الليموني وكاد أن يقصع إمرأة كانت مكفّنة في جلباب بلاستيك تحمل على رأسها طرحة خبز مغطاة أيضاً بغلاف بلاستيك . كانت تمشي وسط الطريق تحت الطش لا تستطيع ان تلتفت يميناً أو شمالاً . طرحة خبز ! وأين يوجد الفرن ؟ لا . لا . لا محلّ للتفكير في مثل هذه الأشياء . ليكن الفرن في قرطاخنّة . أمر لا يهمّني . قلّة الشغل وكثرة التأمل هذا هو سبب الكسر .

وضرب عمر بكفّه على المقود ضربة عنيفة مستبطئاً الضوء الأخضر .

(17)

رنّ الصرصار فانفتح الباب كما لو كان مسيّراً إليكيرونياً . كان مسعود الحارس يعلم ان عمر لا يصبر على الانتظار . درجت السيارة منحدرة بين الأشجار وتوقفت في كراج مدفون في الأرض . أطفأ المحرّك وانسلّ من المقعد بهدوء ثم سأل الحارس :

ـ جا الفقيه ؟

ـ رآه في الصالة .

ـ من متى ؟
ـ بعد الغداء .

طلع عمر الدرج وهو لا يكاد يتّكيء على عكازه . انتصب أمام باب الصالة فوجد ضيفه يصلّي . دار واسعة عريضة غارقة في الأشجار والزهور لا يسمع فيها صوت زوجة أو طفل سوى وقع أقدام زينب الخادم ومنصور الطبّاخ . نزع عمر معطفه ودخل إلى الغرفة التي يستعملها كمكتب المطلّة على الجانب الأوسع من الحديقة . نزع الجاكتة والحذاء ولبس صدّاراً صوفياً وانتعل بلغةً فاسية مبطّنة ثم قصد المطبخ . كان منصور جالساً يدخن وكانت زينب بجانبه تنقّي العدس .

ـ أعطيت للفقيه ياكل ؟
ـ قال انه صايم .
ـ طيب . زينب اشعلي السخّان الحال بارد .
ـ في الحين أسيدي .

عاد إلى صالة الاستقبال فوجد أن الضيف قد فرغ من الصلاة . تقدّم نحوه وعنَّقه عناقاً حارّاً :

ـ ادعيت لنا بالخير ياك ؟
ـ سي عمر أنت محفوف بالخير . الله يديم عليك النعمة .

قال شعيب هذه الكلمات وافتكر انه ما كان ينتظر من عمر استقبالاً مثل هذا . لم يره منذ سنوات وحتى أيام الصيف الملتهب ، عندما اجتاحت النساء الشوارع حافيات سافرات ، لم يكن متصلاً به اتصاله بادريس . سبحان من إذا أراد شيئاً قال له كن .

ـ أين العكّاز ؟
ـ في هذي الدقيقة رميته في الكراج .
ـ هذا كلام الطبيب ؟
ـ الطبيب لا يتعجّب من العطب ، يتعجّب من السلامة ياك ؟
ـ هذا ما قال الشيخ ابن سينا .

وقهقه قهقهة مدوية . قبض عمر علي ذراع شعيب وقاده إلى المكتب .

ـ أقول لك الحق يا سي شعيب لا يحلو لي الجلوس في الصالة . دائماً فارغة . النقش الزليج الرخام يبرد العظام . خلّينا نجلس في غرفة ضيقة . نتفرج منها على الحديقة . انت صائم صحيح ؟

ـ نعم يوم السفر أصوم . أربح في الدنيا وفي الآخرة .

قوّس عمر حاجبيه :

ـ أول يوم تجي عندنا بعد سنين تضرب عن الطعام ؟

ـ حاشا سي عمر ! دعوة الصائم مقبولة . بعد المغرب ما فيه إضراب أريني ما عندك ولا عليك .

تأمّل عمر هنيهة ثم قال :

ـ إذا كانت زردة نعرض على الأصحاب . من تبغي يكون معنا ؟

ـ هذا ما خطر لي على بال . كيف علاقتك بالخلّوقي ؟ عندي به غرض .

جلس عمر وراء المكتب وأشار إلى شعيب بالجلوس على الصفّة .

ـ علاقاتنا طيّبة ، غير منتظمة ولكن طيّبة . ما فيها باس نكلّمه الآن إذا كان غير مقيّد بموعد .

فتح كنّاشاً أمامه ثم بدأ يلمس أرقام التليفون . رفع بصره من الآلة وحدّق في شعيب :

ـ هذا رقم مباشر . إذا كان في المكتب . آلو سي بنعيسى أهلاً . . هذا عمر الغربي كيف حالك ؟

ـ . .

ـ بخير . الله يبارك فيك . شف عندي دعوة لك وما علي إلا البلاغ . هذا الفقيه أبو شعيب . . الصباغ . . عاقل ؟ ها هو قدامي ومشتاق اليك . قبل ما تتكلّم معه قل لي انت حرّ للعشاء ؟ هو متعشي عندي ، تكون مناسبة نحيي الذكريات . . آه ؟

ـ . .

ـ خير . ها الفقيه كلّمه .

ناول عمر السمّاعة إلى شعيب وغادر المكتب ليعطي أوامره لمنصور . خرج من المطبخ ووقف في البهو أمام المغسل الكبير الذي تعرك فيه

الثياب وتنظّف الأواني . وقف يتأمل نخيلة حاول البستاني عبثاً أن يعيد إليها حيويتها نقلها مرّتين قائلاً : ما فرحانه هنا . نعم تارة كانت أشعة الشمس تحرقها وطوراً يخنقها دخّان المطبخ . ما زالت صغيرة نحيفة أوراقها مصفرّة مبتلّة تتساقط منها قطرات كحبّات الماس .

ـ جاي أو لا ؟

ـ قال يتحرّر حتى لو كان على موعد مع سامية جمال .

ـ ما زال يعقل على سامية جمال .

ـ والله من فمه خرجت . سيحضر العشاء . لا ننتظره بالفطور .

ـ قلت له أنك صائم .

ـ في الكلام .

جلس عمر خلف المكتب مقابل شعيب كأنه محامي يحاور زبونه . أخذ حجرة أثرية صقلية ، عليها علامات كأسفاط الأسماك ، وراح يتلمّسها كما لو كان يتيمّم بها .

قال شعيب :

ـ تبارك الله عليكم رباطكم جنّة كلّه خضرة .

رفع عمر نظره عن ثقّالة الأوراق :

ـ عجبتك المدينة تحت الغيوم والمطر ؟شفت السور القديم قرب المحطة .

ـ مرّ بي التاكسي بأحياء كثيرة ، شوارع أشجار فيلات . عاقل على الأستاذ السفياني رحمه الله . لا شك .

تفكّر عمر قليلاً قبل أن يجيب :

ـ لا . سبقني بسنة . ماله ؟

ـ خطر ببالي وأنا جالس في مقهى المحطة .

بعد سكوت :

ـ كأنك متغيّر ياك . أزعجتك ؟

ـ لا أبداً . بالعكس . والله جئت في الوقت المناسب . دائماً دائماً في الدار مع الخدم .

سأل شعيب :

ـ قلت لي في الملعب أنه وقعت لك خرافة .

حوّل عمر الحجرة الصقيلة من موضع إلى آخر فوق الطاولة ثم نقرها بأصبعه وقال :

ـ خرافة والله خرافة . قل لي يا فقيه أنت خبير بتعبير الرؤ يا .

ـ هذه دعاية .

ـ روّجها صديقنا ادريس . قال وكرّر انك تتعاطى لعلم الطلاسم .

ـ ادريس قال وقال حتى غلبه لسانه . ادريس أدارس . كنّا نتفاخر أيّام الصبى . يكلّمني على افلاطون وكامو وأنا أكلّمه على الكشف والتنجيم . هيهات هيهات لو كان الخوخ ينفع . .

ـ أهنى وأهدى يا فقيه ، مالي غرض بالغيب . . خرافتي بدأت في زمن معين كانت عادتي أن أنام بسهولة وأفيق بسهولة رغم العياء والسهر والأمور الأخرى . أكثر من ذلك كنت أنام نوماً هادئاً لا حلم فيه . ربما كنت أحلم مثل جميع الناس لكن عندما أفيق لا أتذكر شيئاً . أحياناً الأشياء التي أراها في البيت ، في المكتب ، في الشارع ، كنت أراها في المنام . كانت مريم تقول لي : انت في غيبوبة ، ومع ذلك كنت واعياً بذاتي تمام الوعي ، متحكماً في كل وظائف جسمي . ثم . . هذه سنة أو سنة ونصف بدأت أحلم بالمعنى الحقيقي . أحلم وأنا مستيقظ . أكون جالساً إلى هذا المكتب ، انظر إلى هذا القلم ، هذه المفكرة ، هذه الثقالة ، هذه الطفاية ، فأسرح ، على غير عادتي . والغريب أني أرى باستمرار نفس الرؤ يا ، واضحة بكل تفاصيلها . . طريق غير مبلّط ، مدخل بيت عتيق بين مربأ **النجمة** ومقهى علي بابا ، أرى الدرج المتداعي والغرفة في الطابق الأول ، في الداخل أرى الحصير والسرير الحديدي والابريق على حافة النافذة ، فوق السرير أرى الرجل معصوب الرأس معرضاً بوجهه إلى الحائط ، أرى بوضوح الأذن اليمنى . . وتلك الأذن هي أذني ، أعرفها بهذه التولولة . . هذا كل ما في الرؤ يا ، لا شيء سوى هذا . والرؤ يا تلاحقني وتلاحقني حتى أصبحت أهابها . أشعر بها تتهيأ لتستولي على فؤادي فأحاول ان انفلت منها . . مرة أنجح ومرات أخفق . أول ما سنحت لي بعد عودتي من آخر سفر لي إلى

إيطاليا ، لاحقتني ما يقرب من شهرين ثم أمّحت من ذهني كأنها ما كانت أبداً . ثم عادت إلي هذه الأيام . منذ دقائق كنت عند الطبيب انتظر نتائج الفحص فأحسست بها تدبّ إلي لكني أفلحت في إبعادها عني .

ابتسم عمر إبتسامة تعب وتوكّل وقال :

ـ رأيك يا فقيه ؟

كان شعيب قد أصغى إلى كلام عمر دون أن يبدو على وجهه أي أثر للملل أو الاستغراب :

ـ الشيطان لعنه الله . كنت أنصح ادريس كلما عرض له عارض أن يستغفر الله مائتي مرة . . وكان فيها النفع والبركة .

لم يعلق عمر على هذه النصيحة . كان غارقاً في تأمّلاته . يدفع الثقالة حتى تميل ثم يتابع حركاتها إلى أن تستقرّ ثم يدفعها من جديد .

أردف شعيب :

ـ الحق أن تملأ الدار بالحياة والحركة . جنّة فارغة حرام .

استعاد عمر وعيه :

ـ حتى أيّام مريم كانت فارغة . كنت أنا في غيبوبة وهي كانت صامتة . تقوم بواجبها في المنزل ثم تخلو بنفسها وتستمع إلى موسيقى غربية هادئة مسكّنة . فكّرت مراراً أن أربّي طفلاً أو طفلة . قلت لها ان هذا أمر عادي عندنا . لم تقبل . قالت من أين لك أن تعرف أهل اللقيط ؟ وراحت تقصّ حكايات الورث والورثة . كلّما كلّمتها في الموضوع تشنّجت بكيفية عجيبة . في مثل هذه الأمور تظهر الهوّة بيننا وبينهم !

تساءل شعيب بصوت منخفض :

ـ والآن هي فاين ؟

أجاب عمر وكأنه كان ينتظر السؤال :

ـ غادرت البيت والبلاد منذ سنتين . حملت واستحملت ثم كان سفرنا إلى ايطاليا ، أول سفر رافقتني فيه إلى الخارج . إثر وصولنا إلى الفندق انفجرت . بكت واشتكت فقلت لها أشياء لا أريد أن أرويها لك . أستيقظنا في الصباح التالي وكأن شيئاً لم يحدث . فتحت عيني والتفت اليها فوجدتها

تبتسم . قالت صباح الخير قم بسرعة لنفطر ساحة البندقية . مكثنا يومين في روما ويومين في فلورنسا في وئام تام حتى بدأت أشك هل تخاصمنا فعلاً . كان مقرراً أن تعود إلى المغرب على طريق جنيف . رافقتها إلى محطة القطار وودّعتها بحنان . أقمت في ايطاليا خمسة أيام أخرى لانجاز المهمّة التي سافرت من أجلها ثم امتطيت الطائرة . لم أجدها في مطار الدار البيضاء كالعادة وعندما سألت السائق تعجّب : ما كانت معك ؟ فهمت انها لم تعد . اعتقدت أولاً انها مكثت في سويسرا أكثر من اللازم . ثم افتكرت انها لم تحاول أن تتّصل بي في ايطاليا . فقلت ما زالت غضبانة . وهكذا انتهت القضية . لا أريد أن أروي التفاصيل . بعضها مخزٍ لي . أحكي لك الحوادث في هذه الدقيقة وما زلت لا أدري ماذا يربط القسم الأول من المسرحية بالقسم الثاني . لا أتذكّر بالضبط هل فقت من الغيبوبة قبل أو بعد سفري إلى ايطاليا . هل عاشت مريم معي طوال السنين التي كنت فيها غائباً عن نفسي واستحملت ثم عندما رأتني استيقظ ضاقت بها الأرض وذهبت إلى حال سبيلها ؟ لا أدري . على أي حال ذهبت بعزّها . لم تطالبني بشيء حيث كان لها أن تطالبني بأشياء عديدة . إن كنت قلت لها بالفعل كيف كانت تكون عيشتك لو لم أسقط في الفخّ فإنها أثبتت الدليل على لؤم ملاحظتي . لا أدري كيف سمعت الأسرة بالخبر لكنها لم تضيّع الوقت وتساقطت علي في الحين . ما كنت أظن أن لي هذا العدد من العمّات والخالات. كل واحدة لها لؤلؤة أو مرجانة أو ياقوتة لمن أحبّ وأراد .

تمتم شعيب :

ـ ايه ! بنات العمّ !

ـ أقفلت الباب في وجه الجميع ولزمت الدار .

ـ والعمل ؟

ـ كان سفري إلى ايطاليا آخر مهمّة أسندت الي . في نفس التاريخ طرأت أحداث لا حاجة لذكرها .

رفع عمر رأسه ونظر إلى شعيب وهو جالس على الصفّة جلسة مستقيمة واضعاً كفّيه على فخذيه . التفت إلى النافذة فرأى قطرات المطر تتهاطل

بسرعة متزايدة في جوّ يميل إلى العتمة . قام من مقعده وقال :

ـ نستقبل الليل .

أنار الغرفة ثم تقدّم نحو النافذة وفتحها . رنّت قطرات المطر على الممرّ وفاحت رائحة الأوراق المبلّلة . استحضر شعيب :

ـ ما جنّة الخلد إلا في دياركم . .

لم يعقب عمر . بعد برهة قال :

ـ قربت المغرب .

ـ بيننا وبينها نصف ساعة .

ـ الساعة في رأسك يا فقيه !

ـ أما أشعر بدوران الأرض ؟

إستنشق عمر الهواء الرطب ثم أوصد النافذة وعاد إلى مقعده . وضع من جديد يده على الثقالة كأنه يستلهمها ثم قال :

ـ ما سبق كان مقدمة . الخرافة بدأت من بعد ولمريم دخل فيها . أول مرة جئت معها إلى الرباط في أعقاب الصيف الملتهب ، صيفك يا شعيب ، سكنّا في بناية تطل على سكة القطار وعلى السور الجديد . كنت أحب ان أسرح طول شارع ابن تومرت من باب المحطة إلى باب الأحد ومنه إلى المقبرة . ويوم سبت خرجنا على الساعة الخامسة ، مشينا حتى اقتربنا من المقبرة وبدت لنا زرقة المحيط . وبغتة صرخت مريم : أنظر ! أنظر ! قلت : ماذ ؟ قالت : المرأ ة . نظرت إلى شابة ببلوزة وسروال طويل ، شابة عادية ترافقها امرأة مجلببة ملثّمة لا يرى منها إلا عيناها . . عينان واسعتان زرقاوان زرقة السماء أواسط مارس عندما يكون مارس حارّاً جافاً ، زرقة البحر بداية شهر غشت عندما يكون غشت معتدلاً ، زرقة النيلة المذابة في الماء . سألت مريم : من أين لها هذا ؟ أجبت : أمر يحصل في المراسي . وعرضت عليها بعض الأسباب . حدث الحادث في بداية علاقتي بمريم . ونفس الحادث حدث عندما افترقنا . لما توقفت عن العمل وفرغ وقتي بدأت أختلف إلى الجوطية . وذات يوم مررت قرب مخازن لافاييت . وقفت أنتظر الضوء الأخضر وإذا بامرأة مصحوبة بفتاة مجلببة ملثمة ذات عينين زرقاوين .

تسمرت في محلّي مبهوراً مشدوداً إلى اللوحة الحية وهي تقترب مني . قالت المرأة : أي وليدي ، جا بك الله ، أجي معنا . نطقت المرأة بهذه الكلمات والفتاة تحدق في وجهي كما لو كانت تسبر نفسي حتى الأعماق . قبضت المرأة على يدي و . . .

رفع شعيب سبّابة يده اليمنى توحيداً لله أو مطالباً بالكلمة :

ـ هذا وقت المغرب . اسمح لي .

قام عمر من مقعده :

ـ نعم . تفضّل .

تابع عمر ببصره شعيباً وهو يقصد صالة الاستقبال ليؤدي صلاة المغرب . ثم اتجه نحو المطبخ سائلاً :

ـ منصور ، آش وجّدت لنا ؟

(18)

فتح عمر التلفاز . كان الكلام على تشكيل الحكومة الانجليزية بعد فوز ولسون في الانتخابات العامة ، على مخلّفات زلزال بليدة ، وعلى إنشاء الخدمة المدنية التي ستمكن الدولة من الاستفادة من قدرات الشباب المثقّف . جلس إلى المائدة المهيأة في زاوية الصالة المجبسة والمقبجة ، المطلة من جميع نوافذها على أشجار : أشجار الحديقة وأشجار الممرّ المؤدي إلى الكراج . أنهى شعيب صلاته وسلّم يميناً وشمالاً . قال عمر :

ـ تقبلها الله منك وجعلها كفّارة لنا جميعاً . .

ارتدى شعيب الجاكتة تاركاً الحذاء في مدخل الصالة .

ـ تفضّل يا فقيه ! ما كان وقت لتحضير الحريرة بقواعدها . لكن ها عصير اللوز وها القهوة . أعتق الروح ورجع الدماغ لمحله . . قل لي : هذه الحلوة ، علاش سموها وذن القاضي ؟

جلس شعيب إلى المائدة وأجاب بجدّ :

ـ لأن وذن القاضي آلة متطورة ، فيها كثير من اللوالب والأزرار . . مرة تسمع دبيب النمل ومرة تصمّ عن صرخة الداعي إذا دعى . .

ثم ضحك وقال :

ـ والله هذه زردة بغدادية .

ـ ونّستنا . . شرفتنا . . انت ما تجي عندنا كل يوم ؟

رشف شعيب رشفتين من العصير ثم ذاق القهوة وقال باعجاب :

ـ قهوة بالقرفة ! . عادتنا .

ـ عادة منصور . ما أمرته بشيء . كانت مريم تعافها ولا تتحمّل حتى رائحتها .

ـ وأنت يا سي عمر مضرب عن الطعام ؟

ـ أنا ما صمت .

ـ على الأقل حلّ اللسان .

انتبه عمر إلى ان صوت التلفاز قد ارتفع . فقام معتذراً وخفض منه حتى كاد أن يختفي تماماً ثم عاد إلى المائدة قائلاً :

ـ قبل سنوات ، لما كنت أقطع المحيط بالطائرة أنا وبعض الزملاء ، بدأت شركات الطيران تعرض الأفلام لتمضية الوقت وتهدئة أعصاب المسافرين . كنّا نرفض السمّاعات التي توزّع على الركّاب ونشاهد الصور دون أن نستمع إلى الحوار . وعند نهاية العرض يحكي كل منا للآخرين القصة كما فهمها . كل واحد منّا كان يحكي قصة مختلفة .

ـ سي عمر وقصة ذات العيون الزرق .

أطرق عمر طويلاً كأنه يتساءل عن كيفية ربط الخيط المقطوع .

ـ منذ شبابي وأنا ضد الصدقة الفردية لأنها تشجّع في نظري على الكسل . إذا أعطيت اليوم يعني أنك قادر أن تعطي غداً . لماذا يبحث المتسوّل على شغل . يقف كل يوم في طريقك ويأخذ الواجب . لاحظ أن نفس الأشخاص يقفون في نفس الطرق وينادون : حق الله ! حق الله ! معناه أن الصدقة ضريبة يومية . وإذا كانت ضريبة فالأفضل أن تدرج في الميزانية وتقوم الدولة بتوزيعها . على الدولة أن تجمع المتسوّلين في دور خاصة ، تنفق عليهم من ريع ضريبة الفقر وتشغّلهم في أشغال نافعة . يكون هذا أشرف وأنفع للجميع . ما رأيك يا فقيه ؟

ـ الحديث يقول اليد العليا أفضل من اليد السفلى .

ـ تخيّلت أن المرأة تتسوّل . لاحظت أن حدقة الفتاة واسعة ثابتة . فتصوّرت أنها عمياء . لكن المرأة لم تطلب مني صدقة . قالت جا بك الله . شدّت على يدي وقادتني نحو باب السويقة . تبعتها بدون إعتراض ولا تردّد . . ربما لأن ضوء المرور قد تحوّل إلى الأخضر بأسرع مما كنت أنتظر . المهم أني اندفعت مع سيل المارة . مشيت جنب المرأة كالمسحور . دخلنا باب السويقة ، خطونا خطوات على اليمين ثم ملنا على الشمال . مررنا تحت صابة حادرة ثم لوينا من جديد إلى اليسار ووصلنا إلى باب خشبي عتيق مثقل بمسامير عريضة . دقّت المرأة دقات معدودات فتشقق الباب ودخلنا إلى سطوان مظلم .

ـ تقول بداية قصة الوزير جعفر مع أحمد الدنف .

ـ الفرق بين ما أحكي لك وقصص ألف ليلة وليلة هو انه أمر واقع ، عشته هنا ، خطوات فقط من شارع محمد الخامس . . تركنا في باب السويقة التدافع والضجيج وروائح الكفتة المشوية ووجدنا داخل الدار الهدوء والظل والصمت . . قلت : هذه جنة الفردوس . من السطوان انتقلنا إلى مراح مظلّل بأوراق نخلة باسقة وتوتة عملاقة ، تحتها شجيرات النوار . دخلنا غرفة مفروشة (علمت فيما بعد انها وحدها مفروشة في الدار كلها) على الطريقة القديمة ، بالأغطية والخوامي المطرّزة . جلست في صدر الغرفة ، انظر من خلال الباب العالي إلى الحديقة الداخلية . أقول لك بصراحة : لم أحس ابداً بشعور الانشراح مثل ما شعرت به وانا داخل تلك الدار . انحلّ كل ما كان معقوداً في أعصابي . . لا أتذكر أني شعرت بمثل ذلك الشعور حتى في أحلامي . نزعت الفتاة الجلباب ، فبانت عيناها أكثر زرقة كأن لون الأوراق اللاّمع المنعكس في زجاج النوافذ قد إنقلب إلى زرقة أصيلية . كانت بشرتها جبنية وخدودها منمّشة ، كأنها لم تر الشمس قط . لم أحدّق فيها طويلاً بل أطرقت واضعاً يدي على ركبتي في انتظار ما يكون .

تقدمت المرأة نحوي وقبّلت رأسي وأنا مطرق ثم قالت :

ـ يا وليدي ! استرني واستر هذي اليتيمة ، يسترك الله في الدنيا والآخرة .

رفعت رأسي متسائلاً :

ـ كيف ؟

نادت المرأة بصوت خفيت فتقدم من باب الصالة رجل بلحية بيضاء وفرجية بيضاء . فهمت انه هو الذي فتح الباب الخارجي . قالت له المرأة :

ـ قل لمرضي الوالدين هذا !

أجاب بلهجة عتيقة مكسرة متشابهة الحروف . فهمت منه فقط انه لم يبق في الدار طعام منذ يومين .

علقت المرأة :

ـ صلّينا ركعتين وخرجنا . . على الله والنبي المصطفى وجات بك القدرة الربانية .

أشرت برأسي إلى الرجل فقالت :

سيدي عبد الجليل . . ما يخرج حتى لو سلخوه :

ـ والسبب ؟

ـ عشرين سنة ما تخطى باب الدرب .

علمت فيما بعد انه غادر الدرب آخر مرة عندما وقعت مظاهرات في السويقة سنوات الحرب الكبرى . هجم عليه بوليسي وضربه بعصاه على رأسه ثم ركله في بطنه . التجأ فاراً إلى الدرب ومن ذلك التاريخ لم يبرح المنزل . كلّما تقدمت به الأعوام تقهقر إلى سنوات الطفولة .

إنتصب منصور على عتبة الصالة سائلاً هل يجيء العشاء . قال عمر :

ـ تأخّر علينا سي الخلوقي !

أجاب شعيب :

ـ قال ما نستنّاه بالعشاء . . على ما حال وصل وقت الصلاة .

قام شعيب ونزع الجاكتة في حين بدأ منصور ينظف المائدة .

ـ خلّينا نشرع في العمل ، لا سلامة في التأنّي .

ـ لا بدّ يجي ولو في آخر الليل .

أخذ عمر الجريس الكهربائي وضغط على الزرّ . بعد قليل ظهر منصور .

ـ جي بالموجود وخلّ الشي الآخر حتى يحضر السيد .

كانت الصور تتتابع على الشاشة الصغيرة . جوق ومطرب جالس على كرسي وفي يده عود ، متقارب الشفتين مسدول الجفنين كأنه يغالب النوم ، ينشد نشيد الجب والفرح بنغمة الحزن والأسى . عاد منصور من المطبخ يحمل طبقاً مغطى . وضعه بعناية فائقة فوق المائدة ثم توقف متأمّلاً وأخيراً كشف عن طاجن لحم باللوز . ابتسم شعيب ابتسامة عريضة :

ـ كالعادة يا سيدي !

ـ كالعادة . منصور طبّاخ فنان . يتقن كل الأشكال ، القديم والحديث . لمّا رآني وحدي ترك اللحوم المشوية والمقلية والمحمّرة وصار يعلّفني . إسترجعت مذاق شبابي . تفضّل يا فقيه باسم الله رازق الحوت في البحر والطير في الهواء .

ـ هذه زردة في رباط الفتح ساقتنا لها الأقدار من بلد بعيد . ترجع بالخير والبركة على الدار ومن فيها .

ذاق من الطبق الأول والثاني ثم تذوّق الخبز وقال :

ـ كنّا مع جعفر البرمكي في بداية قصّته مع الفتاة المطربة ذات العيون الزرق .

رشف عمر من كأس مملوء بعصير التفّاح .

ـ نعم . لما رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت اندهشت . إلتفّت حولي إلي أثاث الصالة ، كله تحف لها قيمة عند العارفين . قلت في نفسي غريب ما سمعت وما لم أسمع بعد لا شك أغرب . قالت المرأة ما عندنا عليك حق إلا حق الأخوة في الايمان . استر عائلة شريفة الله يسترك ! كان من الواضح ان حريتي قد حدّت من كل جانب ، حتى الهروب من الدار إستحال . عدت لا أسمع أي صدى من جهة المدينة كأنني بالفعل فوق جزيرة نائية في بحر الظلمات . قلت : كيف ؟ كيف ؟ . قالت : استرنا ! استرنا ! وضعت تلقائياً يدي في جيبي ، لكن قبل ان استخرج ما عندي صاحت المرأة : بلا حق ؟ بلا واجب ؟ لا . . لا . . ما عندنا حق الآن . من بعد أنت ووجهك . لم أجب . زادت المرأة : يا وليدي مكتوب في وجهك انت ولد

ناس ، أعمل الشرع . كلمة منك تكفي ، كلمة الشرف وتحصل البركة . بدون شعور ، بدون تفكير ، بدون تردد ، كأنني في حلم قلت : والسلام ليكن ما قدر الله . إنكبّت المرأة علي وقبّلت رأسي ، ثم جاء دور الرجل ثم تقدمت الفتاة وقبّلت يدي :

علق شعيب :

ـ إمرأة عالمة !

ـ فعلاً أمية وعالمة ، والفتاة كانت نصف أمية ومؤدّبة . لا تزيد على كتابة إسمها ، لكن تحفظ الأشعار والحكايات والنكت والخرافات . . بلهجة أصيلة .

ـ كيف ذلك ؟

ـ الوزن . . لا تكسره أبداً .

قالت المرأة : تبقى معنا . قلت : عندي دار . قالت : غداً إن شاء الله ننتظرك على باب الدرب أنا والولية . الآن أنت ووجهك ، عرفت الحال . وضعت يدي في جيبي وهذه المرة لم تظهر المرأة أدنى معارضة .

عندها سمع صرصار الباب . قام عمر قائلاً :

ـ هذا الخلوقي ، يعرف من صرصرته ومن مشيته .

زاد من صوت التلفاز . كان المغني لم يفق بعد من إغفاءته ، يواسي قلبه المبتهج . دخل بنعيسى الخلّوقي يتمايل رافعاً ذراعيه كما لو كان سيعنّق الأرض بكاملها :

ـ تأخرت ! تأخرت !

إنتصب شعيب وعنقه عناقاً حارّاً . قال عمر الذي لم يبرح مقعده :

ـ كنّا وسط الطريق . تفضّل لا سلام على طعام . اجلس واشرع في العمل .

ما كاد الثلاثة يجلسون حتى عاد منصور يحمل طبق لحم ينشّ في المرق .

إلتفت الخلوقي نحو شعيب :

ـ أخبارك ؟ وأخبار البليدة ؟ طوالتْ رجلك يا أخي !

أجاب شعيب جادّاً :

ـ يا أخي مدينتك تخوّف . أنا جئت بعد الإخطار والإعذار أو لا أسي عمر ؟

ـ أنت فقيه محبوب ومطلوب .

ـ من فمك لله .

قال الخلوقي :

ـ ايواه . انا وحدي مجاهد .

أجاب عمر :

ـ قضينا الغرض وهذا حقك .

قال شعيب :

ـ تعرف من يسلم عليك سلام المحبّين ؟ حيمدة .

قاطعه عمر :

ـ سي حميدة حاضر معنا باستمرار . يكتب الي كل مرة بلغة خاصة . يعطيني أخبار المدينة . لا شك وصلتك رسائل منه حتى أنت يا سي بنعيسى .

ـ كان يكتب إلي . لكن سكت من شهور حتى ظننت انه مريض .

احتج شعيب :

ـ لا . بخير وعلى خير . ما يكتب إلا في المناسبات . وهذه مناسبة عظيمة ما تنفع فيها المراسلة . بعثني شخصياً ساعياً للخير والبركة .

قاطعه عمر :

ـ سي الفقيه خلّ الكلام المعسّل حتى تجي المحلّيات .

رفع الخلّوقي يده قائلاً :

ـ أكرمك الله أنا قضيت الغرض .

ضغط عمر على الزرّ تحت المائدة . فظهر منصور وبدأ يزيل الأطباق والصحون . كان مغني المناسبات لا يزال يتأوّه على أزهاره الذابلة . بعد دقائق عاد منصور من المطبخ يحمل طبقاً مغطى . وضعه فوق المائدة ثم كشف عن البغرير العائم في الزبدة والعسل . لم يتمالك شعيب وصاح مكبّراً :

ـ زردة والله على حقها وطريقها !
فردّ عمر :
الفقيه عندنا عزيز .
قبل ان تبادر الجماعة بالأكل كان منصور قد أحضر صينية الشاي الفائر :
قال الخلوقي :
ـ الآن كملت .
وأتمّ عمر :
ـ الآن يمكن للفقيه يبدا حكايته .
ثم استدرك :
ـ لكن قبل ان نعطيه الكلمة أودّ أن أقرأ عليكم رسالة عجيبة توصلت بها من زمان واحتفظت بها .
غادر عمر الصالة . فسأل الخلوقي :
ـ أنا ما وصلني شى .
ـ هكذا تمّ الاتفاق بيني وحميدة . هو يتقابل رأساً مع الباشدور وأنا أزورك انت ووشّان .

عاد عمر وفي يده ورقة بدأ يقرأ ما فيها قبل ان يستقر في مقعده :

« سيدي ، إني درست في المدرسة التي درستم فيها وإن لم يساعدني الحظ فأجلس معكم في نفس القاعة . . صحيح ان الأرض كاللوحة يضع عليها كل إنسان رقمه وإسمه . . صحيح اني لم أرافقكم سنوات الصبا ، لكني أتابع باهتمام أخباركم وأقرأ بشوق تصريحاتكم للصحف الوطنية والأجنبية وخاصة لمجلة صوت التجارة الأفريقية .

وبصفتي أحد أبناء مدينتنا العريقة فإني أودّ أن تتفضّلوا وتجيبوا عن الأسئلة الآتية ، أسئلة تقضّ مضجعي وتمنعني من تحمّل مسؤولياتي في الحياة (ولتكن الأجوبة من فضلكم في كلمات محدودة لأني لا أستطيع ان أطالع طويلاً) :

* ما هي التجارة ؟

* ما هي السياسة التجارية .

* ما هو الاقتصاد التجاري ؟

* ما إسم أول تاجر على هذه الأرض وفي أي بضاعة كان يتاجر ؟ وهل أحدثت التجارة قبل ام بعد الطوفان ؟

وإذا أجبتم على هذه الأسئلة فلا شك تستطيعون الإجابة عن اسئلة أخرى :

* من كان أول زوج شهد على عقد تجاري ؟

* من اخترع الإثارة وأين ؟ هل صحيح أن ذلك كان عند عبدة النار وان ذلك كان سبب إحتقار المجوس لكل الأقوام الأخرى ؟

سيدي ،

أرجو منكم أن لا تتعجبوا من هذه الرسالة مع ما فيها من أسئلة دقيقة . إني أريد أن أحصّل على الحقيقة في كل ميدان . . إن جسم الإنسان هو مخزن الحقيقة وما علينا إلا ان نجد المفتاح لنقتحم الحكمة . هل سمعتم بهذه المحاولة ، إستعمال الجسم كآلة طيّعة لتحقيق الوحدة التي تكلّمت عليها الكتب السماوية ، . عندما يهجر الإنسان السوء ، والسوء أصل التاريخ ، يكشف عما فيه من أخلاق وعن تعطشه لإحتواء الحقيقة . إن الكون كون بممارسة الإنسان للحقيقة . وقبل كل شيء : ما هي الحقيقة ؟ عليكم ان تجيبوا .

سيدي ،

إن العالم يرتكز على ثلاثة أشياء : الشرع وهو معرفة الحقيقة ، القانون وهو ممارسة الحقيقة ، والإحسان وهو شرط ممارسة الحقيقة . . أساطين الحكمة الثلاث ، بله أساطين الكائن الحكيم . وقبلاً : ما هي الحكمة ؟ ما تاريخها ودرجاتها ؟ أسئلة محيرة ، أودّ أن أسمع منكم جواباً عنها ، إذا سمحت الظروف ، ايها المواطن العزيز .

سيدي ،

سنة 1942 ، عندما قُضي على جيش رومل ، رومل الثعلب ، حللت بوادي النيل وخاطبت أبا الهول بقصيدة طويلة اقتطف منها الأبيات التالية :

يا كائناً بلا روح ، دائم النوم
بلا رفيق ولا أب ولا أخ حميم
كيف تشيح عن أمك الدنيا بوجهك العنيد
قل لنا ، قل لنا ، ما عندك من خبر سعيد ؟
إذا أعوزك الروح فأنا أعيرك روحي
أكشف لنا عن سرّ بلد الحق والوحي
ثم زدت مخاطباً
أنعم بسباتك ، يا أبا الهول
يوم الحساب سنعرف أيقظة أم ميلاد ؟
لا تؤاخذني على فضولي وعلى خطي الرديء ،
من بعيد أحييكم تحية صادقة حارة .

انتهى عمر من تلاوة الرسالة ولزم شعيب والخلّوق الصمت طويلاً كأنهما كانا ينتظران المزيد . بعد حين تنبّه بنعيسى وقال متعجباً :

ـ كل هذا بالانجليزي ؟

ـ انجليزي جيّد . خذ اقرا .

أخذ الخلوقي الرسالة وقرأ بعض السطور ثم قال :

ـ والخط أيضاً لا باس به .

ثم بعد تأمّل :

ـ عندك بها غرض يا سي عمر ؟

ـ هذه تحفة توضع في إطار وتعلق فوق المكتب .

عارض شعيب :

ـ لا . هذا حرام . كانت نوبة وانفرجت بحمد الله . ما عندك بها غرض حق . اعطيها لسي بنعيسى .

ـ اسمع اسمع وخليها لي .

تردّد عمر ثم قال :

ـ خذها . ما أراد الفقيه أنا أمضيه .

الثلاثاء 5/14

III

ولكن من حرم التوفيق
استدبر الطريق
ونكل عن التحقيق

الغزالي

(19)

درجت سيارة الخلوقي مبتعدة عن حي أكدال في جو حالك مبلّل . . من حين إلى حين تسقط قطرات خفيفة فتتحرك مساحة الزجاج ويسمع لها صرير حزين . كانت السيارة من نوع بوجو 404 ، فاقت خمس سنوات ، مقاعدها مغطاة بجلد صناعي أسود ، داخلها بارد جدّاً . قطعت الطريق المحيطة بسور القصر إلى باب شالة ثم لوت على اليمين . قرر الخلوقي بصوت حادّ :

ـ هذه طريق الرماني وزحليكة .

فتعجب شعيب :

ـ زحليكة اذن موجودة . . ظنينا دائما انها خيالية مثل قرطاخنّة

ـ حتى قرطاخنة موجودة . كل شي في الدنيا يالفقيه ، يا لفقيه !. لو عرفتِ ما كاين في الدنيا !

صمت . ثم :

ـ ربما غضب عمر ؟ كان وجّد لسهرة طويلة معك . سمعته قال لك : عمرك ما تعرف كيف إنتهت حكاية ألف ليلة وليلة . .

ـ حكاية ما لها ساس ولا راس :

ـ بلا شك حكاية باب السويقة ؟

ـ عارفها ؟

ـ عارفها . . لكن من غيره . . من رجل يعرف المرأة وبنتها .

إخترقت السيارة شوارع فارغة مظلمة ، تحيط بها أشجار باسقة وعمارات متوسطة العلو . توقفت أمام عمارة تشبه عمارة حميدة أغرام ، عمارة موظفين صغار . تمتد حولها ساحة واسعة غير مبلطة ، مليئة بالسيارات القديمة الرابضة بدون نظام ، المدخل مظلم وكذلك الدرج . إعتذر

الخلوقي :

ـ أفتح لك الطريق ، الدار في الطابق الثالث .

الخلوقي . . رآه شعيب، كما تخيّله دائماً ، رجلاً مبشوراً ، كل شيء في وجهه واضح، عيناه واسعتان لوزيتان ، جبهته عريضة ، شعره سبط قمحي ، وجنتاه عاليتان ، أنفه قصير أخنس ، فمه واسع ، أسنانه ناصعة ، أذناه باديتان . . إذا كلّمك حدّق فيك بدون خجل ولا مراوغة ، وإذا كلّمته أنصت إليك بإنتباه ولم يقاطعك إلا لماماً . . يحب بلدته وكل ما يتصل بها . . تزوج منها ويعود إليها بانتظام . يهتم لكل ما يجري فيها . . كلما طرق مكتبه أحد من أولاد البلد خرج إليه مرحّباً وقضى حاجته بعد ان يسأله عن الكبير والصغير . . علم شعيب فيما بعد انه عندما إنتقل من القنيطرة إلى الرباط نفذ له بيت من البيوت الادارية الموجودة في مابيلا ، وكانت آنذاك أزمة السكن في العاصمة على أشدها . ففرح بما نال . . ثم تحسّنت حالته وارتقى في السلم وكان في وسعه ان ينتقل إلى حي أرقى ، في بيت مستقل ، لكنه لم يفعل . بقي وفياً لحي مابيلا ولشقته الوضيعة .

قاد شعيباً إلى قاعة الاستقبال قائلاً :

ـ تفضل ، هذي دارك !

ذهب إلى غرفة النوم ليلقي نظرة على زوجته وأولاده . ردّ الباب على نومهم العميق الهاديء وقصد المطبخ حيث أخذ من الثلاجة زجاجة ماء وضعها على صينية بلاستيك ثم بحث على كأسين عاديين وعاد إلى قاعة الاستقبال :

ـ الدار ما هي بحال الدار ، ياك يا لفقيه ؟

ـ كل واحد على قدره ! حتى انت ما خاصك خير الحمد لله .

ملأ الخلوقي الكأسين بالماء ثم قال :

ـ تعجبت لما خلاّك تخرج . . المعروف عليه انه يقبض ما يطلق . أنا قلت : الفقيه يتوسع عندي أكثر ، صح أو لا ؟

ـ صحّ والله صحّ وان كلكم عندي صباع عسل .

ـ كيف شفت حاله ؟

ـ بخير . . ربما تأثر بالمصايب . . كلها عجيبة ، مفاجآت . . وانت سمعت ، قال إنه مستعد يمشي للصديقية ويشجع بداية العملية . . هذا فوق ما كنت أتمنى .

ـ شف يا فقيه ، الحقيقة انه ما يقدر يمشي لا للصديقية ولا لغير الصديقية . . والكسر اللّي حصل له كان من حسن حظه . . هو الآن موقف ، هذا كل ما أعرف . السبب الحقيقي غير واضح . كان في سفر ، رجع ومشى من الغد إلى المكتب ، وجدهم بدلوا القفل . . الشاوش ما عنده خبر ، الكاتبة ما عندها خبر ، الزملاء ما عندهم خبر . حار . . ما عرف ما يعمل. رجع إلى الدار وبدأ الإتصالات. لا شك قال له الأصدقاء الأفضل ان يبقى في بيته حتى يأتيه قرار . من ذلك الوقت وهو ينتظر . . لا قرار ولا شي . . قالوا له يمكن ان يصل له استدعاء في كل لحظة ، عليه ان لا يتغيب . .

ـ وهذه الحالة تدوم ؟

ـ تدوم الشهور والسنين . . أو تنقلب في دقيقة واحدة . . مثل هذا الطقس ، طقس ابريل ، اليوم شتاء ، غداً شمس محرقة . .

بعد صمت :

ـ انا عارف انك تستيقظ مع الفجر . قبل ما أخليك تنام عندي سؤال : من أعطاك الفكرة . . فكرة تأسيس فريق على شكل جديد ؟

ـ والله لاحت لي وانا في الحافلة بين الصديقية والبيضاء .

ـ عجيب !

ـ ما هو الكشف ! وإلا ما بقي للفقه نفع .

ـ معقول .

قام الخلوقي ، في عينه بريق وعلى شفتيه نصف إبتسامة خجولة ثم قال :

ـ ليلة سعيدة يا فقيه .

(20)

وفي الصباح إستيقظ شعيب مبكراً كعادته . ذهب إلى بيت الماء وتوضأ ثم عاد إلى الغرفة وصلّى . وجد كل شيء مهيأ كما لو لم يبرح الصديقية . . زوجة الخلوقي ، بنت الشيخ العوني ، تعرف الأصول وتحافظ عليها . بعد الصلاة جلس شعيب يذكر ويطيل الذكر . بعد قليل دخل الخلوقي يقود ولديه ، عمر وعثمان ليسلّما على الفقيه . جاءت الزوجة بدورها ، سلّمت وسألت عن أخبار الصديقية . ثم خرجت وعادت حاملة صينية الشاي .

تعجب شعيب :

ـ ما عندكم خدام .

أجابت متنهدة :

ـ لا تسأل عن الخدّامات . . مشكلة كبيرة . .

جلس الخلوقي إلى المائدة مرتدياً لباس العمل ، تناول كأس شاي فائر ثم قال :

ـ والآن يا فقيه ، فصّل لي البرنامج .

أجاب شعيب بدون تردد :

ـ نحن الآن في البداية . الإتصالات الأولية . . إذا تعاطف قسم كبير من أولاد البلد مع الفكرة ننظم حفلة وندعو لها المتحمّسين ، نعلن عن تأسيس جمعية المساندة ونشرع في جمع التبرّعات . خطوة أولى ، محورها البيضاء . . الخطوة الثانية هي اختيار العناصر الشابّة المشبعة بالروح الرياضية لتكوين الفريق . ثم نبدأ في التداريب وفي مباشرة الترتيبات الإدارية .

ـ والفريق الحالي .

ـ الفكرة هي تأسيس فريق جديد تماماً ، لا علاقة له بالقديم . . القديم إما ينحلّ وإما يتجدّد وتكون بينه وبين فريقنا منافسة .

ـ هذا حلّ جذري .

ـ سي بنعيسى . . أنا أذكر الحكمة في التيه : قطع العلاقة مع عوائد الجيل القديم وتنشئة جيل جديد . . لا بد من سنة كاملة على الأقل من التدريب قبل التفكير في المباريات . وأثناء السنة يتمّ تنظيم جمعية المساندة .

بعد صمت :

ـ سي بنعيسى ، أعطيني كلمة ، انت معنا (أوْ لاَ) ؟

التفت الخلوقي بوجهه المبشور وحدّق في شعيب ثم قال :

ـ طبعـاً أنـا معكم . لكن لا يـدرج إسمي في اي لائحة ، كيف مـا كانت . . انت عارف . إنما المساندة فهي مضمونة .

ـ هذا هو المهمّ . وقل لي رأيك في المشروع .

ـ الآن ما زال عجينة ، خليها تخمر وتطيب ! من هنا أين ماشي ؟

ـ وزعت العمل مع حميدة . هو يتّصل بسي عبد الجليل الباشدور . وأنا أتصل في الرباط بك أنت وسي الغربي وفي القنيطرة بمختار وشّان .

قوّس الخلوقي حاجبيه :

ـ أنت ماشي للقنيطرة عند المختار . . سلّم عليه وقل له اني ما نسيته .

أحس شعيب ان الخلوقي لم يفصح عن كل ما خطر في بالـه حـول وشّان . فقرر أن يستنطقه عند مغادرة البيت .

ـ المهم أنك رضيت على الفكرة .

ـ أنا قلت لك . . خلّيها تنضج . . وما يكون إلا الخير . أنا خارج الآن للعمل . أوصلك للمحطة .

لاحظ شعيب وهـو نازل وراء الخلوقي أن الـدرج مليء بـالأوحـال التي ستبقى هناك أسبوعاً كاملاً دون ان ينتبه إليها أحد . لاحظ أيضـاً أن الأزبال متراكمة أمام مدخل البناية فقال :

ـ حميدة يسكن عمارة مثل هذه .

أجاب الخلوقي بدون إكتراث :

ـ بنـايـات إداريـة من عهـد الحمـايـة . تقـادمت ولا واحـد يفكّـر في تبييضها . . الساحـة كانت في الأصـل خضراء ليعلب فيهـا الأطفال . أنـظر حالها الآن . . هذا كلام طـويل نتـركه إلى منـاسبة أخـرى . خلّينا نـطلع في السيارة .

السيارة باردة تماماً كما كانت بـالأمس . لم يتغير الـطقس : غيوم ونشّ . قال شعيب :

ـ سي بنعيسى ، حسيت عندك كلام في حق وشّان . انصحني كيف أتصرف معه ؟

اشتغل الخلوقي بتسخين محرك السيارة ولم يجب في الحين . سكت حتى ظن شعيب انه كره الخوض في قضية وشّان . إنتظر إلى ان انخفض صوت المحرك وتحول إلى همهمة الزنابير ثم التفت قائلاً :

لما عينت في القنيطرة ما كان عندي خبر أنه ساكن فيها . حسبت انه ما زال في الشرق . كان عندي شغل محدّد ، خارج الإختصاصات العادية ، ما له علاقة بسكان المدينة . لكن من حين لحين كانت الكاتبة تغلط وتدفع لي ملفّات لا تعنيني . ألقي عليها نظرة وأردّها لأصحابها ومرة مرة كنت أناقش ما فيها. وما فيها كان يتعلق بشخص من نقابة مكتب البريد. كان يرفع باستمرار تقارير ضد وشّان. قال كذا، فعل كذا، ترك كذا، عوج كذا. كل واحد فهم ان الغرض شخصي . فلم أتدخل ما دامت الأمور في هذا المستوى ، لكن القضية بقيت في ذهني . . المختار في الحقيقة كان يهتم فقط بعائلته وتربية أولاده . . ثلاث أولاد ، بنت وزوج أولاد ، سجّلهم في مدرسة البعثة . يوصلهم حتى الباب كل يوم ويأخذهم من الباب . ويوم الأحد إما يذهب مع العائلة كلها إلى المهدية وإما يجلس في المقهى جنب ساحة البلدية . كان بيني وبينه نوع من الحشمة . إذا لقيته كان يحييني ، يقول لي كلمة أو كلمتين ويتابع طريقه. أنا من جهتي خلّيت الأمور هكذا . . لكن مرة ، على غير عادة ، ناداني من بعيد ، قطع الطريق وقال : السلام عليك ، سي بنعيسى ، عندي بك غرض . قلت : مرحباً . قال : بغيت ألقاك ، خارج المكتب . قلت : كما تحبّ ، نجلس في المقهى . قال : غداً إن شاء الله ، في مقهى فلوريدا على السادسة ، والسلام ؟ قلت : والسلام . أثناء المقابلة لاحظت ان مزاجه متغيّر . كما تعرف هو أعشى ، إذا كلّمك لا يحدق فيك ، ينظر إليك من الجانب . لكن هذي المرة حدق في طول اللقاء ، مقلته محمرة ، الحاجب مشعر ومقوس أكثر من العادة . . الحاصل اني بقيت أتردد في شانه . . الغد وصلت إلى مقهى فلوريدا على الساعة الخامسة ونصف ، وقت يتكدّس فيها أصحاب الكارنة والضامة والبيرة ويجتمع جنود

القاعدة البحرية حول آلات الفليبر . بلا شك اختار الساعة عن قصد . أخذت مقعدي داخل القاعة وعيني على الباب . ما دقّت السادسة حتى رأيته يمرّ أمام باب السينما ،كالعادة يكمع برجله اليمنى . دخل ، حيّاني ثم جلس . عرضت عليه ان يشرب بيرة مثلي فرفض وقال : سي الخلوقي ، بحق العشرة القديمة ورضى الوالدين ، تقضي لي حاجة . هذي قضية حيّرتني . . أحكيها لك من الأول . المدينة هذي أنا عمري ما عجبتني . أصحابها صعاب وأنا جيت لها ببز منّي . كنت وجدت راحتي هناك في الحدادة . سكانها أيضاً صعاب لكن بشكل آخر ، رجال كلمة وطريق ، لا زور ولا مراوغة . والهوى وافقني . قضيت هناك ست سنين ، نشطت وما مرضت ولا مرة واحدة . كما أنت عارف ، تزوجت من هناك . في الأول كانت صعوبات ، مني أنا . . ولكن بعون الله تغلّبنا عليها وبعد عام تفكت المشكلة وفرحنا ببنية . الأيام كانت صعبة ، أصعب من ايام البيضاء ، وبقت متوترة حتى بعد الاستقلال . المدينة كالسجن ، الداخل بإذن والخارج بإذن وبعد الغروب كل واحد قابع في عشّه . أنت عارف الأمور بالتفصيل . حسيت بالوحشة والعائلة اجتمعت كلها في البيضاء . قالوا : لا بد تقرب منا . لكن السبب الحقيقي هو اني رجعت مرة من الخدمة وجدت مولاة الدار واقفة تتكلم مع ولد الجيران ، شاب في سن الباكالوريا . ولد ناس ، مؤدب حاني رأسه ، ما عندي كلام لا فيه ولا في عائلته . ولكن ، سي الخلوقي ، كلّنا بشر . دخلني الشك في ذاك الوقت كان ولد عمي تعيّن في الرباط . كلّمته . قال لي : الإنتقال من الغد إلى البيضاء أو الرباط أو القنيطرة . اختر لنفسك . أخترت القنيطرة على ودّ السكنى ومستوى المعيشة . بعثت الطلب وبعد شهر جاء الجواب بالموافقة . . لكن هذا ما هو المهمّ . كما انت عارف أنا حضرت تأسيس النقابة . هذي أمور قانونية ، واخذة طريقها . ما فيها كلام . النقابة أنا فيها ، شي آخر غيرها ما أنا فيه . اللّي أعطاه الله أعطاه واللي فاز بشي يجلس في محله ويحمد الله . هذي عقيلتي وأنا عارف . . سي الخلوقي بلاني الله بواحد من جنون الدنيا ، سوّد الأيام في عيني . مخلوق عمل لي بحال الضرة . . يتكلّم في ظهري ، يغمز ، يلمز ، يضرب علي المعاني ، المكتب عندي الآن جهنم ، أحسب ماية حساب وحساب قبل ما

أمشي له . ومع ذلك ما هـذا المهمّ ، اللي همّني وحيّرني هو أني كنت عملت فيه الثقة . فتحت لـه قلبي وداري . كان يمشي لـلأسواق يتقضى لي وله . . على ما حال ، هنا داخلني الشك . . العيد الكبير الفايت قلت لمولاة الدار : نمشي للصديقية وتحلفي لي على التابـوت . قالت : إذا كـان الحلف يهنّيك ، أحلف لـك في مولاي ادريس وفي سبعـة رجال . مشينـا ، نزلنـا الأولاد عند جدّهم وطلعنا للضريح . وصلنا الباب إلتفت وجدت وجهها أصفر خرقوم ، يدها تترعد . صاحت على العتبة . أخذوهـا إلى الداخـل ، رشّوهـا بالمـاء . عادت ، رمشت ، لكن الوجه بقي على حاله ، انـا جلست بجانبهـا وقبضت عـلى يدهـا ، باردة كالثلج. لما رجعنـا للدار فحصها الـطبيب وقال : عنـدها القلب . الآن ها هي تاكل الحبوب ، ستـة في النهار . بقي حلف ؟ هـا هي تعمل وتعافر. . إذا غابت، كيف أعمل مع الأولاد وكلهم ما زالوا في المدرسة هذا هو الواقع . . لكن الشيطان ما هنّاني : فكرت وقلت : ما لها الا السيـد الخلّوقي ، يعرف باطن الأمور . العار بيني وبينك ، قل لي الحق . . اليـوم ، غداً ، بعد غـد . . ولا عليك ، المهم ان تطمني . نزل علي كلامه بحال الماء البارد . قلت له : هذا ما هـو شغلي ومـا عندي وسيلة . قـال : لا بد ، هـا العار . إذا ما عرفت أنت ، غيرك يعرف . . لا بد ولا بد . حدّقت فيـه وفي الأخيـر قلت له : خير ان شاء الله ، أعمل جهدي وفوق جهدي . الشخص اللّي تكلّمت عليه نحّيه من بالك ، ما يضرّ ما ينفـع . قال : سي بنعيسى ، راه النقـير ، يثقب الهند . ثم قـام وهـو يـوكّـد : مـا تنسـاني ! . مـا تنسـاني بحقّ الولي الصالح ! .

(21)

الساعة التاسعة . . مختار وشّان نازل في الدرج مـرتديـاً لباس العمـل ، السروال الحجري والقميص الأبيض . لبس فوق القميـص صـدرية صـوفية كثيفة . يسكن عمارة صغيرة كانت في الأصـل فيلا لأحـد قواد الجيش والآن تتقاسمها عائلتان : عائلة وشّان في الـطابق الأول وفي الأرضي عائلة مـوظف في البلدية . الموبيليت مركونة جنب الباب الحديدي . ألقى وشّان عليها نظرة وتركها حيث هي مفضلاً ان يمشي إلى البقال مشياً على الأقدام . السماء ملبّدة

بالغيوم والجو بارد لكن لا أثر للمطر ، جفنة السماء ما زالت غير ملآنة . . ردَّ الباب وراءه ، وضع يديه في جيبه وإتجه نحو حانوت البقال وهو يقول لنفسه : كل صباح ناقص شي ، القهوة ، السكر ، الخبز ، الحليب ، الزبدة، الغاز . . يظهر النقص لما نجلس الى المائدة ونمدّ ايدينا . . هي ما كرهت تخرج الأولاد للزنقة من الآن ! لا يا مولاتي خلّي الكبار اللي ما بقي فيهم فائدة . . بقالة الأرض كلهم عرفوني : حتى وأنا صغير . . الاميمة تقول لي : انا عارفة ما هذي نوبتك ولكن الحتروف ما بغي يتململ، أنت مرضي ، سر ، سر ، ما عرفت فين الخير؟ حتى اليوم الخير ما ظهر . . دارت الأيام ، قرينا، تمحنّا، خدمنا ، ما سرقنا ، ما كذبنا ، ما بعنا اخوانا وحالنا هو حالنا . . سر نيشان ، سر نيشان ، من قال الدنيا باغية نيشان ، من ؟ الأعور باغي الأعور والدهصيص . .

ـ صباح الخير اعطني حك نيستلي . خذ تخلص واعطيني الجريدة . .

تناول الجريدة وقرأ العناوين الكبرى

ـ الفتح غلب الستاد والواك في المرتبة الأولى .

غادر البقال وهو يقول : لعن الله الشيطان ، نسيت النظاظير . . حذّرني الطبيب ، إلتهاب الأجفان حوّل الشفر للداخل . مرة مرة يحكّ المقلة ويحمّرها . إذا ساءت الحالة لا بد من عملية . من هنا لثمة لها مدبّر حكيم .

وتذكر الخطبة أمام الوزير الجديد عندما زار منطقة الحدادة . كان ذلك قبل تأسيس الفيدرالية . هنأه الوزير متعجباً : ما كنت أعرف انك صاحب سيبويه . . ايواه ما تفرط . شجّعه حتى سافر إلى البيضاء وترشّح وانتخب في المكتب . ثم اجتاز الامتحان الأول والثاني وفتحت أمامه أبواب الأمل ، حتى جاءت المصيبة والتهبت الشفرة وتردد على الأطبّاء خفية يؤدي من جيبه خائفاً ان تعلم الإدارة ان بصره في تناقص فتحيله على التقاعد المبكّر . لكن القضية مرت بسلام ، لم يطلع على السر أحد ، سوى الوالد الذي لم يخف عليه أمر من أموره . سبحان الله كان يعرف كيف يستنطق الناس ! .

منذ أربعة أشهر وهو حبيس البيت لا يخرج إلا لشراء ما يلزم او لمرافقة الأولاد للمدرسة . منحه الطبيب إجازة مرض . لا يدري بعد شهرين هل

يجدّدها الطبيب ام لا . الرجوع الى العمل في هذه المدينة البئيسة مستحيل . . القيظ ، الرطوبة ، خشونة السكان . . أمور لم يعد يتحملها ، يشتكي منها باستمرار . .

طرق الباب فجاءت ابنته نوره . أخذت منه الحليب ومرقت نحو المطبخ . قصد الصالة وجلس الى المائدة منتظراً طعام الإفطار . فكّر وقال : لا بد أن أكتب رسالة ، مثل الخطبة أمام الوزير . عندي الوقت الكافي . أفصّل فيها كل شي واطلب المساعدة . هذا واجب عليهم بعد الأدوار اللي قمت بها والأسفار اللي خلصتها من جيبي . أبدأ من البداية . .

ـ بابا قالت لنا الاستاذة نهيء هذا الموضوع .

أخذ الكناش من يد ابنته وقرأ ، مكتوباً بخط جميل منمّق : الزمن كالسيف إذا لم تقطعه قطعك .

فكّر طويلاً ثم قال :

ـ هذي أستاذة شابة نقصتها التجربة .

أجابت نوره وعلى وجهها علامات الغضب :

ـ دائماً تعطينا مواضيع حاروا فيها الكبار . مسيو برنابي يعطينا مسائل نسمع عنها كل يوم في الراديو . المرة الفايتة كان السؤال : فوائد السفر إلى القمر ؟

ـ ولكن هذي الاستاذة أحسن من أستاذ العام الماضي اللي كان كلامه كله على قيام الساعة .

ـ هذاك كان يخوفنا . والموضوع ؟

ـ فسرته لكم أو لا ؟

ـ هي قالت لنا : اسألوا ابواتكم .

ـ نبدأ بعد الفطور .

سمع صوت ابنه فريد يصيح في قاعة النوم : ها الشتا ! إلتفت نحو النافذة التي لم تكن تحجبها أية خامية ورأى بعض القطرات تنزلق على الزجاج . تاه . المثل ينطبق على قصتي تماماً . . ايواه إنتظر . . إمتى . . أصبر . . والأيام تجري وفي النهاية لا شي . أما اللي عرفوا حق الزمن وزنوا

الأمور بالدقيقة . . عرفوا الوزيعة ما تدوم طول الأيام . . ثلاثة . . ستة شهور . انا حسيت بها . . كتبت ، تكلّمت ولكن مع من ؟ اللي وحده وحده ! قلت له : يا أخي ، أنا هنا وكل شي قدامي . . فلان وفلان وفلان عرفوا ما عملوا ، الإدارة الآن في حاجة . نطلب حقنا . . هذا حق ضاع منا أيام الاستعمار ، الاستعمار مشى بلا رجعة ، حقنا يرجع لنا . . ولكن . . ولكن . سكت حتى دارت الدورة ولما جا الجواب ما فيه الا : أصبر : اياك تعمل حاجة قبل عطلة الصيف . يا سيدي هذا الخريف ، في الصيف يكون ما بقي كلام ، كل واحد يكون حفر حفره وتخبّا فيها . . هذي حكاية ما تصلح ، أبحث على حكاية أخرى .

ـ نوره !

ـ بابا . .

ـ خلّي عليك أمثال الحروب والسياسة والتجارة . . خوذي مثل الدراسة . إذا كان الاستاذ يفسر قضية وغبت عنها ، عمرك ما تفهمها من بعد . قالوا : تعليم الصغر كالنقش في الحجر ، اللي ما تعلم يكتب وهو ولد خمس سنين ما يتعلم وهو مسوّد الخدين . كل حاجة لها وقت ، الحرّاثة عرفوا القضية ، القمح في وقته والشعير في وقته والزوان في وقته ، إذا فات الوقت ضاع العام . هكذا . . فهمت ؟

قالت نوره بغضب :

ـ بارد . . موضوع بارد يخفض المعدّل .

تبسم وشّان لأول مرة منذ أن قام من الفراش .

ـ كيف نسخّنه ؟ بالحرب ؟ نابوليون ؟ هتلر ؟

ـ واه !. واه !. هتلر .

ـ إحكي قضية دخوله لروسيا . تأخّر بشهر لأسباب . . وهو كان عوّل على وصول الجيش ابواب موسكو في مدة شهرين قبل فصل الشتاء . لكن الشتاء بكّر . . الوقت قطع جيش هتلر كما قطع جيش نابوليون .

إنفتح وجه نوره واستقامت كأنها تحمل رشاشاً :

ـ طك !. طك !. ططك !. معدل الحرارة ارتفع .

وخرجت .

إلتفت وشّان نحو النافذة . . قطرات قليلة تجري على الزجاج . . بدا للمطر ان ينتظر أواسط النهار قبل ان يتساقط بغزارة . أخرج علبة السجاير من جيبه وأشعل لفّافة . قبل سنوات قرّر ان يحارب عادة التدخين إشفاقاً على صحّته وعلى ماله ، وكاد أن يتغلب عليها . لكن بعد أن حصل ما حصل لم يعد يرى فائدة في المجاهدة . دخلت زوجته لتنظيف الصالة . قال لها :

ـ خلّي المايدة . . لازم اكتب رسالة .

ذهب إلى غرفة الأطفال ورجع بورقة وقلم بيك . جلس إلى المائدة وبدأ يكتب . سيدي ، تقابلنا في المؤتمر الذي عقد قبل خمس سنين ، مؤتمر سياسة الخبز . . أكتب إليك لأخبرك بالحالة المأسوية التي تعيشها هذه المدينة البائسة . القنيطرة مدينة نشيطة في العمل النقابي كما أكّدت ذلك في خطابك أمام المؤتمر . لكن منذ ذلك التاريخ تغيّرت الأوضاع ، عندما ظهر بيننا شيطان مارد دخل بين الجلد والعظم وفرق بين الأخ وأخيه والزوج وزوجته فخرب المنظمة بأكملها ، وذلك لا لهدف سوى خدمة الأغراض الشخصية . يروّج أننا ابتعدنا عن العمل النقابي . منذ ان كنت وأنا أبغض كل ما يفرق الجماعة ويقسم العائلة . .

توقف ليقرأ ما كتب . أخذ الورقة ومزّقها . ذهب إلى غرفة الأطفال وعاد بورقة أخرى . جلس وبدأ يفكّر . أحكي له قصّتي من أولها إلى آخرها . . كيف كنت تلميذاً مجتهداً وكيف كان مدير المدرسة يشجعني ويقول : لو كنت تسكن مدينة كبرى لكنت أحرزت على منحة لمتابعة الدراسة الى قسم الباكالوريا . لكن عام الشهادة جاء الجراد . كنا نخرج في الصباح نجمعه ، نسلقه ونأكله بالملح . ثم مرضت بالحمى . أسبوع كامل وانا بين الحياة والموت . سقط شعري ونقص بصري . ولما برأت ذهبت لأقابل مدير المدرسة . قال : الحالة صعبة ، لا أمل في المنحة . أطلب وظيفة إذا أمكن . كاتبت عدة إدارات فكانت تردّ بنفس العبارة : عملية التوظيف توقّفت . بقيت هكذا سنتين لا أعمل ، إلى أن دقّت طبول الحرب .

أحجم عن الكتابة مرة ثانية . قرأ ما كتب ثم مزّق الورقة قائلاً في نفسه : أسلوب لا ينفع .

رفع بصره إلى النافذة المبلّلة . كانت بعض القطرات لاصقة على الزجاج كأن المطر قد توقّف تماماً . في هذه اللحظة رنّ الجرس الخارجي رنّة ضعيفة تنمّ عن تردد الطارق .

ـ نوره !. الباب . .

نادى ابنته بأعلى صوته لأنه كان يخاف ان يقول الجيران للطارق كالعادة : فلان . . ما هو هنا . يقولون ذلك ويردّون الباب بعنف . فيتخوف الزائر ويرجع القهقرى دون ان يعرف هل وشّان متغيب أو غير معروف في الحومة أو رحل . تكلم مراراً مع جاره الموظف في البلدية دون جدوى . يبتسم ويقول : الله ، هذا شغل النساء !

عادت نوره :

ـ بابا . . هذا رجل يسأل عليك ، اسمه الفقيه الصباغ .

ـ من ؟

ـ الصباغ من الصدّيقية .

ـ آه !. الفقيه ، قولي له يطلع .

قام وشّان وقصد المطبخ ليطلب من زوجته ان تهيء الشاي . . بالنعنع والشيبة .

الثلاثاء 5/14

IV

مقاييسنا مستعارة فنحن أفاقيسون

هنري د. ثورو

(22)

كـان الخلوقي يُعرف بـين تلاميـذ إبتدائيـة الصديقيـة بـالجنـرال لسببـين اثنين . كانت له فرقة يقودهـا في معارك الحق والبـاطل وكـان أبوه قـد خاض حرب الأندوشين وتاه في أدغالها . كان الناس يقولون : لو ما توفي بغتة لكان أول جنرال مسلم ، الكتاني وغيـره كانـوا قدامـه بحال الـريح . . . من قـال هذا ؟ جندي عـائد من هنـاك أم شواف يضـرب الخط الزنـاتي ؟ طول صبـاه والخلوقي ينتظر سنّ الرشد واستدعاء الجيش ليحل محل والده . لذلك أهمـل عمله المـدرسي . أحرز بصعـوبة عـلى الشهادة ، تـابع الـدراسة في البيضـاء سنتـين وبعض السنـة ثم غـاب عن الأنـظار . قيـل إنـه استـدعي للخـدمـة العسكرية ، لكن غيابه لم يدم سوى ستة أشهر ، عاد بعدها إلى المدينة وعاش مع أمه وتحت كفالة عمه عيشة كسل وبطالة . لم يتعجب أحد من هذه العودة ولم يتعمق في أسبابها كما لو كانت أمراً منتظراً .

عاد الخلوقي إلى درب الخرصـة حيث كان يسكن عمّـه ، الدرب الـذي سمي فيها بعد بـدرب الشيخ العـوني ، إكرامـاً لهذا الشيـخ الجليل الـذي فرّ بدينه من عاصمة الشمال ولجأ إلى الصديقية قبيل الحرب العالمية الثانية . كان الدرب في الأصل داراً واحدة ، جزئت فيها بعد إلى ثلاثة مسـاكن ، بيع كـل مسكن على حدة . يدل على ذلك القوس فوق الباب الخـارجي وعلى الأرض آثار الرتاج . منذ أن سكن الشيخ في الدرب وهذا الأخير يعتبـر كأنـه سطوان داخلي وأبواب المساكن الثلاثة كأنها أبـواب غرف داخـل دار واحدة . عـاش الخلوقي مع عمّه تحت ظلّ الشيخ العوني ، يطلع إلى السطح مختفياً بـالغسيل المنشـور ويبقى هناك السـاعات الـطوال حتى يخرج الشيـخ من غرفتـه عاري الرأس لابساً دراعة بيضاء ليتـوضأ جـالساً عـلى كرسي خشبي واطي . لم يـر

أبداً الخلوقي بجانب الشيخ لا زوجته ولا أحد أبنائه ولا أحداً من الخدم . يراه دائماً وحيداً برأسه الحليق ، ما عدا أمارة قرن في الجانب الأيمن ، ولحيته الممشوطة المصبوغة بالحنّاء ، يتوضّأ ثم يعود إلى غرفته . بعد ذلك تنبعث الحياة في الدار . تظهر الزوجة بوجهها الوضّاء وملابسها البيضاء ، وتظهر ابنتها التي لا تفارقها أبداً وتشبهها في الخلقة والوقفة والمشية . كان الشيخ لا يغادر الدار قط والزوجة والأولاد لا يخرجون إلا لماماً ، إذ كان الأولاد يتلقون تعليمهم في الدار تحت مراقبة الأم التي كانت تحسن القراءة والكتابة .

عندما بلغ الخلّوقي سنّ العاشرة طرق عمّه دار الشيخ وقال للحارس الأسود : بغينا نستبرك للولد . غاب الحارس مدّة ثم رجع بالجواب : جي بعد العصر . ذهب العم الى السوق واشترى عشرة أرطال من التمر . تغدّى ، نام ، صلّى العصر ثم نادى على بنعيسى وقبض على ذراعه الأيسر كما لو كان يخاف عليه من نزوات الشيطان . فتح لهما الباب الحارس الأسود وقادهما عبر دهليز مظلم . كانت هذه أول مرة يجتاز فيها بنعيسى عتبة الشيخ . لاحظ أن للدار مراحين وفهم أن المراح الذي كان يشرف عليه من السطح خاص بالشيخ لا يدخله أحد إلا بإشارة منه . وقف الحارس أمام باب الغرفة ، أخذ من يد العم كيس التمر ثم رفع الخامية قائلاً : هذي بركة من عند جارنا . وأفسح الباب للعم والطفل . نزع العم البلغة والطفل السندال . كان الشيخ جالساً على سجاد في هيئة مَنْ لم ينته بعد من صلاته ، على رأسه شاشية قمحية ، فوق قميصه الناصع البياض فرجية ملف ، لحيته المصبوغة بالحناء تبدو رومانية في ظل الغرفة . تقدم العم وتساقط على الشيخ مقبلاً رأسه ثم دفع بنعيسى من رقبته ورماه في حجر الشيخ . وضع الشيخ العوني يديه على رأس الخلوقي وهو يتمتم دعاء لا يُسمع . ثم أجلسه أمامه ، قبض على وجهه بكلتا كفّيه ، حدّق فيه بعينيه الزرقاوين العميقتين . لم ير بنعيسى من قبل رجلاً ذا لحية حمراء وعينين زرقاوين . حدّق فيه الشيخ طويلاً ثم ربّت على رأسه ونفخ بقوة في وجهه وهو يقول : مرضي ، إن شاء الله ، مرضي ، الله يحفظه من عين الشيطان . قالها مرتين ثم سكن . عندئذ ظهر الحارس وراء الخامية . قام العم وقبل مرة ثانية رأس الشيخ وخرج قابضاً

على ذراع بنعيسى .

بعد أيام قليلة اعترض الحارس الأسود طريق الخلوقي قائلاً : تكلّم للسيدة . فتح له باب الدهليز . دخل وهو يرتجف . وجد فاطمة الزهراء التي قادته إلى أمها . كانت زوجة الشيخ جالسة أمام مائدة فوقها طبق كعك وإبريق قهوة يفوح برائحة القرفة . قالت :

ـ زد يا وليدي ، الله يحفظك ، أقعد حذاي .

أخذت كعكة من الطبق ، طلتها بالزبدة والعسل وقدمتها إليه . بينما كان يأكل كانت تمسّد يديه وخدّيه وشعره وتقول :

ـ عطية الرحمن ! الشعر حرير ، والعين مكحلة والمنخار شفرة ! يا وليدي ، من أين جيت بكل هذا الخير ، تبغي تجي عند حبيبتك ؟

كان ينظر إليها وينظر إلى إبنتها ، هذه بيضاء حليب وتلك جبنة مقطرّة . لم يقل شيئاً . لم يسأل عن أحمد ومحمد ، ولدي الشيخ .

قالت السيدة :

ـ يا وليدي ، ما ترعب . الشيخ نفخ فيك . أنت الآن ولد الدار . تستأنس بنا ونستأنس بك .

وفعلاً عاد مرات ومرات حتى أصبح ينام على ركبة السيدة وهي لا تكف تربت على رأسه كما لو كان قطة الدار . شغف بالمكوث في دار الشيخ حتى كان ينسى أن يذهب إلى المدرسة الحكومية . ستر الأمر على أمه لكي لا يدخل الحسد إلى قلبها . طوال هذه الأعوام لم يكن يرى الشيخ ولا كان يخاطب فاطمة الزهراء التي كانت باستمرار جالسة جنب أمها كالصنم لا تتحرك ولا تتكلم . تعلّم الخلوقي من السيدة أخباراً وأحاديث وبعض الآيات القرآنية ، فعوض بذلك عما فاته من تعليم المدرسة .

وتتابعت الأيام . كبر بنعيسى وشبّت فاطمة الزهراء . أستدعي للتجنيد ثم عاد واستأنف حياته القديمة فيما تفرّق زملاؤه على المدن الكبرى ، بل منهم من سافر إلى الخارج لإتمام دراسته . وهو لا يبرح درب الشيخ العوني . ثم تغيرت الأحوال . . . تأزمت الأوضاع فجأة وتفجرّت ثم انفرجت على ما

لم يكن يتصوّره الكثيرون . لكن بنعيسى ، الـذي توقف عن دراستـه والذي عـاش سنـوات طـويلة كـالـطير في عشّـه ، انتبـه في الحـال عـلى مـوعـد مـع الأحداث . جمع حوائجه القليلة وغادر الصديقية قاصـداً العاصمـة . توظّف وكـان من أول المبعـوثـين لحلقـات التـدريب . عـاد بعـد سنتـين وعــيّن في القنيطرة . قبل أن يلتحق بمقرّ عمله جاء إلى الصديقية . كـان عمّه قـد توفي منـذ ما يقـرب من سنة . فـطلب من أمّه أن تخـطب له فـاطمة الـزهراء . لم تمكث طـويـلاً في دار الجيـران . عادت وقـالت الشيخ طلبـك يا وليـدي . إجتاز العتبة وهو يشعر بمـا شعر بـه أول مرة وهـو يتبع البـوّاب الذي تقـوّس ظهـره ودمعت عينه . دخـل الغرفـة فوجـد الشيـخ العـوني جـالسـاً في نفس الموضع ، هذه المرّة كلّه بياض من العمامة إلى اللحية إلى الفـراجية . قـال : أقعـد قدامي أنت ولـد الدار . من اليـوم الأول توسّمت فيـك الخير . البنت مكتوبة لك خذها . أدخل عليها بالخـير تدخـل عليك بـالعافيـة . أنا طلّقت الـدنيا هـذه ثلاثـين سنة . مـا عندي بهـا غـرض لكن مـا أنـا من أصحـاب الخلوة . كل واحد بحقّه في الدنيـا ولا تنس نصيبَك من الـدنيا . نصيبـك يا وليدي هو الكلْمة . كل شيء دائـر عليها . بهـا يصلح الله الخلق . أنت مع الكلمة أينما كانت . ما تفرط فيها لا تعرض عنها . كل شيء يعوّض بهـا ولا شيء يعـوّضها . سمعت يـا ولـدي ؟ وعيت ؟ سـر في حفظ الله . أوصيـك بـأحمد ومحمـد كلكم أهلي لا فـرق ، كل واحـد يعصّب على الجميـع والمعوّل عليـك . كل خـير تعمله يـوقيـك شـرّ النـاس . الله يـرضي عليـك ويـزّين أعمالك .

منـذ ذلك الحـين أصبحت عائلة الشيـخ عائلة الخلّوقي . اتّبـع نصيحـة الشيخ بالحرف . بل عاش مع ظلّ الشيخ . ينظر إلى فاطمة الزهـراء ، بعد أن تعبت وحملت وولـدت ، فيراهـا كما رآهـا جنب أمّها في درب الخـرصة ، ينظر إليها فيهفو قلبه وتبتلّ عينه ويقـول في خاطـره : جبنة ، جبنـة مقطّرة . الدنيا في عينه كلها درب العوني وكلها تقول بصوت واحـد : احفظ الكاف ، الكاف يحفظك .

(23)

قاد الخلوقي سيارتـه الشخصية من نـوع رينو 4 إلى المـربض وراء موقف الحافلة رقم 25 . الجو قاتم والرجال يرتدون معاطف جلديـة كرجـال المطافيء أو جـلاليب درعية مشمّعـة كالجـزارين . إلتفت يميناً فقـرأ مجـوهـرات النيـل وشمالاً فقرأ خياط فلسطين وبجـانبه جـزار الأصدقـاء . قصد بـائع الحبـوب الذي ابتسم له ابتسامة عريضة :

ـ صباح الخير . يوم سعد وبركة . آش تحبّ الخاطر ؟

ـ قنطار قمح للطحين .

ـ موجود . . فين السيارة ؟

ـ ها هي ، باينة .

ـ صافي ، سر اقض حاجتك .

إبتعـد الخلوقي تجاه سـوق البراريـك . . رغم حالـة الطقس كـان البيع والشراء فيه على أشدّه . سوق الفقراء والمحـرومين يغشـاه الباعـة المتجوّلـون الذين لا يؤدّون الضرائب والمكوس . لذا يقصده أيضاً الموسرون من الأحياء المجاورة . يأتي بنعيسى إلى هنا مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع ، معتبراً أن حضـوره يساوي قـراءة عشرة تقـارير . هنـا يلاحظ التـداخـل بـين الفئات ، الإجتماعية ويتلمّس مستوى العيش الحقيقي . رافقه مرة ولده عثمان وهو في العاشرة من عمره وكان اليوم حارّاً والازدحام شديداً فقال الطفل :

ـ هـذا المحلّ يعجبني يـا بابـا ، بحال المكينـة اللّي تفـرجنـا عـلى مغـرب زمان .

كلمة سمعها في المدرسة أو قرأها في كتاب .

يستـطيع الخلوقي إن يبعث الشـاوش إلى سوق سـلا أو سوق تمـارة كـما يفعل غيره ، لكنه كان يفضل أن يأتي الى هذا الحي وأن يشتري بيـده الأشياء الضرورية . . الدافع الخفي ؟ ربما التشابه بين هذا السوق وسـوق الصديقيـة كما كان يتذكرها من عهد الصبا . . . منتوجـات ، صنائـع ، توابـل . . . لا توجد إلا هنا . مغرب زمان ، كان الرجل صاحب الكلمة يـذهب بنفسه إلى

السوق ، يتسوّق بلا شيء ويقول : الخير موجود ، العيشة رخيصة ، واللّي ما يحمد النعمة يعجل بالنقمة ! بنعيسى الخلوقي يذهب إلى السوق بنفسه ، يشتري ويدفع ويقول : هكذا خلقنا ، مع الناس وضمن الناس ، نؤمّنهم ، نوقّرهم ونرى ما يفعل الله بنا جميعاً .

وراء السوق تمتدّ براريك القزدير بأزقتها وشوارعها المرقّمة ، يصلها الماء والكهرباء والبريد . يشاهدها بنعيسى ولا يسأم .

اشترى اللحم والخضر والفواكه ، وعندما عاد إلى السيارة وجد مساعد بائع الحبوب ينتظره بكيس الطحين . فتح صندوق السيارة وأدخل الكيس ثم ذهب عند الطحّان وأدّى ثمن القمح والطحن دون أن ينسى واجب المساعد . عندئذ رجع إلى السيارة مرتاح البال .

منذ أن سكن حي مابيلا وهو يرفض شراء الخبز من المخابز العمومية . يقول الخبز الطويل قليل البركة يتسبّب في القبض . تعجن زوجته الخبز بيدها وتبعثه إلى فرن حي التقدّم كما لو كانت ما زالت تعيش في درب الخرصة وراء أسوار الصدّيقية . عندها في الشقّة غرفة حمّام ومع ذلك تذهب كل يوم سبت إلى الحمّام العمومي . . عادة الصدّيقية . مما شجّع الخلّوقي على البقاء في حي مابيلا .

وجد أحد أولاد الحي واقفاً أمام باب العمارة . فطلب منه أن يعينه على حمل الكيس . عند رأس الدرج نقر الباب . فتح ابنه عمر فقال له :

ـ انزل خذ القفّة .

كانت الزوجة جالسة في الصالة تشرب كأس شاي وتستريح من أشغال الصبيحة . قدّمت إلى زوجها كأساً . تناوله وجلس ثم سأل :

ـ متى مشينا للصديقية آخر مرّة ؟

ـ بداية الصيف الفايت .

ـ هذا عام تقريباً .

ـ إيّاه .

ـ غير تنتهي الدراسة نسافر . نبكرّ هذي السنة .

نادى على ولديه فجاءا متلاحقين . قال لعمر :

ـ بغيت تمشي عند جدّك ؟

رفع الطفل ذراعيه إلى السماء صائحاً :

ـ أوه ويه ! أوه ويه !

بينما وقف عثمان ساكناً لا يبدي أي إنفعال . قالت الزوجة :

ـ هذا ولد جدّه .

وعنّقته بحرارة . قام بنعيسى وضمّ إليه ولديه الواحد بعد الآخر . ثم وضع قبلة على خدّ زوجته الأيمن وقصد الباب قائلاً :

ـ هذا وقت العمل .

(24)

أعاد بنعيسى قراءة الورقة التي كانت بين يديه :

إن ما يجب أن نذكّر به بلا ملل هو ضرورة الحفاظ على الخلايا الطبيعية . إن الفرد لا يحبّ العزلة والدولة لا تستطيع حالياً أن توفّر له كل الخدمات التي يتمنّاها ، فمن الأجدى أن يجدها في الجمعيات والأندية والتعاونيات التي يجب أن تغطّي كل أنحاء البلاد . . . ظن البعض أن واجبهم القضاء على التكتّلات الطبيعية دون أن يعوّضوها بتكتلات أخرى تقوم بنفس الدور . فنشأ فراغ إجتماعي ونفساني . كانوا يقولون : يجب أن نخلق وعياً بالفردانية . . دلّت التجربة على أنهم ارتكبوا خطأ قاتلاً . . بعد الإعتراف بالخطأ حاولوا الرجوع إلى الوراء وإحياء التكتلات القديمة . نجحوا نسبياً إذ القديم لا يظهر دائماً قديماً ، بل يصبح مع التقادم والنسيان جديداً في حين يبدو الجديد بعد قليل قديماً . إلا أن التكتلات القديمة كانت تملأ حيزاً ضيقاً من المجتمع وكانت وسائلها في مستوى فعالياتها . الآن هي عاجزة عن أن تتصدّر الحياة الإجتماعية . . كان لا بدّ من الإبداع . وفعلاً فكرنا وخططنا ونجحنا . . لن يمرّ وقت طويل حتى يكون الفرد قد انسلخ عن فردانيته المستوردة ، في المدن وفي القرى ، فلا يخاف عليه من اليأس والغيظ اللذين يدفعان الناس دفعاً إلى التمرّد والإجرام . نكون قد أعطينا

لكل فرد جنينة خاصة به ، يحملها معه أينما ذهب ، يتفيّأ ظلالها ويسرح في ممرّاتها بين الأشجار والزهور .

.. ماذا يريد الفرد ، أي فرد ، إذ يفارق عهد الصبا ؟ المال ؟ العلم ؟ الجاه ؟ السعادة ؟ نعم . لكن قبل كل هذه الأمور يريد الراحة ، الطمأنينة ... وهذا ما توفرّه له الجمعيات .. لولاها لما عرف كيف ولا أين يسير .. لولاها لكان مثل رائد الفضاء الذي لا يتحكّم في حركات جسده ..

.. ومشروع الصديقية ؟ الصديقية مدينة هادئة ، سكّانها فقراء لكنهم سعداء . الأيام تتابع متماثلة ، الإبن يشبه أباه والبنت تشبه أمّها ، النهر هو النهر والولي هو الولي ... فيها جمعيات خيرية ، ثقافية ، رياضية .... دائرة خضراء ، ساحة أمن واطمئنان .. ما الدافع إلى تكتّل جديد ؟! شعيب الصبّاغ ؟ طبعاً عاش مدة خارج المدينة ، لكنه منها وإليها زيادة على أنه تمرّن وأصبح يعرف الأصول . أغرام ؟ يعيش الآن خارج الصديقية مثل الأشخاص الذين اقترحت أسماؤهم ليرعوا الجمعية الجديدة .. إذا ما تأسّست فستكون في النهاية مثل التكتلات الأخرى ويصعب على السكان أن يروا فرقاً بين قديمها وحديثها ..

.. نعم ، لكن هل الفكرة الأصلية جامعة مانعة حقاً ؟!

نزع النظارة من على عينيه وفكّر طويلاً . استحضر في ذهنه المدينة العتيقة ودرب الخرصة ووجه الشيخ العوني والنهر والسياج الأخضر ثم أفاق من تيهه وضغط على زرّ تحت المكتب فدخل الشاوش :

- جا سي المدير ؟

- وصل هذي دقيقة وأعطى أوامر صارمة .. ربع ساعة راحة تامّة .

- فاهم ..

وعاد الخلوقي إلى تأمّلاته .. صحيح .. لا يمكن أن تسبقني الأحداث .. أعرف كل واحد منهم أكثر مما يعرف هو نفسه . أتساءل في حقّ الصبّاغ والصبّاغ وحده . أعطيت له فرصة ذهبية ، سيّب كل شيء

ودفن رأسه في ضباب الصديقية . لماذا ؟ أتعجب ولا أتعجب . قد يقول البرّاني : هذا أمر غير طبيعي ، غير مألوف لكن أنا من أبناء الصديقية وأعرف كيف تستميل المدينة العتيقة أبناءها . . جرم من الأجرام السيارة ! مريخ مسكون ! من دخله غاب عن الدنيا وتحلّل من قوانينها المعهودة . ثم هناك دور الزوجة . يغفل الناس عادة عن تأثير الحياة الزوجية في سلوك البشر . أنظر سعادة المدير ، حيويته ، نشاطه ، فعاليته ، كل ذلك ناتج عن تعاسة حياته الزوجية . . أنا والحمد لله ما عندي مشكل ، هذه بركة الشيخ . . . نعم حان الوقت ، نزوره ، نتفقّد أحواله وننتفع بنسكه .

طرق الباب . دخل الشاوش يحمل في يده ورقة مطبوعة . وضعها فوق المكتب . لحظها بنعيسى ثم نظر إلى ساعته اليدوية . وأخيراً رفع سمّاعة التليفون :

ـ صباح الخير . . ممكن أتى الآن ؟

أخذ الملفّ بعد ان كتب عليه بخط واضح اسم الصبّاغ ثم قصد مكتب المدير .

ـ صباح النور . . بقيت البارح الى التاسعة . . كيف كانت الأمور ؟

نزع المدير نظارتيه العريضتين الملوّنتين من فوق أنفه المنتفخ فتجلّى وجهه المبرقع بآثار الجدري . سكت طويلاً وهو يمسح الزجاجتين باهتمام كبير . ثم قال :

ـ كالعادة . . لا جديد .

ثم زاد :

ـ الوقت الوحيد اللي استمتع فيه بالراحة هو هذي الدقيقة . . سيجارة الصباح . . نصيحة واحدة . . لا تتزوج بنت العم . . مصيبة . تقول : من جلدي ودمي ، عارفة فاهمة . . الواقع هو العكس ، ما تسمع ما تفهم . . كلمة كلمتين ها هي في الطريق ، واخذه الأولاد كأنها صنعتهم وحدها . لكن اللّي كان كان . . فكّرتني وانت مع من ؟

ضحك بنعيسى ثم أجاب :

ـ بعيدة عني بعد السماء عن الأرض. بنت فقيه لا يعرف غير العبادة . لما

دخل داره في الصديقية عمره ما خرج منها . .

ـ فرحتك وسعادتك .

مدّ يده وأخذ الملف . ألقى عليه نظرة خاطفة :

ـ ضروري ندخل في التفاصيل ؟

ـ لا . . قضية تهمّني شخصياً . أعرف كل العناصر .

ـ طيب . .

ردّ اليه الملف معلناً بذلك نهاية المقابلة .

عاد بنعيسى إلى مكتبه وهو يتساءل: أما كان الأفضل ان أدخل في بعض التفاصيل ؟ لا . . بالتأكيد . على أي حال سأكون في عين المكان . . إذا جدّ جديد سأتصرّف . لكن الآن أنا وحدي ، لا شريك لي ولا ظهير !.

الثلاثاء 3/12

تقول أعيش
وَأنت تدفن كل يَوم
مَاضيك الغالي

روبير برازياك

(25)

ـ وماذا في الأخبار ؟

ـ كل ما تحبّ وتريد . في بلغاريا تحطّم سد وغرق جمّ غفير في الغيس . في هنغاريا دهص قطار سريع أحد الطيارين كان ينتظر على الرصيف . في صيقلية فتاة تقشر ليمونة فتجد داخلها رسالة حبّ . في الجزائر زعيم سياسي يهرب من المعتقل . في أمريكا مجرم كان يقتل الناس ثم يزور قبورهم بإستمرار . جوارنا في بوسكورة عثر على جثة إمرأة لا يزيد عمرها على العشرين سنة . . بعد موسم الأمطار ها موسم الأزهار ، أزهار في الجنان وألوان في السطوان ، اصبغوا بصباغة ما تتعب ، بصباغة ما تذهب ، بصباغة . .

ـ سيدي زوين . . خلّينا . .

ـ لا ، خبر يهمك ، يوم 11 مقابلة في كرة القدم بين فريقين من انجلترا : فريقين نسويين .

ـ ومقابلة اليوم ، ماذا عنها ؟

ـ أولاً خبر سارّ آخر . مقابلات البطولة العالمية ستنقل الى المغرب وبالمناسبة تنظم شركة ثومسون مسابقة تخصّص لها جوائز مغرية . أما مقابلة اليوم حاضر فيها الخلفي وميلازو وروبيو وبايجة مع حمّان وحميد . لكن الفوز في جانب الروس . يقول المعلق : سيلعب الفريق الزائر بمعنوية غير معنوية الفريق المحلي . بيضاوة ما زالوا غارقين في أفراح عاشوراء . يعني الأكل والسهر . ثم يتكلم بإسهاب على تكتكتة الروس وعلى خطة 4 - 2 - 4 . الدفاع متحرك لا يعول على حالات الشرود لتوقيف هجومات الخصم لأن الحكم يمكن ان يغفل او يتعامى ويصادق على الإصابة . أساس اللعب هو

التمريرات الطويلة أو القصيرة حسب الظروف . المطلوب من اللاّعب ليس ان يستقل بالكرة ويعالجها بفن وإنما ان يتخلص منها بسرعة ليتحرر من الخصم ويلحق بزملائه في نقطة الهجوم . لعب صافي واضح قوي بلا لفّ ولا زخرفة .

ـ صح ، صح ، لكن أولادنا في الحقيقة ما زال ما هضموا رغايف العيد . كيف تطلب منهم الخفّة والحركة .

ـ على ما حال قدامك فراجة . ذقت حلاوتها من الآن نرجع لشغلنا .

كان شعيب جالساً في نفس الصالة من الشقة رقم 6 ، عمارة الإمام الترميذي بحي المعاريف الجديد ، خلف الملعب الشرفي . كأن الزمن قد توقف منذ شهرين أو أن أحد عفاريت سيدنا سليمان رفعه الى السماء وطاف به في رمشة عين على مدينتي الرباط والقنيطرة قبل ان يعود به الى البيضاء . فيفتح عينيه ويرى نفس المائدة ونفس الصينية ونفس البسكويت . أمامه أحمد أغرام ملفوفاً في محمّة صوفية وردية رغم الساعة المتقدمة ودفأ يوم ربيعي مشمس . قال شعيب :

ـ كنت أقول لنفسي وانا في الطريق : ألقاه ، ما ألقاه . لا بد خرج يحضر الاستعراض الضخم .

لوى أغرام شدقه الأيمن كأن به ألم لا يطاق :

ـ صداع في الرأس ، الله ينجيك . من البارح العصر وهو قابض في هنا .

مس أعلى عنقه بيديه الأثنتين . ثم استطرد :

ـ الاستعراض ؟ انا زائد ناقص . قالوا ربع مليون خرج للشوارع . كاين من يصفق .

ـ والملاقاة ؟ والمصادفة ؟ وأولاد البلد هذا عام . .

قاطعة أغرام على غير عادته معاتباً :

ـ رسالتك قصّرت فيها . ما فيها تفاصيل . كيف قبلوا الفكرة ؟

ـ **عجبتهم** . قبلوا الدعوة . قالوا : خطبة بليغة . قلت من إنشاء الاستاذ حميدة . وضعها بلغة تشرتشل وأنا عرّبتها قدر المستطاع . سي غربي

ما قصر ، عـرض علي انـه يجي للصديقيـة لما نبـاشر العمليـة . سي الخلوقي شجّع ، قال : سيروا على بركة الله أنـا وراكم ، لكن المنصب ربما يمنعـه من حضور بعض الإجتماعـات ، المهم انه لا يعـارض . سي وشّان حـاله حـال سي غربي .

ظهرت على أغرام علامات الخيبة :

ـ هذا قلته لي في الرسالة ؟

ـ وهذا هو الحاصل .

ـ قضيت أكثر من يوم .

ـ تكلّمنا في أشياء أخرى .

ـ بغينا نسمعها . ما عندنا فيها حق ؟

وكـما لو أراد ان يغـريه ويشجّعـه عـلى الكـلام أخـذ أغرام كأس شعيب وأفرغه من الشاي البارد ثم ملأه من البرّاد بشاي ساخن . تشجع شعيب :

ـ طيب نبدأ الكلام بحول الله وقوته . الغربي بين مدّ وجزر . قل انه في الناعورة والناعورة واقفة في الهواء . .

ترنّم أغرام :

ـ الدنيا ناعورة أطلع أهبط .

ـ ايواه ، هو الآن موقّف . احتفظ بكل شيء ولكن ما . .

ـ وحده أو معه غيره ؟

ـ ما سألت . أحكي لك الأمور اللي تفصّل النـاس وقالـوها لي . أنـا ما طلبت ما سألت . صاحبنا حيران ، عايش وحـده في قصر . لـو بقيت الشهر والشهـرين كان رحّب بي ومـا قلق مني . يبحث عـلى من يقـاسمـه الـوحـدة والأحزان .

ـ وامرأته الرومية ؟

ـ ذهبت لحال سبيلها . قبل أو بعد التـوقيف ؟ ما عـرفت . ما قـال فيها إلا الخـير ، لكن شمّيت من كلامـه انه متبـرّم منها . عـلى ما حـال هـو الآن ناسيها وعائم في بحر آخر . حكاية ألف ليلة وليلة .

تململ أغرام استعداداً لسماع قصّة مفصّلة :

ـ ألف ليلة وليلة ؟

ـ تعرف الحكايات مثل : حكي ان الخليفة هارون الرشيد لما كان في بغداد ذات ليلة من الليالي إذ قلق قلقاً عظيماً فأرسل في طلب جعفر البرمكي ومسرور السياف . فقال جعفر : قم بنا ننزل الى المدينة ندور في شوارعها وأزقتها لعله يحصل لنا نكتة تنسي قلق مولانا الخليفة فتزيوا بزي التجّار وخرجوا يتجوّلون في شوارع بغداد الى ان أتوا إلى زقاق ، هبّ النسيم فيه وراق ، فسمعوا صوت غناء فرفع الخليفة رأسه فرأى طبقة عالية يتدلى منها دلو . .

ـ أعرف هذه الحكاية .

ـ هذا بالضبط ما جرى لصاحبنا في واضحة النهار في قلب مدينة الرباط . حكى لي أنه ركب الدلو وأحس انه يجرّ في الهواء . اما ما وقع له بعد ان وصل للطبقة العالية فلا يمكن ان تكون حيلة حبكتها العائلة . ربما قالوا : تحررنا من الفرنسية بعد طول سنين . لكن يمكن ترجع . لا بد نبادر وما نخلي خيرنا لغيرنا . لكن العائلة كلها مجموعة هنا في البيضاء . وما علاقتها بإحدى عائلات الرباط العريقة ؟ الشيء المحقق هو انه الآن غارق في بحر ألف ليلة وليلة حتى نسي التوقيف . تعوّد على العطالة والبطالة ، مستعد لكل مغامرة . يجي للصديقية ، يستضيف عنده الرفاق والأصحاب .

لم يكن أغرام ليرضى ان تقف الحكاية عند هذا الحدّ . فقال معاتباً :

ـ هذا كل ما عندك ؟

أجاب شعيب :

ـ عليك بالخلّوقي ، إذا حضرت الوجبة . انا اتبعت خطّة السكوت .

رأى الاستنكار في وجه أغرام فقال :

ـ ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد . المرة المقبلة يعطيني الخلوقي كل التفاصيل بدون تردّد . الخلوقي بحالك من صغره وهو ينقّب .

تنهّد أغرام :

ـ كل واحد وسعده . . وهذي العائلة الرباطية العريقة ؟

ـ زوّدني الخلوقي بشيء واحد هو أنها مقطوعة من شجرة . الأب كان له

شأن ، ترجمان لمدة طويلة ، أحد السعداء . . عرفت يا سيدي ؟

ـ الله يا ودّي .

ـ إنقلبت عليهم الأحوال . كل واحد جرى في جهة . منهم من نجا ومنهم من غرق . صاحبنا إما لأنه كان أسعد السعداء أو لأن عقليته عريقة جدّاً غلبته الحملة وكان من الغارقين . انكمش على نفسه ، باع ما كان في الدار . كان كل صباح يغسل يلبس يمشط ويخرج في يده قفّة وفي جيبه لا شيء . ومع ذلك يرجع وفي القفّة ما يكفي العائلة من خضر وفواكه . . إلى ان توفي وترك العائلة بلا ولي .

سأل أغرام باهتمام :

ـ ونيّة عمر ؟

ـ لا أدري . انا قلت لك هو الآن بين مدّ وجزر .

ـ يقدر يعاون المشروع وهو في الحالة هذي ؟

ردّ شعيب بحزم :

ـ ما المانع ؟ يقدر يعاون حسّاً ومعنى .

أخذ أغرام وسادة واتكأ عليها مادّاً رجليه فوق اللحاف . حنحن ليعلن أنه انتهى من أمر عمر . قال شعيب :

ـ هذا ما كان من أمر عمر . وأما ما كان من أمر وشّان . . وصلت عنده على الساعة العاشرة لأن المطر حبسني مدّة في المحطة . رحّب بي كما رحّب بي عمر قبله . هلّل وكبّر . يا أخي شيء في الجو أخبر هؤلاء الناس بوصولي . كما لو كانوا على ميعاد .

ـ حالة وشّان غير حالة عمر .

ـ صحيح . عمر متوسّع في قصر . وشّان متضايق مع الأولاد في شقّة متواضعة . لكن من وجه حالتهم متشابهة . عمر موقّف عن العمل ووشّان في رخصة مرض .

ـ يا ستّار يا حفيظ !

ـ حكى لي أنه طلب رخصه لمدّة ستّة أشهر . بقي له منها زوج أشهر . وناوي يطلب التجديد .

ـ بالراتب ؟

ـ نعم بالراتب . في الظاهر بخير لكن مشوش في الباطن . كنت نويت أرجع إلى الصديقية في نفس اليوم . ما خرجت من عنده إلا بعد الخامسة . أظلم الحال ، شعل الضوء وهو يحكي لي مشاكله مع زميل له في المكتب . أمور صبيانية . . إذا كانت صحيحة .

ـ يعني ؟

ـ مضطرب في كلامه . أمور صوّرها لي في شكل قبل الغداء وفي شكل مخالف بعد العصر .

ـ في الحقيقة هو مهذار لكنه طيّب عزيز علي .

ـ الحاصل انتقل كلامه من عدوه في الخدمة إلى امرأته . فاتحني في أمور ما عرفت كيف أتلقاها منه . كل هذا وابنته الكبيرة داخلة خارجة . تجي تجلس تتسمّع . هو يخفض صوته ، يعمّي عليها يذكر الأمثال يشبّه . تعيى البنت تخرج ثم ترجع حتى قلت في نفسي الأم قلقت .

تساءل أغرام :

ـ خايف من شي ؟

ـ من الفضيحة . فهمت من كلامه أنه تشكك ان تكون امرأته طاحت مع عدوه في الخدمة .

قال حميدة :

ـ الله يكون في عونه . هذي حالة تحمّق العاقل .

ـ إذا كانت صحيحة .

ـ ولو . إذا داخله الشيطان وصوّرها له حقيقة تنغّصت عيشته .

ـ على كلّ لمّا قمت للمرة الثالثة وطلبت منه الإذن بمغادرة الدار قام بدوره وقال انه يرافقني إلى المحطة . في الطريق قال لي انه ناوي يجي للصّديقية وانه معوّل علي . قلت على الراس والعين . قال هذا المرجو منك انت فقيه عرفت العلماء والشيوخ العار ثم العار ما تقول لي الحق . كاين أو لا ؟ تعجّبت وسكتّ . خلّيته يتكلّم . في الأخير اتّضح لي انه يريد منّي أن أطمينه على علاقة زوجته بصاحب قضيته .

قهقه أغرام :

ـ الخط الزناتي ياك ؟

ـ ايواه . مراكش باب سوس . قال في عقله اني تعلّمت ضرب الخط . قلت في نفسي والله هذه سفرة ألف ليلة وليلة .

ـ كيف صرّفت معه الأمور ؟

ـ سي حميدة ما قدرت على الصراحة . قلت الله يخرّج الجرّة بسلام .

قال أغرام :

ـ وجرّتنا كلّمته فيها ؟

ـ ايواه تكلّمنا فيها . لمّا كانت الطفلة تجي تجلس وتراقب كان وشّان يقلب الطرحة ويسألني عن المشروع .

بتشكك :

ـ ممكن نعوّل عليه ؟

ـ ممكن إذا ما جرّه الواد .

تمدّد أغرام من جديد ونظر إلى السقف ثم قال :

ـ هذا وقت ابن وقت ! الأحوال تغيّرت . . وأنت أنت جاتك الفكرة !

ردّ شعيب مبتسماً ابتسامة غامضة :

ـ والفكرة حتى هي بنت الوقت . حق أو لا ؟

ـ حق . أنا عندي قول وقول . لكن كمّل بعد ما بديتِ . الخلّوقي ما عنده مشكلة لا في داره ولا في خدمته ؟

ـ لا . الحمد لله . مطلّع . زوّدني بمعلومات عن أولاد البلد . فرحان بالمرأة والأولاد والدار والخدمة . ما نقص خير .

ـ والمشروع ؟

تردّد شعيب ثانية :

ـ ما عنده معارضة . قال : مهنته تمنعه من الإنتماء لأي جمعية مهما كانت . ممكن يحضر مرة مرة ما دام نسيبه يسكن الصديقية . تكون فرص اللقاء كثيرة .

توقّف شعيب عن الكلام ، بلّل حلقه برشفة من الشاي البارد ، خطف

نظرة على مناظر البحر المتوسط ثم سأل :

ـ وانت كيف استقبلك أخونا الباشدور ؟

ـ إستقبال السفراء . قصدت داره على الساعة السادسة ، بعد العمل ، تلفت في دروب أنفا ، لكن حرّاس الفيلات كل واحد منهم يعرف سكان الحي . حارس الباشدورجالس على كرسي خارج الباب بكسوة والله ما لبست مثلها حتى أيام العيد . تعجب لما شاف الباشدور خرج من قلب الدار واستقبلني على العتبة . الدار كلها رخام . دخّلني لغرفة صغيرة جنب الباب في شكل صالون مغربي . قدّم لي عصير ليمون . اعتذر وقال ان النهار غير مناسب لأنه نظّم حفلة إستقبال على شرف ضيوف أجانب وان الوقت ضيق . قلت : ما آخذ من وقتك أكثر من اللاّزم . عرضت عليه الفكرة في كلمتين . قلت : كل واحد منا في عالم ، لا بد من وسيلة تجمعنا من حين لحين . من يعلم ؟ الدنيا غدّارة والصحبة هي صحبة الشباب . رحّب بالفكرة وقال : شعيب رجل بركة . سأل : مع من إتصلتم ؟ قلت : أولاد المدينة تفرّقوا في كل جهة . كتبنا رسالة للجميع ، ولكن الشخصيات ركائز المشروع فضّلنا نتّصل بهم مباشرة . قال : من هم ؟ ذكرت له الأسماء . عند كل إسم كان يقول : هذا ما سمعت به من عشر سنين أو خمس عشرة سنة . قلت : ننوي ننظّم حفلة لتقديم المشروع وربط العلاقات من جديد . قلت : كنا فكرنا . . قاطعني : تنظّموها عندي ، ياك ؟ ها أنت شفت الدار تظن تصلح ؟ قلت : لا .

ـ هكذا قلت لا ؟

ـ يا أخي استنشقت هواء الدار وفهمت انها ما تصلح . دار تباعد بين الناس ما تقارب ، دار للناس الوقوف ما هي للناس الجلوس . نرجع إلى الباشدور . قال : انا مستعدّ لكل إعانة لكن الظروف ما تسمح لي بتنظيم الحفلة . قلت : انتهى المشكل . قال : وأفضل ما يُذكر إسمي في الأوراق . خلّيها بيننا هكذا . قلت : هكذا فكّرنا ، علاقات عائلية ، الأخ يتابع الأخ من بعيد .

صفّق شعيب :

ـ أسلوب الديبلوماسيين الكبار يا سي حميدة !

ـ أكمّل لك . قام الباشدور يعتذر . قال : هذا وقت وصول الضيوف . انا معكم عوّلوا علي . ووصّلني للباب ولما شاف ما عندي سيارة أمر البوّاب ان يبحث على السوّاق . وهكذا وصلت الى الدار في شيفروله ضخمة .

فكّر شعيب ثم قال :

ـ ولكن قضية الحفلة معلّقة .

ـ فكّرت في الحاج فضّول . تعرفه ؟ بائع الأثاث ، درب العياشي .

ـ هو نسيته أما الدرب عقلت عليه .

ـ أحسن محلّ نجتمع فيه لكن رفض .

ـ كيف ؟

ـ رفض . ما قبل ولا كلمة . قال : فكرة جيدة ، اعملوا الجمعية لكن انا خلّوني في اتّساع . انا قائم بشغلي ما عندي غرض بالرياضة والرياضيين . كلام واضح بلا حتى ولا إلى .

سأل شعيب متعجبا :

ـ كنت تتلاقى به من قبل ؟

ـ يا ودّي مشيت عنده مراراً ومراراً . عنده كنت ألاقي أولاد البلد الغابرين في قلب المدينة الجديدة . عمره ما فاه بكلمة عيب . هذي المرة عرّى على وجه قبيح . أنا حشمت وخرجت من الحانوت حاني الراس .

ـ الأمور باينة شطّب على اسمه ونطلب الله ما يعادي غيره . والحفلة نلغيها أو لا ؟

اعترض حميدة أغرام :

ـ بلا حفلة تتعثر القضية .

ـ إذن ما العمل ؟

إضّجع أغرام وقال بصوت المنتصر :

ـ لقينا الحل . صاحبه هو القصيري الأستاذ . هو اللّي نبّهني . لا بد من سبب لجمع الناس . إذا ما كان سبب عائلي ، ديني ، عرس ختان أربعينية ، تصبح القضية شائكة ، يعني ما هي وما لونها ؟ من جهة الحاج

فضّول عنده حق والقصيري على بال .

ـ هو الآن مدير ؟

ـ من أيام رودانة وهو مدير . لقي الحلّ . حافظ على سنّة حميدة . في نهاية السنة الدراسية ينظّم حفلة تقرأ فيها القصائد ، تمثل المسرحيات ، توزع الجوائز على التلاميذ . قال لي : إذا تبرّعتم بالجوائز انا أستدعي أولاد البلد للحفلة أواسط يونيو . تكون مناسبة للتعارف .

قال شعيب بإعجاب :

ـ فكرة نيّرة والله . حلّت القضية .

ـ والتمثيلية إقترحت ان يتعلق الموضوع بالصديقية .

ـ زيادة في الديبلوماسية .

ـ والآن مسك الختام .

قام أغرام وغادر الصالة . فهم شعيب انه قصد غرفة النوم حيث يوجد الدولاب المليء بالملفّات الخاصّة بأبناء الصديقية . عاد بعد برهة وجيزة يحمل ظرفاً بريدياً . جلس ثم أخرج منه بطاقة :

ـ بين جميع الأفراد اللّي راسلناهم شخص واحد أجاب بأسلوب غريب . تفضّل يا فقيه شنّف .

ـ تناول شعيب الرسالة ، بسطها أمام عينيه ، فكّ رموز السطر الأول وبعده السطر الأخير كما تعلّم ذلك أيام المدرسة وأخيراً رفع عقيرته :

« سلام أخوي وبعد ،

عندما كنت تلميذاً في المدرسة المحمّدية كان المدير مولعاً بالتنقيب على الأصول . كان يبعثنا كل يوم خميس مع أستاذ اللغة العربية الى المقابر ننسخ مكاتيب الشواهد . كنا نسأل الأستاذ : ما الهدف من هذا العمل ؟ فيجيب : التفرقة يا أولادي . يريد هو وأمثاله ان يفرّقوا ما اجتمع والتحم . وبعد سنوات رأيت بالفعل وأنا طالب في الجامعة كيف أثّر ذلك العمل التنقيبي على بعض العقول .

تذكّرت هذه الحادثة وأنا أقرأ رسالتكم . تقولون إن علي دَيْن الهواء الذي انعشني والنور الذي أضاءني والفيء الذي أظلّني . من كلّفكم باسترداد

الدين ؟ منذ ان تعلّمنا نشيد : روحي فداء الوطن ، أولم نورثه هيئة أعلى من كل عصبية محلية ؟ تقولون : فكّرنا وقرّرنا . من فكّر وقرّر ؟ لا أطمئن إلى الكشف المباغت . بدأنا نسمع منذ فترة دعوة تهدف إلى تجاوز مكاسب العقود الأخيرة ، إلى ترميم حواجز كادت ان تنهار وإحياء فوارق كادت ان تنسى . بدأنا نسمع ان المناصب يجب ان توّزع بالتساوي . هل يتعلّق الأمر بالمناصب ؟ لا . بل بدعوة إلى الإنتكاس . مهما يكن فلست من روّاد طريق القهقرى . كثر الدعاة . اختلفت مظاهرهم وتبلبلت لغاتهم لكن معناهم واحد وأنا لست منهم في شيء .

لقد جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . ما قال : لتناحروا ولتمايزوا . لو قلتم هذه جميعية سكان لإذكاء روح التعاون لكانت فكرة حميدة . لكن قلتم هذه جمعية أولاد والفرق لا يحتاج إلى توضيح . لا يحقّ ان نرجع إلى عهد التنابذ بعد أن هدينا إلى كلمة سواء . لست منكم ولا انتم مني .

والله يحكم بالحق بين القوم الظالمين » .

علّق أغرام :

ـ قلت لك يا فقيه هذا زمن ابن زمن !

فكّر شعيب طويلاً بعد ان انهى قراءة المكتوب ثم قال :

ـ الحق ما فهمت كلمة .

ـ وانا بحالك . أقول : هذا توصّل برسالتين في نفس الوقت واختلط عليه في الجواب .

ـ بلا شك . هذا ما حصل . نطويها وننساها ونرميها في هوّة النسيان .

السبت 18/28

VI

لما شاخ الزمان
ونسي نفسه ...

شيكسبير

(26)

كان طقس يوم السبت 25 يونيو معتدلاً . سمع أغرام في النشرة الزوالية ان الحرارة لن تتعدى 23 درجة مائوية . منذ الثانية عشرة وهو يترقّب دقّة الباب ودخول شعيب . لما طال عليه الانتظار تناول الطعام بسرعة ثم ودّع أمه وأخبرها انه سيعود متأخراً بعد العشاء وربما بعد منتصف الليل .

كان من المقرر ان يجتمع بشعيب والقرواني وهو أستاذ في مدرسة القصيري ، ليتداولوا في موضوع التمثيلية التي ستتلى أثناء حفلة نهاية السنة . كتب أغرام إلى شعيب وضرب له موعداً وألحّ على الحضور لكن شعيباً لم يحضر . بقي رأساً لرأس مع القرواني . حكى له بعض ما قرأ حول ماضي المهدومة وكيف غادرها البرتغاليون خائبين مهزومين . وقبل القرواني ان يكتب الحوار وان يعرضه على لجنة مصغّرة لتقول رأيها قبل ان يبعث بالمشروع إلى المندوب . لكن شعيباً تغيّب مرة ثانية ولم يحضر لمداولات اللجنة . لم يدر أغرام كيف تطورت الأمور بعد ذلك . تلقى دعوة غير مميزة تقول : يتشرف مدير مدرسة الهمذاني الكائنة بزنقة ابن البنّاء باستدعائكم لحضور الحفلة الكبرى التي ستقام بمناسبة نهاية السنة الدارسية تحت اشراف ممثل المندوبية وبمساعدة جمعية آباء وأولياء التلاميذ .

غادر أغرام حي المعارف الجديد متجهاً نحو شارع الزيراوي وهو يرتدي بذلة قهوية وقميصاً أبيض وكرفاتة خضراء . رغم إعتدال الطقس لبس صدرية خفيفة من القطن المطعم بالنيلون ورمى على كتفه معطفاً من الغبردين حجري اللون . من يدري ؟ قد يأتي عدد من الرسميين . من أولاد الصديقية من يحتلّ مناصب عالية . لا يجب أن أظهر بينهم بمظهر المزلوط . . موعد الحفلة الرابعة ، ستبدأ في الخامسة على الأرجح . . تأخير متعمّد لسبب

غير سبب التراخي الذي يغلب الناس أيام الصيف . . القصيري صاحب مخ . . يشغّله ما يخيلّه يتصدى . .

مشى أغرام ببطء قاصداً صالون كليوباتره الموجود قرب سينما القوس . كان يعرف صاحبه معرفة جيّدة . قد يكون مدعواً أيضاً إلى الحفلة . المنطقة المحدودة بالملّاح والسور الجديد والمسبح البلدي مليانة بأولاد البلد . . كانوا من أول النازحين إلى العاصمة الجديدة وتجمّعوا في حومة تشبه تماماً مدينتهم الأصلية لا ينقصهم سوى ضريح الولي الصالح لينشر عليهم جناح الرحمة . هذه أرض النفع والدفع . قال الفقيه مرة : إجرِ علي إجرِ عليك . . لولا دفع الناس يعني اننا بحال الماء ، اذا حثل فسد تتجمع فيه الجراثيم السامّة . . الماء الجاري أشرب منه بلا ريبة الماء الراقد أهرب منه بلا خيبة . . ولد بنعمار قالوا لي نجح تبارك الله . . دكتور في علوم الأرض . . إذا لقيته ألقي عليه السؤال . دفع الناس بعضهم ببعض .

لمس خدّه وذقنه فأحسّ بالخشونة . لم يتعوّد أبداً أن يحلق ذقنه قبل الإفطار ، والذهاب عند الحلّاق لا يتأتّى إلا بعد الفراغ من العمل . أنيق نظيف مساءاً ومهمل صباحاً . رأى الأطفال يتزاحمون أمام باب السنيما حيث يعرض فلم بينوكيو على الساعة الثانية وفلم أمريكي **الطاحون** على الساعة الخامسة وعلى الساعة التاسعة فلم ايطالي **النمر يتعطر بالبارود** . خطا خطوتين ودخل إلى صالون الحلاقة . كانت أشعة الشمس المتخلّلة بين عمارة سكنية ومدرسة البنات تنعكس في المرآة فتلوّن الصالون بلون أصفر فاقع كما لو كان حوض أسماك . تخفّف أغرام من المعطف والجاكتة ورنا إلى وجهه في المرآة ، إلى الشعر الأسود الجعد ، إلى الأخاديد العميقة التي تتوسط الجبهة وتحيط بالفم والأنف ، الى الجلدة الرهيفة والبشرة الشمعية إلى المقلة الصفراء والحدقة الباهتة . إفتكر : لا أدخن ولا أشرب الخمر ، لكني أكثر من رشف الشاي وأحبّ الرغائف المسمّنة المعسّلة . لا بد من تصفية الجسم . كيف ؟

ـ أهلاً سي حميدة . مبارك عيدك . غبرت علينا .

وقف صاحب الصالون أنيقاً وضاءاً ببذلته الناصعة وشعره المصفف وشنباته المقصوصة .

أجاب أغرام :

ـ عيد نبوي مبارك . كيف الدندنة ؟

ـ تفضل أجلس . يحنّ الله .

جلس أغرام على الكرسي المتحرك وألقى برأسه إلى الوراء .

ـ يا أخي اليوم الفنّان ما يعيّش راسه . عيشتنا من هذي الحوينيتة . الأفراح قلّت ، كل واحد ، إذا كان ولا بدّ ، يعرض على العائلة وتكون الأمور خفيفة ظريفة . الدنيا تغيّرت . . هذا جارنا عنده ولد واحد مؤدّب نجيب . ابوه فرحان به قال له : اجتهدت هذي الأيام كلها ، خذ سر للسنيما . مشى للسنيما ، هذي حدانا ، ورجع بخير وعلى خير . بعد ساعة حسّ بما حسّ في المعدة . قالت الأم : لا بأس عليك اشرب كاس سعتر تنس كل شي . شرب السعتر . . ما نفع . جات المغرب بدا يتقيّا . حار الوالد عمرت الدار ، كثر النصّاح ، كل واحد يفتي . في الأخير قال واحد من العائلة : ناخذه للطبيب ما كان ينتصف الليل حتى أدّى مول الأمانة أمانته . حمقت الأم والأب صاري بلا روح يشوف ما يحقق . الغد خرج في الجريدة ان الشي نفسه حصل لعدد من الأطفال . بلا شك الولد شرى حلوة مثلجة عند أصحاب الكراريس في الزنقة .

ـ الخبر مذكور في الجريدة .

ـ هذا العام ما كانت صابة ما كان حليب . من اين هذي الحلويات والمثلجات ؟ كيف صنعوها . الواجب التحذير في الصحف في بداية الربيع . أما بعد ما تحصل الحصلة البكاء على الميت خسارة . استرنا يا ربّ !

تنهّد أغرام :

ـ كل واحد برزقه . هذا السعد ما يحصل لنا . قالوا : بريجيت باردو كانت السبب حتى ربح خطيبها الألماني 32 مليون في كازينو مانتِ كارل ، زيادة على ربحها هي في السنيما . .

ـ قال انقدماء : الله إذا أعطاك وقلت له زدني زادك .

ـ وإذا ما أعطى ؟

ـ هذا كلام آخر . . قل لي ماشي للقاء الوداد ؟

ـ لا . . . عنـدي شغل وحتى أنت من المـدعوين . صـاحبنـا القصيـري نظّم حفلة لأولياء التلاميذ .

ـ أنـا ما عنـدي أولاد في المدرسـة . نجّـاني الله . الفن والأولاد بليـة في خسارة . وزيادة اليوم يوم السبت ما أقدر أتغيّب . كنت عند جاري لما جيت ولكن عيني على الحوينته ، من بعيد لمحتك وانت تحكّ خدّك .

نزع الحلاق المنديل المعطّر عن وجه أغرام بعد أن مسّده بعناية . استوى أغـرام فوق الكـرسي ونظر إلى المـرآة فلاحظ تحسنـاً حقيقيـاً . اختفت بعض التجـاعيد وابيضّت البشـرة وتسرّح الشعـر . . حتى الحدقـة رجع إليهـا لمعان الحياة .

قال الحلاق :

ـ اولاد البلد عـادت لهم الروح . نهضـوا وتحركـوا . واخدين الاحتيـاط ياك ؟ الله يكمّل . جي غدا ، اشرب قهوة واحك لنا أخبار الحفلة !

قام أغرام وهو يمسّد بدوره صدغه الأيمن . قال :

ـ لا بد لا بد ، هذا نادي أولاد القصبة .

مـالت الشمس وغـادرت أشعّتهـا عمـارات الجـانب الأيمن من شـارع الزيراوي فتغيّر جو صالون كليوباتره واستحال من الأصفر إلى الأخضر ، من لون نوار الشمس إلى لون أعماق البحـار . وضع أغـرام معطفـه على ذراعـه وغادر الصالون قاصداً زنقة بول بير . . اسم قرطيط منحوس .

لوى على يمـين الشارع فلمـح من بعيد حـارس المدرسـة بقامتـه الطويلة ورزّته الكبيرة الخضراء . لما اقترب رأى عدداً غير قليل من السيـارات رابضة على الرصيف . سأل :

ـ جاء الناس ؟

كاين الخير . الحفل ما زال .

ـ والمدير ؟

ـ مع التلاميذ .

كـانت هذه أول مـرة يدخـل فيها إلى قلب المـدرسة . كـان يتـلاقى مـع القصيـري إما في مقهى شـارع الـزيـراوي وإمـا يـطرق عليـه البـاب الخلفي

الموجود زنقة دى لوسبس . المدرسة مبنية على شكل زاوية . مراح واسع محفوف بالفصول على طبقتين ، باحة فسيحة تحيط بالملعب المستطيل . . كراسي كثيرة مصفوفة يفصل بينها ممرّ واسع . من أرضية الطابق الأول أسدلت لافتة كتبت عليها : مدرسة ابن البنّاء تحتفل بنتائج السنة الدراسية وترحّب بضيوفها الكرام . في الواجهة نصبت منصّة خشبية علّقت فوقها صورة ملك البلاد الرسمية وكتب تحتها تاريخ السنة الدراسية . وراء المنصّة أطلقت خامية من الكتان الأحمر تحجب أعمدة الباحة .

كان المدعوون الذين حضروا مبكّرين قد جلسوا متباعدين . تقدّم أغرام في الممرّ يتفقّد الأوجه . فأنكر أكثرها . قال في نفسه تغيّرت الحومة . وصل إلى آخر الممرّ ولوى على اليمين محاذياً طاولة وضعت على يمين الخشبة فوقها زجاجة ماء وكأس . عندما انتهى إلى حافة الباحة اعترضه عمر وشّان يلبس بذلة زرقاء باهتة وكرفاتة حمراء وفوق أنفه نظّارات ذات زجاج سميك مسرّح الشعر مقصوص الشارب . انتصب أنيقاً رغم حنو كتفيه وتقوّس ظهره . سأل :

ـ لقيت الفقيه ؟

ـ عاد وصلت .

ـ انا جيت من الساعة الثالثة مع الأولين وما بان لي حتى واحد .

رفع أغرام ذراعه اليمنى وأشار إلى الحضور في حركة واسعة :

ـ وهذي الجماعة ؟

ـ طالت المدّة وتبدّلت الوجوه .

بعد قليل :

ـ اليوم من القنيطرة ؟

ـ لا جيت البارح . بتّ عند أختي . عندي غرض بالفقيه .

قال أغرام :

ـ يا الله نفتّش عليه كلنا .

ابتعدا عن الصف قاصدين ما وراء الستار فوجدا تلاميذ كثيرين يدخلون ويخرجون من القاعات في حركة دائبة . منهم من يتلو خطاباً مكتوباً

على صحيفة ومنهم من يناجي نفسه ومنهم من يحدق في مرآة معلقة على الحائط ليرى هل القلنسوة مستقيمة على الرأس والتكّة في موضعها فوق الجبّة .

« لا مساومة في شؤون الدين والعقيدة . والله لئن وزنتموني ذهباً وفضة لما سايرتكم في غيّكم . لقد دقت الساعة ولا مردّ لحكم الله » .

« أيها السلطان المفخم نطلب مهلة أسبوع فقط ونرحل . نترك لكم المدينة بما فيها من هياكل وآلات . انتم لا تخسرون شيئاً ونحن لا نخسر شيئاً ويبقى حبل الألفة بيننا وثيقاً متيناً لا ينال منه الدهر . . » .

« لولا النخوة المحمّدية والشهامة الهاشمية لما تركت هذا اللعين يزيد كلمة واحدة . فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة . قل لا هدنة ولا مهلة . سندخل المدينة عنوةً بحول الله وقوته » .

سأل أغرام :

ـ اين المدير ؟

أجاب التلميذ المعمّم :

ـ هذي دقيقة كان هنا . سر للقاعة نمره 7 او للمكتب .

في القاعة رقم 7 وجدا الخدّام يصفّفون زجاجات المشروبات على طاولات متقابلة . خرجا منها وتقدّما داخل البهو قاصدين جناح المكاتب الإدارية وإذا بالقصيري يخبّ نحوهما قائلاً :

ـ سي أغرام لا بدّ تنتظر الناس على عتبة الباب وتستقبلهم . هذي حرفتك ، مع سي شعيب . بعثته لهناك بعدما اتّفقنا على كلمة تقديم الجمعية للناس في نهاية الحفل . .

التفت إلى وشّان وعنّقه :

ـ أهلاً سي مختار اخبارك ؟ عاد شفت وجوه عزيزة ، بنت القاضي وعلي كرافس وصلوا في وقت واحد . . يا الله يا شجعان تفرقوا ، اسألوا عن أولاد البلاد كلموهم في القضية هذي هي الغاية ياك أو لا ؟

خطا خطوتين ثم صاح :

ـ حميدة ما تتحرّك من الباب حتى يوصل نائب المندوب وجيني به .

أعطى أوامره وابتعد . . طويل القامـة ، ببذلـة زيتونيـة وحذاء رمـاني . يدقّ الأرض بحزم . يصوّت كلما خطا خطوة . قال أغرام :

ـ هو هو . . دائماً في منافسـة مع الخلوقي . هـذا جنرال وذاك أميـرال . لكن القصيري عنده ميزة .

ـ حتى الخلّوقي عنده ما يقول . ايه . . لو حضرت ايـامه في القنيـطرة . كان فيها سلطان . بيده المرسى والمقاهي والملاهي . فيهـا ما فيهـا ومع ذلـك كيف دخل كيف خرج . أعجوبة يكذبها السامع ، لكن الواقع هو الواقع . . توفيق من الله .

قال أغرام :

ـ القصيري باقية قدامه الدنيـا . هذي الحفلة تفتـح له الأبـواب إذا قدّر الله .

انتصب أغرام جنب الحارس الأسود صاحب العمامة الخضـراء ينظر إلى الرصيف أمام بـاب المدرسـة . كانت الشمس قـد مالت تـاركة الشـارع كله للظلّ . لم تعد تضيء سوى قسم من المدينة القـديمة ، القسم الـذي شيّد في بداية القرن الحالي خارج السور .

قال أغرام للحارس :

ـ ملابس الأطفال عجيبة ، ساتان ، حرير ، ملف . والشاشيـة الطويلة والتكّة المجدولة . من اين هذا الخير ؟

برقم الحارس :

ـ ما عارف . سال المدير .

بعد دقيقة من الصمت وبصوت خفيت :

ـ واحد عنده طفل هنا وعنده براكة في الجوطية . يمكن جا بالشراويط .

ـ شراويط ما تكره تلبسها .

ـ حتى توجد لي خدمة في السيرك . . ألعن الشيطان .

قـال كلمته وهـو يـدحـدح رأسـه عجبـاً من أولاد الـوقت . حـدّق فيـه أغرام . . العمامة الخضراء ، الجفى المتدلّي ، الشفاه الملوية المصلصلة .

ـ مـا هذا من اولاد البـلاد . . فرضـوه عليه او بقى من عهـد رودانـة .

اولاد تلك الناحية ما زال الله ما فتح عليهم .

سأل مختار :

ـ قال حاجة على الفقيه ؟

أجاب أغرام :

ـ بلا شك في المراح مع الناس . امش تلقه .

والتفت مرحباً بالوافدين .

(27)

طلع من جانب الستار الأيمن القصيري يتفحّص الحاضرين الجالسين في الصفّين الأول والثاني حتى لمح شعيباً فنادى عليه بقوة واختفى . سمع وشّان اسم شعيب فاستيقظ . رأى شعيباً يقصد الستار فتبعه متخطياً الحاضرين . لما تجاوز المنصة لم ير أحداً . كان الرجلان قد اعتزلا في غرفة . وقف وشّان جنب الباب ينتظر . لاحظ فتاة تشبه الى حدّ كبير ابنته نوره بوجهها المدوّر وأنفها القصير وعينيها العسليتين . كانت تلبس جلباباً طويلاً ذا أكمام يغطي جسمها كله وتحمل على رأسها شالاً معقوداً تحت ذقنها فلا يرى منها سوى الوجه البدري الأبيض الصافي ، ألوان ثيابها باهتة لا توقف البصر ، متكئة على الحائط مطرقة كأنها تنتظر نتائج إمتحان . كانت فعلاً في سنّ الامتحان . رنا وشّان إليها وخيل إليه انه يرنو إلى ابنته العزيزة لولا اللباس الغريب . منذ ان ولدت نوره مع ثورة مصر أثناء شهر يوليو الملتهب وهي متعوّدة على التريكو والشورت ، تاركة ساقيها لرحمة الرياح القارصة أو أشعة الشمس اللافحة . وشّان واقف يرنو إلى الفتاة وضربات قلبه تزداد سرعة لسبب مجهول مدفون في ثنايا جسمه وأعماق قلبه . الفتاة واقفة كالتمثال تجري من حين لآخر على شفتيها حركات لا شعورية .

تقدّم نحوها :

ـ اسمك يا بنية ؟

نظرت إليه بعينين واسعتين ملؤهما الثقة والرحمة .

ـ عايشة ، عايشة البوعزيزي .

لم يرد ان يقطع الحوار :

ـ مشاركة في العرض ؟

ـ إيواه . . . ترتيل القرآن .

ـ الله يرضي عليك يا بنيتي ، أبوك حاضر ؟

ـ لا ، عندي غير أمي . هي اللي وصّلتني .

انفتح باب الغرفة ولفظ القصيري :

ـ الإعلان بعد المشروبات . الوقت ضاق . سر للباب راقب . مع وصول النائب نبدا العرض .

أخذ شعيب يد وشّان في صمت وجذبه نحو الممرّ الموازي للمراح . كان عدد الحاضرين قد ارتفع . النساء في جهة والرجال أصحاب الجلاليب في جهة . اما الرجال أصحاب البذلات فكانوا في الغالب واقفين يتحادثون . قال شعيب :

ـ صاحبنا بدا يقلق . هو اللي اختار الوقت والآن قال الشمس هبطت بسرعة خارقة والضبابة تطلع من البحر وتنزل في هذا المراح بحال قطعة الثلج . إذا تروّح النائب دفنت القضية . زاد ، خاف التلاميذ ينسوا أدوارهم . راجعوا حتى تعبوا .

استغل وشّان تداخل أصوات الناس في الممرّ ليقول كلمته :

ـ سي شعيب ما نسيتني ياك ! أنا جيت على ودّك وراجع للقنيطرة غدا . لازم نتكلّم في القضية ، باقية في بالك ياك ؟

كان البوّاب وحده على العتبة يستقبل الوافدين ويفتح لهم الطريق . ابيضّ وجهه ورقّت شفتاه واستقام ظهره كأنه استرجع حرمته بين الخلق . على بعد منه كان أغرام يستمع باهتمام لحوار يجري بين عمر الغربي والباشدور. كان عمر يرتدي بذلة زرقاء خفيفة وقميصاً أزرق باهتاً وكرفاته سوداء ، متكئاً على عكاز من تحف الصنع التقليدي أعلاه مغطّى بصفيحة مفضضة منقوشة . أما الباشدور فكان قد لبس الأبيض كما لو كان استدعي الى حفل زفاف او ختان . لبس الجلباب والطربوش والبلغة وحمل في يده اليمنى سبحة حجازية . سلّم شعيب على الجماعة ثم انحنى على أغرام :

ـ صاحبنا القصيري قلق . ابق هنا ما تتحرّك . مهما يظهر ممثل النيابة . جي به .

التفت الى عمر والباشدور :

ـ تفضّلوا يا سادة ، سي القصيري في انتظاركم .

(28)

ـ خطأ القميص الخفيف ، خطأ كبير . ستختفي الشمس وتهبّ الريح في كل بهو ودهليز . سيجلس الواقفون وتتسرّب إليك الرطوبة .

ابتسمت خميطة لقول علي نور :

ـ متعودة . أما تعرف رياح طنجة ، الباردة والساخنة ؟

ـ تعجّبي واضحكي مني . لم أذهب إلى طنجة أبداً . سمعت بها . قرأت عنها . مدينة الجواسيس والمهرّبين . مدينة الملاهي والحفلات الراقصة . وحسب البعض عاصمة السنيما الجديدة في أمد قريب . ورغم كل ما سمعت وقرأت لم أسافر إليها .

ـ هذه مناسبة ، آت عندنا .

تكلّمت خميطة وفحصت مخاطبها . . قسمات وجهه الرقيقة ، بشرته السوداء ، نظارتاه العريضتان السميكتان ، شعره القصير المكربب . وجه ينمّ على إحساس رقيق وفكر نافذ . هل يحفظ النكت ؟ تحوم باستمرار على شفتيه إبتسامة لا تكتمل أبداً . تتجمّع في ذهنه عناصر النكتة ثم تتبدّد . يقول جوهن وهو سكران لا يكاد يقف على رجليه : حبيبتي دجيميتا ان من لا يفهم النكتة ليس بشراً . هذا هو سبب عنصريتنا نحن الانجليز واحتقارنا للغير . أغلب سكّان الأرض يأخذون الحياة بجدّ وهذا هو عنوان الهمجية . من تجرّأ وقال قبل شاعرنا الكبير ان الحياة قصة مملوءة صياحاً وجنوناً يرويها أخطل أو هكذا قال . لعن الله الخمر يقضي على الذاكرة ، تماماً كممارسة الجنس . ها ! ها ! ـ ممارسة الجنس لا أفهم ـ الكلمة ام الشيء ؟ ـ الشيء أعرفه ، الكلمة أجهلها ـ عندك حق يا دجيميتا ، نحن أبناء ملتون نعتم على الجنس وبدأنا نؤثر في الغير . أتعلمين ماذا جاء في الانجيل ؟ الرجل يعرف المرأة وقيل لي ان تعبير القرآن هو : الرجل يحرث المرأة والآن نقول : مرسنا

الجنس . فلنقل اذن : خدّمنا آلة الهضم أو ألقينا شعاعـاً ضوئيـاً انعكس على سطح هذه التفاحة . اللعنة على العلماء وأسلوبهم الركيك واللعنة على . .

قال علي :

ـ إنت الآن في طنجة .

التفتت إليه مبتسمة معتذرة :

ـ نعم أنا في طنجة . قل لي أشياء وأشياء وسأبقى معك .

فكّرت خميطة : نعم نحيف ، نحيف جدّاً . أنا ايضـاً كنت نحيفة أيـام باريس . نحيفة وملفوفة كشجرة الـزيتون . كنت تقـريباً لا آكـل ، صائمـة باستمرار دون نيّة الصوم . ثم تغيّـرت الأحوال . أصبحت أشتهي الأكـل في كــل وقت وحـين . امتـلأت وابيضّ وجهي وهـا أنــا ارتـدي الفســاتــين العريضة. . . إلا اليوم جئت بتريكو خفيف . لما جاءتني الرسـالة لم أتـردّد ، تركت المطعم والزبائن الأصدقاء ، جون وريكاردو .

سأل علي :

ـ هل تعرفين أحداً بين الحاضرين ؟

ـ شعيب الذي قدّمني اليك . انقطعت الصلة بيني وبينه منـذ خمسة عشر عاماً . الحق ان صلتنا كانت بواسطة . أمـا الباقي ! . لا أدري كيف حصلوا على عنواني .

ـ هـذا من عمـل أغـرام . يعـرف كـل شيء عن حيـاة أولاد البلد حتى الذين لهم علاقة غير مباشرة بـالصدّيقيـة . على أي حـال نعرف الآن أن لنـا أختاً تدير مطعماً في طنجة . . دعاية للمطعم !

قالت خميطة بعد أن رأت ابتسامة تحوم على شفتي علي نور :

ـ ها . . ها . . قد تكون بشراً حسب تعبير جوهن .

ـ من جوهن هذا ؟

ـ أجيبك إذا جئت الى طنجة أو حكيت لي عن حياتك القدر الكافي .

ـ وتفسـرين لي أيضاً معنى اسمـك الغريب ، المكتـوب على الـورقة التي أعطيتها لي .

ـ هذا يتطلّب وقتاً أطول ويقاس بأسرار أكثر .

ـ أقبل شروط المقايضة .

(29)

القصيري في مكتبه يرنو إلى الساعة الحائطية ويقول : الوقت ! الوقت ! ويلتقط نتفاً مما يحكي الباشدور لعمر عن الحفلة التي أقامها على شرف أعضاء نادي الأسد يوم زاره أغرام . في تلك الدقيقة دخل هذا الأخير يلهث : « وصل . . وصل . . » بعد ثوان ظهر جلباب ممثل النيابة . نطّ القصيري من مكتبه :

ـ أهلاً ، مرحباً ، في الوقت تماماً . . والله شرفتم المدرسة .

شدّ على يده ثم قدّم له الباشدور وعمر الغربي ثم اعتذر :

ـ دقيقة واحدة ، أعطى الأوامر للكهربائي .

فكّر شعيب : صاحبنا إنضغط . التفت لممثل نائب الوزارة :

ـ تشرب حاجة قبل العرض . كل شيء موجود .

ـ كاس ماء يكفي .

ـ فيشي ؟ فيتل ؟

ـ الموجود .

ـ حاضر . . حاضر .

قال الباشدور :

ـ حفلة رائعة . بلا شك حضرت ، سيادتكم ، لحفلات كثيرة .

ـ في الحقيقة مع تكاثر المدارس والتلاميذ والأشغال . .

أخذ الكأس من يد شعيب .

ـ بدات تختفي هذه السنّة الحميدة . لذلك يحرص سيادة نائب الوزير على إحيائها رغم الصعوبات . فيها تشجيع للتلاميذ ومناسبة نتعرّف فيها على أرباب العائلات .

تدخّل عمر :

ـ هذي هي الذكريات اللي بقت لنا من أيام الدراسة . واجب المحافظة عليها .

عقّب ممثل نائب الوزير :

ـ لكن لازم المساعدة من التجّار والأغنياء ولازم كذلك تنشيط جمعية الآباء . لأن حفلة بلا جوائز تكون باردة ثقيلة .

ـ صحيح .

ـ سمعت أن السيد المدير توفّق وجمع جوائز كثيرة عن طريق جمعية خاصة بأبناء مدينة الصدّيقية . فكرة لا باس بها . السيد القصيري نشيط في كل الميادين والنائب يعطيه دائماً كمثال . .

عندها انفتح الباب . ربما سمع القصيري الكلمة الأخيرة لكن ممثل النائب لم يترك له فرصة ليعبّر فيها عن شكره . أعطى الكأس لشعيب وقال :

ـ إذا كانت الأمور جاهزة نبدا .

أجاب المدير بحزم :

ـ كل شي جاهز .

(30)

اختار شعيب مقعداً جانبياً في الصفّ الثالث جنب ابراهيم سرحان . خاطبه :

ـ نسيتك . . اعذرني .

أجاب سرحان :

ـ المسامحة يا شيخ . أنا عارف جوّ الحفلات .

ـ عرفت بعض الوجوه ؟

ـ ولا واحد .

خرج من وراء الستار فتى نحيف وتقدّم نحو الطاولة الموضوعة فوق الخشبة . كان يلبس جلباباً وعمامة مائلة على قفاه . وضع يديه فوق الطاولة وفي الحين انطلق من الطابق الأول النشيد الوطني . بعد قليل خفّ الصوت واستطاع الحاضرون ان يلتقطوا قول الشابّ . كان يسرد فقرات العرض : تلاوة ، قصيدة ، تمثيلية ، أغنية . . اختلس خليفة نائب الوزير نظرة إلى ساعته اليدوية ثم ابتسم لعمر كأنه يسرّ اليه : فكرة جيدة هذا التقديم . ردّ عمر عليه بابتسامة عريضة .

ارتفع صوت الفتاة تحض الناس على البرّ والتقوى والرفق بالوالدين . هبّت ريح خفيفة من ممرّ إلى آخر وتمايل الستار المسدول من الطابق الأول ، كأن الريح لم تات من البحر القريب ، من حركات الجو فوق المراح المكشوف ، وانما من صوت الطفلة وهي تؤكد للرجال والنساء : لا تخافوا ولا تحزنوا لكم أولاد يبرون بكم حين تخور قواكم ويضعف عودكم . هذا ما نعلّمهم في مدرستنا هذه . اطمئنوا إلينا . كانت الفتاة مطرقة ، عيناها مشدودتان إلى نقطة في الهواء بين الخشبة ومقدّمة الحاضرين ، وجنتاها محمّرتان ، قابضة على زاوية الطاولة بقوة يحس بها المتفرجون ولا تحس بها هي . تتوقّف وتعيد الآية على نغمة أعلى . الصوت رقيق حلو يعتريه فتور عند استئناف التقاطيع . كلما فتر الصوت تمايل الستار .

أحس وشّان ببرودة الأرض تدبّ الى ساقيه وركبتيه . شعر بالألم الذي كان قد نسيه في المغرب الشرقي وتذكره عندما استقرّ بالقنيطرة . ضغط على وركه وانحنى على مقعده وهو يفتكر . طفلة يتيمة تبكي أباها المفقود . هذه نوره واقفة على الخشبة تبكي وتنتحب بعد ان أختفي . تبكي أو لا تبكي . علّموها في مدرستهم حكايات لافونتين . الأولاد . . الأولاد . . كلوا واشربوا ثم تفرقوا شرقوا أو غربوا . . أ الأميمة ادخلي للخلوة وسدّي الباب ما حكّ ظهرك غير ظفرك . . كلام الصحّ ، كلام المعقول .

أغمض سرحان عينيه ليلتقط رنّة الفتاة . كلما تصدع صوتها علته قشعريرة . يلتفت إليه شعيب : ياك لا باس . فيضع سرحان يده على ركبة شعيب : لا تخف ولا تحزن ، كل شيء بخير . يفتكر . لا علاقة بين المعنى والرنّة . ماذا تعقل هذه الطفلة الساذجة من هذا الكلام المكتنز الذي ينزل على الفؤاد كأحجار الجبال . لا يمكن ان تفهم . لا يمكن ان تطابق بين الكلمات ورنّة الصوت . ليست ممثّلة محترفة . إذن من أين الحزن ؟ الكآبة ؟ الانتحاب ؟ آه . . نعم . . من السلم الثانوي ، موسيقاكم كلها مبنية على السلم الثانوي وكذلك تلاواتكم وتراتيلكم . لا يا سيدي سمعناه عند الآخرين وما شعرنا أبداً بما نشعر الآن من عمق الأسى . ليس الانسان هو الذي ينتحب بل الملائكة ، بل الجن ، بل الجماد . هذا حزن موروث ، لا

طبيعي . مـاذا تعرف هـذه الطفلة عن الحـزن وها هي حـزينـة ، حـزينـة إذ تقول : لا تحزنوا ولا تيأسوا إن الله غفور رحيم .

تحرك عمر حركة عصبية انتبه لها الباشـدور . كان يبحث عن منـديله في جيوبه المختلفة . انكبّ عليه قائلاً :

ـ احسن محلّ للمنديل ان تضعه هنا .

ووضع يده على قلبه . أومأ عمر بـرأسه وهـو ينفر منخـاره بعنف . رفع رأسـه ملتفتاً إلى البـاشدور . فـلاحظ هذا الأخـير أن عيني عمر احمـرّتـا وأن جناحي أنفه تتحركان فانقطع عن الكلام . وفوق الخشبة جماعـة من الأطفال مكوّنة من ستة تلاميذ متقابلين تصرخ :

فهـــلا يــا شبـــاب الغـــرب هـــلا   خـلقـتـم منـكـم نـشئـــاً جـــديـــدا

فكر أغرام : زربة هذي . . منّه فيه بحال عشاء رمضان . خايف يثقـل على سيادة خليفة النائب . . ايه . . ممكن يضجر ويقف في وسط العرض . . فضيحة ، اي فضيحة ، عندك الحق ، يا أخي ، يـا صاحبي ، يـا ودّي ، يا قصيـري ، قصّـر مـا عنـدك ، خفيف ظـريف . . والا قصّـرت أمـــانيك وقصّت . . التفت إلى وشّـان المنحني على مقعـده ثم إلى رجـل أكلت وجهـه لحية مصبوغة فقال في نفسه : كن على بال ، الجدّ يا سيدي الجدّ .

«ـ طاقت نفسي للجهـاد . كيف نتـرك أرض الاسـلام بيـد عبـدة الأصنام ؟

ـ كلمـة تذكـر بأقـوال جدّك المقـدام المولى اسمـاعيل . ولـولا تشـويش الأتـراك تـركهم الله من جنته وفتنـة العبيـد السفهـاء ، الـذين هم للبهـائم نظراء ، لما بقي للكفر على هذه الأرض أثر .

ـ تكلّم يا سليمان .

ـ سيـدي ومـولاي ، أنـا رجـل صنـاعـة ولست رجـل صنعـة ، واجبي النصيحة لأن الدين النصيحـة . ليعلم مولانـا حفظه الله ان المـدينة داخلة في البحر ، محصّنة منذ أكثر من قرنين ، سكّانها يعرفون كل شبر من ضواحيها . لا تنفع فيها المهاجمة والمبـاغتة وانمـا يلزم لها الحصـار الطويـل برّاً وبحـراً حتى يقضي الله على الكفار جوعاً وعطشاً ويذيقهم مرارة اليأس والقنوط . كم من

مرّة حاول ملوك الشرفاء السعديين بـدون جدوى لأنـه لم يكن في جيشهم من يحسن صناعة المهراس . كانوا يقيمون الشهـر والشهرين ثم يـرحلون بعد ان يكونوا قد تضرّروا أكثر مما أضرّوا العدو .

ـ ما تقول يا فنيش ؟

ـ الاعتماد على الله ، يا سيدي ، إذا جاء أجلهم فلا هم يستقـدمون ولا يستـأخرون . وليتحقق سيـدنا ومـولانا أن هؤلاء الأنـذال ليسـوا مثـل بـاقي الأروام . انهم حقـدة لئام . لا يتحـركـون إلا بـأمـر بـطريقهم وحـاخـامهم الأعظم . وهذا لعنه الله قد وهب لهم الدنيا ومـا فيها ان هـم حـاربوا الـدين الحنيف . انهم يتذكّرون دائـماً اننا أذقنـاهم ذلّ الهوان مـدة ثمانيـة قرون فـلا تظنن انهم يخرجون كما خرج النجليز من طنجة . سيستعملون الحيل والمكائد لاستمالة الأعراب وتشتيت صفوف المجاهدين .

ـ سيـدي ومولاي ، ان يـوسف بن تاشفـين لما وصـل إلى الأندلس كتب اليه الادفونش يتوعّده ويخيفه بعدد فرسانه وجنوده . فكتب يـوسف على ظهـر الرسالة بما في علم مولانا . لقد طاقت نفس مولانا إلى الجهـاد فلا كـلام بعد الإفصاح . كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بعون الله » !

(31)

« ـ انـظر ايها الأمـير خيام الأعـراب . فيما مضى كنـا نتحكّم في المنطقـة كلهـا من البحـر الى وادي تـانسيفت . لا تقف أمـامنـا قـوة بعـد ان قـطعنـا الأشجـار وسمّمنا الآبـار . كانت المجـاعات أكبـر حليف لنا . نفتـح مخـازن الحبـوب ويـدخـل النسـاء والأطفـال أفـواجـاً في دين المسيـح ، علماً منهم أو جهـلاً . والآن يحاصـرنا الأعـراب اي حصار . لا هجـوم ، لا مبـارزة ، لا فـروسيـة ، بـل الكـور والقـذائف تصبّ علينـا نهار مسـاء . متى تـأتي سفن النجدة ؟

ـ تعلّموا من الأتراك .

ـ ومن بعض ملاحذة الانجليز الحاقدين على الكنيسة .

ـ عندهم الآن مهندسون وبحّارة محنّكون . الخطر الأكبر هو التأنّي . كأن

الأعراب فهموا سرّ الحرب فتخلّوا عن أسلوبهم المعهود .

ـ متى تاتي النجدة ؟

ـ تريد الحق ؟

ـ نعم ، نحن شريكان في المسؤولية .

ـ اذن أقولها بصراحة . لا تنتظر أية نجدة . كتب الملك براءة التفويض التامّ . إن الدولة عاجزة عن حماية مستعمرة نائية لا نفع فيها . لقد تقرّر إخلاؤها منذ أكثر من قرن ، إنما البابا هو الذي اعترض وتوعّدنا بسوء العاقبة إذا نحن تركنا الهلال يسترجع أرضاً خضعت للصليب .

ـ البابا دائماً على حق !

ـ انما أنا في خدمة الملك . والملك قال لي : أنت وحظك ، إذا تفرّق الأعراب فذاك وإلا احملوا ما قدرتم عليه وارحلوا ، ان مملكتنا واسعة من الهند الغربية إلى شواطيء الصين .

ـ والسكان الذين يعتقدون ان المدينة قطعة من البرتغال وانهم هنا للدفاع عنها مهما كان الثمن ، كيف تسوق اليهم الخبر ؟

ـ شغلك يا قس ، انك شريكي في المسؤولية » .

(32)

« ـ السلطان المبجّل ان النصر بيد الله والهزيمة بيد الله . لولا قضاء الله وقدره لما انتصر اباؤنا الأوّلون ولما مكثنا قروناً على هذه الأرض حتى وجد بيننا من سكن أبوه وجدّه الأعلى الدار عينها . والآن أيها الملك المعظم جئتنا بجيوش جرّارة لم نسمع بمثلها فكيف لنا ان نقاومها أو نتبث لها . لم يكن بيننا عهد مكتوب لكنا عشنا مدة طويلة في حالة لا حرب حتى غرّتنا الدنيا وظننا ان التساكن يدوم أبد الدهر . أيها العزيز إننا سمعنا بعدلك وتقواك من تجار آسفي والصويرة ونرجو ان لا يخيب رجاؤنا في شهامتك وحلمك . لقد جمعت ضدّنا قوة لا قبل لنا بها ورميتنا بالمحروقات التي لم نعتدها من عساكرك . فتهدّمت دور ومات أطفال ونساء وعجزة ، ورغم أننا ما زلنا نملك من الميرة والعدّة ما يمكننا ان نصبر على الحصار شهوراً وشهوراً فاننا

فضلنا حقناً للدماء ان نبلغ كبيرنا الخبر اليقين وأن نصف له الحالة كما قدرها الله ونحن الآن في انتظار أمره المطاع . أيها الملك المعظم إن كان فتح هذه المدينة مكتوباً في لائحة أعمالك فلا رادّ لأمر الله . اننا نطلب منك مهلة توقف أثناءها إطلاق الكور علينا إلى أن يأتي الردّ ولا شفيع لنا لديك سوى حسن ذكرك . ان الأمر بيدك إن أردت بطشت وإن أردت عفوت . وإن تعفوا فهو أقرب للتقوى (الآية) .

ـ أحسنت يا قس . كأنك عشت في قصور القسطنطينية » !

(33)

« ـ اننا بعد ان شاورنا القاضي والوزير وقائد العسكر قرّرنا ان نستجيب الى مطلبكم . نوقف القصف مدة ثلاثة أيام وهي المدة المعلومة . لا يدخل الى المرسى إلا مركب واحد وإذا جاء الأمر بإخلاء المدينة خرجتم بما عليكم من الملابس . كما جئتم أول مرة . إذا قبلتم الشروط فلكم عندنا ما طلبتم . وإلا حكّمنا فيكم السيف » .

(34)

« ـ مولاي ، رجل من أهل المدينة يقول ان له أمراً ذا شأن لا يقوله إلا بحضرة مولانا .

ـ انا تاجر أعرف البلاد ويعرفني السكان ، لدي سرّ خطير يهمّكم كثيراً يا صاحب الجلالة . أبوح به مقابل شروط . نحن سكّان المدينة ندين لكم بالولاء التام لكن نحافظ على استقلالنا . تعينّ جلالتكم قائداً علينا منا وتمنح لنا امتيازات تجارية في مجموع جنوب المملكة . لا يسكن معنا أحد ممن لا يدين بديننا . يدخل المدينة من يشاء طول النهار ، لا المعاملة والمخالطة ، لكن مع الغروب يغادرها من لا يسكن فيها بصفة دائمة . مقابل هذه الامتيازات نؤدي قدراً معلوماً ندفعه على رأس كل سنة ذهباً . كما نخدم جلالة السلطان برّاً وبحراً ، ندرّب الجنود ونجهّز المراكب ونحارب الأعداء من غير بني جلدتنا . إذا تفضلت جلالتكم بامضاء الشروط أتيت بمفاتيح المدينة قبل يومين . وحينذاك أطلع جلالتكم على السرّ الذي ألمحت إليه » .

(35)

«ـ سيدي ، الأول قس والثاني تاجر وكلاهما كافر لا تقبل شهادته .

ـ سيدي مع الأول نربح المدينة وحدها ، مع الثاني يدوم الربح سنوات وقد نستعيد قوتنا البحرية .

ـ سيدي قد اصطنع متأخرو الموحدين والسعديين جنوداً نصارى وامضوا لهم شروطاً أخفّ مما طلب هذا الملعون . وما ظهر من مرتزقة النصارى نفع . بل كانوا نقمة على من اصطنعهم .

ـ سيدي التجار مقامرون وهذا الملعون تاجر مقامر . والمقامرة مخاطرة بالأرواح والممتلكات . لكن مولانا أعلم وأفقه .

ـ إن الله وحده يعلم الغيب . ولا يطلع على أسراره إلا من اصطفى من عباده . لو أراد ان يطلعنا على ما فيه خير لنا لكشفه لنا . لو كانت الأرض خارج مملكتنا لأستخرنا الله وأقدمنا على شيء قد يكون وقد لا يكون . اما والأرض أرض إسلام فتحها عقبة وأصحابه الأخيار أغتصبت ممن سبقونا في الملك وتهاون من خلفهم في استردادها ، فلا كلام ولا مساومة . إذا توقفنا عن القصف والرمي فليس في ذلك إضعاف لجيشنا ولا تقوية لخصومنا . ادخلوا القس أمضوا له الشروط وبالله التوفيق » .

(36)

«ـ هل تركوا كل شيء في المدينة ؟

ـ نعم سيدي . خرجوا فرداً فرداً لا يحملون إلا ما على ظهورهم . لقد رأينا رئيسهم ينزع منهم ما زاد على ذلك .

ـ ماذا يقول فنيش ؟

ـ ان ننتظر ثلاثة أيام قبل ولوج المدينة .

ـ الصلاة جامعة . نحمد الله ونشكره على نعمه » .

(37)

«ـ معجزة هذه . الرعد والسماء صافية !

ـ إنّما هي لعبة التاجر الخائن . أسرع وفتح الأبواب قائلاً : أعرف اين توجد الكنوز ، من سبق ربح .

ـ قتل الله الطمع .

ـ في صورة بشر وما هم بشر .

ـ كم ألقوا بانفسهم للتهلكة ؟

ـ ما قدر الله .

ـ آه لو كانت الخاتمة مثل الفاتحة ! إنها لا تعمى الأبصار بل القلوب التي في الصدور . كنت أنوي شفع فتح بآخر . ننهي عملنا هنا ونشدّ الرحال إلى مليلية .

ـ تغلب الشيطان على قلوب المتنطعين .

ـ غفر الله لهم . لا تكن مثل من قال : معبودكم تحت قدمي . لقد كافحوا وجاهدوا . ادع الله تعالى ان يحشرهم مع الشهداء والصّديقين .

ـ مولاي انما الأعمال بالنيات . نويت تحرير مليلية وسبته وما وراءهما . ما ضاع حق وراءه طالب .

ـ شعارنا : أرض المغرب للمغرب . أرض الاسلام للاسلام . لا يشاركنا فيها غيرنا أبداً والله مع الصابرين » .

(38)

تقدم جميع التلاميذ الى رأس الخشبة وهم يصفقون ويدقّون صارخين : أرض المغرب للمغرب ، أرض المغرب للمغرب . التفت القصيري إلى خليفة نائب الوزير وكأنه لم يكن ينتظر هذه المظاهرة . تردّد الخليفة قليلاً ثم قام يصفّق . فتبعه الحاضرون . طال التصفيق نحو الدقيقتين ثم تراجع التلاميذ واختفوا وراء الستار .

قال خليفة النائب مفتراً عن ابتسامة مقتضبة :

ـ عرض جميل ، جميل جدّاً في حدود مقبولة .

أجاب القصيري :

ـ تذكرنا كثرة الأشغال وتركنا توزيع الجوائز إلى الغد ، ان شاء الله ،

داخل الأقسام .

ـ طيب ، طيب .

قال هذه الكلمة مفتكراً : دقيقة سهو وتنفلت الأمور . العرض يغير معنى النصّ . جهر :

ـ أين المؤلف ؟ لا بد أن أهنئه على حسن عمله .

تقدّم شاب نحيف ، أصفر البشرة . عالي الجبهة . سأله الخليفة :

ـ قل لي يا أستاذ ، ما جاء في التمثيلية كله صحيح ؟

ـ اعتمدت بالأساس على الحكايات الشعبية . فيها أخبار لا تكاد تصدّق . المعتقد هو ان السلطان محمد بن عبد الله مدفون في تلك المنطقة .

ـ لكن هناك أقوال عجيبة . لم أنتبه إليها عندما قرأتها .

أطرق الأستاذ ولم يجب . اعترض الخليفة في نفسه : خلّي الناس بحالهم . بلا صداع رأس . التفت حوله ورأى أولياء التلاميذ واقفين في انتظار مغادرة الرسميين القاعة . عندها قفز القصيري فوق الخشبة معلناً :

ـ قاعة المشروبات على اليسار .

رغم الإعلان اتّجه عدد من الحاضرين ، النساء والرجال المعمرين خاصة ، نحو باب الخروج . ألحّ القصيري على الخليفة ان يشرف المدرسة ويتناول مشروباً . اعتذر الخليفة . ألحّ القصيري وأخيراً قصد الخليفة الغرفة المخصّصة للمشروبات متبوعاً بالباشدور وعمر الغربي اللذان لم ينبسا بكلمة منذ أن انتهى العرض . داخل الغرفة وبأمر من القصيري بدأ أغرام وشعيب يقدمان الكؤوس إلى الحاضرين . بعد قليل انتصب القصيري قائلاً :

ـ عندي إعلان يهمّ آباء التلاميذ أولاد مدينة الصديقية . هو تأسيس جمعية لتشجيع الحركة الرياضية فيها . تكوّنت لجنة من رجال مرموقين تمكّنوا بفضل جهودهم المتواصلة وشفاعة الولي الصالح قطب مدينتنا الغالية ان يشقوا طريقهم في الحياة . أكرمونا برعاية هذه الحفلة الشيّقة . فبإسم التلاميذ وبإسم أوليائهم أشكرهم جزيل الشكر . لا داعي لأقدم لكم الفقيه شعيب الصباغ من درب العرصة ، المقيم حالياً في الصديقية . هو المكلّف بتنظيم النشاط الرياضي . من أراد ان يتعرف على المشروع او ينخرط فيه عليه ان

يتصل بشعيب الواقف الآن بجانبي ، أو بممثله هنا في البيضاء السيد أحمد أغرام العارف بأمجاد الصدّيقية في الماضي وأعلامها في الحاضر . لا أنسى أن أشكر في الختام خليفة نائب وزير التربية الوطنية الذي شرّفنا بحضوره وبقي بيننا الى هذه الساعة المتأخرة والسلام .

صفّق الجميع . اغتنم خليفة النائب الفرصة وأومأ الى القصيري أن الوقت حان ليغادر المدرسة . قال المدير :

ـ معلوم ، معلوم . الواجب لا يعذر .

وفتح له الباب متبوعاً بأغرام وشعيب . خطا الخليفة خطوات ثم قال :

ـ النائب راض عليك . انت تعرف ذلك . لكن لّما أصف له حفلة اليوم أنا على يقين أن رضاه سيزداد ويزداد .

ـ كل هذا باعانتكم . انا دائماً رهن الإشارة .

وقف الجمع على عتبة المدرسة في انتظار ان تدرج سيارة خليفة النائب وان يرفعوا أيديهم مودّعين . عندها ربضت على الرصيف سيارة سوداء ونزل منها الخلوقي . سلّم على الجميع واعتذر عن التأخر ثم سأل :

ـ كيف كانت الحفلة ؟

أجاب أغرام .

ـ عجيبة . التلاميذ مثّلوا أدوارهم كالمحترفين ، أداء ، نطقق، هيئة . أعجوبة .

ـ أنا جاءتني صعبة . فيها كثرة الأفكار . لهذا فضّل يكتبها وحده .

علّق شعيب :

ـ كانت عنده مكتوبة . عمل من العرض تجربة

شدّ القصيري على ذراع الخلوقي وقاده نحو غرفة المشروبات قائلاً :

ـ المهم ان التمثيلية عجبت الآباء والتلاميذ . دينية ، وطنية ، أخلاقية . لا غبار عليها . وخليفة نائب الوزير صافح الأستاذ المؤلف وشكره .

ـ أحسن ما فيها الجملة الختامية : أرض المغرب للمغرب .

قال الخلّوقي :

ـ بهذه الجملة اختتمت الحفلة ؟

ـ نعم . وصفق الحاضرون كما لو اختتمت بالله أكبر .

كان سرحان مستنداً على عمود وسط الغرفة في يده كأس من الشاي الفائر . لمحه شعيب من بعيد فقال :

ـ لا بد ان أهتم بضيفي .

قبض على ذراع الخلّوقي وجرّه نحو سرحان :

ـ سي خلّوقي هذا سرحان سمع أني وحدي في الصديقية وجاء يونّسني .

ـ أهلاً ومرحباً . سرحان إسم مستعار ، بحال علي نور .

تدخل شعيب :

ـ الوقت طويل ، تعرف الأصل والمفصل . قلت انت رايح اليوم للصديقية . خذ معك سي سرجان . جاء معي وانا افضل أبقى الليلة مع أغرام . موافق .

ابتعد شعيب وترك الرجلين رأساً لرأس .

(39)

أسرّ الباشدور لعمر :

ـ هل تأثرت بما سمعت أثناء العرض ؟

ـ نعم . ذكرني صوت التلميذة صوت فتاة عرفتها فيما مضى . انا الآن أعزب عاطل . ربما هذا هو السبب .

ـ قل لي يا أخي ، هل أخذت ضمانات ؟ أوراق ، شهادات ، فواتر ، أشياء تنفعك إذا ما اختاروا طريق الشدّة .

ـ الوقت ، ما كان عندنا وقت ، مرّت الأمور بسرعة . نسمع الناس يتأسّفون على أيام الفرنسيس . مساكن خدعتهم المظاهر . وراء الواجهة كانت ألاعيب لا تصدق . هؤلاء ناس رضعوا الحيل مع حليب أمهاتهم واتقنوا قواعد اللعبة . القضية مثل الجبل ولا أثر . لما جينا وجدنا الخبز في الفرن . ماذا نفعل ؟ قيل لنا : تابعوا العملية . أياكم ان تحرق الكسرة . والآن : أين الحجج والمواثيق ؟ يا سيدي كنا مأمورين والأمر بالتليفون . كيف ؟ كيف ؟ أكلمك كأخ شقيق . الوقت غدر بنا .

ـ ولا عليك . انا على يقين ان الأمور تسوّى .

ـ صح . لكن من بعد ؟ الخارج من الحلبة لا يرجع إليها . طلاق بالثلاث لا رجعة فيه . لذلك انا مرتاح لكون مريم غادرت البيت . الآن عدت إلى حالي سنة خمسين . أفكار نسيتها مدة سنوات تعود إلى الذاكرة . . مناظر ، أحاسيس ، أحلام شاب مراهق .

ـ اي منظر انكشف لك بصوت التلميذة ؟

ـ تتذكر لما كنا تلاميذ نسمع : فلان في المصرية ونحاول نتصور ألواناً من السعادة ، جسمانية ، ذهنية ، روحية . نعجز ونقول : إنهم ينعمون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت . كنا نجهل الخمور والمخدرات والجنس . فنتصور النعيم نظرة إلى المياه الجارية والأشجار الباسقة ، جلسة تحت الظلال وقت المغيب ، زقزقة طيور ، تنقيط فتاة جميلة منحنية على العود . صور تلاحقني وهي التي أدمعت عيني الآن .

ـ من تعوّد على العمل قتلته البطالة !

ـ هذا شكل من أشكال الانتقام . لو ما خفت من المقارنة الخاطئة لغادرت الرباط وقمت بأي شغل ، حتى لو كان تشجيع الرياضة في الصديقية .

ـ جرّب !

ـ هم خامدون وانا خامد ، حتى يتّضح المخرج .

ـ وتقدر تثبت ؟

ـ بحرمة مكة وأهل البيت .

(40)

يبدو البهو الآن فارغاً كئيباً . تهبّ فيه ريح باردة رطبة ويخيم عليه ظلام تخترقه بعض مصابيح قاعات الدراسة . المقاعد ما زالت مصفوفة في انتظار عرض ثان غير محتمل . القصيري اختفى بعد ان ودّع خليفة نائب وزير التربية واختلى بالتلاميذ الذين مثّلوا في العرض والمعلّمين والمعلّمات الذين سهروا على تنظيم الحفلة .

قال علي نور :

ـ لم نتكلم طويلاً هذه المرة . لكننا سنلتقي قريباً حسب ما قال لي شعيب

الفقيه .

ثم بعد صمت :

ـ هل من الضروري ان نودّع الحاضرين واحداً واحداً ؟ .

أجابت خميطة :

ـ هكذا تنتهي دائماً الحفلات ، أعرف ذلك . نقصد الباب ونودّع من وجدنا في طريقنا ، عرفناه ام أنكرناه .

ـ كان المفروض أن نتعرّف على جميع من حضر .

ـ غير ممكن . تتفتت الحفلة دائماً إلى حفلات جزئية . يبدأ الحوار أمام الجميع ويتابع في الخلوة .

ـ هل نتّبع القاعدة ؟

ابتسمت :

ـ طبعاً . قاعدة بلا استثناء .

تقدّم علي نور وخميطة نحو الباب . أشارت :

ـ رجل حزين يستجير بشعيب الفقيه

أعلن :

ـ مختار وشّان ، أعشى يتحاشى النور .

ـ نسلم عليه ؟

ـ ضروري . كلنا إخوان !

(41)

مرت خميطة مصحوبة بعلي نور امام **الطربوش الأحمر** وألقت نظرة سريعة على صور نساء عاريات يضيئها مصباح أحمر ساطع . خفّت الريح وبدت النجوم قريبة متلألئة والسماء بعيدة صافية . هكذا تتميّز الليالي البيضاء عن الليالي الزرقاء الحالكة .

قال علي نور :

ـ أنا ابن البيضاء أعرف القسم الغربي منها درباً درباً وأحياناً داراً داراً .

ـ أولست من الصدّيقية ؟

قهقه :

ـ انا صديقي بيضاوي كما انت صديقية طنجاوية . جنسيتنا الصغيرة كالكبيرة لا تضيع .

واستطرد :

ـ خلقت تقريباً في مخبزة كبيرة ، عصرية ، رومية كما يقال . كان أبي يوزّع الخبز على الدكاكين والمطاعم والفنادق ودور الأغنياء . كنت أرافقه دائماً وهكذا تعلّمت جغرافية المدينة وشيئاً من تاريخها .

قاطعته :

ـ قل لي من فضلك إلى أين تقودني ؟

ـ إلى مقصدك الأصلي .

ـ لا .

ـ نراهن ؟ أين حجزت ؟

ـ في الإكسلسيور .

ـ وأنا كذلك .

ـ أنت ساحر إذن .

ـ وهذه اللحية أوليست لحية ساحر ؟

ـ إذن الى الإكسلسيور .

علّق علي نور :

ـ موعد المعمرين مدة نصف قرن . ينزل الوافد فيجد شارعاً محفوفاً بالنخيل . نفس الشارع في البيضاء ، في داكار ، في بيروت ، في جميع المراحل التي مرّ بها الجيش الفرنسي ، شارع يقوده حتماً الى فندق ومطعم الإكسلسيور . سوّاح اليوم يشتكون من أن الفنادق السياحية تتشابه في طبخها وخدمتها وعروض أزيائها وأفلام فيديوهاتها وهل هذا أمر جديد ؟ في القرن الماضي أما كان الفندق ينقل مؤثثاً مجهزاً من مرسيليا إلى الجزائر ، من لندن إلى سنغفورة ، من سان فرانسيسكو إلى شانغاي . .

ـ سافرت إلى هذه المدن ؟

ـ أضحكي يا جارة إن الليل موات . لم أسافر وإنما قرأت وترجمت والمترجم إذ يترجم يستحضر المشاهد كما لو كان يراها بعين رأسه .

حينئذ أقدمت خميطة على أمر عظيم . رفعت بصرها كما لو كانت حريصة على ان تسجّل أين ومتى شعرت بما شعرت . قرأت لافتة فندق وندسور ثم وضعت يدها على كتف علي نور معتذرة :

ـ لا تغضب .

لم يتوقّف ولم يلتفت إليها بل تابع طريقه يتقدّمها نصف خطوة . كانت تحاور نفسها في أعماق أعماقها بدون لجوء إلى الكلمات . أفوقه سنّاً أسبقه تجربة أعطف عليه أحنّ إليه ليبق على هذه الصورة وسيكون ما يكون .

تابع :

ـ بدأت أسجّل الحكايات التي كنت أسترقها وأنا أقطع مع أبي أحياء المدينة . كان صاحب المخبزة يؤكّد لأبي : هذا الولد يحبّ العلم خلّيه يتعلّم . من حين إلى حين يأخذني إلى بيته ويقدّمني إلى زوجته الحزينة التي كانت تذهب كل يوم إلى الكنيسة لابسة الأسود دامعة العين . كم مرّة أجلسني جنبه وفتح كتاب الحساب متحدّياً : خلينا نرى من يسبق ويحلّ تمارين هذه الصفحة . علمت فيما بعد انه غادر المدرسة في سنّ مبكّر وانه ندم على ذلك أشدّ الندم . تعلّمت منه الكثير في ميادين شتى . كنت أفرح عندما يطلب مني أن أبقى مع زوجته الحزينة عشية بكاملها . أفتح رواية وأقرؤ ها لها الى أن يعود من المخبزة في ساعة متأخرة . كنت أقرأ بعيني وأتذكّر ما كنت أسمعه عن سكان البيضاء . ويوماً بدأت أدوّن مغامرات الريفيات عندما يغادرن سوس أو الحوز ، أزيلال أو خنيفرة ، ويلجأن إلى خدمة العائلات المثرية ويتعرّفن على جميع أنواع البشر . سوّدت الأوراق بعد الأوراق . عندما قرب تاريخ امتحان الباكالوريا اضطررت الى أن أكتب في كنّاش : أنا الموقع أسفله أعاهد نفسي أن لا أقرأ قصة ولا أكتب قصة طوال الستة شهور التي تفصلني عن الامتحان والله شاهد على ما أقول . اجتزت الامتحان ونجحت وفرح الجميع . قال لي صاحب المخبزة مبتهجاً : تخطيت أكبر حاجز . لا شغل لك عندي ، أنظر إلى أعلى ، أختر حرفة حرّة تستعمل فيها اليد والعقل . لكني لم أستجب إلى نصيحته بسبب شغفي بالروايات . كنت أقرأ لعدة قصاصين أطباء ـ سلوتر ، مونث ، كرونين ،

موم . فكرت : حتى لو أنتحلت مهنة الطب لانتهى بي الأمر إلى تأليف القصص عن علاقات الأطباء بالمرضى . إذن لماذا لا أتبع من الآن ما تهوى إليه نفسي ؟ وهكذا دفعت دفعاً إلى مهنة التدريس .

ـ هل نشرت ؟

ـ أقل القليل . رميت القسم الأكبر في النار . كتبت ، ترجمت ، شاركت باسم مستعار في مباريات أدبية كان الهدف منها تشجيع الأدب الشعبي ، أي إسماع صوت الشعب في الأدب . قلت : حياة الشعب ؟ منذ أن نشأت وانا غامس فيها . حكيت مغامرات بنت الشعب على لسانها . نالت القصة الجائزة وتقرر نشرها . بحثوا عن الفتاة التي سجّلت بأمانة وأسلوب سهل مؤثر أمال وآلام الطبقات المستضعفة فلم يجدوها . . لعبة بريئة انتهت بفضيحة . بسبب هذا النجاح اكتشفت ان اللعبة الأدبية لا يمكن ان تتحول أبداً إلى شيء آخر . نسمع من أفواه ابناء الشعب حكايات نظن أنها حوادث مسجلة وهي في الحقيقة والواقع حكايات . إتّضحت لي هذه الحقيقة عندما انتبهت بعد سنين وسنين إلى ان ما أترجم لا يختلف في شيء عما أسجل . الفرق الوحيد هو اختلاف الأسماء : عمر محلّ روبيرتو وأمينة محل لوتس . سقطت في حفرة وما زلت فيها الى الآن .

ـ حفرة ؟

ـ حفرة ، هاوية ، مطبق ، معنى واحد . قلت : الأفضل أن أعيش في حفرة حقيقية وطلبت نقلي إلى سفح الجبل .

(42)

ـ الإكسلسيور يتباعد . . ام نحن نتباطأ .

تتقدّم خميطة بخطى بطيئة ، خطى من يحمّل ساقيه أكثر من اللازم . في أعماقها إحساس مبهم : شاب مراهق رغم السن القانوني ، شغلي منذ سنين أن أتعامل مع المراهقين ، تعلمت ذلك عندما كنت أعيش وراء البحار .

ـ عندي حلّ .

ـ ما هو ؟

ـ أسمع طول السنة تساؤلات مثل تساؤلاتك . يختلف إلى المطعم رجال

يدعون انهم هاجروا الى طنجة بحثاً عن جو يوافق الكتابة والتأليف . تجربتهم قد تنفعك .

ـ ما أظن .

ـ جرّب .

ـ على ودّك ؟

ـ أجل . على ودّي .

خيّم الصمت .

ـ أمور حكيتها مراراً لنفسي .

ـ لا تقل لي إني أوّل امرأة كلّمتها بهذه اللهجة . لن أصدّقك .

ـ لا أقول ذلك . خاطبت نساءً كثيرات في مدن مختلفة . لم أتذكر شعوري آنذاك . الآن أشعر بنشوة عظيمة .

ـ لعلّه المشي في الليل واستذكار عهد الصبا !

ـ ليكن . في هذه اللحظة بالذات إنت بجانبي وعندما أتذكّر هذه الليلة ونشوتها ستكونين جزءاً منها .

ـ هذا بسبب مشروع شعيب الفقيه ! شكراً له .

ـ هذه هي الفائدة الوحيدة من الأمسية .

ـ يا لك من أناني !

ـ لو سألتك : ماذا جنيت من الأمسية ؟ هل تعلمت أموراً كنت تجهلينها ؟ هل تعرفت على أناس لم يكن لك بهم اتصال ؟ لأجبت بالنفي . رغم ذلك المهمّ هو أن الأمسية نُظّمت . أنتِ في طنجة تخالطين السوّاح والكتّاب المهاجرين ، وأنا في أطراف البلاد أعيش وحيداً محاطاً بتلاميذ صغار . أؤكد لا قيمة لما قيل ويقال ، القيمة لشعورنا بوجود الجمعية .

ـ هل تتغير حياتنا ؟

ـ على مهلك يا بنيتي !

ـ إذا استدعيتك لطنجة تاتي ؟

ـ مؤكد آتي . ها قد وصلنا أدخلي وحدك . لي مواعد في مواضع أخرى من المدينة . غداً نلتقي .

مدّ علي نور يده لخميطة في حركة ورعة . صافحته وأشاحت عنه بسرعة .

(43)

قال الخلّوقي لابراهيم سرحان :
ـ ظاهر عليك برّاني .
أجاب سرحان بصوت رخيم :
ـ مدّة وأنا خارج البلد .
ـ حتى الكسوة ما هي من هنا .
ـ كنت مرة مع زميل مصري فقدّمني لأحد مواطنيه . حدّق في هذا الأخير ثم قال : وجه عربي زي فرنسي . معك حق زي اليوم ما هو مغربي ولا فرنسي .
ـ أعرفه . تعودت عليه وأنا في القنيطرة . الزي دليل ان عهدك بالمغرب قريب .
ـ صح . هذا شهر ونصف وأنا في الصديقية .
ـ ناوي تبقى فيها مدّة طويلة .
بعد تريث :
ـ ناوي أستقرّ فيها .
ـ شابّ مثلك ولا شعرة بيضاء في راسه !
فتح سرحان فاه ضاحكاً :
ـ بغيت تفرغ السلّة دقّة واحدة ! خلّ شوية للغد .
ـ هذا هو الجواب . ما نسيت القواعد في بلاد الغيبة .
ـ تعلّم الصغر كالنقش في الحجر . قالوها القدامى الكبار .
بعد قليل :
ـ نغيّر الموضوع . من وقت ما وصلت للصدّيقية وأنا أسمع عن الشيخ العوني . كل واحد يذكر اسمه ولا يعرف كيف يتوصل إليه . إلا الفقيه الصبّاغ قال لي : عليك بالأخ بنعيسى هو صاحب المفتاح . لهذا جيت للحفلة . قال الفقيه : أحضر ممكنٍ يظهر . حضرنا والله سخّر .
نظر الخلّوقي الى سرحان طويلاً ثم سأل :

ـ ما سمعت إلا الخير على الشيخ ياك ؟

ـ سمعت انه بحر لا ساحل له . من تشرّف بزيارته فاز بالدنيا والآخرة . حطّيت الرحال بالصديقية . قدّامي وقت طويل إذا مدّ الله في العمر . اللّي ساح في الدنيا وعاد لبلده في ذهنه ما يونسه . الشيخ لازم داره هذي ثلاثين سنة يطحن ما في عقله وقلبه . لا بدّ ملآن . أنا سرحت وهو سرح ممكن نتفاهم .

صمت .

ـ لهذا سميت نفسك سرحان .

ـ استنتاج لطيف . الحقيقة أن زميلي المصري كان يقول لي دائماً أنت سرحان . كان يتكلّم بلا انقطاع . ياخذ بجدّ التعريف الشهير . الإنسان الصامت حيوان في نظره . يتكلّم الساعات وأنا واجم . أردّ عليه مرّة مرّة بكلمة أو كلمتين . أقول له : أنا استمع إليك وأستفيد . يظن أني أتصنّع فسمّاني سرحان .

ـ والاسم الأصلي ؟

ـ خرجت عن بنود الاتفاق . ابحث عن الاسم الأصلي . كل ما علي أن أزوّدك ببعض الإشارات . . درب القايد المدني قبل درب العرصة .

ـ غير كاف .

ـ إشارة إضافية . سل عن رفاق القايد التريعي لما اطلّ الفرنسيس على الواد وقرّر الجمع الاتجاه الى الجنوب . قارن ذا بذاك .

ـ وإذا حلّيت اللغز ؟

ـ تنظّم لي مقابلة مع الشيخ العوني .

ضحك الخلوقي طويلاً مبدياً إعجابه .

ـ ما هو قانون . عقلية غريبة عنّا .

ـ يا سيدي نسيح في البلدان وما نتعلّم ؟

ـ وبعد كل هذا تدفن راسك في الصديقية ؟

أغمض سرحان عينه اليمنى ومدّ أصبعه الى صدر الخلّوقي وقال مستهزئاً :

ـ موقتاً يا سي بنعيسى موقتاً . الغايب يعود والمدفون يحيى . .

قاطعه الخلّوقي :

ـ هـذا وشّـان قبض عـلى الثنـائي أغـرام شعيب . انتهت الحفلة إذن . يمكن نغادر المحلّ .

تحرّك الخلّوقي متبوعاً بسرحان . عندما اقتربا من وشّان كان يقول :

ـ الله يسعدك يا حميدة. قل للفقيه يفهمني .

صاح الخلوقي في اتجاه شعيب :

ـ أنا ماشي واخذ معي سي سرحان . أنت قم بضيوفك الباقين .

أجاب شعيب جادّاً :

ـ تلاقت السلوك ؟

ـ تلاقت وضوى الضوء .

ـ قوي أو ضعيف ؟

حرّك الخلّوقي يده اليمنى يعني بين بين . ثم سأل :

ـ فرحان بالحفلة ؟

ـ سالني بعد شهرين نهاية الصيف . إذا شفنـا في الصدّيقيـة أغلب وجوه اليوم نكون نجحنا وذاك هو الفوز العظيم .

ـ والقصيري ؟

ـ استدعى التلاميذ الممثّلين مع ابواتهم عنده في الدار .

ـ هنّيه باسمي .

التفت إلى وشان مبتسماً :

ـ في حفظ الله يا سي مختار . عارف المحلّ وقت ما حبّ الخاطر .

لم يجب وشّان ولم يبتسم في حين أن حميدة اشتغل بحـكّ ذقنه كـأنه لم يـر الحلاق منذ أسبوع ، تخطّى الخلّوقي متبـوعاً بابراهيم سرحـان عتبة البـاب . وجدا الحارس جالساً تحت مصباح كهربائي باهت على كرسي واطيء وفي يده سبحة . ودّعاه بصوت مسموع وقصدا السيارة بينما كان النسيم قـد تحرّك من جهة البحر بعد الركود الذي زامن طلوع القمر .

قال الخلّوقي :

ـ أحلى ساعة نلبّي فيها دعوة الولي الصالح .

ـ أحلى ساعة لكل سعي محمود .

الثلاثاء 9/12

VII

تنكّر لها التاريخ وخانها الاقتصاد وَاليومُ ها هي كالأميرة المسحورة نائمة في أحضان أسوَارها الخربة

الوثائق المغربية

وكّالة وَما إليها

(44)

سرحان في غرفة مظلمة لا يميّز فيها سوى مربّع رمادي من خلال الخامية . وعى وتذكّر في الحين انه كان يحلم . فشرع يستعيد في مخيلته ما رأى . . مدعو الى مطعم . يعلم ان جماعة ما تنتظره . يعرف المدينة جيداً وكذلك المعطم . واثق ان لديه الوقت لكي يتهيأ . اختار بعد تروٍّ القميص والكرفاتة والبذلة والحذاء . كلها من لون أزرق مغلق . تحمّم وأعاد حلق ذقنه . تعطّر ثم ارتدى اللباس ولم ينس المعطف والشال والقفاز . غادر البيت . ركب سيارته قاصداً الشاطيء . المطعم ضمن بناية كبيرة (فيلا ؟ قصر ؟) . على الباب حارس أنيق . استقبله بحفاوة وأشار عليه ان يهبط الدرج المفروش ببساط صناعي ملوّن . هبط من طابق الى آخر تحت الأرض . في كل طابق يمرّ على صالة مملوءة بموائد معدّة للولائم . يطلّ ثم يتراجع إذ ينكر جميع الوجوه . أخيراً دخل الى قاعة (فارغة ؟) وجلس الى مائدة ينتظر . لم يظهر أحد من المدعوين ولم يقترب منه اي نادل . طال الانتظار فقام وطلع الدرج . بغتة وجد نفسه داخل قاعة فسيحة (الصالة الرئيسية ؟) لم يمرّ عليها من قبل . رأى فيها جميع المدعوين جالسين حول طاولة كبيرة تزيّنها زهريات وتغطيها صحون مليئة بالفواكه . أمام كل ضيف كأس قهوة وعلى رأس الطاولة المضيف واقف يخطب (؟) . لم ينقطع عن الكلام ولم يبد اي إكتراث بمن دخل . وقف سرحان حائراً متردداً ثم قال : كنت انتظر في قاعة أخرى . لم يعينّ لي أحد صالة الإجتماع . إلتفت إليه المضيف والاستهزاء باد على وجهه ثم صاح : القاعة معروفة . هذه هي ! ثم أشاح عنه . ارتبك سرحان وتقهقر نحو الباب وهو يتمتم : كلّمني كما لو كنت كلباً ، كلباً أجرب . وبغتة شعر بتغيّر رغم ان البناية بقيت هي هي .

الضوء الكهربائي اللاّمع والحيطان المغطّاة والبسط المفروشة . البناية قصر قديم من قصور جنيف التاريخية . بعيد عن البحيرة محاط بأشجار باسقة محمي بخندق عميق . طلع سرحان درجاً فوجد على العتبة محافظ المتحف أشيب صافي البشرة أزرق العينين . قال معتذراً : اليوم لا قهوة ولا شاي بالأسف ، الآلة عطلانة لكن المبرّدات موجودة وآلات الموسيقى كلها في الطابق السفلي ، المصعد يهبط إلى الثالث تحت الأرض حيث توجد أسس المدينة الرومانية . أخذ سرحان منه التذكرة ودخل الى قاعة على اليمين دون إلتفات إلى سهم الإشارة الذي ينصح بالبدء من اليسار . صالون من صالونات بداية القرن . مدفأة رخامية عالية أمامها بيان كبير فوقه نحت يمثل رأس فتاة تلوي شعرها فوق أذنها اليسرى . عُرْضَ المدفأة والى السقف مرآة تعكس رسماً يغلب عليه اللون الأصفر . من جميع الزوايا ومن البيان تنهمر أنغام كساقية تنحدر من تلّ . إنبهر سرحان وشعر بضيق في صدره وهو يتلقى الأنغام متقطعة متسارعة بينما يتردد بنظره من الرسم الى المرآة ومن المرآة الى الرسم واللون الأصفر يتركّز ويتقاتم دون ان يوحي بأية حرارة . بالعكس يوحي بالبرودة ، برودة صفراء منقّطة بقطرات فضّية تسقط وتذوب . اقترب سرحان من المدفأة . إتّكأ على سقفها ثم أطرق يحدق في الأرضية الخشبية الصقيلةالمشمّعة . تباعدت النغمات فسمع دقّات قلبه متواقتة معها . بعد دقائق إلتفت يميناً وشمالاً فرأى مقعداً بإحدى الزوايا . قصده وجلس رغم إعلان المنع المكتوب بعدّة لغات . أطرق طويلاً يسترجع قواه وأخيراً رفع بصره وأمعن النظر في اللوحة . لم يكن صاحبها من كبار الرسّامين . كان من متأخري الإنطباعيين المولعين بالتقاط تلألؤ الأشعّة على سطح الأشياء . عامل ريفي يمشي وحيداً بخطى متثاقلة تحت الظلّ في يوم مشمس على طريق فرعي بين ستارة من حجر وسياج من شجر . لون مشطّط فوق الأغصان وتحت الظلال . يحدق سرحان في اللوحة ويفتكر : مهما آتي ومهما أدع إني أقطع نفس الطريق ، أوشك ان أبادر بالسلام هذا العامل المتعب الذي يستبطيء الغداء والقيلولة ولا يستطيع ان يحثّ الخطى . أتقدّم ، أدقّق النظر فيبقى وجه العامل المسافر العابر محجوباً عني . أنغمس في الظل ، تودّعني الصفرة

وترحّب بي الخضرة القاتمة أخت السواد وأشعر فجأة بدون ما سبب أن ما في اللوحة وفي الغرفة وفي القصر كله خطاب موجّه الي . الطريق والعبور والمرآة والنغم دقائق تتلاحق كقطرات الساعة المائية . الأصفر لون السكون والمشي ، السفر عبر الحياة والرجل المتعب الذي يتحرك بقدر الذي يحاضرني ولا يرافقني انما هو مبعوث الي يذكرني أني على العتبة . أحسّ إحساساً قوياً أن هذا المسافر يتحاشى النظر إلي ومخاطبتي . يريد أن أشعر بحضوره ، أن أفهم رسالته وأن أتركه يتابع مسيرته . والأنغام تتناثر بلا توقف .

وعى سرحان واستحضر بقية ما لم يكن حلماً صرفاً بل حدث بالفعل . نهض من المقعد وقصد الباب دون ان يكلّم المحافظ . لم تعد له حاجة بالآلات الموسيقية القديمة المعروضة بالطوابق السفلية . سمع الخطاب ووعاه . قال لنفسه : ما حصل لي هنا يحصل بلا شك لغيري في مواطن وظروف أخرى . لا علاقة له بضغط الدم وإرهاق القلب وتصلب الشرايين . إنها تجربة البشر جميعاً . منا من يرى الرسول راكباً على حصان أبيض فاره . ومنا من يلاقيه في صورة عجوز يقود عربة في ليلة ممطرة مثلجة . ومنا من يصادفه حليق الرأس مسوّس السن والناب لابس الأسمال . وانا واجهته حصّاداً (؟) يمشي وقت الظهيرة في طريق زراعي . من ذلك التاريخ أعاد سرحان النظر في جميع مشاريعه . لم يجدّد العقدة مع مصالح اليونسكو لتسجيل ألحان العالم . قرّر ان لا يركب طائرة . قام بحسابات دقيقة ليعرف مصارف رجل أعزب في بلد كذا وبلد كذا باليوم والأسبوع والشهر . وأخيراً ركب القطار والباخرة ولأول مرة بعد غياب طويل كان يظنه نهائياً أطلّ على البيضاء من جهة البحر . طوال المدّة التي كان يحاسب فيها نفسه كانت تخطر على باله وبإلحاح صورة ذات الإسمين . لم تتزوّج بعد أن فارقها كما لم يتزوج هو بدون سابق إصرار وإنما من جرّاء الاتفاق والصدفة ، على ما يبدو . قبل الرؤيا الجنيفية كان يقول باطمئنان : انتهى أمرها فيما يخصّني . بعد الرؤيا عادت صورتها تلاحقه بل تباغته بعينيها العسليتين الفاحصتين . غيثة ذات الإسمين . الله حي ! الله حي - هل سمع الدعاء ام تخيّله ؟ لا يهمّ . يعلم ان أولاد شعيب ويمرّون بسفح الهضبة

في مثل هذه الساعة . كيف يمكن ان يصعد الصدى من السفح الى القمة داخل غرفة النوم ؟ كل السكان يسمعون الدعاء ، على أوقات مختلفة ، كما يسمعون نفير السحور أيام رمضان . ياتي من باب المخزن باتجاه البحر ثم عند رأس الطلعة يدور كأنه يقصد الخلوة ثم يتبع شاطيء النهر ويدخل الى المدينة من باب الملاّح . هل رأى سرحان أحداث الماضي القريب في الحلم ام أعادها في ذاكرته ؟ فتح عينيه وبدأ يميز الأشياء (الدولاب ، الطاولة ، السرير) عائمة في ضوء رمادي يميل الى بياض قبل ان يتحول بسرعة الى اصفرار . بعد قليل تبدأ في الحديقة حركة البنائين الذين قاموا أيضاً على دعاء الله حي . يمشون ويجيئون في صمت بحركات آلية نسّقتها زمالة الأيام والشهور . ان لم ينهض الآن سيشعر بعد قليل بالدفء يدبّ إليه من مؤخرة السرير ، يغشى الرجلين ثم الركبتين والبطن قبل ان يكتسح الرأس والأجفان ويبعثه على نوم جديد يستيقظ منه بعد شروق الشمس عرقان شارد الذهن واهي العضلات . دفع الإزار عنه بقوة . قام وفتح الستار ثم النافذة . كل شيء هاديء في بياض الصبح حيث ترقد الريح ويخفت البحر . تذكر : الطقس حارّ عاصفي ، الرياح متقلبة ضعيفة شرقية الى شمالية شرقية ، الشروق في البيضاء على الخامسة وست وخمسين دقيقة والغروب على السابعة وثلاث عشرة دقيقة ، الحرارة من ثمان عشرة الى ست وعشرين درجة مائوية .

(45)

إعلان غير محقق بعيد عن واقع الطقس الذي يعيش فيه سرحان . انتهى من الافطار ووقف بين ساريتين مزلّجتين ينظر الى البستان المغروس ببعض أشجار التين والزيتون والسفرجل . الجو هاديء كعادته بين التاسعة والعاشرة، الشمس تبرق وتستعدّ لتحرق المخلوقات . بحث بعينه من خلال الغصون على حمّان الربّاع بعد ان سمع العتلة تحك الأرض حكّاً . وقف طويلاً ثم تذكّر ان الفصل صيف وأن عليه ان يقفل النوافذ من الآن وان يبقى داخل الغرفة في انتظار ان تشوب زرقة السماء بقع بيضاء من الغيوم

الشفافة تدفعها ريح غربية ضعيفة . حينذاك يمكن ان يفتح النافذة المطلّة على جهة الشاطيء تاركاً الخامية مسدلة لكي يشمّ رائحة شجر الكافور الذي يثبت التلل الرملية ويمنعها من دفن المدينة . كان البناؤون قد استأنفوا العمل ونسيم الصباح يهبّ قبل ان يضعف ويتوقّف نهائياً مع شروق الشمس . كانوا يشيدون على يمين سرحان جناحاً جديداً أعلى من القديم ليحمي الغرفة السفلية التي يقيم فيها سرحان غالب أوقاته من أشعة الظهيرة المُعشية . حمان يغرس بلا شك نقل الحور التي ابتاعها من منبت الغابة . طولها متر تقريباً . يمكن ان تطول بسرعة إذا سقيت كما يجب . إذا بني الجناح ونمت الأشجار وجلب الورد والمسك والياسمين ، إذا انتعش التوت والتفاح وتخلله الرند والسنط ، فستتباطأ نسام الغرب حين تعبر الجنّينة وتختلط بالروائح والعطور وتؤلف سمفونية تهديء الأعصاب وتنسي مساويء الزمن . ما كان سرحان ليهتمّ للحرارة والدفء لو لم يعش طويلاً في بلد تعوّد أهله على التداول في أحوال الطقس لا لأن الطقس أصل سعادتهم وشقائهم ، فقرهم وغناهم ، ولكن لأنه موضوع بلا خطر ، كلام بلا تعبير ، تواصل بلا تجاوب . سكن طيلة سنوات عديدة غرف الفنادق وقضى ساعات لا تحصى ينتظر في المطارات والمحطّات حتى نسي ماذا يعني الطقس والهواء الطبيعي . ثم هناك السنّ . العام خارج الوطن يعدّ عامين حتى بالنسبة للحيوان . أما علمت ؟ لقد جرّبوا ذلك على الكلاب التي تجلب من ألمانيا الى اسبانيا ومن اسكوتلاندا الى ايطاليا .

(46)

هل كنت أعرف معنى الطقس وانا أجري لاهثاً في الأزقة خلف قاعة سينما مدينة ؟ كانت الأزقّة ضيقة والعمارات غير منسّقة وأشعّة الشمس لا تدرك الرصيف إلا وقت الظهيرة . كانت ظلال ؟ نعم . الملابس الجديدة المعلقة أمام الحوانيت تجلب الريح كأوراق الشجر . طيلة سنوات الصبا وانا أقضي الساعات الطوال على السطح أطل على قاعة السينما وعلى مدخل الكهف الليلي **الديك الوقح** عندما يفتح في المساء ويستقبل المستخدمين في

القاعدة الجوية الأمريكية . أجثو أمام طاقة الهواء وأشاهد أقساماً من الفلم المعروض أو أقف أمام الكهف في انتظار إحدى الراقصات لأقضي لها حاجة . . يذكر الناس النجوم الممثلين الذين تكتب أسماؤهم بالحروف الضخمة . لكن هؤلاء رغم شهرتهم لا يشتغلون كثيراً . يصورون فلماً مدة شهرين أو ثلاثة ثم يجلسون عاطلين تسعة أو عشرة قبل ان يعرض عليهم فلم ثان . اما الممثلون المساعدون - الأدوار العابرة - حارس الليل الذي يفتح باب النادي معلناً : كل الضيوف وصلوا ، صاحب الدكان الذي يطرد الممثلة النجمة لأنها لم تطاوعه ، المارّ الذي يدحصه البطل بسيارته وهو في حالة سكر ، العم الذي يتلقى اعترافات البطلة بعد الخطيئة . . - هؤلاء يتسارعون من شريط إلى آخر ، يصورون ما بين عشرة وعشرين في السنة الواحدة . فيتعوّد المشاهد على رؤيتهم حتى يظن انه سيتقابل معهم عند منعطف الطريق ، لأنهم مثله أبناء الصدفة ، أرقام ضمن أرقام . هؤلاء كوّنوا عائلتي وانا طفل بجوار سينما مدينة . أعرف منهم الأصلع الحزين والطويل المصدور والسمين المبهور والزنجي العملاق . ويوماً من الأيام التقيت في الحقيقة والواقع أحدهم : ربعة ، أشعث مسوّد الذقن . ، دامع العين ، يمصّ بدون انقطاع سيجاراً منطفئاً ، مهلهل اللباس ، يشدّ سرواله بحمالتين ملونتين ، هو هو سوى انه كان هذه المرة يكتسي بذلة ومعطفاً ؛ واقف إزاء حانة الدلفين على طريق الميناء يتذاكر مع أحد المتاجرين في السجائر المهرّبة . كان ذلك بعد الحرب بقليل عندما كانت المدينة لا زالت تغلي بجنود أمريكا . قبضت بأهذابه ولم أفارقه . تبعته من شارع إلى آخر ، من دكان إلى آخر ، من حانة إلى أخرى . لم يلتفت أول الأمر - أطفال المدينة كالذباب - ثم جلس الى مقعد في مقهى . فوقفت قبالته . قال : ماذا تريد يا ولدي ؟ - أنا أعرفك . انت مستر بوكنان - . من اين عرفتني ؟ رحت أذكّره باليوم الذي كان فيه كذا والفلم الذي فعل فيه كذا . أسرد له أدوار حياته وقد نزع السيجار المنطفيء وفتح فاه . **وندرفول ، تريفيك ، استاوندينغ** . يفكر بهذه النعوت وأنا أنعته بها . قال : اين تعلمت اللغة ؟ - مع الجنود - . أجلس بجانبي . حكّ رأسه ثم أشعل السيجار . طلب لي كوكا

ولنفسه ويسكي . فكّر وعرك أنفه ثم قال : تعرف يا ولدي متى صورت آخر فلم لي ؟ منذ عشر سنوات تماماً . ماذا تريد مني ؟ ـ أن تأخذني معك ـ . الى أين ؟ ـ أي بلد تريد ـ . وعائلتك ؟ ـ لا عليك . اينما ذهبت أذهب معك . ابتسم المستر بوكنان وقال بجدّ : تعرف يا ولدي ليس لي بيت ، ليست لي عائلة . انتقّل من بلد إلى آخر ، لي صديق وحيد هو هذا الكأس . اسمع لي وصدّق ما أقول لك ، انت طفل فطن لن تجد وطناً مثل هذا . عندما حكيت أول مرة لذات الإسمين هذه الحادثة انفجرت ضحكاً على غير عادتها وقالت : « خرافة والله خرافة جميلة » . علقت : « لو كانت خرافة لصدّقتها . لم تطمئني إليها لأنها حقيقة » . تمعّنت في وجهي مدة ثم ضحكت ثانية وقالت بلهجة من لا يقبل النقاش : « أحلام الأطفال لا تتحقق أبداً » . المهم ليس رأي ذات الإسمين . المهم هو ان المستر بوكنان ردّني في الواقع الى سواء الطريق . منذ ان ألتقيت به أصبحت تلميذاً نجيباً . لم أعد أقضي الساعات على سقف سينما مدينة . لم أعد أخدم راقصات **الديك الوقح** . بدأت أقرأ الكتب الجادّة وأداوم على مراجعة الدروس . بعد السنة الثانية من الثانوي تحسنت نتائجي تحسناً ملحوظاً . وعندما تقدمت لامتحان الباكالوريا قبلت بامتياز .

(47)

لمح سرحان أحد أطفال حمّان الربّاع يتسلّل من بيت البئر وراء ستارة القصب . كانت أم شعيب شرطت عليه قبل ان تترك له الدار وما حولها ان يبقي على الرباع وعائلته . أجاب : « يبقى لكن ما يقرب من الدار إلا بإذن » . حركت أم شعيب رأسها موافقة : « أنت مول الدار . قرّب اللي بغيتيه وبعّد اللي بغيتيه » . وبالفعل منذ أن سكن الدار لم يقرب منها لا حمّان ولا زوجته ولا أولاده ولا حتى الكلب . من حين الى حين يراه منحنياً على الأرض في البستان أو في الزريبة . إذا أراد أن يكلّمه في شيء ، أن يطلب منه ان يذهب الى السوق اخترق الجنينة وبحث عنه بين الأشجار . لكن لا حاجة له به اليوم إذ سيحضر بنفسه الى السوق الذي يعمر كل يوم ثلاثاء خارج السور جنب باب الملاح .

ازداد الجو حرّاً ولمعاناً . أدار سرحان ظهره الى البستان ودخل الى غرفة الأرضي التي تحتفظ لمدّة أطول ببرودة الصباح . فيها الكتب والتسجيلات ، بعضها مرتّب مصفّف وبعضها معرّم مبعثر . عشرات بل مئات التسجيلات من معزوفات وأغاني الأقطار النائية بجانب مئات التعاليق التي كتبت حولها . ومرّة أخرى سرح ، يفكّر في الكيفية التي تتسلسل بها حياة الأفراد . الوراثة ؟ ترتبه الأسرة ؟ معاشرة الأقران ؟ تأثير الأساتذة ؟ ام بكل بساطة الصدفة والاتفاق ؟ الصدفة هي ان كل سيرة تتسلسل بكيفية لا تشبه اية سيرة سواها .

يرى نفسه واقفاً منحني الرأس ، حوله دخان البخور وصوت يتسرب إليه من بعيد : « ماذا فعلت بحياتك ؟ ـ ماذا فعلت بي الحياة ؟ ـ انت متحذلق . لماذا اخترت هذه الطريق ؟ ـ أهي طريق أوليست سلسلة منعرجات غير متوقعة . الموسيقى ؟ الطرب ؟ الأنغام ؟ كلمات لا معنى لها . لو لم تكن الموسيقى لكان الرقص أو المعمار أو التأنق في اللباس . متكأ آخر . ـ متى قلت ستكون الموسيقى ؟ ـ لم أختر أي شيء ، انما هي غرزة تبْع أخرى واللواحق تنسي السوابق ـ فكّر جيداً ـ . أفكر نعم أفكر فيتكشف لي منظر أول وثان . أراني وسط محطة الحافلات شارع المنجانة مع أستاذ الفلسفة بعد امتحان الباكالوريا أقول له : اذا درست الفلسفة عاديتها وهو واجم متردّد لا يجد برهاناً يقنعني به . وبعد سنوات أراني في قاعة محاضرات أستمع الى أستاذ متغطرس يكره العرب والمسلمين ويؤكد أن المثقفين غير الغربيين يطّلعون على روائع أوروبا ويتفهّمونها الى حدّ عدا الموسيقى فانهم يقفون أمامها حيارى عاجزين . ماذا تعني هذه الملاحظة ؟ الى الآن لا أدركها بالضبط . ومع ذلك هي التي دفعتني الى الطريق الذي مشيت فيه . لا أفهم الموسيقى الغربية لأسجل اذن الطرب غير الغربي ! عندما التقيت بذات الإسمين سمعتها أيضاً تقول ، هي الواردة على الغرب منذ عهد قريب ، إن فهم الموسيقى الغربية أمر عسير . نظرها الفاحص ، إبتسامها الساخر ، عقليتها الناقدة ، كل ذلك قرّبني منها ثم أبعدني عنها . كانت العامل المقوّى . هربت منها واتجهت حيث اتجهت وها هي الآن تنتظرني . من أين لك هذا ؟ تنطق بدون علم . هي

المنتظرة أم أنا ؟ أنا اتمنى ان تكون قد احتفظت بذكراي طول هذه السنين . الحياة تسخر . الدنيا تعبث . لو . . لو . . أكانت المهزلة تكون غير ما كانت ؟ لنعتقد وننثر سلك الحياة حبّة حبّة . لِنَطْوِ الطريق طيّاً ثم نعود لنبسطه خطوة خطوة . لنضبط كل السير المتخيّلة . . هذا أمر متعذر ، حلم لا يتحقق . يا سائلي من وراء ستار البخور تريد ان تحاسبني عما فعلت وعما تركت ، هلا أرجعتني الى أيام سينما مدينة ونشرت أمام عيني كل الأشرطة التي كان يمكن ان أكون أحد أبطالها ! بعد التجربة سنقارن ونرى هل هناك بالفعل شريط يفوق بالفعل جميع ما سواه .

السيثارة الهندية العتيقة تنثر بإنتظام وحزم دموع البوذا على أحزان الدنيا وآلام البشر .

(48)

ارتفع الضباب حوالي الساعة الحادية عشرة عن مشارف المدينة وعن ضفاف النهر وان بقي منه شيء على شاطيء البحر وفوق المصبّ ، ستاراً يتباعد متلألئاً في إتجاه الصومعة المبتورة حافظة ذكر حملات العدو المباغتة . خرج سرحان الى الرواق وهو يلبس قميص بحارة وسروالاً قصيراً ويحمل على رأسه قبعة من الليف . نادى على حمّان :

ـ إذا جآت خدوج قل لها انى مشيت للسوق ، أتلاقى مع الجيلالي .

تنحدر الطريق من باب الدار في اتجاه النهر الى ان تلتقي بالطريق المعبّدة التي تربط السوق الكبير بالخلوة . يقام السوق من العاشرة الى الثالثة ويعمر عادة بين الثانية عشرة والواحدة ونصف . . سوق مديني بلا لحوم ولا خضر ولا فواكه ، سوق خردة وسفوف وكتب صفراء . كان في الماضي أيضاً سوقاً للفرجة يكثر فيه القصاص والمتساقرون . لكن الحرفة بارت على ما يبدو . منذ ان استقر سرحان في الصديقية لم ير أبداً ما كان يراه وهو طفل في ساحة باب مراكش من بهلوانيات تستهويه أحياناً اكثر من أفلام سينما مدينة .

يمشي سرحان بخطى رتيبة على الطريق التي تظللها أشجار التوت والتين . لقد ولّى موسم التوت منذ شهرين لكن الأوراق الخضراء العريضة

ما زالت تكسو الغصون وتحمي المارة من الأشعة المحرقة . اما أشجار التين فقد شاخت ولم تعد تثمر . رغم ذلك رائحتها المتميزة تعطر الجو . رائحة الصديقية أيام الصيف دائماً رائحة التين : الأبيض ، الأسود ، الشعري وهو المفضّل . ذاق سرحان خيرات أسواق كاليفورنيا ـ التفاحة التي تزن رطلاً وأكثر ، حبّة العنب التي تماثل برقوقة صغيرة ، الخوخة التي تضاهي البطيخة . إشترى في شوارع جنيف الفواكه المنتقاة المشبعة ماءاً وسكاراً وفيتامينات . لا شيء من كل هذا أنساه أبداً طعم العنب الأسود ، تقشر الحبة منه كأنها بيضة . سمع سرحان برائحة التين وطعم العنب وهو طفل يجري لاهثاً في درب آسفي . يكتشف الآن بنفسه أسطورة الصديقية المجسّدة في خيرات أرضها ، يكتشفها في عمق أعماقه بعد أن صقل حواسه مما علق بها أثناء أسفاره العديدة . كان الباعة يتصايحون في أزقة مدينة البيضاء : « بالكم جاَ العنب الأكحل . خذوا حقكم قبل ما يغبر . لذة ورحمة من الله » . هل أكل منه ؟ لا يتذكر .

فارق الطليعة وخطا خطوات على طريق الخلوة المبلّط بالأحجار المنجورة العريضة . فرأى من بعيد الجيلالي يسوق حماره الأغبر الحاني الرأس كأنه يعاتب الأرض . قال لنفسه « السوق بكّر اليوم » . اقترب شبح الجيلالي بسرواله الأزرق الباهت ، سروال خردة ، وطاقيته الصوفية الصفراء :

ـ صباح الخير فارقت السوق ؟

ـ ما فيه شي .

ألقى سرحان نظرة خاطفة على حمولة الحمار قائلاً :

ـ كاين عنب ؟

ـ الخير موجود . هذي أرض العنب .

ـ والحوت ؟

ـ لا . الصيادة تعطلوا يومه !

ـ شفت شعيب الفقيه ؟

ـ أيّاه . في القهوة قبالة السوق مع سي موسى .

ودع سرحان الجيلالي وتابع طريقه ، عيناه مشدودتان الى السور المرمّم

الرمّاني اللون المتميز فوق غصون وأوراق أشجار التين العتيقة . انتهى القسم المظلل من الطريق وأحسّ سرحان بالشمس وكأنها تفرغ على رأسه الحديد المذاب . فحثّ الخطى نحو المربط غير المغطى حيث تتزاحم الحمير والبغال وتتحرك بعنف لتطرد عنها الذباب . لوى على اليمين مارّاً أمام بائعي العقاقير والسفوف ، ثم أصحاب الملابس القديمة وأخيراً أصحاب الكتب الصفراء الذين نثروا بضاعتهم على الرصيف أمام المقهى .

وقف سرحان على رأس شعيب قائلاً :

ـ أنا معك في البلد أو انا من المنبوذين ؟

قام شعيب معتذراً :

ـ الله شاهد ، اليوم نويت أطلع عندك بعد صلاة العصر . الأولاد طلبوك مرات ومرات . انت اللي نسيتنا .

نهض موسى العشوبي بدوره :

ـ سي سرحان عيب عليك . دفنوه ومازاروه !

قال شعيب :

ـ جآ بك الله اجلس واشرب معنا كاس نعناع يبرّد .

جلس الجميع . تابع شعيب :

ـ موسى ، تعرفت عليه في مناسبات . هو المرشّح لتدريب الفرقة ولقيادتها في الميدان .

لاحظ سرحان :

ـ أنا عمري ما لقيت الفرقة مجموعة .

ـ في الواقع قابلت كل العناصر لكن في مناسبات مختلفة . كتب لي أغرام رسالة يقول فيها ان أولاد البلد بعد ما قضوا الصيف هنا استبطأوا تاسيس الفرقة . قال : الفترة التمهيدية طالت ولا بد ان نباشر العمل من الآن . وإلا برد الحماس ودفن المشروع . وسي موسى موافق . عنده تجربة . هو وحده لعب مع المحترفين . رأيه ان الفرقة لا تتكون بالفعل الا فوق الميدان .

تدخل موسى :

ـ اذا طالت العشرة غلبت الصحبة . هذا شخص حلو انت تحبه وانا

وكل واحد . بعد ذلك يظهر في الميدان انه غير صالح ما يقدر أحد يصارحه بالحق . يبقى ثقلة .

ـ بديهي .

علّق شعيب :

ـ ولكن . . شعوري أنا انه كلما طالت الفترة التمهيدية زاد تكوين اللعّابة الفكري والذهني .

إعترض موسى :

ـ أنا ما عندي قول قدام الفقيه ، إنما أشهد بالتجربة . الناس في حال السكون غير الناس في حال الحركة . يمكن انا وأنت نتفاهم خارج الميدان لكن فوق الميدان ما نقدر نسوّي اللعب . وبالعكس كان معي في الفرقة لاعب ما أقدر أشوف حتى خياله لكن في الميدان كنا بحال الغيطة والنفير .

قال سرحان :

ـ سي شعيب أقدر أؤكد لك ان الأولاد في وضعية بدنية ممتازة . استغنيت عن المنبّه . كل يوم قبل الفجر أحسّ وأنا داخل الفراش بالدكّة على راس الطليعة . الله حي ! الله حي ! لا فرق بين ولد وولد . كل يوم نفس النسق ، كأنها نبضات قلب شابّ قوية متساوية ، كأني أسكن على حافة سكّة حديدية . أين هم الآن ؟

ـ هذا وقت الاستراحة . من شاء نام ومن شاء استرخى بدون نوم . لكن القيلولة ممنوعة عن الجميع . بعد الغداء لا بدّ من دورة في المدينة ، كان الحرّ أو كان البرد ، قبل الاجتماع في النادي بعد العصر . . اذا تعودوا على النوم في الظهيرة كانوا ضحية القرعة . من يضمن ان المقابلات المهمّة تنظم كلّها بعد العصر ؟

ـ زيادة على المحافظة على رشاقة الجسم وحدّة الذهن .

ـ على ما حال ، الآن لازم تعطينا من وقتك أكثر . تبرّعت علينا بمقر النادي ، جازاك الله عنّا خيراً ، لكن الآن النادي امتلأ بالأولاد وكل واحد منهم يقول : بغينا الأستاذ سرحان !

أوضح موسى :

ـ أحضـر عـلى الأقـل ثـلاث مـرات في الأسبـوع . تتكلم مـع الأولاد وبالخصوص مع اللعّابة .

ـ في اي شي ؟ ما عندي خبرة بالكرة .

إعترض شعيب بحزم :

ـ والتكـوين السلوكي ؟ انت اللي نبهتنـا عليـه ، ذاكـر أو لا ؟ قلت لنـا كاين العقل وكاين الجسم وفي الوسط كاين الذهن وهو العقل الحيواني . قلت هذا أو لا ؟

ـ نعم قلته .

ـ إذن تحمّل المسؤ ولية . جالس هناك فوق الطليعة كأنـك في خلوة ، في برج عاجي !

تمعّن سرحان في وجه شعيب وهو يواجه الحائط ويدير ظهره للسوق ولنور الشمس . وجده مقطباً لا أثر فيه للدعابة . ما هـذه الخشونـة ؟ أهي من آثار الحرارة أو لمعان أشعّة الظهر . انه بلا شك الضغط الناجم عن ضرورة إتخـاذ قرار . قهقه ليفكّ طوق التوتّر :

ـ ما قلت لا يا فقيه . إذاً بلا عصبية !

حينئذ التفت شعيب لموسى :

ـ نتبع رأيك ونبدا . على شرط . لا تعين لأي واحد موضعه في الميدان . يجب على كل واحد أن يتهيأ لكل إحتمال . وبرنامـج الريـاضة البـدنية يبقى على حاله . ضعفنا الدائم هو عدم اللياقة البدنية .

ـ صحيح ما فيه كلام .

قام شعيب :

ـ والآن ها المؤذن . الصلاة حق الخالق على المخلوق .

نطق شعيب بكلماته هذه دون ان يلتفت الى سرحان . بل ودّعه بسـرعة واختفى متبوعاً بموسى العشّوبي . نهض سـرحان بـدوره وقد شعـر بشيء من الإرتباك . لاحظ انه لم يمسّ كأس الشاي . بـل لم يشعر أن النـادل قد قـدّمه اليه . عوض أن يجلس وأن يشـرب كأسـه بهدوء ، قـرّر ان يغادر المقهى وأن يعود الى برجه العاجي حسب تعبير شعيب الغاضب .

(49)

أخـذ سرحـان تلقائيـاً طـريق العـودة . عمـر السـوق وتعـالت أصـوات المتبايعين . إخترقه سرحان بدون إهتمام . تابع طريقه وعوض ان يتجه نحـو الخلوة وغيرانها حادى السور متفيئاً ظل شجيرات التين العتيقة . نبت بعضهـا من أساس السور فبدت معلّقة في الهواء بدون عـروق . خطا خطوات قليلة فـوجد نفسـه وحيداً متـوحّداً بعيـداً عن المدينـة خارج المجمـوعة البشـرية . إتّسعت الفجـوة الفاصلة بـين السور والأرض المجـاورة ـ أثر خنـدق حفـر في العصـور الحالكـة لـردّ المعتـدين ـ وانكشفت عن الشطّ المقـابـل كـما تنكشف الحديقة الداخلية لمن يجلس في غرفته بعد صلاة العصر ويفتح النافذة . يجري النهر بين مساحتين واسعتين من الصلصال الأحمر تنغرز فيه الرجل الى ما فـوق الكعب رغم ضعف المدّ وحرارة الشمس . لـونه لـون الصدأ المشبـع ببياض الجـير . إرتقى سرحـان على يسـاره تلا يكسـوه العشب وتتنـاثـر فيـه أحجـار عريضة ملسـاء صقلت صقلاً بكثـرة ما جلس عليهـا المتنزّهـون والمتأمّلون في أسرار الخليقة ، أولئك الذين يبدأون مسيرتهم في هذا الناظور وينهونها في غار من غيران الخلوة . وضع سـرحان رجله اليمنى عـلى حجارة مسـطّحة وإتكـأ بمرفقه على ركبته وراح يتمعّن في ماء النهر وألوانه المختلفة . في وسطه سفيفـة زرقاء صافية كسماء مارس بعد سقوط المطر ، مكـوّنة من مـاء البحر المـالح ، يحيط بهـا ماء النهـر الحلو ذي اللون المتحـوّل ـ أخضـر داكن ثم مشبـع بلون الصلصـال على مقـربة من الشط وأخيـراً حجري عنـدما ينقلب الى مـويجات تلامس الحصى .

يسمع عادة على شاطيء النهر أصوات الأطفال وهم يغطسـون في الماء ، لكن في مثل هذه الساعة وفي مثل هذا اليـوم يخيم على السـاحة كلهـا صمت تـام يكـاد يلمس ، صمت الأجـرام النـائيـة حيث لا بشـر ولا مـوسيقى ولا طرب ، صمت يضفي على المدينة صفة الديمومة . فوق سرحـان سماء بـدون سحـاب تميـل إلى بيـاض مشـوب كـما لـو طليت بجـير خفيف . لا شيء يعلن عن حركة الهواء سوى قشعريرة ماء النهر وخشخشة أوراق التوت قـرب

السور . نسيم يشمّ مع روائح الدبال والتين والكافور .

مضى على سرحان الآن عدة شهور وهو في الصديقية . رغم هـذا ما زال يتأثر بلون السماء وصمت الفضاء ورائحة الهواء . هل سيبقى على هـذه الحال طيلة مقامه ؟ حرص على جلاء حسّه كما يفعل الفنّانون والمتصوفة . ولهـذا السبب بـالضبط شعر بـالتغيّر الـطاريء على كـلام وسلوك شعيب ، بل عـلى سلوك جميع سكان المدينة . الصديقية الآن مدينة تحيى بحياة جماعية غير حياة سكّانها الأفراد . لها قلب وجوارح . يجلس شعيب في المقهى المقـابل للسـوق الخارجي ، لا أحد يشوش عليه تفكيره ورغم ذلك يشعر كأنـه ناعـورة يجلب الماء من جوف الأرض ليحيي بـه التربـة . كل شيء مـوكول اليـه . من هنا خشونة الاستقبال وحدّة اللهجـة . انها المسؤولية ! سمـع ممن ؟ ـ الجيلالي ؟ خـدّوج ؟ حمّان ؟ لا يهم ـ سمـع ان مـوسى العشـوبي ، مـوسى بـودميعـة ، موسى الحزين ، اللاّعب المحترف الذي لبّى دعوة شعيب وعاد الى الصديقية تـاركاً وراءه كـل ما كسب والـذي ينهض وسط الليـل ويجـري حسب إيقـاع معـينّ ـ من باب المخـزن الى باب القصبـة ومنـه الى المقبـرة ومنهـا الى طـريق الـولجة ، مسافة خمسة أو سبعة أميال ـ سمع انـه يعتكف في الخلوة كل جمعـة من العصـر الى ما بعـد العشاء ، يعتكف ثم يسـرع الى المدينـة ليأخـذ دورته وهي السـادسة في الـوقت المحدّد . تـذكّـر سـرحـان مـا قـال لـه شعيب عن الأولاد . نعم لقـد تبرّع عليهم بـالدار التي ورثهـا عن أجداده وصـرف عـلى ترميمها وتبييضها مالاً لا بأس به كما تخلّى أغرام لهم عن كل ما جمعه من كتب وصحف وجـرائد قـديمة تقصّ أخبـار الصديقيـة في العصـور الغـابـرة ، كـما حبّس عليهم الباشدور جميع أوراقه الثمينـة ، نعم حبّسها بعقـد كتبه خـطّاط بارع وضعه الباشدور في صندوقه بالبنك . هذا النادي حيث يجتمـع كل يـوم أطفال الصديقيـة ممّن استهوتهم الـرياضـة وممن لا يفكرون فيهـا قط ، يعرف عند السكان بزاوية الفقيه الصبّاغ . نعم وهـذا أيضاً سبب من أسبـاب توتّـر أعصـاب شعيب . هكـذا تؤسس الـزوايـا ! هكـذا تـزرع بـذور الشقـاق والنفاق ! . الحسد ؟ إذا كان فهو مكتوم في الصدور ، لم يظهر له أثر الى حـدّ الساعة في حياة المدينة رغم الحرّ والعكّة والصهدان . . الخير في الخير ، الماء في

الماء والزاوية جنب الزاوية . . زاوية الشبّان وزاوية اللعّـابة . . خلوة سيـدي موسى وزاوية سيدي شعيب . . ويكون ما يكون !

وبغتـة تذكّـر الشيخ العـوني . هو الآن في المصـرية المـطلّة على النهـر ، يتأمّل صمت الخليقـة بعد ان صـلّى صلاة الـظهر . بـابه مقفـل لا سبيل الى فتحه رغم وعود الخلّوقي . على أي حال لم يحن الوقت بعد للمقابلة !

الأحد 17/25

VIII

ثلاثة آلاف ساعة
موزعة على اربعين اسبوعاً
بمعدل خمس عشرة ساعة كل اسبوع
طوال خمس سنوات

أفلاطون

(50)

الله حي !
من منار الهدى الى منار الهدى
من الولي الصالح قاهر العدى
سمي النبي المحبوب
لسيدي موسى المجذوب
الله حي !
من سيدي فاتح مول الامان
وللا ميمونة حضية الرحمان
لسيدي علي مجيب الأخوان
الله حي !

(51)

قاعة الاجتماع في النادي . على الجدران ملصقات كثيرة ، صور بأحجام مختلفة وأوراق عريضة كتبت عليها شعارات وأشعار وأحاديث نبوية . يلفت نظر الوافد مخطط قديم نسخه أحمد أغرام من مستندات الخزانة العامة بالعاصمة وأهداه للنادي . تُرى فيه بوضوح صوامع ومنارات وأبواب وسور وخندق المدينة القديمة . كبرت الصديقية وتجاوزت حدودها ، تغيّر سكانها ، في ملبسهم وخطابهم وبشرتهم ، لكن المآثر بقيت هي هي . يميّزها الناظر لأول وهلة . احتفظ كل موضع بدوره المعهود : هذا للعبادة وذاك للاكتساب ، هذا للتشاور وذاك للتسلية وذلك للدفاع . . هل تقع المدينة على سبعة تلال ؟ لا أحد يعرف بالضبط ، لكن كل واحد يستطيع ان يتحقق ان المنارات سبعة والأبواب سبعة . اما صوامع المساجد داخل السور فعددها فوق ما ذكر بكثير .

أخذ شعيب ورقة ورسم بسرعة ودون تردّد مخطط المدينة . فبدت محاطة بخنادق مرتبطة بعضها ببعض . في الماضي السحيق عندما كانت المنطقة تظهر من بعيد للمسافر سوداء لكثرة ما فيها من أشجار كان البحر والنهر والغابة عناصر دفاعية كافية تخيف الجار وتبعد العدو . لئن بعد حين أصبحت هي أصل الخطر وعاد العدو الكافر لمدّة قرون يباغت السكان من وراء الأمواج العالية والأشجار الكثيفة . حينئذ أرسل الله من يحمي المدينة ويحرسها ليل نهار : للاّميمونة غرباً وسيدي علي شرقاً جهة النهر في وجه عدو الشمال ، وخلف المدينة في وجه عدو الجنوب وهو الأقوى الولي الصالح صاحب الأرض ثم سيدي ريشة ثم سيدي محمد ثم سيدي فاتح وأخيراً سيدي موسى . هكذا قيّض الله لكل جهة من الجهات السبع من يحميها . هذا خندق روحي يعزّزه خندق مائي يتقدّم السور المحيط بالمدينة من كل جوانبها . يأخذ السور شكل مربع متفاوت الأضلاع . ينحني الضلع الشمالي ليوازي انحناء شط النهر . ثلاثة شوارع متقاطعة تربط الأبواب السبعة فيما بينها وتجزّىء المدينة الى ستة أحياء . يمتدّ شارع المخزن من باب المخزن الى باب الولجة ، يقطع شارع القنطرة في ساحة السوق الدخلاني ويفصل بين حي دار المخزن وحي السور جنوب السوق وشماله بين حي المسجد وحي السوق . اما شارع الفتح الموازي للسابق والمتجه من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي فانه يقطع شارع القنطرة المذكور وهو الوحيد المتجه من الغرب الى الشرق في ساحة المسجد الكبير ويفصل حي القصبة عن حي دار المخزن جنوب المسجد وشماله بين حي الملاح وحي المسجد .

وضع شعيب سبابته اليمنى وسط المخطط وقال :

ـ هكذا جزئت المدينة في الماضي وهكذا بقيت مجزأة الى ان يغادرها آخر سكانها ليرحل الى خارج السور . هذا المخطط سيقود أقدامكم وانتم تؤكدون لمن يدرج فوق الأرض ولمن يسكن تحتها ان الله حي لا يموت . تنطلق الجماعة الأولى من هضبة الولي الصالح ، تخترق الفحص وتحيّي بصوت مسموع وعلى التوالي سيدي ريشة ، الذي منحه الله خفة الطيور ـ قولوها هكذا بالضبط ـ ، ثم سيدي محمد ، مطهر البلاد من رجس الكفر ،

ثم سيدي فاتح ، باب الخير ـ أسمِعوا التحية والدعاء لسكان الغابة من الجن والإنس ـ ، ثم سيدي موسى الخلواني ، موحّد الواحد الأحد . بعدها خذوا طريق الخلوة الى ساحة السوق البرّاني ـ دكّوا الأرض تحت طليعة سرحان النايم ـ ، ثم انحرفوا على الشمال من الهبيطة المطلّة على الواد . ادخلوا المدينة من باب الواد بعد ما تسلموا بأعلى صوتكم على للا ميمونة حضية الرحمان . سيروا حتى باب الفتح للتحية على دار الشيخ العوني ثم إلى المسجد الكبير فباب البحر ومنه اتبعوا السور حتى باب المخزن . انزلوا شارع المخزن حتى السوق الدخلاني وباب الوجة . منه اطلقوا السلام على سيدي علي العون ، ثاني اثنين . مروا على باب القنطرة . اتبعوا السور من جديد حتى باب الزاوية . تسلقوا الطلعة الى نقطة البداية .

سكت برهة ليسترجع نفسه ثم استطرد :

ـ بدعة لم يسمع بها آباؤنا الأولون ؟ لا ثم لا ! اسألوا أصحاب السنّ والتجربة في كل عائلة واسمعوا منهم أخبار مواسم الماضي لما كانت تنزل قصع الكسكس كل واحدة يحملها أربعة . كان الرجل يأكل كالوحش ثم يهبط جرياً الى شط الواد ويطلع هضبة الولي أولاً وثانياً حتى يشعر ان البطن بدأ يفرغ فيعود الى المائدة ويجهز على القصعة كأنه لم يأكل منذ أيام . يا حفيظ يا ستّار . يقال إن الروم في جاهليتهم الجهلاء كانوا لا يعرفون إلا عبادة البطن والفرج . يأكلون ثم يتحايلون بإعانة أطبّاء مهرة على إفراغ بطونهم بالقي ليملؤوها من جديد ! كلاب ، خنازير هؤلاء الذين كانوا ينعتون بأسياد الدنيا . انما هو مكر الله . مكّن لهم ثم أضعفهم ليفتح المجال لدولة محمد النبي المختار .

مسابقة العدو عادة قديمة عندنا . سنحييها في ثوب جديد ولغرض غير شحن وإفراغ البطون . بعد صلاة العشاء بساعة وقد أكلتم وهضمتم واسترحتم أو نمتم قليلاً تنطلق الجماعة الأولى مكونة من ثلاثة . كل فرد يختار من الآن الجماعة التي ينتمي اليها وبعد أسبوع لن يقبل اي تغيير في تكوين الجماعات . تتتابع الجماعات من العشاء الى الصبح وتتغير كل يوم من أيام الأسبوع الفرقة التي تفتح الحملة ليتمكن جميع المشاركين من رؤية انفلاق

الفجر . من الآن أنتم حرّاس المدينة تُسمعون فيها كلمة الله . لذلك سترون من لطفه ، بشفاعة أوليائه الصالحين ، ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر .

قال شعيب هذا الكلام حين كان النادي لا يزال إسماً بلا مسمّى ، بلا مقاعد ولا كهرباء ولا ماء ، بلا مكبّر صوت ولا تلفاز . كانت السلطات لم تصادق بعد على تأسيسه رغم انها وافقت على الشروع في مزاولة بعض نشاطاته . مرّت الشهور وتعوّد الناس على هدير الأصوات ودكّ الأرجل خارج وداخل المدينة . شعيب لا ينام إلا بعد ان يشعر باهتزاز الأرض تحت أقدام القسيم الأول قرب سيدي ريشة ؛ سرحان يستيقظ على إثر انعطاف القسيم الأخير في اتجاه السوق البراني ، الشيخ العوني يغمض عينيه بعد أن ينطلق أمام باب درب الخرصة دعاء يجلب اليه النوم وبعض الراحة ؛ المرآة العجوز المهجورة في خربة حي السور تسمع الكلمة تنزل على الأرض وتدكّها دكّاً فتقول : دار الوقت دار واللي هكذا دار لا بدّ سار .

(52)

ـ أهلاً بك . . في محلك !

رحّب شعيب بابراهيم سرحان على عتبة النادي وقاده نحو صالة الاستقبال . لم تعد الدار كما كانت عندما وصل سرحان الى الصديقية وهو يظن انه يستطيع أن يسكنها مع شيء من الترميم والاصلاح . وجد القسم الأكبر منها مهدّماً بعد ان بقيت مدّة طويلة غير مسكونة . الآن بيّضت الجدران وجصص السقف وزلّجت الأرض . أثثت الغرف وجددت أسلاك الكهرباء وأنابيب الماء . خُصّصت إحدى الغرف لحفظ الكتب والصحف والاسطوانات وأخرى للاجتماعات المغلقة ، كما أصلحت أدوات المطبخ ليستعملها حارس النادي ليهيىء الشاي والقهوة للضيوف وللتلاميذ . واتّخذت غرفة النوم القديمة كقاعة مطالعة لمن أراد ان يخلوا بنفسه بعيداً عن جو النقاش الصاخب .

قال سرحان :

ـ ما كنت أظن ان العامري يشمّر على ساعد الجدّ ويؤثث النادي بهذي الكيفية .

أجاب شعيب باقتضاب :

ـ أعطى كل ما طلب منه حميدة . . وحتى الخلوقي عاون ما قصّر .

قرأ سرحان بصوت عال :

ـ الرياضة جهاد . . العجلة من الشيطان .

ثم تساءل :

ـ القاعدة تنفع في لعب كرة القدم ؟

ردّ شعيب بحمية :

ـ هذا النادي مفتوح للجميع ، اللعّابة وغير اللعّابة ، لعّابة اليوم ولعّابة الغد . أما فوق الميدان فقضية أخرى . مسؤولية صاحبنا سي موسى . إذا كان شعاره هو الخفّة من الايمان فذاك شغله . . نرى النتيجة في المستقبل .

سكت سرحان برهة كأنه يتأمّل ثم علّق :

ـ المسؤولية تغير النفسانية !

إلتفت إلى الحائط على يمينه وقرأ أبياتاً كتبت على ملصق :

ـ لمن هذه الأبيات ؟

ـ نسيت محفوظات الإبتدائي ؟

قصدوا الرياضة لاعبين وبينهم   كرة تراض بلعبها الأجسام

ردّ سرحان دون ان يبدي اي خجل

ـ نسيتها بالفعل . . وربما لم أتعلمها قط .

تابع شعيب نشيده :

راضوا بها الأبدان بعد طلابهم   علماً تراض بدرسه الأفهام

ـ هل ذكر الشاعر الجهاد ؟

ـ لا . لذلك زدنا هذا البيت من مجموعة أغاني الشباب :

حرب كمثل السلم   غلب كمثل الحلم

ـ والله رسمتم من الآن موضوعات المحاضرات !

غادر سرحان الصالة وهو يفكّر : كيف تكون أيام الشتاء ؟ رطبة باردة . لا بدّ من مسخن كهربائي أو مدخنة .

سأل :

ـ جيّد . موقع وسط ، على طريق المدرسة . لو كان داخل السور لهجره التلاميذ بسبب الرطوبة .

ـ حتى هنا كاينة الرطوبة .

ـ قليلة نسبياً .

كان النادي خالياً حيث لم يفتح عادة إلا قريب العصر . يأتيه التلاميذ بعد الخامسة ويغادرونه على الساعة الثامنة لكي لا يغضب الآباء . كان شعيب يقول ويؤكّد : لا تنافس مع الأسرة أو الزاوية أو المدرسة !

أحضر موسى الكراسي وجلس الجميع في مراح الدار . استفسر سرحان :

ـ كاين فرق بين التلاميذ واللعّابة ؟

ـ حالياً لا . الواقع ان النادي ليس لنا . في فكر أغرام والعامري هو نواة متحف الصديقية . كان سينظّم تأسست الجمعية ام لا . النادي مُعار لنا موقتاً لنجتمع فيه . لهذا لا نميّز بين التلاميذ واللعّابة . التلاميذ في الحقيقة رجال . نصف الفريق على الأقل سيتكوّن منهم .

بعد قليل دخلت جماعة مكوّنة من أربعة أشخاص . قام شعيب قائلاً :

ـ هذي الدفعة الأولى .

تقدم الأربعة نحو سرحان وسلّموا عليه واحداً واحداً بينما كان شعيب يعلن عن أسمائهم . ثلاثة كانوا من سكان الصديقية لم يغادروها أبداً والرابع سكن البيضاء مدّة قصيرة . كان من الصعب التكهّن بأعمارهم ، لكن كانت تبدو على وجههم أمارات الرجولة . ردّ سرحان عليهم السلام وفي نفس الوقت ردّد أسماءهم : الحسين ، الحسن ، علي ، محمد . فقال :

ـ هذا عنقد معقود !

انفجر الجمع ضحكاً . قال شعيب :

ـ نعم . . أسماء منسّقة لأنها مستعارة . اخترتها أنا حيث ان السكـان هنا يحملون كلهم نفس الاسم : اما احمد وأما شعيب .

مزح سرحان :

ـ صحيح . . الريـاضة جهـاد فلا بـدّ من أسماء الجهـاد . لكن لا تنسَ حمزة ، طلحة ، عمر .

ـ عندنا حاجة أولاً بأحد عشر إسماً .

ـ على نسق ؟

ـ نعم . . لتصاحبنا البركة في الميدان ، بعزة محمد وعلي !

هنا تدخّل موسى :

ـ حق . حمايتنا في هذا الشط سيدي محمد بن عبد الله وفي الشط الآخـر سيدي علي بوعلم .

قال كلامه وقاد الجماعة نحو الصالة تاركاً شعيباً وسرحان رأساً لرأس .

أغمض سـرحان عينيـه كما لـو كان يحـرص عـلى استـذكـار أمـر مهمّ . وبالفعل رنّ في أذنيه إسم الشيخ العـوني . تساءل : فقيـه ام شيخ ؟ أجـاب شعيب على سؤال لم يوجه إليه .

ـ النعت الجاري على ألسنـة الناس هنـا هو الشيـخ مع انـه لا يدرس في مسجد أو زاوية . داره عادية مثل الدور الأخرى .

توقّف قليلاً ثم استطرد :

ـ علمت ان بعض الأفراد اجتمعوا قبـل سنوات وحـاولوا تـأسيس زاوية عونية . لازم تعرف انه كان ينظم في الماضي موسم كبير يحمل هـذا الاسم له علاقة بالجهاد . يجوز ان يكـون هؤلاء الأفراد ينتمـون إلى فرقـة العونـات أرادوا ان يتميزوا عن الدرقاويين والتيجانيين والمختاريين . لكن الشيخ اعتذر عن إعطاء الورد . منهم من قال : هذه سياسة ، هو راض علينا ، ما علينا إلا ان نشرع في العمل . غير أن العملية تـوقّفت بعد حـين . لا تعمر زاويـة بدون شيخ .

ـ من اين لـه هذي الشهـرة وهو قـابع في داره . لا واحد يـطلع عليه أو ينتفع به ؟

ـ ربما هذا هو السبب . كل واحد يحدّث بلا حرج !

ـ طيب وبم يحدّث الناس ؟

ـ كل واحد حسب عقليته . الخزعبلات ؟ تسمعها هنا وهناك إذا فتشت ونبشت . شي يهمك هو انه ضد الطرب ، أحد أسباب انحطاطنا في نظره . هذا ما أكّده لي الخلوقي منذ سنوات .

ـ اذن لا طرب ابداً عنده ؟ دار حزينة والله !

إلتقط موسى هذه الجملة وهو عائد من صالة الكتب فردّ باندفاع :

ـ والطرب فيه شي غير الحزن ؟

علّق شعيب والفرحة بادية على وجهه :

ـ صاحبنا بحال بلّارج أخذ الحزن شارة . يطرب ويبكي . حكى لي مرة . .

إلتفت إلى موسى :

ـ احك انت .

ـ لا . . انت . لا باس .

ـ صاحبنا يحب العيطة وبالخصوص عيطة سطات . قال : امرأة من تلك الناحية كانت في الحج ودخلت تزور قبر النبي . لما قربت من التابوت غلبتها الدموع وبدات تتنهّد وتنوح وتشهق كأنها تنازع الموت . قال الناس : مالك ؟ قالت : ابكي على سيدنا محمد جاووا به لهذا الخلا ودفنوه بحال اليتيم . علاش ما جاووا به عندنا نفرح ونهلّل به ؟

تبسّم سرحان ورجع بالحديث الى مجراه :

ـ هذا كل ما يحكى عن الشيخ ؟

ـ يقال إنه ألّف مؤلفات حول الخلافة ، بل منهم من يقول إنه يظن ان الخلافة ما زالت قائمة ويتمنّى ان يصل حكم الخليفة لهذا البلد ويطهّره من البدع .

ـ كيف جرى انك ما حاولت تتصل به ؟

ـ لآش ؟

ـ تعرف رأيه في الأحداث .

قال شعيب معاتباً :

ـ سي سرحان أراك تتكلم مرة مرة كالزائر البرّاني .

انفجر ضحكاً واستطرد :

ـ خرجت هكذا بلا قصد. آراء الشيخ العوني ، إذا كانت له آراء ، أعرفها من أيام الدراسة في اليوسفية . ما عندي بها غرض . انت قابله ، حاوره ، ومن بعد نتفاهم !

ـ تكلّمني على جماعة محمد وعلي ، تسمّي اللعّابة الحسن والحسين ثم تقول لي ما عندك غرض بأمثال الشيخ العوني ؟

ربط شعيب جأشه وقال بتحفظ واضح :

ـ سايرتك في الكلام .

عندها تدخّل موسى وكأنه لم يتابع القسم الأخير من الحوار :

ـ والله ننظم هنا مهرجان عيطة !

نهض شعيب وكاد يصرخ :

ـ هذا الكشف بعينه . مهرجان العيطة !

ثم زاد وكأنه يفكر بصوت عالٍ :

ـ إذا اقتنع الخلوقي بالفكرة ودافع عنها صفا الجو وانتهت كل الصعوبات . . رأيك يا سي براهيم ؟

ـ تسألني انا ؟

وأشار الى الصالة وراءه :

ـ غُلب كمثل الحُلم .

(53)

دخل سرحان وشعيب وموسى الحزين الى صالة الكتب . . تضيئها وتدفئها أشعة الشمس المنعكسة على الجدران . أحسّ ابراهيم ان حضور عشرة أشخاص متفرقين هنا وهناك قد أعاد إلى الصالة شيئاً من الحياة ـ تلوّنت الصور المعلّقة وجرى التيار في حروف الملصقات . . حروف نصف كوفي جميل ، الخط الذي تجمّد في القيروان قبل أن يجتاز الصحاري ويقف هنا على شاطىء بحر الظلمات .

انتصب شعيب معلناً :
ـ الأستاذ سرحان بيننا اليوم في لقاء نتمنّى أن تتبعه لقاءات كثيرة . أردتم حواراً مفتوحاً فلنفتحه على بركة الله . اقتربوا منا كلكم .
غادر التلاميذ مؤخرة الصالة وجاءوا بمقاعدهم الى حيث جلس سرحان . بعد أن تكوّنت الحلقة اقترح شعيب ان يبدأ أحد الحاضرين بإلقاء سؤال ، مهما كان . فعمّ الصمت .
ـ انت يا سي حسن كانت عندك أسئلة لا حصر لها ، نسيتها ؟. وانت يا حسين كنت تسألني دائماً عن رأي سي براهيم في المدينة ، في النادي ، في فرق الرياضة ، في امريكا ، في المغرب . . ها هو الآن قدامك . تفضل قم وتكلم ! .
دار نحو سرحان :
ـ جآتهم اللقوة !
ابتسم البعض فيما ضحك البعض الآخر ضحكة مقتضبة .
استعدّ شعيب لمعاودة الكلام . لكن قبل ان يتجاوز الكلام شفتيه انتصب الحسين . فصفّق شعيب وتبعه الجميع :
ـ هذا مبشّر خير . . ما زال عندنا أبطال .
قال الحسين :
ـ السؤال حول الرياضة في أمريكا .
ثم جلس وعمّ الصمت من جديد . أعاد سرحان السؤال على نفسه بصوت مسموع .اقترب منه شعيب وأسرّ إليه :تكلم لنا عن امريكا بصفة عامة .
ـ طيب . . انا ما كان عندي اهتمام بالرياضة هناك . كان شغلي في اتجاه آخر . لكن العقلية الامريكية واحدة في كل النشاطات ، في الصناعة ، في السياسة ، في الفن ، في الرياضة . . أول مرة ذهبت الى هناك كنت مدعواً مع جماعة تتمثل فيها كل الجنسيات . كنا نقوم بجولة عبر ولايات كثيرة وكان يقودنا بالتناوب طلبة . مرة قادتنا طالبة لطيفة حلوة ، كانت تساعفنا في كل ما نطلب وكنا نحبّها كثيراً . في نهاية سفر طويل مرهق قالت لنا ونحن على باب الفندق : بعد هذا اليوم المتعب أتمنّى لكم ليلة هادئة ونوماً مريحاً

لتستعيدوا قواكم لعمل الغد . فانفجر الجميع بالضحك بينما خجلت الطالبة المسكينة دون ان تفهم سبب الضحك . الواقع ان جميع الحاضرين ، رغم ما يفرقهم من لون ولغة ودين ، شعروا بما في كلام الطالبة من خصوصية : هدف النوم ليس الراحة وانما استعادة الحيوية لإستئناف العمل . ربما كان بعضهم ينتمي الى مجتمعات تعتبر النشاط أثناء النهار توطئة للنوم أثناء الليل . . العجيب في امريكا هو انك أول وهلة تظن ان كل شخص حرّ يفعل ما يشاء ، ثم بعد فترة تلاحظ ان حركات كل فرد تدخل في إطار ثابت لا يتغيّر . كل شيء مسيّر بدون مسيّر ظاهر !

- من هو المسيّر الخفي ؟

- من الناس من يظن ان هناك جمعية سرية ، بل حكومة سرّية . الجيش ؟ البنوك والمؤسسات الصناعية الكبرى ؟ المافيا ؟ الجواسيس ؟ وهذا الاعتقاد ترسّخ بعد مقتل الرئيس كنيدي في دلاس .

- وفيه شيء من الصحة بلا شك ؟

- من يدري ؟ في بعض الأحيان تحسّ وانت تسير في أحد الشوارع العريضة كأن عيناً خفية تراقب حركاتك . . إحساس قوي ملازم حتى في الأزقّة الصاخبة الملوّنة بأضواء الإعلانات الكهربائية . لكن في نظري المسيّر الخفي ليس بالضرورة هيئة خارجية عن الفرد . في اعتقادي هي هيئة داخلية وجدانية . كل فرد يخضع لقوانين نفسانية واحدة . لذلك يقولون : هذا كلام ، هذا سلوك غير امريكي ، اي نابع عن اعتبارات مخالفة لما يظهر لهم طبيعياً بديهياً .

توقّف سرحان مبتسماً :

- كل هذا لنقول ان الرياضة ، كغيرها من النشاطات ، تخضع أيضاً للقانون العام ، تهدف الى ما تهدف إليه الأنشطة الأخرى . تتعجبون لو تعرفون الأهمية القصوى التي تعطى للرياضة في المؤسسات التعليمية . النظام الأمريكي تأثّر بالتقاليد الألمانية والعادات الانجليزية وكلها تولي أهمية كبرى للمباريات الرياضية . ليس من الصدفة أن تكون الرياضة العصرية ، مهما كان أصلها في الماضي ، قد تطورت في البلاد الانجليزية كما تشهد بذلك

أسماؤها : فوتبول ، هندبول، باسكتبول ، تنيس ، غولف . . الخ .

ـ باستثناء الألعاب الآسيوية .

ـ صح ، لكن هذا عالم لا أعرف عنه شيئاً .

تدخل شعيب :

ـ هذه نقطة تستحق النقاش . لماذا الرياضات العصرية اما انجليزية واما آسيوية ؟

ـ سجل النقطة ونعود إليها . . في امريكا ، حسب ما لاحظت ، التربية مقدّمة على التعليم . المؤسسات الموجودة تربّي أولاً وتعلّم ثانياً . هدف التربية ، على المستوى النظري ، هو تقوية الإرادة . الأمريكي عادة لا يهتم بالعقل أو الوجدان . انه يهتمّ قبل كل شيء بالإرادة . لماذا ؟ هناك أسباب معروفة للباحثين وللأمريكيين أنفسهم . ربما هذا أمر طبيعي في منظور تطورهم الخاص . انما الأجنبي ينتبه لذلك أول ما يطأ أرض امريكا . لماذا الشغف بأفلام الكاوبوي ؟ لأن كل فلم يلقّن الناظر درساً في الهمّة والعزيمة . من يخسر المعركة ؟ في الظاهر فاعل السوء الذي يجرؤ على الكذب والسرقة والعدوان . من ينتصر ؟ في الظاهر فاعل الخير ، المدافع عن العدل والحق . لكن في آخر تحليل نجد ان الفشل يرجع أساساً الى التردّد ، الى عدم الثقة بالنفس . رجل السوء يخسر لأن يده ترتعش في آخر لحظة وذلك لأنه بالضبط غير واثق بحقه . وهذه حقيقة تنقش في أذهان المشاهدين لا عبر الحوار بل عبر هيئة الممثلين ، عبر الوقفة والمشية . .

ـ سيماهم على أجسادهم !

ـ نعم . قدرهم في سلوكهم . الأفلام التي لا تتمشّى مع هذا المنطق تصدّر للخارج . يعجب بها الأوروبيون وغيرهم ، ولكنها لا تنجح داخل أمريكا . كذلك الرياضة . الرياضة تربية .

ـ الرياضة جهاد !

ـ من البداية قلت ان المحاضر هنا محاصر . لأن الموضوعات محصورة .

ـ هل سمع الامريكان بالأحاديث النبوية ؟

ـ وهل هذا حديث نبوي ؟ أطرحوا السؤال على الفقيه شعيب .

أطرق شعيب وهو يخاطب نفسه :

ـ ما تنبهوا الغافل يا سادة !

ـ قبل ان آتي إلى هذا الاجتماع تساءلت : ماذا يمكن لي انا المهتم بالموسيقى منذ أعوام وأعوام ، أن أقول في شأن الرياضة . والآن بعد أن شرعت في الكلام يبدو لي ان الموضوع ، كما يقال ، بحر لا ساحل له . أتذكر الآن كم مرة رأيت في مدارس مشهورة ان النجم الذي يعجب به الجميع ، حتى الأساتذة ، هو بطل البيزبول أو الباسكتبول . بل تعرفت على طالبة كانت ، بجانب دراستها النظامية ، مسجّلة في مرقص . كلّما لقيها أستاذ أو زميل سألها لا عن دراستها النظامية بل عن تقدّمها في صناعة الرقص . وكم من فلم ، من مقالة ، من قصة قصيرة ، من رواية ، كتبت عن أبطال الرياضة ، اللامعين منهم والثانويين ! . في القرن الماضي كان الامريكان يقصدون أوروبا ليتعرفوا على التراث ، ليزوروا المتاحف والقصور ، ليشاهدوا المسرحيات الجديدة والقديمة ، ليطّلعوا على الحركات الفنية ، اي ليكتشفوا الفن الرفيع . بعد الحرب العالمية الأولى تغيّر كل شيء . بقي في أوروبا كثير من الذين حاربوا في صفوف الجيش الأمريكي أو تطوّعوا الى جانب الحلفاء . وهؤلاء ، بعد أن رأوا حقيقة الحرب ، أي حقيقة الثقافة الأوروبية ، بحثوا عن شيء آخر غير الفن الرفيع . فاكتشفوا الرياضة : الملاكمة ، سباق الدراجات ، الفروسية ، وفوق كل شيء ، كرة القدم . وسبب شغفهم بالرياضة ، بلا شك ، هو انها لعبت في تربيتهم الأولى دوراً أساسياً . ثم اكتشفوا حقيقة مهمة هي ان الرياضة تحمل إسماً واحداً في مجتمعات مختلفة ، لكنها تحمل في كل مجتمع مغزى خاصّاً . كما ان لكل بلد أكلة مفضّلة ـ لحم ضليعة الغنمي بالخضر في انجلترا ، شريحة العجل بالبطاطيس في فرنسا ، الخنزير بالكرنب المخلّل في لمانيا ، المقرونة في ايطاليا ، المدمس في مصر ، الكسكس عندنا ـ كذلك لكل بلد رياضة خاصة به يلوّنها بلونه ويفرغ فيها كل ما رسب في لاوعيه ـ عند الانجليز الرياضة مقترنة بالدم ، في اسبانيا بالموت ، في ايطاليا بالقدر . .

بعد توقف :

ـ الكلام يطول . لا أريد أن أخرج عن الموضوع . نرجع إلى أحوال امريكا . في عمق أعماق الامريكان تخوف من أن تضعف الحيوية فيهم . بلدهم فتيّ ، لكن هم أبناء شعوب شاخت منذ زمن بعيد . يخشون اذا ما ضعفت إرادة الحياة لديهم أن تخنقهم مشكلاتهم الموروثة . الخطر المحدق بهم ان يأتي كل فريق بما لديه من مطالب ، بعضها بعيد وبعضها مستحيل التحقيق . إذن الارادة قبل الوجدان وقبل التأمّل . من الأمور الغريبة التي تداهمك عندما تصل امريكا ان تسمع الناس يقولون بلا حرج : فلان فائز بطبعه وفلان خاسر بطبعه . النجاح أو الفشل غير مرتبط بالظروف أو بالبخت ، وإنما هو منوط في اعتقاد عامة الامريكان بالارادة . يفشل الفاشل لأنه أثناء المواجهة يأتي وقت يعتبر فيه نفسه فاشلاً ويفوز الفائز لأنه لا يتصوّر ابداً إمكانية الانهزام . وهذا معيار عام يستعمل في جميع مرافق الحياة : في الاقتصاد : في السياسة ، وبالطبع في الرياضة . المنتصر هو من يهابه الخصم والمهزوم من لا هيبة له !

انتصب أحد الطلبة وكان رقيق الأنف مستقيمه الى حد ان المرء يتعجب كيف يمكن ان يتنفّس . سأل :

ـ فهمت ان هناك علاقة بين الأكلة المفضّلة لدى كل شعب والرياضة المفضّلة عندها ، فما علاقة الكسكس بكرة القدم ؟

انفجر الحاضرون ضحكاً . غير ان صاحب السؤال بقي واقفاً غير متأثر بضحك الحضور .

أجاب سرحان بعد تردّد واضح :

ـ تسرّعت بالاستنتاج ! . . لا يهمّ . . العلاقة غائبة عن ذهني الآن . . لكن أرى علاقة بين الكسكس والحرْكة .

ارتفعت أصوات الاعتراض :

ـ الحركة رياضة ؟

ـ الحرْكة كانت النوع الوحيد للتحرك !

قام موسى مطالباً بلزوم الصمت :

ـ خلّوا الكلام عن الحركة والبارود والفنطازيا ، كلام الدراري في الخوا

والـريح . جـوانب من كلام سي سـرحان غـير واضحة ، يـوضحها لنـا مرّة أخرى . العقلية الامريكية بعيدة عنا . عندنا فيها منفعة ؟ خـايفين ؟ خليهم خـايفـين عـلى أرواحهم ومستقبلهم . إذا خـوت بهم الأرض استحقوا ومـا فوق . . اما قضية الكسكس فعندي فيها رأي بعد التجربة الطويلة . .

توقف ونظر إلى الحاضرين :

ـ ايواه . . اضحكوا يا الأخوان انتم أصحاب الكساكس ! حق هذا بلد الكسكس والملوي والبطيخ ، ايه او لا ؟ هذا كله يحش الركبة ويثقل الرجل . ما ينفع الا البيض واللحم المشوي والروز المبخّر . .

هنا تدخل شعيب :

ـ ما قال لا إلا في تشهده . .

ـ معناها ؟

ـ أفواهنا مفتوحة .

ـ نعم ! نعم !

ـ الخـيرجآ ان شـاء الله ! الفكرة الـدايرة في راسي هي ان سي سـرحان مهتمّ بالطرب . عاش في امريكا من أجل الطرب وما قال لنا كلمة واحدة في الموضوع !

أكّد شعيب :

ـ سي سرحان ، ما علاقة الطرب بالغلب ؟

تدخل موسى وقال بصوته الخافت :

ـ الهيبة ، إرادة الفوز ، نحن نسمي هـذا الشي الايمان . الـطرب يقوي الايمان . نجمع في كلمـة واحدة تنسيق الحـركات والـطرب والايمان ، نحـلّ المشكلة ونخرج من باب واسع !

بدا تحبيذ على وجوه الحضور . قال شعيب :

ـ دائماً القضية هي إرادة العقل أم إرادة الجسـم ؟

أجاب سرحان :

ـ هـذا مشكل آخـر شغلني منذ أعـوام . فكّرت فيـه حتى لم يبق لي فيـه مقـال . انتم تلاميـذ ، تعرفـون الآن او ستعرفـون عن قريب ان المـرء يقـدر

يتكلم في اي موضوع مدة طويلة ويكثر من الى وحتى ولو . . قبل ان يدرسه ويتعمق فيه ، اما بعد التفكير والتمحيص فانه يكتشف ان الكلام فيه صعب . وكلما تقدم في دراسته تشعّبت قضاياه . هذا بالفعل ما حصل لي . أكتفي بكلمات قليلة . الفرق بين الطرب والموسيقى كالفرق بين الرقص والبهلوانية . الطرب في اللغة وفي سلوك الناس يرمي الى فقدان الوعي ، أو على الأقل الى النقص من حدّته . الموسيقى تهدف إلى الاستلذاذ الروحي مع حضور وشحذ الوعي . الموسيقى توأمة الرياضة . الطرب ؟ نقطة استفهام كبيرة جدّاً تغطي أفقنا الثقافي . .

توقّف سرحان عن الكلام . لكن الجميع كان ينتظر الخاتمة .

ـ محيطنا هنا كله طرب . .

ـ ماذا تعني ؟

ـ أعني المحيط الطبيعي والبشري .

ـ يبقى الايمان .

ـ هذا سوقك انت ، يا سيدي الحزين !

ـ والعزيمة ؟ والهمّة ؟ وإرادة الفوز ؟

ـ نعم الغيث غيث لكن هل غيث الشتاء مثل غيث الصيف ؟

ـ تعني الأكل أكل ومع ذلك البسطيلة ما هي بيسرة !

وقف شعيب :

ـ مزحنا ما فيه الكفاية . لهذا الكلام فائدة . نسمّيه الايمان أو إرادة الفوز ، عندنا أو عند غيرنا ، هناك شيء أساسي وهو هنا (وضع سبّابته على القلب) وهنا (وضعنا على الرأس) ، لا هنا (أشار الى البطن) ولا هنا (أشار الى الركبة) . .

التفت الى الحسين الجالس الى يمينه :

ـ عرفت نيتك يا ولد الزنى !

استطرد

ـ هذا الشيء ، كيف ما كان اسمه ، هو الأهم ، اقبضوا عليه ولا تفرطوا فيه ، ايها الشباب الطموح . موافق يا أستاذ سرحان ؟

ـ تماماً موافق .

ـ الآن نشكر استاذنا الكريم ونطلب منه ان يكثر من مثل هذه اللقاءات ولو لمدة قصيرة ونصفّق جميعاً .

صفّق الجميع . وقف سرحان وهو يبتسم ويقول لنفسه : شعيب واعظ ، شيخ بين الأشياخ ، يقرب الحكمة لمن لا حكمة له . الزاوية مثل المتاهة تدخل اليها بمحض إرادتك ولا تخرج منها إلا بإذن . والإذن هيهات هيهات ان تفوز به !

(54)

توقّف شعيب على رأس درب القائد المدني وقال :

ـ نقاش مفيد . كانت فيه أمور لا يفهمها إلا العارف . لكن المهم هو التبليغ . هذه بذور زرعت في أذهان التلاميذ . في الأيام المقبلة يقع فيما بينهم أخذ وردّ وتظهر النتائج . .

قاطعه سرحان :

ـ كل الحاضرين أعضاء في الجمعية الرياضية ؟

ـ لا . خمسة فقط . أقل من النصف . نترك الحرية للجميع ، كما ان الحضور غير ضروري يحضر من يريد ويتغيّب من يريد . نخشى ان يقال عنا : أفرغتم الزوايا والمساجد . النادي ملتقى التلاميذ . الدعاية له موكولة لهم وكذلك الدفاع عنه إذا ظهرت معارضة .

ـ كاينة معارضة ؟

ـ لا . الى حدّ الساعة . لكن في المستقبل ، عندما نشرع في العمل ، كيف تتطور الأمور ؟ ذلك من أسرار الغيب .

ـ أثر فيك موسى وحزنه يا فقيه !

ـ كل يوم بذوقه . كل شهر بلونه ! عجبني كلامك . أخذت الأمور بجدّ وهذا يستهوي التلاميذ .

ـ ماذا في برنامجهم الآن .

ـ هم أحرار . منهم من يشاهد التلفزة . منهم من يلعب الضّامة . نبحث عن معلم شطرنج . عندنا في الصديقية شخش في هذا الفن اسمه

المعلم بنمسعود . لكنه شيخ مغرور بنفسه . قال لموسى : لعبة الملوك أصحاب الشأن للتمرين على مكايد الحرب وفنون السياسة ، ما هي للبزاقل !

ـ اذن ما العمل ؟

ـ ننتظر . طلبنا من الخلوقي التوسط . عرضنا عليه ان يستقبل في داره أحد الشبان ، يعلّمه القواعد وهذا الشاب يعلّم الآخرين .

ـ ملقن وبجانبه مترجم ، كما في القرون السالفة !

مرق أحد المارة عن جماعة كانت متّجهة الى مسجد الزيتونة . قطع الطريق وسلّم على شعيب :

ـ الأمور ماشية ؟

ـ الحمد لله ، سي البربوشي .

التفت السيد البربوشي الى سرحان قائلاً :

ـ آسپدي الفرنسيس قضوا علينا . نزعوا منا السلاح ومنعوا الخروج من المدينة . وجدوا بيننا غدّارة قالوا : ابقوا في ديوركم قوموا باشغالكم . أنا ، تراني الآن ، كنت من الرماة . قل له يا سي شعيب .

ـ صح . . صح . .

ـ كنا نخرج كل جمعة بعدالظهر على الخيل وبالكسوة . نركب فوق العود وهو يحرك ونخرج الطلقة واللجام تحت الفخذ . أيام أيام . لكن سبحان من يحيي الموتى وهي رميم . الآمال معقودة عليك يا سي شعيب . يا الله استعدّ . قرّب الآذان .

ـ انا تابعك . كلمة واحدة مع سي سرحان .

ـ نعم . نعم . مع السلامة .

قال شعيب لسرحان وهو يودّعه :

ـ قلوب طيبة والله .

وابتعد في طريقه الى المسجد .

السبت 23/9

IX

النص ثابت
والتأويلات تعبر في الغالب
عن الواجب
كما توحي به صفة النص

فرانز كافكا

(55)

طقس حارّ وعاصفي . رياح متقلبة ضعيفة من شرقية الى شمالية شرقية . درجة الحرارة في المناطق الساحلية ستبلغ 26 أثناء النهار وستنخفض الى 18 اثناء الليل .

(56)

وصل بنعيسى الخلوقي منذ يومين الى الصديقية مع عائلته . لم يسمح له ان يتغيّب أكثر من أربعة أيام . غادر الرباط يوم الخميس . وعليه ان يكون في مكتبه صباح الأثنين . كثيراً ما كان يتخلّى عن قسم من إجازاته . يفعل ذلك تلقائياً عند الحاجة . يرافق زوجته وولديه الى الصديقية ويعود الى الرباط وحده ثم بعد أسبوعين أو ثلاثة يأتي من جديد ليمكث بضعة أيام وتغادر الأسرة الصديقية حزينة متأسّفة . منذ سنوات والخلّوقي يعتبر نفسه أحد أعضاء عائلة الشيخ العوني . ماتت أمه شهراً واحداً بعد ان انتقل من القنيطرة الى الرباط وكان عمّه قد توفي قبلها بمدة . فوضع السيّدة عائشة زوجة الشيخ موضع أمّه والشيخ موضع والده والولدين أحمد ومحمداً موضع أخويه . أصبح يحتلّ مركزاً مرموقاً في المجتمع فكان يؤمن إيماناً قوياً ان ذلك من بركاتِ الشيخ العوني . يعزوه إلى اليوم الذي دفعه عمّه في حجر الشيخ فمسح هذا على رأسه وأسدى له نصيحة بقيت منذ ذلك الحين ماثلة أمام عينيه كأنها مكتوبة بحروف ساطعة على وجوه الكائنات .

تغيّب الخلّوقي هذه المرة سنة كاملة . وجد كل شيء كالمعتاد : المدينة ، الدار ، نظام الحياة . دخل ليسلّم على الشيخ فبدا له كالعادة بياضاً في بياض : البشرة حليبية ، اللحية حريرية ، اللباس من الصوف الناصع المبخر بالكبريت . لكن لما مدّ له الشيخ يده اليمنى محاولاً ان يرفع رأسه لينظر إليه لاحظ بنعيسى ان طارئاً قد طرأ . كان الشيخ دائماً بطيء الحركات .

كيف لا وهو حبيس البيت طيلة ثلاثين سنة ؟ لكن هذه المرة تغيَّر الايقاع . . أمر واضح لكل ذي عينين .

خرج الخَلوقي من عند الشيخ وقصد حـامته التي لم ينقص حبّهـا له منـذ ان أدخلته الى دارها وهو صبي يتيم .

ـ الشيخ عنده شي ؟ بان لي متغير .

أجابت السيدة عائشة بصوت مكتوم :

ـ ولا شي . . الحمد لله .

ـ ظهر لي عيّان . لو كان الأمر بيدي نجي بطبيب .

ـ الطبيب هو الله أوليدي !

فهم الخلوقي ان نصيحتـه في غير محلّهـا . كم من رجال ونسـاء وأطفال عجز الطبيب عن علاجهم وأنقذهم الشيخ بدعواته وتوسّلاتـه ! كان للشيـخ طريقة خاصة في التغذية لا يحيد عنها أبداً . يصوم كثيـراً ولا يكاد يـأكل من اللحوم المطبوخة . يشـرب الشاي والقهـوة بدون سكـر . لا يدخن ولا ينفّح رغم انتشـار هذه العـادة بين العلماء . يقـول ويؤكد ان التـوابل أصـل جميـع أمراض الإمعاء . حكمتـه ان كل داء من البـطن وكل دواء في الصـوم . من المستحيل اذن ان يدخل عليه طبيب ، جسمانياً كان أو روحانياً .

غيّر بنعيسى مجرى الحديث :

ـ سمعت أحبيبتي بـابراهيم سرحان ؟ كـرى الدار فـوق الكديـة من أم شعيب الصبّاغ .

ـ تبارك الله عليه . هذا ما سمعت . الله يكمّل .

ـ طلب مني هذا عام يسلّم على الشيخ . وتقريباً واعدته .

سكتت السيدة عائشة ثم أجابت :

ـ ما كاين باس .

ـ لكن سرحان ما هو بحال الناس . أُدخلْ سلّمْ واخرج . باغي الكلام والمذاكرة . ما عرفت الشيخ مستعد أو لا ؟ لهذا سوّلت على صحته .

قالت بعد حين :

ـ أوليـدي مسعود الحـاجب مشى عند الله . مـا عندك غـير تكلّم الشيخ

بنفسك بعد يوم أو يومين . الزرهوني الّي نوى يكون مقدم الزاوية ماشي جاي هذي الأيام . وما ظهر على الشيخ عياء . ان شاء الله ما يكون إلا الخير .

قام بنعيسى وقبّل رأس حامته دون ان ينطق بكلمة .

غادر الدار فلقي أحمد ابن الشيخ واقفاً تحت الصابة في مدخل الدرب . منذ ان خلقه الله وهو يحيى حياة حيوانية . يأكل وينام ثم يتمشّى خطوات ليعود فيأكل وينام . وجد على وجه الأرض ليكون معملاً متحركاً تتحوّل فيه اللحوم الى شحوم . لا يقرأ . لا يطالع . لا يذاكر . مهمته ان يشاهد كيف يخرج الله الليل من النهار والنهار من الليل . مع ذلك كان بنعيسى يحبّه ويعتبره أخاً له . لو طرأ طارىء وطلب منه ان يرافقه الى الرباط لما تردّد الخلوقي دقيقة واحدة .

بادر أحمد :

ـ الأولاد مشوا للصيادة .

أجاب بنعيسى :

ـ خير . كنا اتفقنا نمشي للبحر . لكن إذا اختاروا الصيادة الله يربّح .

تابع طريقه في اتجاه السوق الدخلاني . كانت أشعة الشمس لا تنير سوى الثلث العلوي من الجدران . فحافظت الأزقة على رطوبة الليل . الممرات مبلّطة تتوسّطها مجاري المياه . على رأس كل زقاق فران أو حمام أو حانوت أو هري . يعرف الخلوقي جميع المارّة . يبادر البعض بالسلام ويردّ على البعض الآخر التحية بأحسن منها . يجري قدامه صبيان بلباس قصير ملوّن وصبيان بسندال البلاستيك . يشاهد الخلوقي هذه المشاهد للمرة الألف ولا يتضايق منها . خرج من الدار المبيّضة ليجد نفسه داخل المدينة الهادئة . أسرة صغيرة داخل أخرى كبيرة . وما حول المدينة المسوّرة يتصوره الخلوقي هيئة هادئة ساكنة بيضاء تطمئن الى رؤيتها النفوس . هكذا فهم إشارات الشيخ التي تنير طريقه في الحياة ولعن الله الحسّاد والمنافقين !

مرّ بباب الولجة فألقى نظرة الى الضفة اليمنى وأحس بريح ناعمة تحمل

اليه روائح الطين والحنّاء . ساحة السوق تشبه كل ساحات المدينة لولا ان الباعة كانوا يعرضون بضائعهم على الأرض من الساعة العاشرة الى صلاة الظهر . الناس يتبايعون كأنهم خرص . تتكون الكلمات على شفاههم ولا تخرج الأصوات من حناجرهم . تحوم فوق الجمع همهمة لا تعلو على همهمة النحل وهو يجرس حلو الزهور أيام الصيف . شعر بنوع خاص من الهدوء تتحول فيها الدعة الى سكينة . كان يظن ان ركون المدينة وصل حدّاً أدنى لا يوجد بعده إلا وضع يتعذر وصفه . وها هو يشعر ان المدينة ازدادت هدوءاً على هدوء . شعور خادع؟ قد يكون . وإذا كان فلماذا يغمره في مثل هذا الوقت في مثل هذا الموضع؟ لو كان شهر رمضان لعرف كيف يقدر درجة السكون . تذكّر الأيام التي كان ينتظر فيها أولاد المدينة شهر رمضان ليتهافتوا على حانوت رجل نحيف عصبي إسمه عديسة كان معروفاً بإدمانه على التدخين حتى قيل عنه انه يغادر المنزل بعلب سجاير كثيرة ووقيدة واحدة . كان الأولاد يقتربون من الحانوت تباعاً ويصيحون الواحد تلو الآخر : « عديسة خارم . . المغرب باقة » ! ويطلقون سيقانهم للريح . فيخرج إلى الشارع عيناه محمرتان كأن الدم يغلي في شريانه ويصرخ صراخاً يتحول شيئاً فشيئاً الى عواء الكلاب . فيخجل الآباء ويتألمون لعجزه : « الأولاد شياطين . يا لطيف ! يا حفيظ » ! لو كان شهر رمضان لأدرك في الحين هل المدينة سكنت بالفعل أم خيّل اليه انها جمدت وتحجرت . سبحان من يحيي ويميت ، يطلق ويمسك . . المدينة ساكنة أم متحركة ، حيّة أم ميتة ، منتعشة أم جامدة ، مستيقظة أم مسبتة ، لكن الشعور الحالي ، شعوره هو ، صادق غير كاذب ، يعبّر عن شيء قائم وإن كان مجهول الهوية . ازداد شعوره حدّة عندما دار على أصحاب الحوانيت واحداً واحداً وحيّاهم كما كان يفعل كلّما حضر الى الصديقية . لاحظ في أعينهم بريقاً يشير إلى أنهم ذاقوا من جديد وبعد طول انتظار طعم الأمل .

اشترى ، كما كان يفعل دائماً في بداية إقامته بالمدينة ، كل ما كانت تحتاج اليه الدار . وقفل راجعاً يفكر في حركات الشيخ ودعة السكان .

(57)

يوم السبت بين الظهر والعصر ، زار دار الشيخ العوني أربعة من أعضاء المجلس البلدي : الرئيس ونـائبه ، ممثـل مقـاطعـة المـدينـة وممثـل مقـاطعـة الـزاوية . استقبلهم الخلوقي في غـرفـة السـطوان حيث تجلس عـادة السيـدة عائشة . اعتذر رئيس المجلس عن تأخير الزيـارة . قال إنـه لم يكن يريـد أن يزعجه في بداية إجازته وهـو يعلم أنه تعب مـدة شهور ويحتـاج الى شيء من الراحة . فضّل ان يترك له الوقت ليتذوق هواء البليـدة . وكان يؤخّـر اللقاء مـدة أطول لـولا أنه سمـع انه سيغـادر الصديقيـة بعد يـومـين . ردّ الخلوقي بكلمات ودّية وأكّد انه سيغادر بالفعل المدينة عشية يوم الأحد . سأل الرئيس عن صحة الشيخ طالباً ان يعينهم بـدعائـه المستجاب . ذكـر ممثل الـزاوية ان شؤون المدينة تسير ببركـة وليين صـالحين : أحـدهما حي والآخـر ميّت . ثم استـدرك في الحين ان العبـارة في غير محلهـا لأن الصلحاء لا يمـوتـون بـالمعنى العادي إذ بركتهم تبقى سارية المفعول إكرامـاً لهم من الله تعالى . جـاء محمد ابن الشيـخ بصينية الشـاي وبـطبق الحلويـات . أخـذ رئيس المجلس كـأس الشاي وقبض عليه بكلتايديه ثم مصّ ما فيه مصّاً مسموعاً تعبيراً على ارتياحه لحفاوة الاستقبال . إلتفت إلى الخلوقي قائلاً :

- سي بنعيسى شفت ولد الصبّاغ ؟

ردّ الخلوقي بعفوية :

- إيواه شفت الفقيه .

أطرق الرئيس قليلاً ثم استطرد :

- الحقيقة انه أوقعنا في مشكلة أو قل في مشاكل . ما عندنا اعتراض عـلى تأسيس جمعية مهما كانت ، ثقـافية أو غـير ثقافيـة . نرحّـب بهـا . نشجّعها ، خاصة من الفقيه ولد البلد . لكن الحاصل هو انه بـدا العملية بـلا ما يتكلم مع واحد منّـا . قام بعمـل فردي بـإعانـة ناس من الآفـاق . اولاد البلد . . صح . . لكن بعد طول الغيبة عادوا برانيـين . وتمادى في العمليـة بلا كـلام ولا إتصال . أحنا موجودين أو لا ؟

قاطعه بنعيسى :

ـ يعني حصل منه التعدي ؟

ـ على القانون لا . لكن هذا ما هو المهمّ . المهمّ هو السلوك . عمل كأن المجلس غير موجود . . وفي هذي الظروف أنت أدرى منا بها . من البداية ما عرفنا أغراضه . تحاشينا الخوض في الكلام . الآن الكل ساكت لكن ، يا اليوم يا غداً ، لا بد تطلق الإشاعات . . . .

رفع نائب الرئيس رأسه ثم تململ معلناً انه يطلب الكلمة فأمسك الرئيس . قال النائب :

ـ كانت المدينة هانية وبعد أيام قليلة تغيّر فيها الجو . جانا رجل عمرنا ما سمعنا به ، ابراهيم سرحان ، قالوا ولد البلد لكن رايحة الشحمة في الشاقور . ولد الصباغ خلّى الوظيفة ، وظيف مهمّ ، وركن هنا . الأول أكرى من الثاني دار الكدية . . بقت سنين خاوية حتى قال الناس انها مسكونة قايمة فيها قربلة كل ليلة . في المقابل أخذ شعيب من ابراهيم سرحان خربة . أصلحها زيّنها وها هي الآن نادي يجتمع فيه الكبار والصغار من المدينة ومن الآفاق . في الليل المدينة ملكهم لا يشاركهم فيها أحد كأنهم جيش احتلال . احتلنا وفرض علينا منع التجوّل تماماً كأيّام الحرب . وهذا الجري في الزناقي بالليل على الأقل كان الواجب عليهم طلب رخصة من الباشا أو من عميد البوليس . لا شي . واحنا أعضاء المجلس نتفرّج مثل غيرنا لا فرق . وضع طبيعي هذا ؟!

ـ لهذا جينا نتشاور معك ، أ سى بنعيسى . الأخبار كلها عندك . هذا العمل بالموافقة أو لا ؟

أجاب الخلّوقي في الحين :

ـ أحسن يتكلم كل واحد منكم ويقول ما عنده .

خاطب ممثل المدينة :

ـ رأيك يا سي بوعزة ؟

وضع ممثل مقاطعة المدينة كأسه فوق الصينية ثم قال بصوت واضح متّزن :

ـ يا سيدي ، انا عندي حكاية تكشف عن الواقع أكثر من خطبة طويلة . هذي إمرأة كبيرة ساكنة حومة باب القنطرة ، واقفة على راس الفران تقول لجارتها : يا أختي ما بقت لي حيلة مع هذا المسخوط . هرب من الجامع . ما بغى يخدم ولا يردم . النهار وما طال وهو مع أولاد الزنقة الله وحده عالم بفعايلهم . اليوم إعطيني عشرة غداً إعطيني عشرين . حتى لاين ؟ حتى لاين ؟ كيف جاوبت الجارة ؟ قالت : سيري يا أختي للزاوية الجديدة علّ وعسى يرجع للطريق .

علّق الخلّوقي :

ـ فهمت المعنى .

تدخّل ممثل الزاوية :

ـ كان الشبّان موزعين على جماعتين : جماعة الكارتة وجماعة الذكر والصلاة . صاحب الأولى معروف وصاحب الثانية معروف . في المحلّ الجديد إختلط هذا بذاك . عندهم الكارتة والشطرنج والراديو والتلفاز . ما بقيت تفرّق بين الصالح والطالح . وبيوت الله خاوية !

صمت .

ـ وأمور أخرى كاينة . كانت عندنا فرقة كرة قدم تحت رعايتنا وكان مدير المدرسة هو المكلّف بالتدريب . بعد الوقائع الأخيرة المدير غبر تحت الأرض ، من المدرسة للدار ومن الدار للمدرسة . ما جآ عندنا ما تكلّم معنا . والفرقة تخلت عن لقاءات كثيرة وهي في طور الاحتضار . الحاصل أ سى بنعيسى ان الناس في حيرة . لا بد من إشارة تخرجهم من الظلمات الى النور .

عقّب رئيس المجلس :

ـ أحنا في الخدمة . لكن لا بد تتبيّن لنا الأمور . إذا بان المعنى رفع الإشكال . حتى الآن أحنا ماعملنا في الكانون ما يتحرق . موقفنا غير واضح . ما أحنا معهم ولا ضدّهم . تكوّنت الجمعية خارج المدينة مالنا فيها دخل . لكن يمكن يتغيّر الجو بسرعة وتتحوّل الأمور الى مواجهة . إذا تأسّست فرقة كرة جديدة . ما محل فرقتنا من الإعراب ؟ نخلّيها تموت أو ننفخ فيها الروح . إذا انتعشت تكون هي فرقة الصديقية بالضرورة والجديدة

لمن ؟ نقول هذي للمدينة وذيك فرقة الزاوية ندخل في شبقات . وهناك أشياء أخرى تظهر فيما بعد . سمعنا انهم فكروا في مشاريع كبرى ، مهرجانات لقاءات . يحتضنها المجلس البلدي أو لا ؟ في الوضع الحالي إذا نظّمت الجمعية حفلة بلا استدعاء منا ولا موافقة صرنا بهذلة يضحك علينا الصبيان ، ما يقدر واحد منا يخرج من ذاره .

ـ نعم صرنا خضرة فوق طعام .

ـ هذا هو الحق . أنت يا سي بنعيسى عارف خبايا الأمور . لا بدّ تبيّن لنا الواقع .

ـ كيف ؟

ضحك الجميع . تطوّع نائب الرئيس :

ـ مثلاً إذا كانت العملية من عندية ولد الصبّاغ ندخل معه في معركة من الآن . النادي بلا إذن ، المدينة مروعة بالليل ، إستمالة الشبّان ، و . . و . . كلها فعايل فيها وفيها . إشارة واحدة وتطلق ألسنة الناس . . مدير المدرسة ، شيوخ الزوايا ، الأئمة ، أولياء التلاميذ . . هؤلاء تراهم الآن صامتين من جانب الحيرة . لكن مركزهم في خطر . اعطهم إشارة تشفهم قايمين قاعدين . أما إذا كانت العملية معروفة مدروسة مرغوب فيها فهذا شي آخر . نبحث على صيغة الاتّصال والوفاق .

سكت الجميع في انتظار جواب الخلّوقي . قال مبتسماً :

ـ سادتنا نسيتم حقكم من الدنيا . شرفونا . كولوا الحلوة .

تساءل في نفسه : يعرفون كل ما يقع في المدينة ويجهلون خلفيات تأسيس الجمعية ؟ يجهلون أو يتجاهلون ؟ هذه الحيرة التي ذكرها نائب الرئيس أليست هي أصل الهدوء المخيّم على المدينة . ام هل هي طمأنينة عميقة لم يشعر بها هؤلاء لأنهم أغلقوا نفوسهم دونها ؟

قال :

ـ كلام معقول . تساؤلات في محلّها . لكن هذي عملية طالت مدّة شهور . لا شك كانت لها نتائج . قولوا بصراحة : العملية ضرّت المدينة ، السمعة ، التجارة أو لا ؟

تشجّع ممثل مقاطعة المدينة وأجاب :

ـ سي بنعيسى أنت ولد البلد ترى بعينيك وتسمع بأذنيك . ما عندنا ما نخبّي عليك . في الحقيقة عملية ولد الصبّاغ أحيت الصدّيقية . هذا الصيف جآ عدد كبير من أولاد المدينة بعد ما كانوا متعودين على طنجة وتطوان وأكدير . جاوا عندنا عمّروا مساكن كانت تقريباً مهدومة . صلحوها بيّضوها رجّعوا فيها الروح . والمستقبل أحسن وأحسن . لما يبدا الفريق يتدرّب بالفعل ويتبارى مع فرق الآفاق لا بد الحركة تزيد وتزيد . والموسم إذا نظّموه من جديد فهذا يعني ان الصدّيقية رجعت لعهدها القديم لما كانت زهرة منوّرة . هذا هو الحق والحق ما فوقه شي !

تدخّل الرئيس :

ـ لا واحد فينا ينكر الحق . الموسم ، النادي ، الفرقة ، هذي أمور فيها خير وبركة . نفرح بها نشجّعها نكون في مقدمة أنصارها . . لكن إذا بان الضوء ، إذا ظهرت الإشارة .

ـ الآن أحنا في غار

رفع ممثل مقاطعة الزاوية يديه قائلاً :

ـ أحنا إما هكذا (وضع كفّاً على كفّ) وإما هكذا (خلّف أصابيع يديه) .

أتمّ نائب الرئيس كلامه :

ـ بغينا الهناء بلا حيرة .

سكت الجميع منتظرين للمرة الثانية جواب الخلوقي . مدّ يده الى الصينية . أخذ كأسه وراح يحسو الشاي البارد . كان يفكّر وأنظار الحاضرين مشدودة إليه . أخيراً وضع الكأس وقال :

ـ الحقيقة ما عندي خبر . الظاهر ان الأمور عادية . لو كان فيها ما يشوّش البال كان وصل لنا تقرير . الإنسان ياخذ الاحتياط ويتمشّى مع الظاهر ، حتى تظهر العيوب وتنكشف ثغرة يغيّر الانسان موقفه . هذا حق او لا ؟ .

ـ حق . حق . كلام صافي .

ـ عرفتم الحكمة القديمة . اليد اللي ما تقدر تعضها قبّلها . هؤلاء كلهم أولاد البلد . تعاونوا معهم . حدّ الساعة ما ظهر منهم عيب ما خرجوا على الطريق . دوركم الدفاع عن المصلحة وعملهم الى الآن في صالح المدينة . على يدهم جآ الرواج في الصيف وفي غير الصيف . المطلوب منكم التزكية حتى ما تبقوا في الهامش . إذا ما تقربوا هم منكم تقربوا انتم منهم . اختاروا من بينهم الرجل اللي عندكم به علاقة واطلبوا منه يتقدّم باقتراح في الوقت المناسب والاقتراح هو طلب تزكية المجلس البلدي . بلا شك التصريح بالتأسيس مدروس في جهات عليا . ما بيدكم أنتم إلا التزكية . إذا وصلكم طلب بهذا المعنى ادرسوه في جمع عام بحضور الباشا والأعيان . ناقشوا القضية . سجّلوا أنكم حكمتم على الظاهر وفي نطاق القانون . ولا مانع من تزكية فرقة ثانية . إذا ماتت الأولى موتة طبيعية بسبب عدم النشاط والإهمال ما عليكم لوم . كذلك بالنسبة للمهرجان . على كل حال ما أنتم إلا صلة وصل . خذوا الطلب أدرسوه سجلوا عليه لا مانع وارسلوه لناس الفوق . إذا قمتم بهذا العمل بقيتم مع السكان وفي المقدّمة . اذا ظهر فيها بعد ما يشوّش البال عذركم واضح . أخرجوا من باب واسع . وما يكون إلا الخير .

كان الخلّوقي يتكلّم وأعضاء المجلس يحدقون الواحد في الآخر وعلامات الرضى بادية على وجوههم .

ـ صح . معقول . نحكم على الظاهر .

ـ هذا هو الواجب . لا يعلم الباطن إلا الله .

خاطب ممثل المدينة زميله ممثل الزاوية :

ـ أنت عندك علاقة بموسى بودميعة .

ـ ايواه من جهة المرأة .

ـ يوم الجمعة اعرض عليه وعلى واحد منا .

ـ ايواه . نقول له : تحصل أمور في المدينة لعدة شهور ولا واحد يتصل بنا كأننا أموات ؟

تدخّل الرئيس :

ـ على ما حال خرجنا من الحيرة . بينّ لنا سي بنعيسى الطريق وفيها

نمشي .

أكّد الخلوقي :

ـ كونوا في هناء تام . لا ما يشوش البال .

ـ عرفنا الخطة .

رفع نائب الزاوية يديه مرة ثانية :

ـ ايواه هكذا (وضع الكفّ على الكفّ) .

قال نائب الرئيس :

ـ والله يا سي بنعيسى خفّفت عنّا الحمل .

علّق الرئيس :

ـ تربية الشيخ نفعنا الله ببركته . نقدر نسلم عليه ؟

ـ اليوم لا .

ـ ياك لا باس !

ـ بخير الحمد لله . غير الحرارة و . .

ـ وسهر الليالي .

ـ نعم سهر الليالي .

قام الرئيس قائلاً :

ـ وجدنا ما بغينا والعصر قرّب .

قام الخلوقي بدوره وواجه الرئيس محدّقاً فيه :

ـ القاعدة . . كلام بيني وبينكم .

إستطال وجه الرئيس . التفت الجميع نحو الخلوقي وفي أعينهم نظرة عتاب .

ـ بينك وبينا ؟ بينك وبين نفسك يا سيدي . جينا نسلم على الشيخ . أنتظرناه في السطوان . أستقبلنا ببشاشة رغم التعب ودعى لنا وللسكان بالخير والبركة . الله يجازيه عنّا وعن المدينة خيراً . هذا كل ما حصل .

ـ بالفعل هذا ما حصل . والله في عون المسلمين .

قصد الجميع الباب . قال الرئيس :

ـ خلّيك داخل الدار يا سي بنعيسى . ما تتعذّب .

خرج الرجال الأربعة من الدار واحداً واحداً وتفرّقوا على رأس درب الخرصة . لوى الرئيس على يمينه في اتجاه شارع السوق حيث كان يسكن وقصد نائبه المسجد الكبير ليصلي صلاة العصر . أما نائب المدينة فانه توقّف عند أحد البقّالة في ساحة السوق الدخلاني بينما عاد ممثل الزاوية الى مقاطعته عن طريق باب الفتح حيث لفحت وجهه أشعة الشمس المستقرّة وسط السماء .

(58)

أدرك سرحان باب الملاّح والمؤذن يدعو الناس الى صلاة العصر . حثّ الخطى لأنه كان يعلم ان مدّة المقابلة محدودة . عليه ان يشعر بقرب صلاة المغرب ليقوم ويودّع الشيخ . إذا حضر الخلّوقي فسيلعب دور الحاجب . منذ ان غادر الكدية وسرحان يراجع نفسه : لا بدّ لي من مترجم يعرّب للشيخ سؤالي ويعجّم لي جوابه . وإذا فهم المقصود ؟ فذاك دليل على ان الزمن شاخ وبدأ يأكل نفسه . أيها الشيخ عندي سؤال واحد ، غير صادر عني ، سمعته رغماً عني في برّ العدوة القصوى . أنكرته وأنكرته لكنه بقي في الذاكرة ينقر وينغل . أضعه بين يديك ، أيها الشيخ ، كما سمعته من شيطان مارد ، هاتف وسط الليل ينقّط على العود ويقول : هيهات هيهات اين اللات ! . كان المحاضر طويلاً نحيفاً ، مدهّن الشعر ، تتخلّله خيوط بيضاء ، مصفرّ الشنبات من كثرة التدخين . نظر إلى الحاضرين من فوق نظارات سميكة زلقت على أنفه المعقوف ثم قال بصوت طروب : أذكركم بالفرضية المعروفة التي أوّلت تأويلاً جديداً القضاء والقدر عند المسلمين . الإسلام لا يعرف الاقتصاد بمعنى الادّخار . كلُ اليوم ما بيدك وغداً يكون ما يكون . هذا التعبير الشعبي يقابله تعبير المتعلّمين : ولها مدبّر حكيم ، وتعبير المتكلّمين : أعبدوا الله بلا واسطة . ننتقل الى المناطق التي عرفت ، لسبب من الأسباب ، الاقتصاد بمعناه العصري فنجد الناس بالعكس يعبدون الله بواسطة . لسان حالهم يقول : أنا أعبد الله وانت تخدمني وانت تخدمني وتخدم لي لأنقطع الى العبادة . خدمتك أيضاً عبادة ، فعليك ان تخدم فوق طاقتك .

وبما ان الخدّام يفوقون العبّاد عدداً فإن الإنتاج يفوق حتماً الاستهلاك فيظهر الإدّخار . نقلب الآية من جديد . إذا قلنا الدنيا عبادة ومتعة . المتعة نوع من العبادة . حينئذ لم يبق وقت وبالتالي محلّ للإدّخار . بعبارة أخرى : إقتسم الإرث الهيليستيني جماعتان : الأبيقوريون الذين قالوا اهلكوا النفس بالتخمة والرواقيون الذين قالواتغلبوا عليها بالتقشف . الإسلام ورث الفلسفة الأولى اتبع الخطة الأولى : تهالك على الدنيا فاهلكته الدنيا . غيره إتّبع الثانية : هجر اللذّة أولاً فلقيها آخراً . تكلّم المحاضروإبتسامة دائمةعلى شفتيه وبريق شيطاني يلمع في عينيه . ثم ختم بقوله : وطبعاً لوحظ ان صاحب هذه الفرضية كان هو نفسه رواقياً . عاش عشرين سنة مع فتاة لم يمسسها أبداً . كدّ واجتهد . سوّد آلاف الصفحات ثم انهار . . حتّى لو صحّ تبقى المسألة قائمة : علاقة أبيقور بالاقتصاد ؟ تعقيباً على قول الشيطان المارد : لا أحد ينكر ان الدنيا جنّة الكافر والآخرة جنّة المؤمن . . المسألة مسألة تقديم وتأخير ، إستبطاء وإنتظار ، إندفاع وتريّث ، تلهّف وصبر . أليس صحيحاً أننا نجني ثمار الدنيا وهي طازجة . حجّتنا : ماذا تنفع أسباب السعادة عندما يضعف الجسم ويهن العظم وتتعفّن الشرايين . أجل خطاب شيطاني، خطاب فاوست بعد ان باع روحه ! .

لوى سرحان على يمينه واجتاز مدخل درب الخرصة وهو يسرد عبر عرب برع ربع بعر رعب عرب يعرب عبر يعبر . .

صاح الخلّوقي :

ـ هيه تصلي بالواقفيه !

ـ الضرورة . . الضرورة .

ـ تفضّل الشيخ في انتظارك .

(59)

قبّل الخلوقي يد الشيخ وجلس ثم قال :

ـ سي براهيم ، سكن دار الكدية في طريق البحر ، بناها من جديد . عاش مدة طويلة في برّ النصارى ، هذي شهور طلب يتبرّك .

حدّق الشيخ في وجه سرحان بعينيه الباهتتين وأجاب :

ـ البركة في الله رب الأرباب . هو وحده قادر ان يرجعنا الى سواء السبيلْ بمنّه وكرمه وشفاعة نبيه وتوسّل أوليائه . تقدّم يا ولدي ما يكون إلا الخير .

تقدم سرحان . لم يمدّ الشيخ له يده ليقبّلها . بل أمره ان ينحني ووضع يده اليمنى على رأسه . ثم قال :

ـ إجلس .

كانت الغرفة نصف مظلمة لا يكاد ينفذ ضوء النهار إلى زواياها . حدّق سرحان في وجه الشيخ . فبدا له ذا بياض سميك كما لو كان فوقه طلاء . قال في نفسه : لا مجال لإضاعة الوقت . وتشجّع :

ـ سمعت يا شيخ عن كتاب صدر عنكم فيه دعوة للخلافة ، والخلافة في خبر كان .

ـ يا ولدي هاجرت بديني الى هذه المدينة المباركة في جوار الولي الصالح . على رأس كل سنة أكتب قصيدة أذكر فيها مناقبه العديدة . هذا كل ما أكتب . لا أريد ان يقال عني : قال كذا ونفى كذا . القائل هو الله والمؤوِّل هو الرسول والوارث هو صاحب السر . وما عدا ذلك فهو كالريح .

ـ لهذا السبب رفضت تأسيس زاوية .

ـ الزاوية هي المسجد . الجماعة هي أمة المسلمين .

ـ والضريح ؟

ـ الضريح مسجد . . وإلا . .

انقطع الشيخ وغاب طويلاً عن الوجود .

ـ لكن الكلام عن الخلافة لا بدّ له من أصل ؟

رفع الشيخ رأسه وقال بشيء من التردّد :

ـ قبل ان أخرج من فاس طال الجدال عن الهجرة الى مسقط الوحي . ربما قلت أشياء في الموضوع . كنت ما زلت في الدنيا أخوض مع الخائضين .

ـ شاع الكلام كذلك عن المقاومة والجهاد .

ـ لم أتذكّر . طال العهد .

ـ كلام شبّان .

ـ شبّان ؟ نعم . . عدد كبير . كانوا أصحاب الكلام بحضور الكبار . . لا أحد يصدع بالحق . . صمت مطبق .

ـ فقرّرت مغادرة المدينة يا شيخ !

ـ إختلط الحابل بالنابل والعالم بالجاهل . بعد صلاة العشاء كان جلّ السامعين من الصنّاع لا يكادون يفقهون قولاً .

ـ أسمح لي يا شيخ إذا تجرّأت على المقام . هذا سؤال محبّ جاهل . أما كان الواجب المكوث في المدينة لإعلاء كلمة الله ؟

إلتفت الخلّوقي الى سرحان والغضب بادٍ عليه . لكن الشيخ ابتسم ثم لامس لحيته قبل ان يعقّب على تجرّؤ سرحان :

ـ أرض الله واسعة يا ولدي وكلنا مسلمون .

ـ صح . . المسامحة يا شيخ .

إستطرد سرحان :

ـ والآن بعد المحنة هل تحسّنت الأمور ؟

جاء الجواب حازماً قوياً لا تردد فيه كأنه نابع من الأشياء .

ـ الإسلام في محنة دائمة . . إسلام مكة وهو الاسلام الحق حتى بعد الهجرة الى المدينة . كان بالأمس في محنة وهو اليوم في محنة وسيبقى في محنة الى ما شاء الله . الناس يقرؤ ون ولا يفقهون . . بين أيديهم كلام الله لو تدبرّوه، لو رسخ إيمانهم ، لو خلصت نيتهم ، لفتح الله عليهم ولأطلعهم على أسرار الدنيا والآخرة . . متدبّر القرآن كرجل في رأس صومعة عالية والصومعة فوق جبل شامخ مطلّ على أودية كثيرة . أينما إتجه رأى الناس يكدّون ويجتهدون ، كل في واد وكل الأودية موصلة الى حيث هو . . قال اليهود نحن شعب الله المختار نرضي الله فيعلي من شأننا وننساه فينسانا لكن بيننا وبينه عهد لا ينفصم . وقال النصارى الدنيا أحزان وفواجع أصلها الخطيئة الأولى والخطيئة لا يمحوها إلا الفداء . ونحن نقول إن الله لا يتعاهد مع شعب دون سائر الشعوب وإنما يعاهد المؤمنين من كل الشعوب والأجناس ونقول إن الله لا يفدي خطيئة البشر بدم نبي مرسل . بُعث عيسى

مصدقاً لمن سبقه من الأنبياء والمرسلين يذكّر الناس بنعم الله ويحثهم على عبادة خالقهم . أما ما قيل فيه بعد أن رفعه الله إليه فهو تأويل بحسب أفكار الوقت . الإسلام دين الإنسانية جمعاء . يخاطب الناس بكلام الناس جميعاً ، لا يتكلم لغة اليهود ولا لغة اليونان ولا لغة غيرهم من الأمم . جاء الإسلام بعد فرعون ونمرود ، بعد إسكندر ذي القرنين ، بعد أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، بعد ان تعلّم الإنسان الصنائع واطّلع على علوم الأوائل ، بعد أن شيّد الفراعنة الأهرام وبنى اسكندر السدّ . . كل ذلك مذكور في القرآن ، مذكور للعبرة والموعضة . . ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب أقفالها** ﴾ (صدق الله العظيم) . أبعد كل هذه الأعمال الباهرة يبعث النبي العربي الأمي لينافس فرعون ونمرود واسكندر وكسرى ؟ هل بعث في أرض قاحلة ليخلف قيصر ؟ تكبّر القياصرة وكفروا بنعم الله . بل منهم من قال : أنا الرب الأعلى وذلك سنين قليلة قبل مبعث محمد (صلعم) . جاء النبي الأمي العربي بعد إفلاس القياصرة للإعلان عن فجر جديد . تنافس كسرى وقيصر على ملك الدنيا ، كل واحد منهما قال : أنا الملك الأوحد وتلك كانت الخطيئة الكبرى . وصاح النصارى في قلب الامبراطوية : المسيح لا قيصر ! لكن مسيحهم إله في صورة إنسان ونحن نقول الله خالق كل شيء أعلى من كل سائد ، أشرف من كل شريف ، أقوى من كل قوي ، الله أكبر . . لا يتصوره عقل المخلوق ولا يحدّه حدّ مفهوم . . بعث محمد بن عبد الله الى العرب والعجم ليذكّر بفضل الخالق على المخلوق لا ليملك البلاد والعباد . كان في المدينة نبياً مرسلاً مبشراً ومنذراً كما كان في مكة . نبي عربي بعث في شعب أمي بقي على الفطرة بعيداً عن فظائع الفراعنة ومآسي الأكاسرة والقياصرة . لذلك قلت عندما كنت ألغو مع اللاّغين ان الخلافة خلافة رسالة وهداية لا خلافة ملك ورئاسة وهي بيد العلماء . الحاكم حاكم مهما كان جنسه . حكم العرب فأحيوا الجاهلية ثم الفرس فأحيوا الزندقة ثم الروم فأحيوا المادية ثم الأتراك فأحيوا الوثنية وها اليهود يحكمون اليوم ويحيون فكرة الشعب المختار ، كل الحقوق لهم وكل الواجبات على غيرهم . . الاسلام . . الاسلام . . لم يتحقق بعد . . الفرعونية قائمة وكذلك النمرودية والكسروية

والقيصرية ، حية في ثوب إسلامي تحت راية إسلامية والإسلام من كل ذلك براء . . الاسلام . . الاسلام فوق الصومعة يرى وينتظر ، يرى ما يقع في الأودية المحيطة به ، يتألّم ويقول إنّا لله وإنا إليه راجعون . . لا يستعجل ولا يستبطىء وإنما ينتظر بصبر أمر الله . الشمس على وشك المغيب تلامس أشعتها رؤوس النخيل فأشكر الله إذا ألهمني ان لا أكتب ما ذكرت حول الخلافة . واجب على كل مومن نطق بالشهادة أن يتمعّن في كتاب الله المبين وأن يتضرّع إلى خالقه ان ينيره بنور هدايته . الكل من عند الله والكل في كلام الله . . ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً** ﴾ (صدق الله العظيم) .

كان الظلام قد عمّ الغرفة بكاملها . منذ مدّة والشيخ يتكلم من وراء حجاب . يعيد الجملة مرتين أو ثلاث مرات كأنه يناجي نفسه . يضعف صوته أحياناً حتى لم يعد يسمع . نطق بالآية القرآنيةوأعادها مراراً . انتصب الخلّوقي ولامس بلطف ذراع سرحان فقام هذا الأخير بدوره . انحنى الخلوقي على رأس الشيخ العوني وقبّله وفعل مثله سرحان . خرج الرجلان من غرفة الشيخ دون ان ينبس أي منهما بكلمة . في السطوان المضاء بشيء من ضياء الغسق صمت مطبق لا يلتقط فيه دبيب النمل . قصد الخلوقي قاعة الاستقبال . جلس على الصداري وأومأ لسرحان أن أجلس .

ـ معذرة يا سي براهيم . ما كرّمناك . هذي هي العادة مع الشيخ . المقابلة معه قصيرة جداً في الغالب .

توقّف قليلاً ثم زاد :

ـ عمري ما رأيته ولا سمعته تكلم مع واحد مثل ما تكلم معك !

ـ انزعجتَ في البداية ؟

ـ فعلاً . تضايقت لما ذكرت قضية الخروج من فاس .

ـ لماذا ؟

ـ يا أخي الله أعلم بما يجري في ذهن الشيخ بعد كل هذه السنين . ربما يوبخ نفسه ويقول : تسرعت ، تسرعت والعجلة من الشيطان . لا حاجة إلى إيقاظ دواعي الندم . لكن الله حفظ . مرت القضية بسلام . وهذي

أعجوبة ثانية . ما رأيته أبداً تبسّم كما تبسّم لك .

ـ عند الشيخ كتب كثيرة ؟

ـ ما شآ الله .

ـ نوعها ؟

ـ الله أدرى بما فيها .

ـ كلامه يدلّ على انه تبحّر .

دخل أحمد ابن الشيخ وأسرّ شيئاً في أذن الخلّوقي . فقام سرحان مستأذناً . تقدّمه الخلّوقي نحو الباب وقبل ان يفسح له الطريق قال :

ـ تعرف ماذا قال لي ابن الشيخ ؟ انه يدعو لك بالنجاح والتوفيق ويقول لك : الدار مفتوحة وقت ما تحب .

ـ هذا يوم مبروك !

ـ نعم عد مرة أخرى . لّما تتحسّسن صحة الشيخ . مساء الخير .

ـ مساء الخير وألف شكر . . كنت واسطة خير !

(60)

يخترق سرحان أزقّة المدينة المحصنة وقد بدأ يغشاها الظلام . يخرج الى الهواء الطلق فيجد ان الشمس قد مالت وراء الكدية ولم يبق ما يدل عليها سوى مسحات وردية في السماء جهة الجنوب الغربي . السماء عالية عميقة بعيدة عن الأرض وهموم البشر . نسيم ضعيف يتحرك من جهة البحر . كل شيء هادىء وديع في انتظار نداء المؤذن . يقول سرحان لنفسه : نعم للهدوء للدعة للطمأنينة لكن بعد مهلة بعد تجربة وتفكير . يسرع نحو الكدية نحو غرفته المليئة بالتسجيلات كأنه على موعد مع كائن مستور . يفزع إلى صوت إنساني هروباً من صمت الطبيعة . « الإنسان كائن فان . وعبر هذا الكائن الفاني ينكشف الدائم اللامتناهي . الحب المتبادل بين شخصين حادث محدود لا ثقل له في موازن الوجود لا يقود الى نسيان الذات الى الانغماس في تيار الكون لكنها التجربة الوحيدة المتاحة للانسان لكي يتهيأ للفناء والفداء . الفداء يحقق الحياة ولا يتحقق فيها الفداء ينادينا من وراء الكون من حيث لا حكم للإنسان » كلام غريب يجري عادة على ألسنة شبان وشابّات شفاههم

مرتعدة أصابعهم مرتعشة أعينهم متوهّجة ، قليلاً ما تسمعه من شيوخ وكهول ، كلام موروث طوال قرون وقرون . لم يكن سرحان يعرفه قبل ان يهاجر . لم ينفذ أبداً إلى قلبه مع انه يخاطب القلب . معناه ؟ لا أحد يعرف بالضبط حتى من بين أولئك الذين يسيرون على هديه . والعجيب الغريب ان كلام الشيخ العوني أثار في ذهن سرحان هذا المعنى بالضبط . استعمل الشيخ لغة خاصة به ولا بد من مترجم . . نعم الحرب دائماً حرب والفن فن والسلطة سلطة مهما تنوعت الوسائل ـ أقواس ، نبال ، سيوف ، مجانيق ، بنادق ، قاذفات ، طائرات ، صواريخ . . ـ تجارب الانسان محدودة في الشهوة في اللذة في السعادة . نعيش إذن نهاية الزمن منذ عهد الإسكندر والمقالات كلها تعليقات على إخفاق الإسكندر ومن سبقه من الحكام والأمراء . . قلنا يا ذا القرنين .

لحظة عابرة شعر سرحان بنوع من الطمأنينة ، أحس وكأن نوراً يشيع في ذهنه ففكّر انه يدرك مغزى كلام العوني . ثم حاول ان يعبّر عنه فأحسّ كأن النور ينطفىء كأن شيئاً في قرارة نفسه يرسب ويرسب .

جاء الفتح على يد العرب . الفتح وما الفتح ؟ فتح العرب باباً طريقاً منفذاً ، أعادوا الشهوة اللذة السعادة النشوة الى الدنيا بعد ان ذبلت أزهارها وبهتت ألوانها ويبست أوراقها ، أرجعوا القوة النشاط الفتوة إلى الانسان بعد ان وهن عظمه وتصلّبت أعصابه . العرب شعب فتي . محمد فتى وعلي فتى وخالد فتى . . محمد فتى رغم انه تلقى الرسالة على رأس الأربعين . شاخ العالم وبدأ يأكل نفسه فجاءالعرب ونفخوا فيه روحاً جديداً وبعثوه من مرقده . . البعث . . الفتح . . هذا هو السر . . لم يكتشفوا عالماً جديداً وإنما أحيوا عالماً قديماً ولبرهة ظن فعلاً انه استأنف مسيرته . العرب وحدهم عرفوا التاريخ القديم ولم ينكروه . . عرفوه لأنهم لم يمارسوه . الرفض الحقيقي التام المطلق النهائي لا يوجد عند العرب بل بين الروم والفرس . . هو السمّ هو الداء . . كل ذلك مسطّر في مفردات وعبارات القدامى . . في كل كلمة مائة معنى ومعنى . نقرأ ولا نفهم لأننا غافلون ساهون . نعم علي فتى وخالد فتى وعمر فتى رغماً عن مرور السنين والأعوام . . الفتوة في الذهن وليست في

الجسم . إذا كان الدين هو رفض الدنيا بما فيها فالإسلام المحمدي دين لا كالأديان . . لم نعد قادرين على إدراكه لأننا شخنا بدورنا وبدأنا ننهش لحومنا . الهزائم ؟ المآسي ؟ أتت على أيدي البكّائين النوّاحين الذين جعلوا من الإسلام ديناً كالأديان . يا شيخ الأشياخ على الرأس والعين لكني أفهم ما أفهم وتطمئن نفسي الى ما أفهم . تتكلّم يا شيخ فترجع صدى الهزائم المتتالية . دخلت الى الدار في قلب مدينة محصنة وأشحت عن كل شيء . تريد ان تجعل من الإسلام ديناً كالأديان ، ديناً فوق الصومعة . . والفؤاد وما يخفي ؟ . بعد ثلاثين سنة في ظل المدينة المحصنة ؟ .

غربت الشمس وتعالت أصوات المؤذنين داخل وخارج المدينة ذات الأسوار . فحثّ سرحان الخطى مستبطئاً الوصول الى غرفته الفارغة المظلمة . يمشي بسرعة ويفكّر في معنى الطرب والنغمة المفقودة . . النغمة العارضة المائعة الفليتة . . اللحن الضائع والفرد المنسي . . المسلم شخصية وأي شخصية ! قيل هذا وقيل . . يعيش لنفسه وليومه كأنه يصيح في الفضاء : بيّ وعليّ . . لذا قالوا نسيج وحده . الفرد المسلم إنسان كامل ينحت الريح . . هنا وهناك . . وراء البحار وراء الكواكب ويقول ما قال موسى وهو واقف على هذا الشاطىء اشهد يا ربّ اشهد . . وقفل عائداً . . تعبير المتعلّمين المتكلّمين . . تعبير العامة . . ابنِ وعلٍّ سِرْ وخلٍّ . . ابنِ وعلٍّ سرْ وخلٍّ . . ابنِ وعلٍّ سرْ وخلٍّ . .

الأربعاء 19/9

همّ الواقع
الذي بدونه
يُسحَق المرء
بلا كلام

مونترلان

(61)

ـ بوشتا العفريت اشعل الضوء .

ـ ووقّف العيطة . كيف نخمّم في هذا الهرج . نادي هذا أو قهوة ؟ والله فكرة سي براهيم خارفة .

ـ ما تنسى . هو متعوّد يسمع حسب قواعد الفن . ما عرف انه يعطي الفول لرجل بلا اسنان .

ـ كلام زايد ناقص . ألعب أو خلّيها حتى الغد تفكّر فيها أنت والعايلة .

ـ يا أخي مقلّق اليوم . ضربتك الشمس . اخرج تستنشق الهواء .

ـ وقعت في المصيدة . لعبة الشداد .

ـ تفرعن علي . ولكن . . ولكن . . من خاصمني خاصمته من شادّني قهرته . استغفر الله ولا تتكبّر . خذها من عندي . ها هي ! نصف ساعة وما تلقى كيف تفلت .

قام محمد ـ كامل تاركاً مائدة اللعب في حين عاد الحسين إلى الجلوس معبّساً وجهه .

إستفسر المعلّم بنمسعود :

ـ كيف خرج الطرح ؟

ـ ها المعاودة .

ـ لا باس . . لا باس بديت تفهم .

حدّق طويلاً في الرقعة ثم بدأ يخطب:

ـ لعبة ملوكية . هذا ما كان يقول لي دائماً خليفة الباشا رحمه الله وأسكنه فسيح جنّاته . ما هي من الألعاب المحرّمة . ما هي من رجس الشيطان .

تحرّرك من السعد والبخت والطالع والزهر والشارة والمكتوب والسويرتي . . ينجّيك الله من قبضة الزنادقة أصحاب الخط الزناتي . .

قاطعه محمد ـ علي :

ـ لكن يا معلم هي مضيعة للوقت . النحس فاين ماشي ؟

ردّ محمد ـ كامل بعنف :

ـ أنت لا دنيا لا دين ، لا لاعب لا قانت . وقتك ضايع أو لا ؟

إستطرد المعلم :

ـ لعبة الملوك . في القصور والبساتين . إما هذه اللعبة وإما الراح وخدود المِلاح

تدخّل شعيب :

ـ ما لنا والأمراء . جينا بالمعلّم لتهدية الخواطر .

قهقه محمد ـ كامل :

ـ حتى الآن ما نجحنا .

ـ في بلد الغوّاتة أصحاب الهرج والمرج لا بد من وقت والله على كل شيء قدير .

ـ أ المعلم إحكِ لهم ما جآ في كتاب كليلة ودمنة . ذكّر لعلّ الذكرى تنفع المؤمنين .

عقّب محمد ـ حسن :

ـ مع تعديلات للتشويق .

قصفت من داخل القاعة صيحة كالرعد :

ـ آتني يا عدو الله . لقيت لك الجواب .

قفز محمد ـ كامل ليرى ما فعل الله بجيشه . جلس شعيب قبالة بنمسعود قائلاً :

ـ هذي بداية .

ـ تعرف كم قضيت مع الخليفة قبل أن أتعلم ؟ عامين كاملين . أول الأمر كنت أجي عنده آخذ منه القسمة والفرائض . كل يوم كنا نتدرّب على تحرير تركة من أولها إلى آخرها . كانت الربيعة وفوقها الفرسان والبيادق وانا

متعامي عليها . في يوم من الأيام بارد ممطر قال لي الخليفة : تعرف فائدة هذه الخشبة ؟ للتحلّل من خبائث البطالة والتوكل . تجلس وتقول : الله قائم بأمره . مسيّر لما خلق له . لا بد ان تكون من وحي ربّاني لأنها ترفع عن الإنسان كيد الشيطان اللّعين . فيها خطر لكنّه بعيد . منها تتعلم أن الدنيا مسيّرة بقانون الكون بقانون الدولة بقانون الإنسان بقانون . متى عرفت القانون طرحت عليك توكّل الجّهال . كيف ذلك ؟ أسمع وأفهم . لما تكون تلعب أنت تتحرّك وخصمك يتحرّك . تعرف ما تعمل وهو يعرف ما يعمل . تفكّر مرات ومرات قبل أن تحوّل البيذق من محله . لكن بعدما تتحرّك تتوقّف وتنتظر حركة الخصم . أنت حرّ قبل ما تلعب . بعدما تلعب أصبحت تحت رحمة الخصم . انت بحركاتك أقفلت عليه عدّة أبواب وهو بدوره سدّ عليك منافذ كثيرة . لكن في البداية لا أنت ولا هو قادر على سدّ كل المنافذ ، محو كل الممكنات ، لأن الله وحده هو الملمّ بكل شيء . تبقى أمامك وأمامه إمكانيات كثيرة . . تتناقص كلّما اقتربت المقابلة من نهايتها . في بداية المقابلة كل شيء ممكن لك وله فلا محلّ للقدر ولا موجب للتوكّل . في ختام المقابلة محيت كل المسالك . قضي الأمر فلا هو يستقدم ولا أنت تستأخر فلم يعد محل للمبادرة والتحرّك . وهنا الخطر على غير العارفين . لكن أثناء المقابلة حركة كل لاعب حرّة ومقيّدة في نفس الوقت وحقّ الكلام عن تشابك ومزج المبادرة بالتوكّل . الخطر لما يتحدّد في النهاية الغالب والمغلوب . يعتقد الغالب لحظة الانتصار أنه حرّ طليق قادر على أن يحلّق في السماء ويغوص في أعماق البحر ويظن المغلوب أنه مكبّل غير قادر على أن يحرّك ساكناً . إذا تكرّرت نفس النتيجة تركّز التفاؤل في نفس الغالب والتشاؤم في نفس المغلوب . لذلك وجب مقابلة الندّ بالندّ . هذه لعبة الملوك . أما إذا تقابل المالك والمملوك ، الرفيع والخسيس ، فالخطر كبير على الإثنين . يعلو الأول ويتكبّر . يسفل الثاني ويتحقّر . نعوذ بالله من شرّ أنفسنا . من قال إنها لعبة الزنادقة هرف وما عرف بل حرّف الكلم عن مواضعه . وعلى كل حال محاسنها أكثر من مساويها . الحقيقة هي أنها في الظاهر لعبة وفي الباطن حكمة . تتعلّم يا ولدي ؟ قلت : على بركة الله . ومن ذلك اليوم وأنا أحمد

الله وأشكره إذ قادني عند الخليفة بنموسى .

ـ نتمنّى ان يتعلّم هولاء الشبان التحكّم في أجسامهم . البطالة أمّ الخبائث . لذلك كتبنا هذه الآية الكريمة على طول الحائط .

ـ بها قطعت ألسنة المنافقين .

إبتسم شعيب إبتسامة عريضة وظهر بريق في عينيه .

ـ الحمد لله والشكر له . وافق الجميع .

ـ يعني ؟

ـ المجلس البلدي عرض علينا الاندماج مع الفرقة الأخرى .

ـ بشارة !

ـ خبّرني عضو من المجلس . موسى حضر الإجتماع وأنا في إنتظاره ليؤكّد الخبر .

ـ خلّيها مفاجأة سارّة بعد ما يتفرج الشبّان على المقابلة .

ـ والوقت مناسب مع حضور هذا العدد من أولاد البلد . إنطلاقة طيبة للجمعية والنادي .

إقترب محمد الرضي من شعيب :

ـ أسمع هذا الكلام يا فقيه . . يقول المؤلف إن سكان المدينة في العهود الغابرة يأكلون الكلاب بل كانوا يربّونها كالغنم . وأتى بأقوال كثيرة تؤكّد ذلك . خذ اقرأ .

مدّ شعيب يده ليأخذ الكتاب في الوقت الذي طلع عليهم فيه موسى وعلى وجهه علامات الفرحة والإنشراح . بادره شعيب قائلاً :

ـ عمرك أكلت لحم الكلاب ؟ يقال إن أجدادنا كانوا يربون الكلاب كما نربّي النعاج .

ـ كان ذلك أيام الجاهلية .

ـ يا أخي يتكلم على ملوك مغراوة لما كانت المنطقة كلها أشجار تملؤها الحيوانات المفترسة .

تدخل محمد ـ كامل الذي كان قد غادر مائدة اللعب بعد ان فتح التلفاز :

ـ هذا طبيعي . يقال إن أصلنا البعيد من الصين وأبناء الصين يأكلون الكلاب والقرود حتى اليوم . أكلة ملوكية كلعبة المعلم بنمسعود !

عقب محمد ـ حسن :

ـ ثم ان الكلاب كانت ممنوعة داخل المدينة الى عهد قريب . كل من أدخلها أدّى غرامة . ربما كان البعض يذبحها خفية .

ـ على ما حال . إذا كنا نأكل الكلاب فهذا دليل اننا لسنا من جنسهم لأن الحيوان لا يأكل بعضه .

ـ باستثناء الإنسان .

ـ وفي الكتاب شيء آخر حول سبب طرد الفقيه عبد العظيم من المدينة . وصلت له يا سي شعيب أولا ؟

ـ تفضّل . إحك لنا القصّة .

ـ يقول إن الشيخ عبد العظيم شيخ الجماعة في زمانه كان يحكي عن سبب خروجه من مسقط رأسه انه غضب على قومه لأنهم كانوا يتمالؤون على أكل الرجس قال الشارح إنهم كانوا يربون الكلاب ويأكلونها وهي عادة قبيحة إشتهروا بها في أرض المغرب . فقام يوماً بعد صلاة العشاء خطيباً فذكر بالآيات الكريمة والأحاديث النبوية وأقوال مشاهر المشايخ ودعا الناس الى التوبة والتمسك بالسنة المحمدية . قال إن الكلب سمة الكفر مثله مثل الخنزير لا فرق بينهما . كان النبي يعاف الكلاب فكيف يحلّ للمؤمن ان يربّيها ويتقوّت منها مع وجود الأبقار السمينة والأغنام اللذيذة . فقامت القيامة ضده . قال الناس : أما كان أجدادنا مؤمنين مسلمين ؟ أما كان بين ظهرانهم فقهاء وعلماء ؟ من قال له قم وأنذر وهو الشاب الغرّ ؟ لكن الشيخ كان منذ صغره لا يخشى في الله لومة لائم . لم يلتفت إلى ما كان يقال حوله وواصل الدعوة . يصلّي العشاء في المسجد الكبير ويصعد إلى المنبر خاطباً في الناس يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . فلما أصرّ على ذلك وخاف القاضي من الفتنة بعث له من أسرّ إليه أن القوم يتآمرون على قتله وأن القاضي عاجز عن حمايته . كان القاضي المذكور من ضعاف الإيمان يريد ان

يستبق الأحداث لما كان يعلم من جهالة إخوانه وتشبّثهم بعوائدهم الذميمة . .

قاطعه شعيب :

ـ كلام طويل !

ـ أطول مما تظن . فيه أخذ وردّ بين خصوم وأنصار الشيخ عبد العظيم .

ـ أعطنا الخلاصة .

ـ الخلاصة ان البعض يقول إن المسألة حسمت بحدّ السيف أيام الموحدين والبعض الآخر يدّعي انها بقيت قائمة حتى عهد الشيخ الجزولي .

قال محمد ـ كامل :

ـ قضية مثيرة . من اليوم أبدأ أعدّ الكلاب . . واحداً واحداً .

إسترجع موسى وجهه الحزين وصاح :

ـ يا أخي أنت تفتّش على الصداع . يعني . . هذه الكتب الكثيرة وكلها في محاسن المدينة ما وجدت فيها إلا مسألة أكل الكلاب ؟

ـ وجدتها صدفة .

ـ وجهك صدفة . خلّينا من لغو الصبيان . وتكون هذي آخر مرة . يا الله ! قرّب وقت المقابلة . عندي كلام مع الفقيه .

(62)

ـ تقابلت مع ولد خالي .

ـ عارف .

ـ ما عارف .

ـ والله عارف . القيل والقال وكثرة المقال . المدينة صغيرة .

ـ وقبلتَ الشرط ؟

ـ أي شرط ؟

ـ أخبارك ناقصة . بلاغ من المكلّف بالعلاقات مع الناخبين . المجلس موافق على مطالب الجمعية ولكن بالمقابل لا بدّ من رسالة رسمية نعرض فيها مشاريعنا ونطلب الموافقة من الرئيس .

ـ من يكتب ؟

ـ عشرة على الأقل . من الأسماء المرموقة .

ـ من علية القوم وكبار الشخصيات . وما فعل الله بالفرقة القديمة .

ـ صارت خنشة تبن . نضرب فيها حتى نشبع . ونختار منها أحسن العناصر .

ـ سي موسى إسمعني وافهمني . ما تسأل ولد خالك لا على الأسباب ولا على الدوافع ، لا على المناقشات أو المفاوضات . ما عندنا غرض بما هي وما لونها . المهم انهم تركونا نشتغل . أحنا في حارة وهم في حارة وبيننا عهد جوار . فاهم ؟

ـ متفق تماماً . سمعت كلامي قُبيلا . القضية تبدا حبّة وتصبح قبّة .

تنهّد شعيب :

ـ وهكذا ضاعت أموال وزهقت أرواح !

(63)

سأل اسماعيل رفيقه المحجوب :

ـ من لاعب اليوم ؟

ـ الثور والثعلب ، الدكّاكة والنحلة . على الساعة السابعة .

ـ ومن الآن فتحوا آلة الصداع ؟

ـ الجو اليوم مكهرب .

ـ عندنا قوة زائدة . لازم ندخل في الجدّ والمعقول .

ـ اليوم يتمّ الإعلان . هكذا سمعت

ـ يا الله خلينا ندخل ونسمع . .

كان المذيع يخطب :

ـ بمناسبة الاستعداد لمهرجان الحوض الأبيض المتوسط . قد يطول الكلام على طنجة ودورها في تاريخ المغرب والأندلس . منذ دخول الاسلام الى زيارة الملك الهمام محرر البلاد جلالة محمد الخامس تغمّده الله برحمته . طنجة التي حرّرها المولى اسماعيل من يد الانجليز واستردّها المغرب بعد نصف قرن من الإدارة الدولية حيث اشتهرت كعاصمة للتهريب والجاسوسية .

لكن ذاك عهد ولّى . اليوم طنجة مدينة مغربية مثل المدن المغربية الأخرى . اندمجت في باقي البلاد اقتصادياً سياسياً إدارياً . مع كل هذا إحتفظت عروسة البوغاز بالطابع الدولي الذي اكتسبته من طول وجود الأجانب فيها إذ كانت طول القرن التاسع عشر العاصمة الديبلوماسية للمملكة . فيها عوائد لا توجد في المدن الأخرى ، عوائد يمكن ان نسمّيها متوسّطية تشاركها فيها موانىء غرب حوض المتوسط . والحكومة المركزية لا تريد ، كما عبّر عن ذلك بوضوح ممثل وزارة السياحة ، ان تطمس تلك المميّزات . بل تحاول جهدها ان تحافظ عليها وتنمّيها وتوظّفها لما فيه خير ومصلحة المدينة وسكانها ، شريطة ان لا ينقص ذلك شيئاً من طابعها المغربي العربي الإسلامي . وفي إطار هذه السياسة الرشيدة قرّرت وزارة السياحة تنظيم أوّل مهرجان لسينما البحر الأبيض المتوسط آملة ان يصبح سنوياً مثل مهرجان كان ومهرجان البندقية الشهيرين . وسيتميّز بكونه مخصّصاً لمخرجي بلدان الحوض المتوسط وللأشرطة التي تدور موضوعاتها حول حياة الشعوب المتوسطية . المدينة الآن تتهيأ لإستقبال الضيوف . تكوّنت لجنة مختلطة تمثّل المجلس البلدي ووزارة الإعلام والسياحة . رئيس هذه اللجنة حاضر معنا اليوم وبجانبه مدير أكبر قاعة لعرض الأفلام وكذلك ممثل عن جمعية أرباب المطاعم والمقاهي . .

قاطعه محمد ـ رضى بقوة :

ـ قلت كل شيء . ما بقي لهم كلام .

قال إسماعيل غاضباً :

ـ أسكت . خلينا نسمع يا مربّي الكلاب .

ـ يا أخي هذا طرق الطريق وحدّ الحدود . كل واحد يمشي على قدر الحال . اخرج سرّح رجليك وارجع تلقهم ما زالوا في البداية .

ـ انا يعجبني الكلام المعاود . بالأخص من فم امرأة . حقّق فيها وقل لي . حلوة أو لا ؟

ـ خزيت . . يعجبك اللحم والشحم .

تطوّع الحسين برأيه :

ـ عليها الملح . تقول من بنات البلد .

استمرّ محمد ـ الرضى في عناده :

ـ بحال من ؟

ـ سعيدة ، مسعودة ، فاطنة ، خيرية

ـ وفريحة .

ـ أسكت ، يا لطيف ، حشرك الله مع المنافقين . سمعت بي أحبّ الإبزار ؟

قام المحجوب غاضباً :

ـ خاصّك موسى يوبخك مرة ثانية .

ـ هيه . . من مدرسة لمدرسة ، من جامع لجامع . يعني ما نضحك ما نتبسّم .

دخل موسى :

ـ صداع آخر يا لطيف . .

رفع عينيه نحو التلفاز فصاح :

ـ شعيب ، شعيب هذي بنت القاضي تتكلّم .

(64)

ـ نعم إسم المطعم المنزه . . اكثر الزبناء من الكتّاب والصحفيين والفنّانين . هذه الأيام كلامهم كله حول المشروع . لكن اللجنة أهملتهم تماماً . . كل واحد منهم قادر يكتب في جرائد الدنيا ويكون أكبر دعاية للمهرجان. إذاً لا بد يتوصل كل واحد منهم باستدعاء رسمي .

ـ صحيح .

ـ قضية مهمة أخرى . هؤلاء الناس لهم ذهنية خاصة . ما هم مثل السواح . اختاروا طنجة لأسباب . البعض جاء لأنه يشعر بالحرية المطلقة . يفعل أشياء ممنوعة في بلده الأصلي . البعض الاخر جاء لأن مستوى المعيشة مناسب ، قسم ثالث لأنه يحسّ هنا بالراحة والهناء . قسم رابع لأنه يحبّ أهل البلد . جاؤ وا لطنجة كما هي . إذا تغيّرت وعادت مثل مدن شواطي المتوسط الأخرى هجروها . .

ـ والشكوى من كون المدينة نائمة لا حركة فيها ؟

ـ حتى هي صحيحة .

ـ إذن موقفهم متناقض ! على أي حال نحن نبلّغ وعلى المسؤولين اختيار الحلول الناجعة .

ـ المنافسة شديدة في هذا الميدان . . لبنان ، مالطة ، تونس :

ـ نعم . نعم . السيدة رحيمة طنجوية ؟

ـ لا .

ـ لماذا اخترت طنجة ؟

ـ يعني ما يسكن طنجة إلا الطنجوي الحقيقي ؟ إذاً صفّر فيها الريح .

ـ لا . ليس هـذا قصدي . غلطت في تـرتيب الأسئلة . مـا هي الأمـور التي استهوتك فيها ؟ المميّزات التي تتفوّق بها عـلى أصيلة مثلاً أو الصـويرة أو أكدير ؟

ـ الآن فهمت . أصـدقـائي من الكتـاب والفنـانـين كـانـوا أصحـاب الاختيـار . اشتغلت مدّة في دار نشـر فرنسيـة . كنت ألتقي بهم كثيـراً . ثم مرّت الأيام جاء لهنا الأول ، تبعه الثاني والثالث والرابع حتى تكوّنت جالية في وقت خلت طنجة من المقامرين . .

ـ كلهم أجانب ؟

ـ نعم . لكن أتمنى ان يلحق بهم قريباً شاب مغربي له مستقبل .

ـ من هو ؟

ـ للأسف غير معروف إلى حدّ الآن . لقيته بالصـدفة في البيضـاء . هو مدرس في ناحية بني ملال .

ـ تـطرح من جـديـد مسـألـة التنقيب عن المـواهب والبراعـم وضـرورة التشجيع . .

ـ هـذه مسألـة تضاربت فيهـا الآراء . خلّينا نتمّم الكـلام مـع السيـدة رحيمة .

قال زايد :

ـ يا أخي مدخنة . شفتها أو لا ؟ ما توقّفت .

ـ باه . . طنجة الكارو فيها مرمي في كل قنت !

ـ السيدة رحيمة هذه مناسبة نعرّف بهذا الشاب النابغة المدفون في جبال الأطلس . من هو ؟

ـ يكتب تحت اسم علي نور .

قال شعيب لموسى :

ـ هذا الكرافس . أنا قدّمته لها في حفلة مدرسة الهمذاني ، عاقل ؟

ـ قال لي انه كتب مئات القصص تصوّر حياة سكّان البيضاء . .

ـ يعني قصص واقعية ملتزمة .

ـ بصراحة أنا ما عندي غاية في هذه الأسماء . المهم انه توقّف الآن وتخلّى عن النشر . قال : أجتاز أزمة إبداع وتعبير ، غير قادر على الكتابة ببراءة وتلقائية . هذه عبارته . قلت له : جي لطنجة تلق فيها من يفهمك ويناقشك .

ـ هذا موضوع استجواب ثاني . ابتعدنا عن طنجة ومهرجان البحر الأبيض المتوسط .

ـ (حنفي) شف . عين نكير ومنكر !

ـ (جعفر) أخذت له الكسرة من فمه . هذي ساعة وهو يلهث .

ـ (حنفي) اللي فاتك بليلة فاتك بحيلة .

ـ لا . احنا في صميم الموضوع . سمعت بمائدة مستديرة على هامش المهرجان .

ـ نعم . حول الواقعية والإبداع .

ـ هذا كلام علي نور. حضوره ضروري يسمع صوت الفنّان المغربي .

ـ قصدك أحد الأصوات .

ـ (حنفي) آه ولد الزنى ما يخلي ضربة تفلت .

ـ صوت واجد للمشاركة .

ـ (حنفي) المأكل غلب المسكن .

ـ (المحجوب) عجبتك للاّ السمينة .

(حنفي) انا دائماً مع أولاد البلد . بالحق قطعت له اللسان . بغى يتحايل عليها .

(الحسين) إلهام الولي الصالح .

ـ (شعيب لموسى) هـذهِ حسنـة من حسنـات الحفـلة : التعـارف والتعاضد. لأول مرة استمعت لاستجواب يمشي على غير الخط المرسوم .

نهض موسى . خفّف من صوت التلفاز ثم قال :

ـ إسمعوا يا أولاد . هذا درس ما هو مجرد فـراجة . لا بـد التركيـز على فريق والأحسن على لاعب واحد . كل برقمه . حسين يتابـع رقم 3 ، جعفر رقم 16 ، اسماعيل رقم 9 وهكذا . نقترح ان تتـابعوا لعب الـطليان . علي وأنـا نتابـع الألمان . شعيب يسجّـل الوقـائـع . يـا الله بنـا . . وبـلا تعـاليق هامشية . يالك يا سي محمد ـ كامل ؟

وأعاد الصوت إلى مستواه العادي .

(65)

الألمان يهدئـون اللعب بالتـراجع وتسليم الكـرة إلى الحارس . الحكم لا يتدخل . يتقدم 10 ط بسرعة يمرّر الى الوسط . كرة ضائعة . 11 ط يوجد في موقع ممتاز . يسدّد لكن جانب المرمى . ضربة حرّة لفائدة ايطاليـا . ينفذهـا 16 بدون توفيق . يطلع 5 ط من خط الدفاع . يراوغ ويحـافظ على الكـرة ثم يقذف لكن فوق المرمى . لمدرب الألماني يدخن والقلق باد على وجهه . زاوية أولى لصالح ايطاليا . ينفذها 9 بلا نتيجة . زاويـة ثانيـة 7 ط على يمـين نقطة الجـزاء . يتـرك الكـرة تنفلت منـه . ينـطلق هجـوم ايـطالي منسّق من وسط الملعب . يتقدم بالكرة 9 ويمرّرها الى 6 الذي يتراجع الى اليسـار ويسلّمها الى 3 . تعود الكرة الى رجل 9 . يسدّد . قذفة ضعيفة تخرج عـلى يمين المـرمى . الحـارس الايطالي يـرتكب غلطة لا تصدق . ينـزع منه الكـرة بخفـة 10 م . يهاجمه 4 ط ويسـطه . ضربة جزاء لألمانيا لا نزاع فيها . تنفذ بدون نتيجـة . فرصة ذهبية أضاعها الألمان . تمريرة جيدة من 10 م الى قلب الهجوم الألماني . لكن الحارس الايطالي يندفع بمهارة ويتسلم الكرة بـاقتدار ويكفـر على خـطئه السابق . زاوية ثالثة لفائدة ايـطاليا يحققهـا 11 . رأسية من 10 لكنهـا ضعيفة ويتسلمها الحارس بسهولة . هجـوم غير مشـروع على 11 ط . يحـذر الحكم

بصرامة مرتكب الخطأ وهو 10 م . الكرة تفوت 7 ط ويستولي عليها 9 م . ويقذف بقوة نادرة . يوقفها الحارس الايطالي بصعوبة . تنفلت منه فيتهاوى عليها . مبادرة شجاعة كانت قد تؤدي إلى عطب اللاعب الايطالي . ينطلق 16 ط بعد ان تلقّى تمريرة من 9 . يقذف من موقع جانبي بدون تسديد . 9 ط يمرر من جديد تمريرة ممتازة . يتعرض لها ، برأسية قوية . يبعدها الحارس الألماني بصعوبة . زاوية رابعة لصالح الطليان . الكرة من 4 ط الى 6 . رأسية أخرى في يد الحارس . 9 ط هو عميد الفريق الإيطالي . يجوب الملعب وينزع الكرة من أرجل الألمان . لكن الحظ غير مساعد . يعطيها الى 7 منفرداً يتسرع ويسبق الكرة . تمس رجل مدافع ألماني وتخرج . زاوية ايطالية خامسة . ينفذها 7 بلا نتيجة . 10 م يراوغ ويتحرر من خصمه 4 ط . ينحاز الى اليسار ثم يقذف . يوقف الحارس الايطالي القذيفة بصعوبة كبيرة يتصارع 7 م مع 4 ط . ينزع منه الكرة بعد مراوغات يصفّق لها المشاهدون الطليان ثم يتقدم وسط الملعب . يمرّر بسرعة الى 10 غير بعيد عن مربع الجزاء . يتجانب ويقذف قذيفة مباغتة ويسجل رغم وجود مدافعين ايطاليين أمام الحارس . أخذوا على غرة . أين الخفة الايطالية ؟ هدف ممتاز في الدقيقة السادسة بعد الثلاثين . . غلطة لا تصدق من 5 ط الذي يهدي الكرة لخصمه 10 م . يتمكن الحارس الايطالي من إبعاد الكرة في آخر لحظة . 11 ط يتفرد بالكرة ويمرر الى الوسط . يتحرر 8 م من حراسة 5 ط ويتقدم وسط الميدان . يخرج الحارس الايطالي . يسدّد 7 م وتتصادم الكرة برجل أحد المدافعين الطليان . نهاية الشوط متعبة جداً للفريق الايطالي . أرغم الألمان خصومهم على تهدئة اللعب وهذه وتيرة لا توافق الطليان . لذلك كثرت أخطاؤهم . كان من الممكن ان يتفوق الفريق الألماني لو أظهر عزيمة أكبر . سيحاول الطليان إستعادة المبادرة بعد الاستراحة وإذا نجحوا ستتغيّر بدون شك صورة اللعب . المقابلة تربح في الربع الأخير .

يبدأ الطليان بهجوم قوي ومركّز على جانب اليسار . يتقدم 7 برفقة 3 . تعود الكرة الى 7 ط الذي يتفرّد بالحارس . يتسرّع . يقترب منه 6 م بكل سرعة وينقذ الموقف بضربة من الخلف . زاوية خامسة لصالح ايطاليا .

يحققهـا 10 . قذفـة ممتازة . يتسلّمهـا 12 ط الـذي طلع مثـل البـرق من خط الدفاع . يقلب الكرة بدون تـوقيف ويسجل ببـراعة . الـرعد يقصف ويهـتزّ الملعب بعد انتظار هذا الهدف منذ البداية . . يطلع 3 م مقدّماً بين يديـه 6 . يهـاجمه 5 ط ويحشّـه حشاً والحكم يتعـامى. تبديـل في صف الفـريق الايـطالي ويدخل بدله 14 ليكون على ما يبدو رأس حربة الفـريق . 6 ط يقذف في يـد الحارس الألماني . تهاون واضح في صفـوف الطليـان . لا مبرّر لـه . يأس ام استسلام للقدر ؟ يحرزون على ضـربة زاويـة سادسـة . يسددهـا 9 . يقفز 6 وبرأسية عالية يسجـلّ . هدف غـير منتظر يعيـد للطليان الحيـوية . تشجيـع صاخب من المشاهدين تتردد الكرة بين 9 ط و 6 . يقذف هذا الأخير باليسرى عوض ان يمرّر الى 7 الذي كان في موقع أحسن . فرصة ضائعة . مرة أخرى طلوع منسّق بـين لاعبي الـوسط 9 و 6 في اتجـاه 14 الـذي دخـل منـذ عشـر دقـائق . لكن 6 يتراجـع وتضيع منـه الكرة . 4 ط يمـرّر تمريـرة جيـدة تنتهي بزاوية سابعة . تغيير في صفوف الألمان . أية فـائـدة ؟ الـلاعب الخارج رقم 5 لم يسـاعده الحظ طـول المقابلة . 11 م يتسـرّب بين عنـاصر الـدفاع الايـطالي ويقذف بقوة . يوقفها الحارس الايطالي بأعجوبة . أول ضربة زاوية ألمـانية . الحكم يحـذر 14 م الذي استفـزّ الحـارس . لم يتعب بعـد عكس الآخـرين . ضربة حرّة لصالح الألمان قريبة من مرمى الطليـان . 9 م يدفـع بهدوء الكـرة الى رفيقه 6 الذي يقذف وتضيع فرصة ذهبية . تمرّ الكرة على بعد سنتم واحد من القـائمة اليمنى . لا أدري كيف يكون قـد مّسها لاعب ايـطالي . زاويـة ألمـانية ثـانية . ألمـانيا تستيقظ . يمـرر 3 الى 4 في وسط الميدان . زاويـة ثالثـة لألمانيا . الفريق كله تقريباً في معترك ايـطاليا . الهـدف يطبـخ خطأ الحـارس الايـطالي . تفوتـه الكرة . يقتنصهـا 10 م ويقـذف قـذفـة منحـرفـة نسبيـاً . هدف . . لا . . تردّها العارضة . المدافـع الألماني 3 يحصـد حصداً . ضـربة جزاء لفائدة ألمانيا . لا نـزاع فيهـا رغم الصخب في الملعب وبين المتفـرجين . تعادل . . لا . قذفـة ضعيفة . . لا تصـدق من لاعب ألماني . دقيقـة واحدة قبل نهاية الوقت القانوني . حملة ايطالية يقودها رقم 9 . . بدون طائل . .

(66)

قام شعيب الى الصبّورة وراح يخطط أرقاماً واشارات . فيما قال موسى :

ـ مستوى عادي . لا ميزة ، لا براعة ، لأن المقابلة بالنسبة لألمانيا غير مهمة . لذلك ركزنا على ايطاليا لأنها كانت تلعب في دارها وأمام جمهورها . رغم هذا فوز الطليان غير مقنع ، أتى من انعدام حماس الخصوم أكثر مما جاء من استماتة الطليان أنفسهم . لم يظهر هؤلاء خفتهم المعهودة . اضطرّوا أكثر من مرة الى مسايرة الألمان . خلّوا عليكم تخطيطات شعيب وقولوا لي تعبئة كل فريق . (صمت) زايد الرقم 5 اليوم خيبت الأمل وما قمت بالواجب . . يا الله تكلم .

نقنق محمد الرضى :

ـ عمره ما كانت فيه فائدة . . دائماً زايد ناقص .

صوّب زايد نظرة قاتلة الى منتقده ثم أجاب ملتفتاً إلى موسى :

ـ التعبئة غير واضحة على الشاشة .

ـ صح . . لكن نستنتجها من انتشار اللاعبين أثناء العمليات . شعيب ، قبل ان ندخل في التفاصيل، فسّر هذه الألغاز على الصبورة .

ـ كانت ايطاليا بلا اجنحة . كانت متمركزة في الوسط محاولة الاختراق أو محاينة الفرص . من هنا التراجع السريع للتمويه واستدراج الخصم . . مكر الطليان معروف خاصة مع الألمان . هذه المرة الخطّة لم تنجح لأن الألمان أخمدوا حماس الطليان . اما الألمان فمالوا باستمرار الى التناثر قصد التجانب والالتفاف . كثيراً ما حاولوا تجاوز اللاعب رقم 6 . مما يشير إلى أن خصومهم كانوا في الغالب متمركزين في الوسط .

ـ يعني انهم تخلّوا عن خطة 4 - 4 - 2 .

ـ تكلّمنا مراراً على هذه التعبئة وقلنا إنها لا تعطي نتائج إلا بتحقيق تعاوض اللعّابة بمعنى أن كل لاعب قادر أن يقوم بدوره في موقع المدافع أو المنسّق أو المهاجم . إما اذا كان لاعب يتفرّد بميزة ولا يلعب جيداً إلا في موقع واحد فالأحسن التخلي عن خطة 4 - 4 - 2 لأنها تقضي على نشوة اللعب

بجعله رتيباً روتينياً مملاً . وعموماً الطليان لا يتقيّدون بخطة واحدة عكس فرق شمال أوروبا .

تدخّل موسى :

ـ نفرض ان التعبئة كانت على شكل 4-3-3 مع إمكانية تسريح أحد المهاجمين . بعد الهدف الألماني وقع تغيير الخطة . ركز الطليان على الوسط (9.5.3) في محاولة اختراق باسراع مباغت لوتيرة اللعب وبدأ اللاعب رقم 11 يتهيأ لاقتناص الفرصة بالتمركز في موقع ملائم .

ـ بالفعل كان يصول ويجول في البداية حتى نقصته العدة فاخرج من الميدان .

ـ كان الخلل من تهاون الرقم 5 في خطّ الوسط . ارتكب أخطاء وكان على مدير الكرة الايطالي أن يبدله بعد نصف ساعة . خطّة الاختراق تستلزم عناصر قوية في الجناحين لحماية مساحة أكبر من الميدان . إذا اختلّت أحوال الجناحين فسدت الخطّة . يميل اللعب بالضرورة الى الجهة الضعيفة وبذلك تزيد ضعفاً على ضعف بسبب الضغط والعياء . نأخذ مثلاً محاولة ألمانية لتجاوز خط الوسط الايطالي من جهة اليسار ، يعني تجاوز اللاعبين 12 و 5 . يتحتّم إذن على اللاعب 3 أن يتراجع بسرعة لحماية المربّع فتبرز أهمية دور اللاعب ، إذا تهاون أو فاتته الكرة لسبب من الأسباب حصل الاختراق على يسار المدافع رقم 3 قبل أن يتمكن 12 أن يتراجع في الوقت المناسب . وهذا ما حصل مرّتين .

قال حسين :

ـ الهدف الألماني جاء نتيجة هجمة مضادة بعد نصف ساعة من سيطرة ايطالية تامة .

ـ قد تكون السيطرة في الحقيقة أقل وضوحاً مما ظهر على الشاشة . لكن على كل حال نلمس هنا خطر الاندفاع . دور عميد الفريق هو التنبّه باستمرار الى خطورة الموقف المترتّب على تتابع الهجومات العقيمة . لأن حماس المهاجمين يزداد بقدر ما تتحطم محاولاتهم على جدار دفاع الخصوم . فيرتكبون خطأ يعود عليهم بالخسران . وهذا يحصل عادة عندما تلعب الفرقة

أمام جمهورها لأنها تكون تحت تـأثير ضغط نفسـاني كبير . لا أدري من كـان العميد الايطالي لكنـه ترك الحبـل على الغـارب للآعبـين . . عندي مـلاحظة أخرى . بعد ربع ساعة من اللعبشعرتبتغيـير في ايقاع اللعب . قـد يكون نتيجة التعب وقد يكون بمثابة إشارة بـإبدال خـطة بخطة . . كـما يفعل رئيس الجـوقة عنـدما يـريد تغيـير الايقاع فـإنه يـرفع قضيبـه بكيفية معلومـة . هذه مسؤ ولية العميد . سي موسي موافق ؟

ـ تماماً .

ـ لكن القدرة على التحوّل من لعبة الى لعبة أخرى ليست بيد العميد إذا لم تتوفّر اللياقة البـدنية . بهـا يكون الـلاعب حرّاً في حـركاتـه وسكناتـه . . يتحكّم في الكـرة عنـد تلقّيهـا ، يـراوغ الخصم ، يسـرع أو يبـطىء حسب الارادة لا حسب أحـوال عضلاتـه . يستقل بـالكرة لمـدة محـدودة ، عليـه ان يستعملها بكيفية يشير بها لـزملائـه الى ما ينتـظره منهم . وهذا غـير ممكن إذا كان تحت رحمة جسمه .

لاحظ جعفر :

ـ تمريرات الألمـان كانت بـين أثنين والى الامـام ، تمريـرات الطليـان بين ثلاثة ولولبية . . أمام ، وراء ، أمام . هذي ميزة لازمة لكل فـريق او جاءت صدفة في هذه المقابلة ؟ .

ـ التمريرات مرتبطة بالخطّة . الألمان يهجمون صفـوفاً متـراصة . إذن لا بد من مماثلة وتجانس بين عناصر الفريق من حيث التقنية واللياقة البدنية . إذا تفوّقوا تفوّقوا كلهم وإذا ضعفوا كاليوم ضعفوا في وقت واحد . الخطة العادية عند الطليان هي التسلّل . لا بد ان تتغاير الخطط وإلاّ تجمّد اللعب وانحصر في تمريرات عرضية بدون تقدّم أو تمريرات قصيـرة من لاعب إلى لاعب وسط الميدان .

ـ من هنـا تشابـك اللعابـة عندنـا حتى يتخيّل المشـاهد ان عـددهم فوق العدد القانوني .

ـ تعارض الخطط ضرورة تفرضها طبيعة اللعب . لا يمكن ان يكون كل فـريق في موقـع الهجوم في نفس الـوقت . في الدقـائق الأولى من كل مقـابلة

تظهر خطة كل فريق . لمدة معينة يتفوّق فريق على الآخر ويفرض خطته حتى يتمكن الثاني من إرباك خصمه وإفساد خطته عليه . فيسيطر بدوره على الميدان لمدة معينة . لكن هناك ميل طبيعي لكل مدرسة وطنية الى تفضيل خطة على أخرى إذا سمحت الظروف بذلك ، أي إذا كانت في موقع يترك لها الخيار . المدرسة الألمانية تفضل الهجوم المكثّف والإيطالية التسلّل واقتناص الكرة . لهذا تلجأ الى التمريرات اللولبية لزعزعة صفوف الخصم . التمريرة اللولبية تبرز مؤهلات كل لاعب وتسمح بطمس الأوراق وإعادة الانتشار . لكن رغم كل هذا تذكّروا نقطة أساسية : كل مباراة لها خصوصيتها . تجري في ظروف خاصة وتفرض تعبئة خاصة. كل فريق يميل بطبعه إلى الرجوع الى الأصل ، اي الى التعبئة التي توافقه والتي تعوّد هو عليها . إذا لم يتأقلم مع الظروف المستجدّة فإنه لا محالة مغلوب .

صمت .

أخذ الكلمة شعيب :

ـ طيب . نستأنف الكلام حول هذا الموضوع في مناسبة أخرى . تأخّرنا اليوم أكثر من العادة . قبل ان ينفضّ الجمع أعطى الكلمة لموسى . عنده خبر سارّ . . على الأقل في نظر البعض .

قام موسى :

ـ أخيراً تمّ الاتفاق مع المجلس البلدي . قبل احتضان فرقة واحدة . نقوم نحن بتكوينها ونختار من بين لعّابة الفرقة القديمة أجود العناصر . وبما ان جلّ أعضاء جمعية المساندة حضروا للصديقية قررنا تنظيم مقابلات تدريبية مكثّفة لمدة أسبوعين . الأولى بعد غد يتبعها حفل وبالمناسبة نعلن الاتفاق . مرتاحين ؟

جاء الردّ مشوباً بشيء من البرودة :

ـ ايواه مرتاحين .

ـ اذن ليلة سعيدة .

(67)

شاهد سرحان المقابلة وسجّل ملاحظات متناثرة وهو يستمع إلى أنغام

هندية :

مستقبلنا طلياني ام ألماني ؟

نظر الى الحياة بجدّ وشعور عميق بالمأساة ام بسخرية واستهزاء بما يجري في الدنيا ؟

الحياة حرب لا هوادة فيها ام مهزلة ذات فصول ؟

نحاكم الآلهة أم نلاطفهم ؟

العالم القديم ايطالي . . والعالم الجديد جرماني .

الجرمان أجلاف والأجلاف أصحاب جدّ وصرامة .

الطليان متحضّرون والمتحضّرون أصحاب سخرية وخفّة روح .

الموسيقى ألمانية والطرب ايطالي

الموسيقى تألق والطرب تأنق

الرياضة الألمانية جهد وجهاد والرياضة الايطالية لهو واستلذاذ .

نحن العرب

لم نكن أبداً أجلافاً حتى في جاهليتنا . شاركنا في الحضارة القديمة بالنيابة حتى قبل أن نساهم فيها بالأصالة . طال بنا الزمن وعفّت عن أرضنا آثار الفواجع .

نفهم الآي حسب هوانا

نقول دنيانا لعب ولهو

ونقول لا خوف علينا

نحن هنا باقون ما بقيت الأرض ثابتة

طليان أكثر من الطليان !

الخميس 20/17

XI

سئل بعض الصوفية عن حقيقة الوصول فقال ذهاب العقول

الطوسي

(68)

قال عمر لأغرام :

ـ قلت لي إنــك جمعت كــل الكتب وهي الآن في النــادي غــير كتــاب واحد .

ـ نعم . غير كتاب واحـد . كلّفت به البـاشدور . هـو اللي يقـدر ينقّب عليه . كما خرجت لنا انت كتاب المدير درايني . جزاك الله .

ـ ما قلت لي بالتفصيل كيف توصّلت به .

ـ النهار هو النهار . خرجت من عندك قاصـد المكتبة . لمـا وصلت كانت الساعة الحادية عشرة ونصف . وجدت الناس وقفوا العمل . انتظرت الى مـا بعد الظهر . لما رجعت الساعة الرابعة فتحوا لي الغرفـة الخصوصيـة وصوروا لي كل ما طلبت . بعـد أسبوع رجعت وتسلّمت الصـور . لا بد تمـرّ وتتفرج على متحفنا الصغير .

ـ المرة الجايّة ان شاء الله . هذي المرة عندي رخصة ثلاثة ايام .

ـ مفهوم . العمل هو العمل . . ايـواه رأيك في الفـرقة ؟ تغيـرت الأمور ياك ؟

ـ ولكن الملعب ما هو في المستوى .

ـ كل شي يجي في وقته يا سي عمر . يتشجّع المجلس وتنزل الإعانة من فوق . قبل ما كانت رياضة بالحق ، لمن الملعب ؟

ـ تبارك الله عماليق ! تقول ما هم من أولاد البلد ؟

ـ النظام يا سيدي ومولاي ، النظام . قالها تشرتشل أيام الحرب : قوموا من النـوم يا إخـوان ، الألمان ناس جدّ وعمـل ، نظام وانتـظام . قادرين ان يعملوا في ساعة واحدة ما عملتوه أنتم في يوم كامل . النظام أبو المعجزات .

ـ شفتيهم على الملعب ؟

ـ تبـارك الله . شفتهم وقت التـدريب . كـأنهم رقّـاصـة أحـواش . خـطواتهم محسـوبـة بـالسنتم . تـابـع بـالخصـوص حنفي في صفّ الـدفـاع والمحجوب في صفّ الهجوم . الأول سدّ متحرك والثاني فرفرة . قالوا لي هذا هـو المطلوق يـطير مع الكـرة . فين مـا تمشي يتبعها . قـالوا الأطبّـاء فحصوه ووجدوا قلبه صغير ما يعيى . فيه خفّة الطليان .

ـ متى جيت ؟

ـ من ثـلاثة أسـابيع . مـرّت بحال البـرق . صبـاح الثمـانيـة وعشـرين خدّام . من يوم الوصول وأنا أطلع للنادي كل يوم . الأولاد الآن عنـدهم ما يشغلهم . قراءة ، مذاكرة ، تلفزة ، إذاعة ، محاضـرات . المدينـة تغيّرت . عـادت إليهـا الـروح . . وأنت يـا سي عمـر مـا سمعنـا أخبـارك . سمعنـا بالتبرّعات . سي شعيب شكر وما قصّر . هذا كان المظنون فيك . لكن الآن انت فاين ؟

ـ عـرفت سي حميدة كـان بي مرض الله يحفـظك . الأطبّاء قـالوا العـظم انكسر لأن الجسم كلّه تعبان. لا بد من راحة وراحة طويلة . عشرة سنين وأنا واقف ، هنا وهنا وهنا ، داخـل وخارج البلد. الجسم يتحمّـل يتحمّل ثم بعد وقت يتوقّف ويحرن .

ـ حق . الصحة هي رأس المال . كل شي يخلف إلا الصحة .

ـ الفـاهم فينـا هـو شعيب . عجيب والله عجيب ! تـربّينـا في المـدارس العصرية والبركة خرجت في سي شعيب . هكذا أو لا ؟

ـ ايواه . انت سمعت وأنا سمعت : المربّي من عند ربّي .

ـ عمر الملعب . . ولا امرأة ولا فتاة .

ـ ولا رجـل بلحيته . الله يهـديك يـا سي عمر مـا تـطلب المعجـزات . وهكذا أحسن . قال لي شعيب : نمشي خطوة خطوة . ما عندنـا شعرة لا في الضريح ولا في الزاوية .

ـ هذا الباشا وصل ؟

ـ البـاشـا وأعضـاء المجلس البلدي . لا واحـد منهم يتخـلّف عـلى

المراسيم ، داخل وخارج المدينة .

ـ قسمة عادلة . والفرقة الأخرى شفتِها من قبل . فرقة العزيمة ياك ؟

ـ نعم فرقة العزيمة . قالوا هذا الموسم فازوا دائماً خارج بلدهم وتصدّروا فرق الجنوب .

ـ نحاف مثل الثعالب .

ـ ولا عليك . لا شكلهم ولا اسمهم يخوفك . أولادنا شخوص . الحيلة ما تنفع مع السلاح المطلق . قل لي قضى الجيش الفرنسي حاجة في حرب السبعين أو في حرب الربعين ؟ القوة الخفّة العزيمة عندنا بالفعل ما بالإسم . ظنّوا يخوفونا بالإسم ؟

ـ سكوت هذا ؟

ـ هذي البداية . لما تبدا المعركة وندخل الجدّ تسمع أصوات الطيور والحيوانات والحشرات . كل ما خلق الله يخرج من غاره . خلق وتربية . ها الباشا وقف .

« في هذا اليوم الأغر ، يوم التضحية والوفاء . . » .

(69)

رَاقِبْ المحجوب رقم 15 الحر الطليق يجري فوق الأرض يطير في الهواء يجذب الكرة من بعيد ويقودها حيث يشاء هو المحجوب وهو المخفي وهو المستور سيدي المخفي موجود في المدينة أو في الزاوية ما يكون إلا في قلب المدينة تهيأ لي انه كان في زقاق جنب الجامع الكبير قبل ان تصل الى السوق الدخلاني ما عندي وقت أمشي وأتحقق من الموقع إذا كان ما زال في محله الأضرحة تحيى وتموت وتبعث من جديد مع البشر وكالبشر تسترت عليها وما الدافع قلت أحسن ما تعرف أين أسكن حرّ حرّ أمشي عندها متى أريد لكن لماذا لماذ حتى لو حصل ما حصل ماذا يكون الآن غبرت حتى الدار ما عثرت عليها غابت في مساحة لا تزيد على مائتي متر مربع لا أستطيع ان أصل الى دار ذهبت إليها مراراً كم خمس مرات ست أقل من عشر مرات على كل حال كل مرة ألقاها هي وأمها على باب السويقة أتبعها لا أرى غيرهما كأني معصوب العينين أمشي وعقلي غائب عن الوجود حتى باب الدار أدخل اليها

وأنـا فاقد الوعي لما أردت ان أذهب إليها وحـدي تهت في الأزقة وجـدت أنها تتشابه وتتداخل تهت رغم الأسماء والأرقام أعطيت وأعطيت أشيـاء تافهـة ثم اختفت جئت الى المـوعد فلم أجـد لا هي ولا الأم ولا العم انتـظرت بـدون طائل عدت الى الموعد الغد وبعد الغد بعد أسبوع وبعد شهر في نفس الساعة ونفس الموضع لا شيء حتى اللون تغير إمتزج بالأصفر المحرق بعدهـا بعدهـا أغمض عيني في البيت الفارغ في المكتب المظلم أسمع أنغام العود حزازات في القلب ثورة على القدر بكاء على الماضي إستلذاذ بالذكـرى حبّات متنـاثرة من الرمّان الحلو وأرى الفتاة بالقفطان الأزرق الباهت والشعـر المشدود في شبكـة من حـرير أحقق في وجهها وأحقق وجه وضّـاء في شبه ظـلام أحقق ولا أميـز المقلة ولا الحدقة مـاء صافي متـلألىء كل نغمـة قطرة نـدى سقطت من غصن الـرند عـلى وجه بحيـرة تسقط الأولى فتتردّد الثـانية وتبقى معلّقـة نادمـة على الفراق ثم تثقل بدموع الندم وتهوى لا أفهم غـير معقول لمـاذا ألحّت الأم على قراءة الفاتحة إذا كانت ناوية الفراق أي فراق في أي عالم لا أجد هنا ما وجدته هناك لم أعد من أولاد البلد لا أشعر بما يشعـر به غيـري سيدي المخفي مخفي يظهر متى يشاء أبحث وأنتظر لا شيء بيدي .

(70)

« . . وقل أعملوا فسيرى الله عملكم والمؤمنـون والسلام عليكم ورحمـة الله وبركاته » .

قال أغرام لجاره :

ـ اسمـع يـا سيـدي . . خفت قبيـلا من السكـوت . هـا الغيــطة عـلى اليميـن ، هـا النفيـر عـلى اليسـار . . . هـذي بـدايـة ، حتى صفّـارة الحكم تغرق . . قلتها لك . . خلق وتربية .

(71)

تقدمت خدّوج الخادم نحو سرحان وهـو جالس عـلى كرسي أمـام الباب التحتي يشاهد الحديقة بعد أن تناول طعام الغداء :

ـ غادية للمدينة .

ظن أنها ستحضر المقابلة التي شغلت الصديقية منذ أسبوعين . لكن قبل ان يجيب سمعها تقول :

ـ يمكن أبقى الليلة كلها عند أختي .

إستفسر سرحان فعلم أنها لن تشاهد المقابلة وإنما ستزور سيدي ريشة . لماذا في هذا اليوم بالذات ولماذا هذه الزيارة الطويلة ؟ إكتشف أن السبب هو وصول الفقيه التواتي . من هو ؟ لم يسمع به من قبل . فقيه من نوع خاص يصل على حين غرة ومن حين الى حين . ذات صباح يتهيّأ نقيب ضريح الولي الصالح ليفتح الباب المطلّ على المقبرة فيسمع حساً داخل ضريح سيدي ريشة . يدفع الباب الخشبي فيجد الفقيه التواتي جالساً على الحصير وبيده سبحة . متى وكيف دخل ؟ أمر لا يهمّه ولا يهمّ غيره من سكان الصديقية الذين ينتظرون الفقيه التواتي بفارغ الصبر . المهمّ هو وصوله . أيام غيابه تمثّله في المدينة خادمه ميمونة . تسهر على تعاطي الأدوية باتفاق مع العقاقيري ، تعطي النصائح الخطيرة وعندما يصل تقف على باب الضريح كالحاجب تدخل النساء والرجال حسب برنامج متقن كأنها سجّلت طلبات الناس حسب ترتيب زمني مضبوط . لا تغلط ولا يُعارض أحد أوامرها . ما هو الفرق بين التواتي وغيره من الفقهاء ؟ إنه غير مقيم في البلد ومتى جاء سمع ما لا يسمع غيره وفعل ما لا يفعل غيره .

ـ أ سيدي يسمع يعمل وما يطلب شي . لا في الأول ولا في الآخر . يقضي أغراض الناس ويمشي لبلاد أخرى .

ـ وانت يا خدوج ، عندك حاجة به ؟

ـ عندي حاجة أ سيدي . تسارقت لي مضمّة نقرة حرّة . . هو وحده يقدر عليها . ثلاث سنين وانا متشوقة له .

ـ والمضمّة حتى هي متشوقة

حدقت خدوج في وجه سرحان ولم تجب . على وجهها علامات الحيرة . قال :

ـ الله يسهل ويقضي حاجتك . سيري ما كاين باس .

قال سرحان في نفسه : هذا عنصر جديد . يوم المقابلة الرجال في جهة

والنساء في جهة . الرجال مع شعيب والنساء مع التواتي فقيه مقابل فقيه . . أطال الجلوس فوق الكرسي خارج الصالة . قالوا إن الحرارة ستبلغ ثماني وعشرين درجة بعد الظهر . لكن الجو لطيف ناعم . الشمس هي هي تضيء الأرض بنفس الأشعّة وبنفس القوة ومع ذلك ترتفع أو تنخفض الحرارة حسب اتّجاه الريح . مبدأ المروحة ؟ نسيم خفيف يلطّف الجو ولا يكاد يُلمس . الحديقة مسبح من سائل أصفر . الكل يسبّح لذي الجلال والإكرام . تسبيح لا يسمعه البشر . إستعاد سرحان في مخيّلته صورة الشيخ العوني وهو يقول : الناس يقرؤ ون ولا يقرؤ ون . قال : لأمر ما فضّلوا أن لا يقرؤ وا . . شيخ عوني لا تعين أحداً ، قابع في منزلك . ترفض حتى تأسيس زاوية والآخر ، الفقيه التواتي ، لا ندري أصله وفصله ، يقطع الدنيا عرضاً وطولاً ، يجيب على كل مطلب ، يفتق ويرتق ، يخفي ويشفي بنواميس لا يعلمها غيره . . ويأتي الى جوار الولي الصالح الذي قلت فيه مادحاً : بضيائك أضاءت الدنيا وبثقلك تساوى الوجود . أتاك متحدّياً باسمه وسمعته . بماذا تجيب ؟ أغمض سرحان جفنيه ومرّة أخرى حضرت الى ذهنه لوحة متحف جنيف : الوقت نفسه واللون نفسه والمنظر نفسه والرجل المتعب يعبر الطريق الريفي . وفي الحين سمع الأنغام البلورية الصافية ، نغمة نغمة ، قطرة قطرة . نعم . قلت في متحف جنيف وأقول الآن وسأقول الى ما شاء الله ، خاصة للشيخ العوني ، الموسيقى شيء والطرب شيء ، الموسيقى تحية تسبيح والطرب انحلال انعدام . كتبت ياشيخ ضدّ الطرب فسّر لماذا إنحاز أهل التوحيد الى الطرب ونبذوا الموسيقى . هذا لغز وعندك الحلّ . لا أشك في ذلك لكني الآن غير قادر على تتبّعه واكتشافه . أقول لنفسي : فكرة عابرة تولّدت في ظروف انخفض فيها التيار الحيوي في قاعة فارغة من قاعات متحف مهجور . ما علاقتها بالحقيقة ؟ لعلّها شبه فكرة خادعة . سجّلها وأعرض عنها . ثم انتظر يوم الكشف مع الشيخ العوني أو مع غيره من الشيوخ . . فتح سرحان عينيه على الحديقة ، هادئة صفراء باهتة ، وقرّر أن يلحق بسريره ويتمدّد ولو لمدّة قصيرة قبل ان يغادر البيت ويلتحق بالملعب . كان شعيب قد عرض عليه ان يتناول معه طعام الغداء :

لكنـه رفض . جاءه زائـراً صباح يـوم مشهود . سـأله فـأجاب : نعم . كـل شيء جاهز . اتّفقنا آخر الأمـر على دمـج اللعّابـة في أول مباراة . سبعـة منا وأربعة منهم . كان هذا اقتراح مـوسى . هذا من اختصـاصه . فـوق الميدان هو صاحب الأمر . قرّر أن لا يلعب هذه المرة . نعم كل شيء جاهز . ـ من يلعب منكم ؟ ـ حسـين زكي جعفر حنفي رضى المحجـوب واسمـاعيـل . ـ تركتم لهم خط الوسط ؟ ـ لا . اختـرنا في البـداية خـطة 3 - 3 - 3 . حرّرنـا الـرضي وعـوّضنـا زايـد والحسن في وسط الملعب بـالحسـين وزكي . الجنـاح الأيسـر قوي بـالحنفي وجعفر والـرضي . المعـوّل عـلى محجـوب واسمـاعيـل ليسـدوا باب اليمـين . ـ في نظرك إذن اللعب اليـوم يكون سبعـة ضد ثـلاثة عشـر . هـذا رأي مـوسى أو لا ؟ ـ يـا شكّـاك ! هــذا كـلامي الآن . . قبالتك . . ما خطر عل بالي من قبـل . نستغفر الله من سـوء النية . عـلى ما حال اللي كان كان والتوكل على الله . ـ لا خوف عليك المحجوب يـدوّخ اللي مـا يدوخ . الكـرة تطير وحـدها من رجـل لـرجـل بـلا دفـع ولا ضـرب . ـ كيف ؟ ـ بقـدرة الإسم . الأسامي تسـامي . . ما سمعت ان العـربي يسمي الشيء فيظن انه أوجده . روّجوا هـذا الكلام عنّـا حتى أصبحنـا نقولـه على أنفسنا . ربما أنت من هؤلاء التابعين . ـ يا سيدي قلت لك مراراً القصـة . لما جمعنا اللعّابة سـألناهم الـواحد بـالواحـد . انت ما اسمك ؟ بوشعيب . وانت ؟ بو شعيب . وانت ؟ بوشعيب . ماذا نفعل ؟ نرقمهم . . واحد زوج ثلاثة . . سمّيناهم أسماء جديدة . ـ وأعـدنا خلقهم ! ـ أمـزح يا أخي اليـوم موات . عندك حق كأنك حضرت معنا الحفلة . جينا بالطبل والغيطة والفقها وقلنـا : أنت محجوب سبّـح سلّم تأخّـر . وأنت مرضي سلّم سبّـح تأخّـر . كلكم محمدون وكلكم موصفون أنت بعلو الشان وأنت بحسن الأخلاق وأنت بالرضى على ما قدر الله وأنت بالصدق في القول والعمل . ـ حاصله يـا سي شعيب أنك أوجدت الفرقة وأعـطيت لكل لاعب اسـماً . ـ مثل سـائر النـاس تبرّكنا بالأسماء ! ـ طيب . هذا حدّ الكلام . ما بعـده شي . . إن صدقت ! ـ صـدّقني . . لا اعتقد في دورة الكـواكب . ـ سي شعيب كـل شي ممكن . هؤلاء الشبّان حاولت تغيير أذهانهم وأجسامهم لماذا لا تكون قد حاولت تغيير

طباعهم . الطبع يغلب التطبّع ، صحيح ، ولكن مدة ساعة ونصف ، مع الرياضة الدائمة ، ألا يمكن أن يغلب التطبّع الطبع ؟ مدة ساعة ونصف لماذا لا يحلّ علي في علي والحسين في الحسين . ممكن والله ممكن . ـ تمزح ؟ ـ لا . . أقول الحق . ـ هذه أمور ما قلتها في النادي ! ـ فكرة اليوم . ـ اذن الله يخرج الجرّة بسلام . ـ خارجة بسلام ولا عليك .

(72)

لم يستطع سرحان ان ينام فبقي مستلقياً فوق الفراش يحاور نفسه . دقّت الثانية ثم الثالثة وهو لا يزال غارقاً في ذكرياته وتأمّلاته . وأخيراً نهض وغسل وجهه وغادر البيت . بدأ يهبط الطليعة فسمع نداء المؤذن الى الصلاة . قال في نفسه : فلتت مني حفلة الافتتاح . وأغذّ السير . كانت الشمس قد مالت على رأس شجرة التين ومع ذلك لم يتحرّك بعد نسيم المساء . كان الهواء هادئاً تماماً كما كان وقت الظهيرة . في مثل هذه الساعة يشعر المرء بنوع من الانتعاش في جسمه وفي الأجسام الأخرى كأن الحياة تعود الى الكائنات . لكن اليوم لم ير سرحان عاملاً في الحديقة ولا ماراً في الطريق ولا فلاحاً في الحقول . كل شيء متوقّف . . النساء في حمى الولي الصالح على موعد مع الفقيه التواتي بينما الأطفال والشبّان والموظفون في الملعب .والرجال أصحاب الحوانيت أين هم ؟

وصل الى ساحة السوق البراني . كان يتوقّع انه سيسمع أصوات المتفرجين متعالية مدوية مخترقة الساحات والأسوار من باب الزاوية الى باب البحر . لكنه لم يسمع شيئاً . تقدّم خطوات ، أرهف السمع ولم يلتقط سوى الذبذبة التي نسمّيها الصمت . إقترب من المدرسة الابتدائية ، التفت الى دار المدير فرأى الباب والنوافذ مغلقة كأن صاحبها غادرها لسفر طويل . وبغتة في هذا الصمت المطبق في هذه الأزقّة الفارغة بين الحوانيت المغلقة طرق سمعه وقع خطى متقاربة فأسرع بدوره ليستقبل الخبر المفاجىء . لوى على اليمين ، تجاوز باب الوجلة ولم يبق بينه وبين ساحة الملعب المطلّة على النهر الا خطوات معدودات . فلمح شخصاً نحيفاً يجري كأنه يبتعد عن حريق ويدقّ

الأرض بحذاء مصفح كحافر حصان . إقترب منه بسرعة فائقة وقال :

ـ احمد الله . . في التأخير خير .

ـ ياك لا باس ؟

ـ فضيحة ! فضيحة !

رآه سرحان يبتعد عنه فمد يده وأوقفه بعنف :

ـ إحكِ آش طرا ؟

ـ سر شف بعينك .

صاح سرحان في وجهه :

ـ هايم فين ؟ المدينة خاوية ، ما فيها آدمي واحد .

ـ ما قادر أصبر .

ـ طيب أنا مرافقك حتى يبرد فيك الدم ونرجع .

إتجه الأثنان نحو القنطرة . تأخّر سرحان خطوتين عن أغرام . رآه يرفع يده اليمنى كأنّه يتوعّد أشباحاً . اجتازا القنطرة واقتربا من باب الولجة فانفجر أغرام :

ـ حضرنا كلنا متفايلين مستبشرين . تقدّم اللعّابة فوق الميدان . قاموا بأدوار رياضية عجيبة ، تماماً كما قال سي شعيب ، القوة والخفّة . . ثم جاء الفريق الزائر والحكّام والباشا والمجلس ورفع العلم . كل شي على ما يرام . الواحد يمازح جاره (ـ يا الله تكلّم ، ثلاثة ؟ أربعة ؟ ـ لا ، هذا لقاء حبي دورة تدريبية . ما تهم النتيجة . المهم الفرجة) . وبالفعل في البداية كان التوزيع كأنه رقصة منظمة . الكرة وحدها في السماء مسيرة بالكهرباء . تمرّ فوق رؤوس الزوّار ، مبهورين غير قادرين حتى يمسّوها . ربع ساعة ثم حصل ما حصل ، كأن الملعب انفتح على نفسه ، هؤلاء هنا وهؤلاء هناك والوسط فارغ . . ممرّ واسع خاوي بحال هذا الواد . أخذ الكرة واحد من الزوّار ، جاء من الوراء أو من الوسط ، وتقدّم وحده بلا معارضة ، وصل أمام الحارس ، راوغ ودخل في المرمى والكرة في رجله . الجميع ينظر إليه كأنه ملك من الملائكة أو شيطان من الشياطين . برد الدم فينا كلنا . اطلق أذنك . لاحس ، صمت الجنايز . كل واحد مسلوب مبهور ، لا حسن ولا

حسين ، لا جعفر ولا اسماعيل ، شعيب غايب ، موسى يفرك يديه وأصحاب المجلس في حيرة . ثم عادت الروح الى الجميع . فانفجرت قهقهة مدوية . هذا ما كنت خفت منه من البداية . هذا هو الأمر اللي ما صبرت عليه . طاحت البقرة . .

أوقفه سرحان قائلاً :

ـ هذا الوقت راجب نكون في جانبهم .

ـ لا . انا ما قادر أتحمل . يبدا القيل والقال . أنت فعلت ، أنت تركت ، قلتها لك وما سمعت . لا . أنا صاحب الجميع وأبقى صاحب الجميع .

ـ ايواه خلّيك هنا . أنا أعطيت الوعد . لا باس عل التأخير . أحضر نهاية المقابلة كيف ما كانت .

(73)

لما وصل سرحان الى حيث لقي أغرام الهارب من نقمة الأطفال فهم الصيحة التي كانت تطرق أذنه منذ فارق باب الوجلة : والله على شوهة ! والله على شوهة ! إعجاب بفرقة الزوّار ؟ إستهزاء بفرقة شعيب ؟ أدرك رأس درب المدرسة الابتدائية ، إنفتحت أمامه الساحة المطلّة على النهر : فرأى على الجانب الأيمن تحت ظل أشجار التين والكافور المنصّة الرسمية المغطاة بالجلد المشمّع ، وأمامها صفوف من الكراسي الخشبية جلس عليها الموظفون والتجار . مرّ سرحان وراء مرمى فريق شعيب . . لم يميّز اللعّابة فوق الميدان لكنه لاحظ أنهم لا يتحركون إلا ببطء . خطا خطوات قليلة في إتّجاه المنصة فلحظ شعيباً وموسى جالسين على مقعد خشبي يحيط به أربع لاعبين جاثين أو جالسين القرفصاء . إقترب منهم . موسى يتابع المقابلة وقسمات وجهه جامدة ، شعيب يشدّ على رأسه بكلتا يديه كما لو كان به صداع شديد . رفع موسى رأسه ونظر الى سرحان دون ان ينطق بكلمة أو تعبّر ملامحه عن أدنى شعور محدّد. إنحاز شعيب عن طرف المقعد وأشار إلى سرحان بالجلوس . قال بعد حين :

ـ تأخّرت ؟

ـ غدرنـي النوم . . لقيت أغرام في الطريق وحكى لي . .

تنهّد شعيب :

ـ ارتكبت غلطة الله يسامح . . لكن مـا زال نصف ساعـة . يمكن تتغيّر الأمور .

تعجّب سرحان وأمسك . أما أكّدت مراراً ان المقابلات تنتهي كما تبدأ ؟ التفت الى موسى فوجده جامداً كأنه لم يسمع كلمة واحدة مما قيل .

تغيّر الجو تماماً بالنسبة للناظر والسامع . . لون الحياة وصوت الفوضى !

قال سرحان لنفسه : يا عجباً أهؤلاء هم الجـدعان الـذين كانت دقّـات أرجلهم تزعز الكدية وتكاد تجعل أسفلها أعلاهـا ؟ فوق هـذا الميدان المغلف بالظل كـأنّي أشاهـد شريـطاً بالعـرض البطيء . ينـطلق اللاّعب نحـو الكرة فيسبقها أو يتأخّر عنها . يقذفها فإذا بها تسقط دون زميله بمـتر وأكثر . وهـذا الرضي المحرر الطليق عاجز عن الإنفلات من خصمه واقف مسلوب الإرادة ممنوع من التحرّك . كنت أحضر التداريب فأرى بوضوح حمى كل لاعب حتى عندما يجري كهالـة مغناطيسيـة ملازمـة له . اليـوم الكل في الكـل . عشرون لاعباً ؟ بل ضعف ذلك وقليلاً ما يتحركون !

إلتفت نحو المنصّة . رئيس المجلس يكلّم الباشا وعلامات الفرحة بـادية عليه . الخلّوقي والغربي يتظاهران بمتابعة المقابلة بدون حماس . قال سرحان :

ـ كان الأحسن تلعبوا خارج الصديقية .

أومأ شعيب بالموافقة :

ـ واحدة بين أغلاط كثيرة . نتعلم منها ان شاء الله .

تجمّـع المشـاهـدون الصغـار عـلى الجـانب المـطلّ عـلى الـوادي المقـابـل للمنصّـة الرسمية . منهم الـواقف ومنهم الجـالس عـلى الأرض . وتـوزع أصحاب الغيطة والنفير يميناً وشمـالاً حول المرميين . والجميـع لا يكفّ عن الصراخ . يسكت قسم فيخلفه قسم آخـر . لا يستطيـع ان يتابـع المقابلة إلا من تعوّد على التجريد الكامل عن كل ما يحيط بـه . تسمع من جهـة أصواتـاً حـادّة تستجير بالحفيظ اللطيف ومن جهة أخـرى جماعـة ترتّـل : من يرحمنـا

سواك يا أرحم الراحمين ! حاول سرحان ان يتابع لعب الفريقين معاً فعجز . لكنه أدرك أن لاعبي العزيمة لا يملكون خطة بنّاءة وإنما يكتفون بتكسير لعب الآخرين . أينما قذفت الكرة تصدّى لها أثنان أو ثلاثة بهدف منع الخصم من التحكّم فيها . وذلك باي وسيلة ، قانونية أو غير قانونية ، بالرجل أو اليد أو اللسان . .

ـ عندك الساعة بالضبط ؟

ـ ما زال ربع ساعة .

ـ يمكن تتغير النتيجة .

ـ كيف ؟

ـ ظهر العياء على الآخرين .

عاد سرحان بكل انتباهه الى ميدان اللعب . وبعد توان معدودات ودون ان يتغيّر في شيء إيقاع اللعب انفصل اللعّابة بعضهم عن بعض وقلّت فرص تدخّل الحكم . إستقلّ كل لاعب بحماه . أصبحت تراه يستقبل الكرة ويتخلّص منها قبل أن يدركه خصمه وأمكنك أن تتنبّأ باتجاه القذفة . ظهر بوضوح أن الزوّار لا يرفعون أرجلهم الثقيلة إلا بمشقّة في حين أن أولاد شعيب يستقبلون الكرة بخفّة ونشوة. في نفس الوقت عاد الهدوء الى الجمهور . توارت أنغام الغيطة وعدل الأطفال عن الاستجارة والاسترحام .قبل عشر دقائق من نهاية المقابلة تلقّى اسماعل (9) قذفة طويلة من جعفر (14) وهو في مربع العمليات فصوّبها أرضية لم تدخل في الشبكة إلا بسبب اعتراض رجل أحد المدافعين . بعد دقائق قليلة تراجع إسماعيل الى الوسط ليتسلّم الكرة من عند زكي (6) . دفعها الى المحجوب (15) ثم تقدّم بسرعة مشيراً أنه يريدها من جديد وعلى بعد عشرين متراً قذفها بقوة . فصاح المتفرجون الصغار وقام بدون شعور بعض الجالسين في المنصّة الرسمية. لكن القذيفة اصطدمت بالعارضة . انتبه سرحان إلى أن موسى يتمايل بقوة قابضاً بكلتا يديه على حافة المقعد . لم تبق إلا دقائق قليلة . هل تتحقّق المعجزة ؟ انتظرها سرحان وموسى والأطفال الذين لزموا الصمت ولم ينتظرها شعيب والجالسون في المنصّة الرسمية الذين رجعوا الى وشوشتهم بعد إخفاق محاولة

المحجوب .

قال شعيب :

ـ هبّة أبطال . هذا هو المهم .

توقّفت المقابلة تلقائياً . تعب بعض الأطفال من الصراخ جهة اليمين قرب مرمى الفرقة الزائرة فبدأوا يتظاهرون باللعب . اقتربوا شيئاً فشيئاً من حدود الميدان وبعد قليل اكتسحوا قسماً منه . رفع حكم الشط علمه الأحمر . تنبّه له حكم الوسط فأطلق صفيراً طويلاً. عندئذ توقّف المتبارون وقام بين المتفرّجين من ظنّ أن الصفير إعلان عن نهاية المقابلة . لما رأى الحكم كل هذا رفع ذراعيه إشارة النهاية القانونية دون أن يتحقّق من الساعة . سمع شعيب الصفارة فقصد حنفي (4) :

ـ ما تبرحوا الميدان .

في نفس الوقت إرتفع نشيد مؤلم : « عبّاها عبّاها ! والله ما خلاها ! » .

نزل الباشا وأعضاء المجلس من المنصّة وتصافّوا حول مقعد مدرّب فرقة العزيمة :

ـ ما قصرتم النهار نهاركم .

إبتعد سرحان قاصداً مرمى علي حيث تجمّع فريق شعيب . سمع أحد الأطفال يقول : يا الله يا ولد الحرة وزّيهم الصنعة . اليوم خانتهم البركة .

كان شعيب يخاطب الفريق :

ـ ما انتم في هذه الدنيا . صمّ بكم . تحركوا حتى يفرغ الملعب لبسوا حوايجكم ومن هنا قصداً للنادي .

رأى سرحان فسأله :

ـ شفت موسى ؟

ـ كان هناك فوق المقعد . نهض لما قذف اسماعيل القذفة الأخيرة .

ـ نهض وما قعد . على ما حال موعدنا في النادي بلا إذا ولا حتى .

كان أعضاء الفريق مطأطئي الرؤوس . لا أحد فيهم يهمّ بالكلام .

قال شعيب :

ـ يا الله تحركوا بسلام .

انطلق حنفي يجري حول الميدان وتبعه زملاؤه صائحين :

ـ الله حي ! الله حي !

قال شعيب لسرحان :

ـ هذه هي الدقيقة الحرجة فيها نربح أو نخسر . تجي معنا ؟

ـ مرحباً ما عندي شغل مقدّم على هذا .

(74)

ـ شهور هذي ما تقابلنا . الشكوى على الله تورّم المفاصل عجّزني . وأنت سي مختار ناشط كالعادة ؟

ـ حتى أنا مدّة ما حضرت الاجتماعات . الأمور مع الوقت .

ـ باين عليك عيّان ياك لا باس ؟ أنا زايد ناقص ولكن أنت ؟ شاب ما قدّمت ما أخّرت في الدنيا .

ـ اليوم ما بقى فرق . الهمّ واحد .

ـ جيت بالعايلة تزور وتشمّ هوا البلد ؟

ـ لا . جيت وحدي على ودّ الجمعية .

ـ خير . خير إن شاء الله .

ـ ايواه آش ظهرلك ؟

ـ يعني ؟

ـ في المقابلة .

ـ هذي غير البداية . أما . . الليل وما طال واللسان شغّال فيهم . هذا يذبح وذاك يسلخ هذا يكفّن وذاك يدفن . الطبع هو الطبع . إذا بغيت تفلت أبق مع المغمورين وإلا احسب لكلام الناس حسابه وكلام الناس أمضى من الحديد .

اعتذر وشّان :

ـ عيني على الخّلوقي . عندي به غرض . يا الله نقرّب من الجماعة .

ـ سر اقض حاجتك . الحمد لله شفناك بخير وعلى خير والله قادر على إصلاح الخلق .

تقدم وشّان نحو الجماعة الملتفّة حول الباشا وليس في ذهنه خطة يسير عليها . غادر القنيطرة دون ان يخطر عائلته أنه ذاهب الى الصديقية ومنذ ان وصل وهو كالمفصول عما يحيط به . جاءه الإستدعاء فرأى فيه فرصة ليلتقي من جديد بشعيب والخلوقي . منذ ان فاتح كلا منهما عن مشاغله لم يتوصل من أي منهما بخبر . شارك في تنظيم الجمعية وبعث دون علم زوجته بنصيبه في تمويل صندوق التسيير . سافر مرّة الى البيضاء ليحضر أحد الاجتماعات مدّعياً انه سيقابل الطبيب ويقضي الليلة عند أخته . لما انفضّ الاجتماع واختلى بأغرام اشتكى له ان شعيباً لم يف بوعوده . إستمع له أغرام طويلاً دون ان يقاطعه ثم قال له بحزم لم يكن يعهده فيه :

ـ مختار أنت غالط . أسّسنا الجمعية بهدف الرياضة ولا شي غير الرياضة . ما هي نقابة ولا تعاونية ولا جمعية خيرية ولا . . ولا . . إهتمام شعيب محصور كله في تدريب اللعّابة . خذ مني كلام الحق وما تعطي عقلك لغيرك . كلنا إخوان نبغي الخير لبعضنا لكن هذا ما كان . وما كاين غيره . انت رجل جدّ كلمتك بالجدّ . أنت بغيت المزاح باسم الله اشرع والكمالة عليّ .

خرج من عنده وهو يقول لنفسه : هذا كلام أغرام . يمكن يكون غير الحق . ثم فكّر وفكّر واعترف : إذا كان أغرام يتكلم بهذه النغمة فكيف يكون كلام غيره ؟ أثقل من الصخرة . عاد إلى حياته المألوفة تاركاً الأمور تجري على حالها . رافق إبنته الى المدرسة . جلس الى مقاعد فلوريدا يشرب مرة قهوة بالحليب ومرة بيرة . ثم قرب موعد الفحص الطبي فساءت الأحوال . علم انه لن يستأنف أبداً العمل بالقنيطرة ولكن كيف تمديد الإجازة دون فحص طبي ؟ نعم يعرف الأسئلة ويحفظ الأجوبة كلمة كلمة ولكن اذا قدّم الطبيب وأخّر وجاء الجواب غير الجواب إرتفعت الحرمة وتكسرت البيضة . نوره يا نوره . . أحس بذراع يضمّه ويقوده نحو جماعة الباشا :

ـ على من تفتش ؟ جي تسمع الكلام الحلو .

كان سي ابراهيم نائب رئيس المجلس يقول بصوت جهوري :

ـ الحق اسمعوه مني . دوروا دوروا وارجعوا للصواب . هذي إشارة .

ـ إشارة ؟ ممّن ولمن ؟

ـ من صاحب القوة والحول لنا كلنا . فكّر يا سيدي . معقول يتلاقى المعلّم والكانبو ويتمسخر هذا على ذاك . الإشارة واضحة غير خفية إلا عمّن تعامى وتغافل . تربيتهم كانت ناقصة وهذا الشي الناقص عاد وقدّام الناس ، لتقوم الحجّة وتكبر الفضيحة ، ضرب عليهم تكبيلة . هذا إنذار . يرجع كل واحد للطريق وإلا عاودهم ودوّر بهم النطاق . لا من يراه ولا من يتخطاه !

علّق الحاج مصطفى :

ـ حماس هذا !

ـ الظاهر ظاهر والمعاند لا بدّ خاسر .

ـ ولكن ما قلت لنا من صاحب النطاق . (مشيراً إلى الأضرحة المحيطة بالمدينة) هذا ؟ أو هذا ؟ أو هذي ؟

ـ كلهم صباع عسل .

تدخّل الخلّوقي من بعيد دون ان ينفصل عن وشّان :

ـ ظهر على أصحابنا تنطع ؟

أطرق نائب الحفرة ثم أجاب .

ـ الله أعلم . الحجود ظاهر وخفي . المهم لا بدّ من العمارة .

أسرّ الخلوقي في أذن وشّان وهو لا يزال يحتضنه :

ـ عرفتك جيت البارح . انتظرتك في دار الشيخ .

أجاب معتذراً :

ـ كان عندي شغّيل في السالمية وبتّ فيها .

ـ أنا ما نسيتك يا سي المختار . كنت انتظر الوجبة . جابك الله . أسمعها منّي . عملت جهدي وفوق جهدي . والآن تحقّقت وتيقّنت . الوسواس اللي في خاطرك أنسه ولا ترجع له . كما قلت لك في الأول . ما وجدت ولا رائحة الشحمة في الشاقور .

أطرق وشّان ولم يعقّب :

ـ الكاين هو أن صاحبنا الحضرمي عازم ياخذ محلّك . لكن أنت تخلّيت . إذن ما بقى موجب للنزاع . هو ما يضرّك وأنت ما تضرّه .

ـ ولكن هو داخل خارج .

ـ ولا عليك عندك الحماية. خلّي له المدينة بما فيها .

ارتفع بغتة صوت الباشا :

ـ سي بنعيسى يا سي بنعيسى ؟

كان وشّان قد إستمع إلى كلام الخلّوقي بحلم ووقار كما لو كان يكلّمه عن أمور تهمّ غيره . فابتسم إبتسامة مقتضبة عندما ربت على كتفه وابتعد ليلبّي نداء الباشا .

(75)

. .الصمم عند الخبراء كل نقص في حاسّة السمع من الوقر المتفاوت الدرجات الى العجز التام عن إلتقاط الأصوات . لكن الجدول الملحق لا يطبّق إلا إذا وصل الصمم الى حدّ يؤثر على علاقات الموظف بزملائه أو يمنعه من القيام بعمله . إن التصامم المتعمّد والمستمر إستثنائي جدّاً بعكس المبالغة في خطورة الآفة التي تحدث كثيراً . ولمعرفة القدرة على السمع في ظروف جيّدة لا بد من تجريد الممتحن من حاسّة البصر وذلك بحجب عينيه . بذلك يمكن الحكم موضوعياً على مطابقة أجوبته على الأسئلة المطروحة عليه وبالتالي عل صدق أقواله . في حالة الشكّ يلزم اللجوء الى اختبارات المراقبة وهي متنوعة حسب كون الصمم جزئياً أو كلياً يخصّ الأذنين معاً أو إحداهما فقط . والإختبارات المباغتة هي الأجدى لأنها لا تكشف فقط عن المبالغة والتضخيم المقصود بل تمكّن كذلك من تقدير حدّة السمع الواقعية . فمن الناس من يسمع أصوات البشر دون ان يلتقط الأنغام المرتفعة أو المنخفضة وأحياناً حتى المتوسطة . توجد عنده فجوة سمعية ينتج عنها إخلال ببعض وجوه العمل . أصحاب السمع الناقص ولو بقدر بسيط يسمعون سمعاً غير مطابق . . والهينمة الناتجة عن صدمة تكون في الغالب مرتبطة بسمع ناقص ولكن في حدود ضيقة وبسبب تعذّر إختبارها المباشر فأنها لا تعتبر إلا إذا كان الممتحن قد أظهر أثناء اختبارات سابقة عن حدّة السمع صدقاً لا مراء فيه . . يختبر

الإحساس بالدوار أثناء المقابلة لمعرفة ما يترتب عنه من متاعب للمتحن أو من أخطار عليه وعلى زملائه . وهو شكلان : الأول معروف ويكتسي صورة نوبات مباغتة متفاوتة القوة تتسبّب في فقد التوازن والسقوط وتقترن بالغيثان والقيء . والثاني وهو أعمّ ياتي في شكل رجّة يشعر أثناءها المصاب شعوراً مبهماً بعدم الإستقرار المصحوب بالإنبهار . يحسّ أنه مقدم على السقوط على الأرض ولكنه لا يسقط بالفعل . وتلك النوبات القصيرة المتباعدة تعرض عندما يهمّ الإنسان بالقيام بحركات سريعة أو مع وجود الرأس في هيئة معينة بالنسبة للعنق وقد يصبح مرضاً خطيراً إذا تضاعفت النوبات . .

جُمل من دفتار حقوق الموظف يعرفها وشّان عن ظهر قلب لكثرة ما قرأها وسردها وفسّرها واحتجّ بها . . إقترح الفكرة على مكتب النقابة وجمع كل القوانين والمراسيم المتعلقة بقانون العمل . . الإختبارات المباغتة لمعرفة صدق الممتحن . . هذه هي التي تقلقه ومنذ أن وصل الى الصديقية وقلقه يزداد ويزداد . نسي ان يشتري شيئاً في البيضاء فاستحيى ان يطرق دار عمّته أو خالته صفر اليدين . قصد ضريح الولي الصالح حيث مكث الى ما بعد العصر . زار التابوت وطاف حوله ثلاث مرات ثم إختلى الى زاوية بعيدة عن ممّرات الزائرين . منذ أيام وهو يسمع كلّما تجرّد عن هموم الدنيا خشرجة كدوي طاحونة بعيدة تدور وتدور وتدور ، لا تقرب ولا تبعد لا تقوى ولا تضعف لا تكبر ولا تدقّ وفوقها تتفقّع بلطف أو بعنف أصوات الكائنات . جلس في الزاوية ينصت الى هذا الأزيز الملازم وكأنه دبيب الدم في شرايينه . . هنا على عتبة هذا الضريح سقطت مغشياً عليها قبل ان تؤدي اليمين . العقل قبل ان يحنث والجسم رفض . تراجعت منها الحياة . إبيضّ الوجه ودارت بالعين هالة خرقومية كأنها لم تنم أياماً وليالي . سبحان مبدّل القلوب ومغيّر الخلق. الآن لونها رمادي أسنانها مسندرة شعرها مشعكك عينها غايرة . أراها وانكرها تماماً كالليلة الأولى عندما وجدت ما لم يكن في الحسبان . هي وما هي خصوصاً بعد العشاء لما تقوم نوره لتتركني معها الراس للراس . ابقي يا بنتي ما زال المراجعة . تقول هي : عيب عليك أطلق البنت قتلها النعاس أتعجب كيف ما يغلبها النعاس في الدرس ! تخرج

نوره وأبقى وحدي مع امرأة ما هي امرأة. عمري ما رغبت ولا توسّلت هنا احتجنا لشعيب يعرف الكلام المناسب . لا شك تعلّمها . هذا عيب أو حرام ؟ فيه ظلم للناس في أرواحهم وأملاكهم ؟ لا . هذا بحث عن الحق إصلاح ذات البيت تهدئة النفوس . شعيب هذا شغله وصنعته . اضرب على تشويش أغرام . جوّ الصديقية غير جوّ البيضاء . غداً أتعرض لشعيب ويكون ما يكون ببركة هذا الولي الصالح .

غادر الضريح بعد صلاة العصر واستقلّ الحافلة المتّجهة إلى السالمية . قضى الليلة في فندق صغير قرب المحطة تصوّت في حجراته ريح الغربي . في الصباح ذهب إلى مقهى قريب من مكتب البريد . حيّا الزملاء وطرح عليهم أسئلة تنمّ على أنه ينوي الانتقال الى السالمية . قال أحدهم : نداء الوطن ؟ أجاب وشّان : الزمن غدّار أحسن نقرّب من أرض الأجداد . سأل آخر : نهار هذا عندكم، سالمي أو صديقي ؟ ـ أنا مخاوي الجميع ولكن القلب مع أولاد البلد . ـ طبيعي . المهم الفرجة .

تناول وشّان طعام الغداء في مطعم المحطة محاطاً بأزيز الذباب الذي ضعّف أزيزه الخاص وعلى الساعة الثالثة استقلّ الحافلة عائداً إلى الصديقية .

(76)

ربع ساعة بعد انتهاء المقابلة ترك فريق شعيب الميدان حيث كان الأطفال يتسابقون وراء كرة صغيرة ويعلّقون على أطوار اللعب متقدين بعبارات لاذعة هذا اللاعب أو ذاك وحيث كان أعضاء الفريق الزائر يتلذّذون بفوزهم في انتظار موعد الحفلة المقامة على شرفهم بدار البلدية . تحاشى أولاد شعيب وسط المدينة ومرّوا من طريق خلفي أوصلهم مباشرة من حي الحفرة الى درب القائد المدني . امتلأ النادي فانتصب شعيب :

ـ ما عندنا وقت لننتظر موسى . ندخل في الموضوع . الغرض من الاجتماع هو الاتفاق على خطة قبل الذهاب الى الحفلة . الحاصل حاصل والندب على الميت خسارة . الأيام طويلة نحلّل فيها كل جوانب اللقاء . النقطة المهمّة الآن هي : على أي صورة نظهر للناس من الأصدقاء ومن

الأعداء . اذا دخلنا لقاعة الحفل وعلى وجوهنا شارة الهزيمة انحلّ الفريق ودفنت الجمعية عاجلاً أو آجلاً . يكثر القيل والقال . تبدا المناورات والاستفزازات . ينكشف عدد عديد من المنافقين . إذن المطلوب هو ضبط النفس . .

توقف شعيب عن الكلام محركاً رأسه بقوة من أعلى الى أسفل :

- زكي ، حسين ، جعفر ، أنا عارف كل واحد منكم عنده ما يقول . انتظروا دقيقة واسمعوا لي . لا بدّ أوضح رأيي حتّى تفهموه على وجهه الحقيقي . هذه محنة وأحسن لنا أن تكون في البداية . لو انتصرنا من الأول كان دخلنا الغرور وتعامينا عن الواقع ، واقعنا هنا في الصديقية . الآن الأمور واضحة وفي الأيام المقبلة تكون واضحة أكثر . أقوال المنافقين معروفة : الله! هذا هو سر النظام والانتظام هذه هي فائدة التكوين الذهني؟ هجمتم على المدينة جعلتم أعاليها أسافلها وليلها نهارها ، أكثرتم من الوعود المعسولة كما لو كنتم أولياء قادرين على تغيير الخلق وفي أول لقاء مع فرقة برّانية انكسرتم وانكشفت عورتكم ؟ أنا أقول لكم : أعرضوا عن هؤلاء اللئام . الدرس الحقيقي هو أولاً حالتكم في نهاية المقابلة ، كان في إمكانكم خوض مقابلة ثانية أما الزّوار فما استطاعوا حتى اظهار الفرحة بالفوز . ثانياً لعبكم في العشر دقائق الأخيرة هو لعبكم الحقيقي . في المستقبل وفي كل مقابلة سيتحقّق إما في البداية بسبب الخطة المتّبعة قبل أن يدركها الخصم أو في الدقائق الأخيرة بسبب اللياقة البدنية . بين فرص البداية وفرص النهاية المطلوب منكم أن تفرّجوا الناس باللعب الحلو . هذا الأمر ما حصل اليوم . أنا أتحمّل المسؤولية. موسى والحق يقال تردّد كثيراً . أنا أقنعته بحجج بعيدة عن ميدانه . فسايرني في رأيي . لكن الحاصل حاصل كما قلت ولا فائدة في الندامة .

توقّف شعيب للمرة الثانية متسائلاً :

- فين موسى ؟ عمره ما غبر بهذه الكيفية . لّما تغيّر اللعب قام بالفرحة وصفّق . ظنيت أنه عاد وجلس فوق المقعد . لكن يظهر انه غادر الملعب قبل الناس كلهم . منكم واحد شافه ؟

قال علي :

ـ من بعيد تشابه لي . كان يتكلّم مع الخلْوقي ولكن ما عندي يقين .

ـ على ما حال مهما طالت الغيبة يظهر يظهر . سي جعفر ما قدرت تصبر . تفضّل .

نهض جعفر وقال بصوت خافت كأنه يبوح بسرّ :

ـ أنا عندي سؤال ألقيه على الأخوان . كيف كان شعورهم أثناء المقابلة ؟ لأني أنا كنت مسلوب الإرادة فوق الميدان . حسّيت بنفس الإحساس مرّة لما زرت سيدي موسى الكشّاف . الكرة تكون جايّة حاسب لها حسابها عارف كيف استقبلها . أضربها تخرج ناقصة الأولى والثانية والثالثة . .

قاطعه إسماعيل :

ـ أنا طبّقت التعليمات . قال لي موسى : عينك دائماً على اليمين ولكن الكرة عمرها ما جآت من اليمين إلا مرّة واحدة بها كانت الإصابة .

قال شعيب مقطّباً :

ـ لا فائدة في فتح هذا الملفّ من الآن . قلنا مراراً هنا في هذه القاعة وبيّنّا بالصور والأفلام أن الواقع دائماً مخالف لشعور اللعّابة . كل واحد فيكم اليوم شاعر بأنه مسلوب الارادة وان الكرة كانت تضحك عليه ، تظهر وتغبر كما لو كان لها روح وإرادة . هذا أحس بأن الجو سميك كستار متحرك وذاك ان المرمى تحوّل عن موضعه أو أن الحارس تغيّر إلى أسد كاشر . هذه التصورات لها إسم واحد : الهزيمة . لو طوّلنا الكلام لاتّضح أنكم نسيتم كل شيء عن التداريب والدروس والمحاضرات ولدخلنا اليأس . إذن نطوي هذه الصفحة . ننسى المقابلة ونفكّر في شيء واحد : كيف نرفع الرأس أمام الناس .

سكت قليلاً ثم استأنف كلامه بصوت منخفض هادىء يفصل بين الكلمات كما لو كان يملي درساً على تلاميذ :

ـ المطلوب ان يدخل كل واحد الى الحفلة وهو يفكّر في مشاغله العائلية : مرض العمّة وسفر الخالة وزواج بنت العم . وينسى الخرافات :

الضبابة على العين والصابون البلدي تحت الرجل والعنكبوت حول المرمى والكهرباء داخل الكرة . أتركوا هذه التعليلات لغيركم . . اذا كنتم متعلقين بالنادي وبالجمعية . نخلّي هذه الليلة تمرّ بسلام وغداً يكون ما فيه الخير .

أومأ شعيب الى سرحان :

ـ تقول كلمة ؟

ـ لا .

ـ طيب . إذن الى دار البلدية .

قام الحاضرون وشرعوا في مغادرة النادي بانتظام . إنتظر سرحان حتى خرج الجميع واقترب من شعيب :

ـ سكتوا وما اقتنعوا .

ـ غداً يسترجع كل واحد عقله ويقتنع . غداً يبدأ الجدّ .

ـ لو حضر موسى لتغيّر الجو .

ـ ممكن . . عارض في البداية خطّة المزج . قال : عملنا كله يضيع . ثم بعد أخذ وردّ إقتنع وتحمّس للفكرة . لكنه قرّر التخلّي عن المشاركة . ربما هذا كان سبب الفشل . عدم حضوره فوق الميدان . قلت انت في الصباح : سبعة ضد عشرة . . صحّ .

فكّر سرحان ثم سأل :

ـ كان الشيخ العوني يوافق على الخرافات ؟!

ـ شغلك وشغله . ما عندي وقت أهتم برأي العوني . يا الله ! الناس في الانتظار . لازم أحضر الى وصول اللعّابة لقاعة الحفل .

(77)

إلتفت وشّان يميناً وشمالاً بحثاً عن شعيب فلم يره . نظر إلى الأطفال وهم يشجّعون زملاءهم الذين كانوا يلعبون فوق الميدان بعد ان غادره الكبار . سمع أحدهم يردّد بصوت حزين : « هذا اليوم ما هو يومك ، يا الغارق في همومك » . قال في نفسه : الولد غالط ، هذا هو يومي . وتابع مسيرة الناس . كان عليه ان يلتحق بجماعة الباشا إذا كان يريد ان يلتقي

فيما بعد بالخلوقي وبشعيب . لكن حركة المتفرجين العائدين الى بيوتهم أبعدته شيئاً فشيئاً عن مقصده فقرّر ان يقوم بجولة عبر وسط المدينة قبل أن يعود الى دار البلدية .

كان أغلب من حوله كهولا موظفين ، أفاقيين ، أصحاب نزه وتقصيرات . أولاد البلد خارج البلد كالعادة . سمع وشّان أحدهم يقول لصاحبه :

ـ ما كان عندهم سعد . يوم المقابلة يوم وصول التواتي . كان لا بد يظهر حنّة يده .

ـ كيف كنا نعرف ؟ عندنا الخط الزناتي ؟ اليوم . .

إفتكر وشّان : ها أنا أسمع من كلام الناس ما يعنيني وما لا يعنيني بلا وشوشة ولا همهمة ! ها أنا طالع مع الناس والأرض تحت رجلي ثابتة لا تميد ولا تتمور . لكن هنا نسيم البحر وشمس الأصيل وهدوء المدينة . كالقوقة التي تنزع أوراقها واحدة واحدة كانت الجماعة كلما مرّت أمام زقاق فقدت أحد أعضائها . . ينسلّ منحني الرأس وشفتاه تتحرّكان بتحية مكتومة . في منتصف الطلعة لمح وشّان إمرأة ملتحفة بحائك درعي واقفة وكأنها في إنتظاره . لما تصافّ معها سمع صوتاً من وراء الحائك :

ـ سيدي المختار .

عرف الصوت فانحاز مع المرأة الى مدخل الدرب . أخرجت ذراعها لتعنّقه ففاحت من الصوف المغسول رائحة الكبريت . قالت :

ـ خبروني كنت البارح في السيد وما جيت عندنا ؟

ـ اليوم نويت أطرق الدار . البارح كان عندي شغل في السالمية .

ـ عيب يا وليدي تجي لهنا كالبرّاني ونلقاك بالصدفة . لابد تجي عندنا بالقصد . ما عندنا غير الله وأنت .

قال وشّان :

ـ فين كنت سارحة ؟

ـ الزيارة . (قبضت على يده كأنها تودعه سرّاً) الشيخ التواتي جآ . كان عندي به غرض ما يقضيه لي غيره . دعوته ما تخيب . (بعد سكوت) الشبّة

والحرمل عليك يا وليدي . لونك ما عجبني .

ـ حتى أنا في زيارة .

ـ سر يا وليدي . زر وجينا بلا خلاف .

تابع وشّان طريقه نحو الضريح . لماذا جئت لهذه البلدة ؟ لألتقي بشعيب والخلّوقي ومن خلال الخلّوقي بالشيخ العوني . شعيب مشغول والعوني محجوب عن الناس . لماذا لا أجرّب الموجود ، مثلي مثل الناس والليلة هي الليلة . أنا ما قدرت أمشي عند الطبيب أقول له بي الدوخة الأرض مائلة موجة تجري في ظهري أسمعها تتكسّر على الصخور . ما هو السبب ؟ مرض ؟ سقطة ؟ رجّة ؟ لا . أزمة نفسية . ما يقبل العلّة ويدخل معي في ما هي وما لونها وأنا ما عندي غرض بهذا التخريف . أنا قتلني الشك والوسواس ، أنا محتاج لمن يردّ لي اليقين والاطمئنان برؤ ية العين . قال لتطمئن نفسي والنفس ما تطمئن الا برؤ ية العين . شعيب غارق في همومه والعوني دونه سبعة أبواب كل باب عليه سبعة أقفال . . والآخر أمره قريب بابه مفتوح . عندي غرض برجل يفهم بالحرف والاشارة ينقّب على ما في القلب بلا قيل وقال وكثرة السؤال . . لو ما كانت نوره المنورة . . قال الأخ الحميم خلّي له المدينة بما فيها يا سيدي نخلّي له الدنيا بما فيها وبلا رجعة . .

وقف وشّان على باب الضريح يشاهد من بعيد النساء الملتحفات ، واقفات وجالسات ، يملأن الممرّ بين مدخل المقبرة وقبّة سيدي ريشة . من حين لآخر يخرج خيال أبيض من القبّة ويدخل على أثره خيال مماثل . من أعلى ربوة الولي الصالح ألقى نظرة متأمّلة على حزام البنايات المقبّبة المحيطة بالمدينة . كانت الدائرة الشمسية تلامس رؤ وس أشجار الغابة وتبعث أشعّة ليمونية باردة كأنها منبثقة عن قمر كبير . هدأت الريح وغلّف الكائنات ضوء باهت إصطناعي كهربائي بدون تيّار . شدّ وشّان نظره إلى نقطة الإلتقاء حيث يمتزج الأخضر باليابس والحي بالجامد ، حيث تنتهي الغابة ويصبّ النهر في المحيط . وبغتة دون أن يعي ما تقرر في فؤاده إندفعت رجلاه نحو تلك النقطة ـ المركز . أدرك أنه لم يعد له غرض بحفلة المجلس البلدي وبما

سيجري فيها .

وجد نفسه أمام عتبة الخلوة دون أن يدري بالضبط لأي سبب جاء الى هذا الموضوع الذي لم يغشه منذ سنوات ، منذ أن كان يدرج وراء جدّته أيام الجمعة في فصل الربيع . آنذاك كان يرفض أن يدخل الى الغار رغم وعود جدّته . أدخل يا وليدي يعطيك الله الكلمة والسمعة . يبقي يتلهى بنفسه على الشاطىء أو داخل غابة الرتم . كان مقتنعاً ان حيوانات مفترسة تختفي في خلايا الخلوة متأهّبة لتنقضّ على الأطفال الذين يبتعدون عن مرافقيهم . وهذا الخوف منعه دائما ان يستفسر عن قصّة الغار . لا بدّ ان تكون يد إنسانية ولهدف معينّ هي التي سوّت الأرض وحفرت الحجيرات وفتحت الطاقات لينفذ منها بعض النور . لم يتهيّب الخلوة هذه المرة رغم ان الشمس كانت غابت منذ دقائق وان الظلمة بدأت تغلّف الكائنات . تخطى العتبة ولم يعد يميّز في عتمة المساء شيئاً من الأشياء . تقدّم وفي أذنيه هيمنة ، لكنها غير التي إعتاد عليها منذ أسابيع ، غير مرتبطة بأي ميد وغير مصحوبة بخيال أمواج تلاطم الصخور . لم ينتبه إليها أول الأمر لكثرة ما كانت تتحوّل وتتغيّر مسموعاته في الأيام الأخيرة . دخل الى غرفة لا توجد فيها طاقة تطل على النهر أو على الغابة وجلس على الأرض المدكوكة ليستريح ، ويستعيد نفسه بعد أن مشى مشية سريعة . ما أسهل العيش لمن كان يسكن هنا ! لا امرأة لا أولاد لا هموم ! وبغتة بعد ان عمّه الظلام وتراجعت اليه أنفاسه وعى أن ما يطرق سمعه ليس صدى الكون ، دوي الكهيرب وهو يدور حول النواة أو ترداد الإنفجار الأول عندما قيل للكون كن فكان ، وإنما هو أنين إنساني دعاء مبهم إكتسى صفة الانتظام والديمومة . قام من مقعده وعاد أدراجه . من باب الخلوة بدأ يفتش الغرف واحدة واحدة يميناً ويساراً والصوت يرافقه . تعوّدت عيناه على الظلمة وأصبح يميّز الأشكال خاصة في غرف اليمين المطلة على النهر . أما غرف اليسار فكان يتلمس أرضيتها شبراً شبراً . تفقّد الصفوف الأولى دون أن يعثر على شيء . ثم وصل الى الغرفة السابعة على يساره الغارقة في ظلام دامس . إنكبّ على الأرض وبدأ يتلمّس العتبة وفي الحين لمس شيئاً بأصبعه . أخذه بيده وتحسّسه فإذا هو فردة حذاء . تابع

تفتيشه حتى ارتطمت أصابعه بركبة رجل ساجد . كان الأنين الـذي ملأ الغـار يحـوم حول الجسم كـأنه ينبثق من كـل أجزائـه وليس من حلقه وفمـه فقط . حرّكه وشّان بقوة صائحاً: قم يا بشر قم !. لم يصدر من الجسم غير الأنين . قبض وشّـان على كتفي الـرجل السـاجد بكلتـا يديـه وحاول أن يجـذبه إليـه ويفصله عن الأرض . بعـد المحاولـة الأولى والثانيـة بـدا عـلى السـاجـد انـه استرجع وعيه . خفت أنينه تحرك ثم تمتم كلمة مبهمة. قال وشّان بقوة :

ـ قم يا بشر عمّ الليل .

جرّه وشّان فـاستجاب إليـه . همّ بالنهـوض . فضغط وشّان عـلى ظهره لكي لا يصطدم رأسه بأعلى مدخل الغرفة الضيق . قاده بلطف خارج الغـار بعد أن فتّش على الحذاء وأخذه معه . وفي ضوء الغسق تعـرف عليه رغم ان وجهه كان معفّراً بالتراب مبلّلاً بالدموع :

ـ سي مـوسى أنت هنـا وشعيب يفتّش عليـك ؟ عملة عملتهـا بقـدّك وقـدرك . . غبـرت كـأن الأرض بلعتـك أو الشيـطان تخطّفك من بـين الحاضرين . قل لي ما طرا لك ؟

تنحنح موسى :

ـ والفضيحة نسيتها ؟

ـ فضيحة الجميع يا أخي . أنت بوحدك ؟

مشيا بسرعة في اتجاه المدينة . كلّما ابتعـدا عن الغار خفّ الـظلام وتمكّن وشان من تمييز قسمـات موسى . الآن استحقّ بـالفعل اللقب المـطلوق عليه بين أعضاء الفرقة : موسى الحزين بودميعة . كـان يقطع الأرض وهـو يندب حظ الناس ويبكي مآسي الدنيا .

ـ لا بد واحد فينا صاحب كبائر . معقول تخرج النتيجـة هكذا بعـد كل المجهـود اللي قمنـا به ؟ هنـاك حـاجـز لا بـدّ أن يـرفـع . لـو مـا جيت انت وخـرجتني لبقيت الليـل كله أتضـرع الى الله واطلب الصفـح حتى يـرفـع الحجاب .

ـ هذا خاص بك أنت وغيرك ؟

ـ أنـا أنوب عـلى الجميع . الله يقبـل دعـاء الـداعي في كـل الأحـوال .

الجماعة تهلك بذنب الواحد وتنجو بشفاعة الواحد . يا الله وجّد هيّـأ نفسك قوّ جسمك احسب واضرب بلا فـايدة العقـدة معقودة . كيف تعقـد وتحكم العقدة حتى يحار فيها البيّار ؟ الحبّة ظهرت لنـا قبّة . الجـواب قريب النـاسي منسي والمتقـاوي ضعيف والمغرور ساقط . الحمد لله كـانت المحنة في البـداية ضد الغرباء بين الأهل والأقارب . الآن بان الحق . الطريق قـدامنا واضحـة كلها انتصارات بحول الله وقوته .

ـ كلام حلو يبرد القلب سمّعه للأصحاب .

ـ بعد العقد والجزم والا الحالة هي الحالة .

ـ ها السوق البرّاني . ها الطريق الطالعة وها الهابطة . اختر لنفسك .

ـ شف أنت . انا اخترت .

ـ باسم الله أنا معك التحتاني جرّبناه بلا ربح ولا فايدة .

الخميس 20/17.

XII

قبلَ أن يرسم يتخيل أنه أميّ

بروست

(78)

السلطان المنهار . أقصوصة .

كانت في إنتظاره عندما نزل من القطار . فستانها أزرق ، شعرهـا مسرح الى الوراء تسريحة عالية .

لمس بشفتيه خدّها ثم قبض على ذراعها ودفعها نحو الباب .

ـ كيف أحوال عائلتك ؟

إبتسمت ثم أجابت :

ـ كنت عند الحلاق من الخامسة الى الثامنة ثم عدت الى مكتبي في المدرسة واشتغلت .

ـ أختك متى وصلت ؟

ـ الساعة الثانية صباحاً . لم أنم إلا بضع ساعات .

إتّجهت نحو مربض السيارات . أوقفها قائلاً :

ـ لنقعد في مقهى ولو لمدّة قصيرة .

مرّا بدكّان الدخان المزلّج . توقّف ليشتري علبة سجاير ثم توجها نحو مطعم سمك يديره يهودي . جلسا في ركن مظلم . قالت :

ـ وسيم في هذه البدلة السوداء . هممت البارحة ان آخذ السيارة وألحق بك . شعرت بالوحدة .

سألها عن أخبار عائلتها . قالت :

ـ وصل الأولاد على الساعة التاسعة . بكاء وعويل منظر مؤلم لا يطاق . كلهم تخلّفوا عن الإمتحان . سنة ضائعة . أصغرهم سنّاً كان أشجعهم .

تكلّمت طويلاً عن الأولاد الثلاثة وعن الأم وتعقّلها وعن أختها هي وما تخفي لها الأيام بعد الفاجعة . كان يقول في نفسه . لماذا هذا الطرف

الكسير ؟

قرّرا ان يتناولا عشاء خفيفاً في المطعم ذاته وان يقضيا الأمسية في سينما . بعد الحفلة عادا الى بيتها وقضيا ليلة هادئة . وفي الصباح طلعت عليه جميلة جذابة .

- ستخرج متى ؟
- العاشرة .
- ومتى تعود ؟
- الخامسة تقريباً .
- إذن لن نتقابل طول النهار .

إقتربت منه وضمّته الى صدرها ثم خرجت ثم عادت وقبّلته .

تهيأ لمغادرة البيت . فكّر أن يأخذ السيارة . كتب كلمة ثم نزل الدرج ليضعها على الصوان قرب الباب . وجد كلمة موجّهة إليه تقول : إني ذاهبة الى المطار أرافق أختي . المفتاح في موضعه . مزّق الكلمة إرباً إرباً وخرج . أقفل الباب وابتعد ماشياً على قدميه .

قضى كل أشغاله ولما عاد على الساعة الخامسة وجد الكلمة فوق الصوان . فقال في نفسه : يوماً من الأيام سأذهب إلى سجلماسة .

(79)

هكذا كنت أكتب بعد ان تخلّيت عن قصص يامنة ورحمة وكلثوم ، بنات الريف الواردات على المدينة . ثم تخليت عن هذا النوع ايضاً . . جوزة فارغة . . الى ان تلاقينا ، خميطة .

إبتعد القطار وبقيت طويلاً واقفاً فوق الرصيف اتخّيلك أمامي . أقول لك : لا تخافي ولا تحزني ، طلقي القنوط والى الأبد . جئتُ الى البيضاء مجيباً دعوة الداعي وتعلّمت شيئاً واحداً . أقول وأؤكد : هذا ما أردت دائماً ، هذا ما أريد الآن . إنتِ وحدك ذات قيمة . قرأت في عينيك الشك والتردّد . إطمئنّي ثم إطمئنّي . الهوى ريح وأنا رائح إليك . فائدة الأسفار انهاتهيء

الفؤاد لكل إحتمال . جئت إلى البيضاء ثم عدت الى طنجة وأنا الآن ذاهب الى البيضاء ومنها الى طنجة لألحق بك . السفر حركة والعطف حركة !

خمط طابت رائحته فهو خميط خمطت الأرض خمط الرجل تكبّـر او غضب خمط الفحل هدر البحـر اضطربت أمـواجه الخمط ضـرب من الأرك الخمطة من نوْر العنب وشبيهه . قليل من كثير ، اختر ما تريد واسـرح بذهنـك أينما أردت . هل هناك علاقة ؟ العـلاقة أخلقهـا أنـت . لما تقـول : حبيبتي خميطة املأها بمـا تحب من عواطف . الأصـل لا يهمّ ـ ما في قلبـك الآن هو المهمّ ـ من سفح الجبل الى شاطىء البحر ، من السرة الى الأنف ـ إذن الوطن جسم يوصف بأسماء الأعضاء ـ في طريقي الى خميطة .

الصيف وأيامُه . علي واحلامُه . تعرّى من لباسه . طلّق الهم وساسه .

كتبت لـك يا خميـطة رسالـة بلا مضمـون . أين المضمـون منا جميعـاً ؟ إنفلت ونحن نجـري وراءه بـدون أمـل ، المضمـون الحق لا مـا نتخيّله مضموناً وهو صورة بـاهتـة لمـا ذوى واندثـر ولم يبق منه الا شـذرات مخنطة في الكلمات والجمل ، في الأبيـات والأمثال . السلطان المنهـار أيضاً رسـالة بـلا مضمون . لم نعد نملك سوى الكلمة كما لا يملك الرسّام إلا الأصباغ يتلاعب بها أو يوظفها لأغراض،مفروضة عليه . لا نملك سوى الكلمة والكلمة ذات معان مختلفة وكذلك الجملة وكذلك المقطع وكذلك الصفحة . ماذا أفعل أنـا وقد غدر بنا الموضوع وبقينا بلا ايمان ؟ أعـطيك مـرآة وعليك أنت ان تعكس فيها حياتك . أفعل بها ما تشاء . ضع فيها ما تريد . لوّنها بأي لـون تحبّ . هذا وجه من أوجه السلطان المنهار المتعدّدة .

غشت . أغسـطس . آب . أيـام الصيف تتشـابـه الألـوان وتتـوحّـد الطبيعة . أيـام الصيف يتحرر الإنسـان من حنق المدينـة . لكن أيام الصيف ترى الشر مجسّداً ولا تسترجع أبداً بعده طمأنينة الصبا وبراءة الصبا . سلطان آخر ينهار أيام الصيف . الصيف وايامُه . علي واحلامُه .

(80)

ـ حميده هنا ؟

ـ مشى للصديقية .

ـ مهما يرجع قل له يسامحني . أنا ماشي لطنجة . . ماشي دابا دابا ، خليت تاكسي في الباب . ياك فهمتني .

ـ ولا عليك فهمتك .

ـ قل له ما قدرت أتخلى عن طنجة . يعوّل علي في مناسبة أخرى بلا خلاف .

ـ غير سر بالسلامة . الكلام يوصل ان شاء الله .

ـ وسلّمي لي عليه . ما تنسيْ !

(81)

المشاركة واجب وطني . .

بعد خمسة أيام تبدأ المفاوضات بين اسرائيل من جهة ومصر والأردن من جهة ثانية تحت رعاية الأمم المتحدة . .

بلاي بوي مبتهج بجولته في أنحاء المغرب .

يوم السبت مقابلات نصف النهاية . اطليتكو ضد سانت إتيان . سطاندار ضد الجيش .

سنة 1966 انهزم الجيش أمام بوكا جونيور بإصابة لصفر .

مجموعة هذه السنة تكون كالتالي : علال . الحلوي . الفضيلي . عبد الله . مالقه . براهيم . خليفة . عبد القادر . مولاي ادريس . باموس . مصطفى .

ينتظر حضوره 15000 مشاهد . .

ثيو سرابو يموت في حادثة سير . . ذاك الشاب اليوناني الأصل الذي كان يعرف بإسم مسيو بياف لأن إديث بياف أرادت ان تجعل منه مغنياً ناجحاً وتفرضه فرضاً على الجمهور ولم تنجح . ثم ماتت وظهرت له صور في الصحف وهو يذرف الدموع . عليها ؟ أم على حظه التعس ؟ الآن مات أو انتحر . من يدري ؟

دار الكداري .

يسوقني القدر دائماً إلى هذه المدينة الملوثة لأعيش تجربة حبّ عقيم. لكن بحضورك سنضع حدّاً لعهد القصص المبتور ونستدرك أخطاء الأيام السالفة. في الجملة الأولى نبرة فيتزجرالد. لماذا؟ لأنه تكلّم عن العودة الى بابل. عرف فيها حبّاً ساطعاً وترك فيها إبنته في حضانة أخت زوجته. ولما عاد إضطر الى ان يستمع الى محاكمة طويلة. كنت ضعيفاً. كنت سكّيراً ـ كنت مغامراً. كنت حسوداً. دفعت أختي دفعاً إلى مستشفى الحمقى لأنك ايرلندي لأصل لا تعرف معنى للمروءة. والبنت في الغرفة تستمع الى محاكمة أبيها. تلك هي المرأة الامريكية وذلك هو الرجل الامريكي وتلك هي العواطف التي يقال عنها إنها بشرية. أعود الى مدينة الدخان حيث حكم علي القدر ان أحيى تجارب خائبة. تتكون الجملة وفي الحال تبتعد عن الشعور الدفين المنقوش في أي موضع؟ القلب؟ الفؤاد؟ الكبد؟ يسألونك عن الروح.. طيب.

نصل إلى الجملة الثانية.. نبرة هيمنغواي.. ننسى المغامرات الفاشلة ونطمس آثار الإخفاقات السالفة. أغمض عينيك وفكّر بها تجدها هيمنغوائية. أفتح عينيك وأنطق بها تجدها تشير الى عوالم أخرى.. كيف؟ كل حياة قصة مبتورة مغامرة فاشلة تنتهي بطلقة في وادي الربيع (أيْداهو) يتردد صداها عبر كوبا وباريس ومدريد وإزمير الى اين أنا الآن، ولا شيء يربطني بها وبه سوى الكلمة. الكلمة تشير إلى كلمات أخرى في لغات أخرى. المشاعر مستعارة والتجارب مشتركة. أنا.. من أنا؟ تجربتي. تجربة من؟ إنعكاس سحاب في ماء جارٍ. قالها رجل في أرض جوج ومجوج. الحياة حلمٌ يعوب. نريد أن نصوّر، ان نعبّر، ان ننقش في الذاكرة، في اللبّ، في الفؤاد، في الذهن. كلام في كلام.

يبقى صحيحاً أني أخاطب خميطة الطيبة: أملي ان ينتهي بحضورك عهد التجارب الفاشلة.. الآن.. الآن.. لا دخل لفيتزجرالد ولا لهيمنغواي في هذا التوسّل. ربّي أنا نويت واللي حسنت نيته تحقّق مرماه. قالها من قالها واسمعناه. وخيطنا بأهدابه ربطناه..

عرباوه .

وزع الوزيعة ولا تخف . خذ العنق والكتف ، وخلّي الصدر والكراع . أما الراس ما كاين . . بقت الودينة يتيمة ، مقطوعة ومرمية تبكّي الحجر . الوطن جسد يوصف بأوصاف الأعضاء . . قف عند هذا الحدّ والا دخلت المحذور .

أقصوصة أخرى . قالت في قلب الظلام :

ـ العفو .

وبكت طويلاً في غرفة من غرف الفندق الهادىء النائم . من هي ؟ الجارة الامريكية نزيلة الغرفة رقم 215 . ربما عادت من سهرة في دار الأوبرا أو من المسرح وأنت من تكون ؟ ساكن الغرفة رقم 214 . . لا تستطيع أن تنام . . تسمع وتتخيل ان الزوج عاجز أو الزوجة ناشز . تبسم وأركب فلك فرويد الأمريكان ، يوصلك إلي حيث تريد وحيث لا تريد .

أقصوصة أخرى . . لا . . بدأنا بساكن الغرفة رقم 214 نخلص منه .

قام متأخراً صباح اليوم التالي ، بعدما ودّع زوجته وبقي وحيداً في المدينة الملوّثة الفارغة . نعم . بابل المعاصرة ، والوقت وقت صيف ، أواسط أغسطس . اجعل التاريخ العشرين من أغسطس ، إذن يمكن لك ان تقول بحق : ايام الصيف ترى الشر وجها لوجه . .

ـ نهارك سعيد . بوحدك سيدي ، تفضل الى هذه المائدة . تتفرج على المارّة .

إبتسم النادل إبتسامة عريضة . إختفى ثم عاد بزجاجة نبيذ . ملأ كأساً وقدمها للضيف الجديد . على ظهر لائحة المطعم ألصقت قصاصة قديمة كتب فيها : قرية في قلب باريس . . أسماء شخصيات أكلوا في المطعم وأعجبوا بطبخه .

ـ دخلت هنا بالصدفة . أؤكد لك أني لم آكل أبداً أكلاً أجود وأحلى من أكل هذا المطعم . طبخ الأردش والبرّي ، البرّي وطن جورج ساند . .

كان الأكل لذيذاً بالفعل .

يأكل وفي أذنيه رنين كلمة الأردش . يأكل ويفكّر بجميع الذين نزعوا

نزعاً من أرضهم ومحيطهم ، أرض التين والزيتون ، وتاهوا في بلاد المداخن . صاح ، بدأ القارب يحدو بك الى جزيرة هيمنغواي . جذّف بقوة وأبتعد . أبتعد . لا بدّ أن أقول كلمة واحدة ثم أودع أمبراطورية هيمنغواي الأدبية . كان يأكل ويشرب ويفكّر بمن حرقتهم معاشرة أصحاب المال . المال يقضي على الفكر والموهبة . المال يجعلك تقول ما لا تعتقد وتصف ما لا تستشعر . المال لعنة . . بدأنا نبتعد عن جزيرة هيمنغواي بدون أن نجذف ونقاوم التيار . أترك الكلمات تتوالى ، الواحدة تدفع الأخرى ، ودون ان تشعر تغادر من لم ترغب في مجاورته . تريد أن تعود الى مياه هيمنغواي الإقليمية ؟ طيب . جملة واحدة وكفى . انهيت الأكل وكان لذيذاً . طلبت زجاجة نبيذ ثانية وكانت لذيذة ثم شعلت سيجارة وكانت أيضاً لذيذة . أكتبها هكذا لتعبّر عن التعاسة . وداعاً يا هيم !

أجاب :

ـ نعم أنا وحيد . ذهبت زوجتي الى شاطيل تداوي أمعاءها . وأنا أتذوق مطاعم العاصمة ، خاصة التي حافظت على التقاليد الريفية مثل هذا المطعم .

ـ أنت رجل محظوظ .

ـ نعم . أنا سعيد . لا تطلّع لي ولا طموح .

نهاية بعيدة عن هيمنغواي . نعم . الكلام يستتبع الكلام وتتميّز النبرة . . في آخر المطاف وضمن التجربة نفسها . هكذا فعلوا كلهم ، الصغار والكبار .

أصيلة .

الأمواج تلامس السور . . الذين انتشلوا من أرض التين والزيتون .

الموضوع ضاع وماع ، إنفلت وانفسخ ، تبخّر وتبدّد . . أنا علي نور في طريقي إلى خميطة وأصدقائها الكتّاب المغتربين ـ الذين انتشلوا من أرض القيقب والزان ، باحثاً عن موضوع .

النمسا قلب أوروبا . كان لها دور منذ قرون . يعرف أهلها أين يوجدون وماذا يصنعون ، منذ أن أوقفوا الترك أو كما يزعمون . ثم توحّدت

ألمانيا وأبعدت النمسا عن مستقبل الجرمان . لم تعد الأمبراطورية جرمانية وكل شيء في تنظيماتها جرماني . كان للطبقة الحاكمة وضع ، فقدته ، كان لها موضع أضاعته . أفرغت من محتواها وعادت قشرة بلا نواة ، إن انتفخت انفجرت . ليس الفراغ فردياً عاطفياً ، وانما هو ذهني عميق دائم . يعم الجميع ، الكل يدركه ولا أحد قادر على تغييره . . الموضوع ضياع الموضوع . من هنا إنطلق كل شيء ، ظهرت الحركات وتحققت الأماني . . البحث عن الأساليب الجديدة ، التقنيات المبتكرة ، في هذه الظروف بالذات ، يكون ذا موضوع . . موضوعية الشكلانية . . فرصة تاريخية تظهر ثم تختفي ومن جاء بعدها يحاكيها . . هؤلاء يبحثون عن الصورة الملائمة لموضوع قائم عامّ يسبحون كلهم في فلكه . . ونحن نجري وراء المضمون الملائم ولا نجده . .

ماذا يبقى لنا ؟ الرمزية التلقائية . . كل عمل يشير إلى مستور . . الإنسان حيوان حاكٍ . . يستحضر بجوارحه الأفعال وبلسانه الأقوال لأنه يظنّ ، ربما عبثاً ، انها إشارات وهكذا عود على بدء . . كل شيء يصلح ان يكون موضوعاً . . أضحك يا سامع !. مهزلة ؟. لا . سراب ، به نعيش .

لكن خميطة التي تنتظرني في محلّ معلوم ـ ليست بسراب !

طنجة

دقّت الساعة الثالثة وبدا على الرجال والنساء ، الواقفين والجالسين في قاعة الانتظار شيء من السأم . كان القطار قد تأخّر على موعد وصوله بأكثر من نصف ساعة دون ان يأبه أحد بإخطار المنتظرين . جاءت خميطة لتستقبل علي نور كما كانت تستقبل خوان أو ريكاردو أو أندرو عندما كان أحدهم يعود من سبتة أو من جبل طارق . كيف ما كانت وسيلة النقل ـ باخرة ، حافلة ، سكة ـ يجد المسافر نفسه وسط هذه الساحة التي تظللها أشجار النخيل والتي تتفرّع عنها أزقّة وممرّات ، بعضها يتّجه الى القصبة ،بعضها إلى السوق الكبير ، وبعضها الآخر ألى المدينة الجديدة . كان مطعم خميطة يوجد في زقاق ضيّق يبعد عن الساحة بأقل من مائة متر . جاءت الى المحطة بلباس خفيف لكنها حملت معها تريكو من الصوف لأنها كانت تعرف ان طقس طنجة لا

يؤتمن . وقفت تنتـظر وهي تشعر بـطمأنينـة تامـة كمن مكث طويـلاً في حمّام ينـظف جسمه ويـدلك أعضـاءه . كانت تعيـد في ذهنها هـذه الجملة : السفر حركة والهوى حركة . . جناس حسب علي نور ، تلاعب بمدلول الكلمات .

سُمـع صفير بعيـد تلاه إعـلان . وقف المنتظرون وتجمّعـوا حول البـاب الضيق المطل على السكة . لم تبرح خميطة موضعهـا تعدّ التـواني وتقول : نعم السفر قاتل الحب ، السفر باعث الحب .

طلع عليها علي نور مبتسماً أنيقـاً نحيفاً ـ حـدقة زرقـاء متلألئـة ، أسنان نـاصعـة ، أنف رقيق منحـوت ـ قـالت : وسيم والله وسيم ، أُرفيـو نيـرو . ضمّها إليه تلقائياً دون أن يقـول كلمة واحـدة . إحتفظ بحقيبته الصغيـرة في يده اليسرى وبيده اليمنى قاد خميطة نحو الباب قائلاً :

ـ توقفت في البيضاء عند أغرام لأعتذر . وجدته قد إلتحق بالصديقيـة . جاء وقت الاختبار لهم جميعاً . أما كان يمكن ان نلتقي هناك ؟

أجابت بصوت هادىء معسول :

ـ يكاد الصيف ينتهي هنا . سيتغيّب كثير ممن أريد أن تجتمع إليهم . لا يعودون إلا في أواسط مارس ، لهم مواسم مثل الطيور .

أردفت :

ـ المطعم قريب . منتصف هذه الطلعة على اليمـين . عندمـا نصل خـلّ الحقيبة وخذ حريتك الى غاية السابعة . تفسّح في المدينة . . الشاطىء يميناً ، السوق الكبير شمالاً ، مكتبات شارع باستور قدامك .

قال :

ـ سأذهب إلى الشاطىء .

ـ لكن خذ ما يلزم . إنتبه إلى هذه الريح . . لا تفارقنا أبداً . .

توقف علي نور في بداية الطلعة وأرهف السمع .

ـ نعم نغمة كنغمة الناي ، حزينة .

دفعت خميطة باب المطعم . وجد عـلي نور نفسـه داخل قـاعة مـظلمة . سمع صوتاً وراء الكنطور على يسار الصالة . قالت :

ـ هنا بيتي ، تفضّل .

إتجهت نحو خامية من الملف الأحمر . جرّتها فانكشفت عن درج يوصل الى الطابق الأول .

ـ هنا غرفة الضيوف . . أنتظرك في الصالة .

غرفة فندق من الدرجة الثالثة . وضع علي نور حقيبته فوق طاولة خشبية وتقدّم نحو المغسل . بدأ يغسل يديه ويفحص وجهه في المرآة . قال : خميطة ، صحيح كل ما كتبته إليك . لا تخافي ولا تحزني . مهما يكن من أمر الماضي ، ماضي أنا وماضيك انت . لقد تلاقينا . . فرصة يجب أن نرعاها . .

(82)

الساعة الثامنة . مطعم المنزه مغلق لسبب طارىء . هذا ما كتب على الباب بالاسبانية والفرنسية . لكن من وراء الزجاج كانت تسمع أصوات حركة دائبة : خطى خميطة بين المطبخ والقاعة ، احتكاك الكؤوس على الكنطور ، أصوات وليم وريكاردو ، تنقيطات أندرو على القيثارة . كانت خميطة قد غيّرت الصورة والهيئة والهندام . سرّحت شعرها الى الوراء وغرست فيه فوق أذنها اليمنى وردة حمراء ، ارتدت بلوزة بيضاء مطرّزة وجوبة طويلة ذات أهداب كما لبست أحذية ذات كعب عالية . قال علي وهو يحدّق فيها : « إمرأة ذات ألوان » .

جلس بجانبه وليم ممتقع الوجه في يده كأس من الويسكي الإرلندي :

ـ إسمع كلام مجرّب . ما يصلح لهذا البلد وهذا الطقس هو الويسكي الإرلندي . قضية ماء وأملاح . أشرب ثم نم . استيقظ تجد رأسك خفيفة وجسمك نشيطاً مستعدّاً لأي عمل دون لجوء الى أي مشروب آخر .

اقترب ريكاردو وعلى شفتيه ابتسامة عذبة وليدة كأسي مارتيني أحمر . قال موجهاً السؤال لعلي :

ـ قل لي يا صديقي المهذّب ما هو موضوعك ؟ في أي شيء تكتب ؟ منذ عشرين سنة وأنا أحاول أن أكتب حول لا شيء ولا أجد إلى ذلك سبيلاً . الحق ان السبل كثيرة ملتوية متقاطعة وهذا هو المشكل .

ثم مشيراً إلى وليم بذقنه :

ـ ما يسميه ويسكي إرلندي خليط من جميع الأنـواع . لا أحد يستسيغـه سواه . .

صفّقت خميطة :

ـ تفضّلوا لن ننتظر أكثر . الغائب خائب . علي اجلس على يميني ، وليم على يساري وأندرو أمامي . تفضّلوا بكؤوسكم .

جلس الجميع إلى المائدة المليئة بأنواع المشهيات ، السمكية والخضـرية ، الطازجة والمرقدة . قالت خميطة :

ـ حضرت لكل واحد منكم ، حتى الغياب ، ما يهوى . ستـأتي الأطباق في وقتهـا . من لم يعجبه طبق فلينتـظر التـالي . عليكم بـالصبـر ولا تكـونـوا نهمين . أزيد كلمة واحدة في شأن ضيف اليوم . كـان من الممكن أن تلاقـوه عندما كنتم تحومون حول مكتبي في شارع الجـامعة تتـوسلون مني أن أتدخـل عنـد قسم الحسابـات لإعطائكم تسبيقـات . . هذا لم يحصـل . ما لم يحصـل البارحة حصل اليوم . أريدكم أن تستدرجوه الى الكلام . أعلم أن عـادتكم عكس ذلـك . انكم تكـرهـون من يتكلم وتحبـون من ينصت .لكن اليـوم ستفعلون مـا أقـول لأني أطلبـه منكم وألـحّ . . عـلي نـور يـاتينـا من داخـل البلد . . لنسمع إليه . سـأبدأ بـطرح سؤال عليكم جميعاً . ليـحكِ لنـا كل منكم الحكاية التي يودّ أن يكتبها وإذا لم يستطع فليوضّح لنا الأسباب .

ـ أنا . . أنا . .

ـ ريكاردو !

ـ حبيبتي كلمـة واحـدة من فضلك . لي أسبقيـة . قلت منـذ قليـل إن مـوضـوعي هـو لاشيء . أحبّ أن أتكلم عـلى لا شيء . . لا فعـل ، لا كـلام ، لا وجـود ، لا شعـور . . لا حـركـة غـير السكـون ، لا كـلام غـير السكوت . عشرين سنة وأنا أصف اللاّشيء ولما أخلص . لذا ألجأ هنا ، في هـذا الجمـع الـودّي ، الى السكـوت . أتخـلّى عن حقي في الكـلام وأركـع للجميع ، لضيفنا الكريم ولك يا ربّة الجمال . . والطعام .

ـ طيب قبلنا مطلبـك وأودعناك لعـالم الصمت والسكون . من يبـدأ . . وليم ؟

ـ لا . . ما زلت في حاجة الى كأسين على الأقلّ .

ـ إذن الكلمة لعلي .

رفع علي نور بصره فرأى أندرو يحدّق في وجهه . كل شيء فيه لامع ، الشعر الوجه الأسنان . نعم صدق من قال : الدعوة موجّهة للأسود والأحمر .

ـ قرأت اليوم وأنا في القطار خبراً في الجريدة يقول : طالب يحاول أن ينتحر . . لا زال سكان زنقة الجبرتي يتساءلون عن الأسباب التي دفعت احد جيرانهم ، طالباً في الجامعة ، أن يضرم النار في الطابق السادس من العمارة . وقع ذلك بالضبط يوم العيد حين كان الناس يتزاورون ويتبادلون الهدايا . جاءت الشرطة وجاء رجال المطافىء . فوجودا الباب مقفلاً . صاح الطالب من خلف الباب : أتركوني لحالي ، أريد أن أموت ، هذا شغلي . قال أحد الجيران : كان في الظاهر ذا أدب وحشمة . أنهى دراسته ، يسكن بوحده ، لا تواجهه صعوبات فيما يبدو . إن ظاهرة الإنتحار جديدة بيننا . . أسبابها ؟ الضغط النفساني ، مرض المدن الكبيرة ، ثم أمور غامضة . يسقط الشبان ضحايا موضة غريبة عن تقاليدنا العريقة . لماذا لا تنشىء الإدارة قسماً خاصاً للإسعاف ، مثلاً خطّاً هاتفياً تلجأ إليه تلك الأرواح الحائرة الضائعة في ظلمة الليل ووحدانية المدينة ؟ .

ـ صحفي مبتدىء .

ـ لا عمق في التفكير ولا وضوح في التعبير .

تدخلت خميطة :

ـ الحكاية استهوتني . لماذا لا تكون موضوع قصة ؟ هذا يوم عيد ، الجو مملوء بعلامات الفرح ، في العمارة طرب ورقص ، في الحديقة العمومية تصايح الأطفال ، في الطابق السادس شاب وحيد ، أنهى دراسته الجامعية ، يجد نفسه على عتبة الحياة والمسؤولية . وإذا به يغلق الباب ويضرم النار في غرفته . يتسلّل الدخان من الشقق ، يحضر شرطي المرور ويبدأ حوار مضحك مبكٍ وأخيراً يُفتح الباب ويخرج الشاب مطرق الرأس دامع العين . ماذا دار في ذهنه حيث أضرم النار في الأثاث ؟ أين قواعد الأدب ، تقالد

المجتمع التي كانت تشدّ أزر أمثال هذا الشاب ولا تتركه أبداً يشعر بالوحدة والهجران ؟ إذا تفككت عرى التكتّل باي شيء نعوّضها ؟

قال أندرو متابعاً حلمه الطويل :

ـ لقطة من فضلك ثم لقطة ثم أخرى . كم صورة لتأليف كتاب ؟ من المخرج ؟

ـ صحيح . نبدأ بالوصف . . المدينة ، الحديقة ، العيد . ثم ننتقل من المجتمع الى الذهن ، من البراني الى الجواني . . نحلّل نفسانية الطالب ، إنسلاخه عن العائلة وتقاليد المجتمع حتى لحظة الإقدام على المحظور . وأخيراً نستخلص العبرة ونحاكم المجتمع ونوضّح الإصلاحات الضرورية . لقد كتبنا . .

مسّ خوان شنباته المصفرّة بالتبغ ثم قاطع خميطة :

ـ لمسة واقعية ، لمسة رومانسية ، لمسة إنتهاء . دمعة إبتسامة غضب . كوكتيل محبوب . لماذا لا تجرّبه يا علي ؟ قرّاؤك لم يسأموه بعد . ممتنع على وليم لا عليك أنت .

ردّ علي بتوتّر :

ـ أنا أول القرّاء . أقرأ لغيري ولنفسي . أحسبني إذن من قراء وليم الذين سئموا الكوكتيل المذكور . لو لم أقرأ الخبر في الجريدة لما تخيّلته ولو تخيلته لقلت لنفسي : هذا استذكار !

كان وليم قد شرب الكأسين الفاضلين من حسابه فتدخل بحزم :

ـ أسمح لي أقول كلمة . منذ زمن طويل قرّر أوسكار وايلد أن الحياة تقلّد الفنّ . هذه حقيقة لا نزاع فيها .

ـ طيب وماذا تستنتج منها . الحياة تقلّد الفنّ . الحياة في أي مكان تقلّد فنّ أي مكان على هذه البسيطة . وهذه بالضبط هي المشكلة .

إبتسم ريكاردو بخبث :

ـ إلي ، إلي يا أولادي ، أدرجوا . هذا مشكلي منذ عهد فرجيل . تعرفون فرجيل وما فعل ؟ قلّد هومير . قضية هامشية في هذا المقام . . لنتركها .

تابعت خميطة :

ـ أنــا أعجبتني القصــة : شــابّ في مقتبـل العمــر ، شقـة في الــطابق العلوي ، الحوض وحوله الأطفال بأزياء العيد . أتصور فلماً بالألوان . .

وسرحت . قبض علي على يدها قائلاً :

ـ خميـطة مرهفـة الإحساس تعـطف على الشبّـان . هذه قصـة تهمّني من جانب واحد ، الحوار بين الشابّ والشرطي وبـين الشابّ ورجـال المطافىء ثم الكلام الجاري بين الجيران . إلتقاط النغمة . لكن هذا هو السهل الممتنع .

إعترض وليم وقد إستعـاد كل قـواه الذهنيـة بعد أن استـوفى حصّته من الويسكي :

ـ ولماذ ؟

فأجاب ريكاردو مستهزئاً :

ـ أنا أفهمه . إذا قال ممتنع فهـو ممتنع ، دائـماً بسبب القرّاء . لكن هـذه المرة لا دخل للكاتب في القضية .

قالت خميطة موجهة الخطاب لعلي :

ـ ممتنع فليكن . وبعد ؟

ـ بعد ؟ يلاحقني الشعور أني أنقل من لغة الى أخـرى أو من شكل إلى آخر . تذكّرت وأنا أقرأ الخبر أني شاهدت فلماً أمريكياً مـع مجموعـة من النقّاد السينمائيين وكان العرض بمثابة تجربة . شابّ ، ربما عائد من ميدان القتال ، يصعد الى سطح ناطحة سحـاب في إحدى كبـريات المـدن ويقف على حـافة الشرفة . بادىء الأمر لا يأبه به أحد ثم يلمحه مارّ وينبّه الآخرين . فيحتشد الناس متسائلين : ماذا يفعل هناك ؟ سكران ؟ معتوه ؟ مرويص ؟ بعد حـين يقول أحد المتفرجين : خـائف . . لازم إنقاذه . ثم يـأتي أبوه وهـو شرطي . يطلع الى السطح ويقترب منه هـامساً بصـوت حنون : روبـرت ، روبرت . وفي نفس الوقت يحضر رجـال المطافىء بـالسلالم والكشّـافات ويبسـطون شبكة سيـرك تحسّباً لإقـدام الشابّ عـلى القفز في الهـواء . يطول الحـوار بـين الأب والإبن ونعرف عن الشابّ المتشائم كل شيء . شيئاً فشيئاً يقتـرب الأب ويمدّ يده الى إبنه . هل يقبض عليها أم بالعكس يفزع منهـا ويسقط في الفراغ ؟ لم

يعرف المخرج كيف ينهي الفلم فصوّر نهايتين وجمع النقّاد ليعطوا رأيهم في الموضوع .

قال أندرو في ذقنه بعد أن أصبح عاجزاً عن ضمّ شفتيه :

ـ كينان وينّ وريشرد بيزهارت .

تابع علي :

ـ تدخّل أحد الشبّان المتفرّجين في النقاش . الموضوع هو الوحدانية في المجتمع المعاصر . لكن الوحدانية نوعان . . إجتماعية وكيانية . المرء وحداني في المجتمع الرأسمالي لأنه فقد شخصيته وأصبح رقماً بين الأرقام ، وسيلة بين وسائل الإنتاج . والمرء وحداني في كيانه لأنه فقد الإيمان منذ أن كشف نيتشه عن فراغ العالم المعاصر . إن الله لم يعد يجيب الداعي لأن الداعي لم يعد يؤمن . كنت أقرأ الخبر بقلم صحفي مبتدىء وأتذكّر تفاصيل النقاش . فكيف أكتب في الموضوع وبيني وبينه سبع غشاوات ؟

ضحك وليم :

ـ شاهدتَ أفلاماً كثيرة . أسكت أنت وأترك الميدان لغيرك ممّن لم يستطع أن يشاهد أفلاماً كثيرة أو يطالع كتباً كثيرة .

ـ حسناً . الباب مفتوح للجميع . لكن إذا تُرجم ما يكتب ذلك الغير كيف يقرأه الناقد ؟

ـ ها ! ها ! . ولماذا الترجمة ؟ كل واحد في داره .

عقّب ريكاردو :

ـ أو في مخبئه .

ربّتت خميطة على كتف علي :

ـ لكن هذا الشابّ في مقتبل العمر أنهى دراسته . .

ـ مثل فولوديا .

تدخّل خوان لأول مرة :

ـ عند تورجينيف أم تشيخوف ؟

ـ تشيخوف . شابّ عمره ثماني عشرة في ضيعة أثناء عطلة . لا أتذكّر أي عطلة ، حوله نساء كثيرات ، يتهيّأ لامتحان مهمّ . هل إرتبط بإحدى

النساء ؟ لا أتذكّر . انما أتذكّر جيّداً أنه شابّ مرتاب خائف من الحياة . أخذ مسدّساً ، أدخله في فمه وأطلق العيار . فاختلط كل شيء وتلاشى .

وافق وليم :

ـ هذا موضوع قصة قصيرة بلا وصف ولا تعقيب ، بلا دمعة ولا إبتسامة . أنين الكائن تحت وطأة الكون .

ـ صحيح . . لا وصف ولا حوار ولا خطاب . إذابة العواطف الخاصة في أنين الكون . . نغمة رقّت ودقّت حتى أصبحت لا تكاد تسمع . الخلفية لكل أصوات الجوقة .

ـ قرأت كثيراً . ويا حبّذا لو لم تقرأ . غيرك ممّن لم يقرأ قد يكتب حول فولوديا بالجلباب وقد يُسمّى تشيخوف الجلباب والطربوش .

ـ أفرح بذلك لو . .

سارعت خميطة :

ـ لو أتيحت الفرصة ؟ . لو أستطعت ؟

أجاب ريكاردو :

ـ يا سيدتي الجميلة أنظري الى هذا الطبق الفارغ . أكلت كل ما فيه ولم يشاركني فيه أحد . لمّا كان مليئاً بالسمك كان يشير إلى الجميع ، كل منّا كان يمكن أن يأكل منه . أما الآن بعد أن أفرغ من محتواه فإنه لا يشير إلا الي أنا . أترك الظاهر الموجود الواقعي لمن يريد إحتواءه وألتفت الى إتّجاه آخر . لماذا لا ترافقني في تجوالي يا صديقي ؟

حذّرت خميطة :

ـ علي لا تسمع إليه . يدعوك إلى زورقة الجميل الأنيف . حتى إذا طلعت معه وجدتَه لا يحسن الملاحة . تريد أن تسأل وتستشير ؟ عليك بوليم رجل جدّ وإستقامة رغم إستِعْلائه وتشاؤمه الموروث . وليم أراك شغوفاً بحوادث السير والإجرام مع أنها تتشابه كلها . هذا قتل هذا وهذا دهت هذا . .

ـ لأني لا أكتب حولها . قرأت في جريدة تقريراً أخبارياً تحت عنوان : لا سلحبية للسيدة بلانشو . . السيد بلانشو عالم اجتماع كندي ، عمره تسع

وخمسون سنة ، متزوّج وله ولدان ، ذو مكانة بين زملائه ، ألّف عدة كتب ومقالات علمية يملأ تبثها عشر صفحات . جاء إلى باريس أثناء إجازة سبتية ليقوم ببعض البحوث . وصل يوم الرابع عشر من يناير ونزل بفندق هيلتون . يوم السادس عشر تقدّم لقسم الشرطة ليعلن أن زوجته ، أستاذة لغة ، غادرت الفندق صباح الأمس لتقضي نهارها في المكتبة الوطنية لكنها لم تعد . مكث الاستاذ في باريس حتى يوم العشرين ثم قصد سويسرا وشرع في تحرير كتاب جديد . لم يغيّر شيئاً من عوائده لأنه ، كما صرّح بذلك الى البوليس، قد تعوّد على نزوات زوجته . . مرّت الأيّام حتى جاءه يوماً شرطيان من لوزان وأخبراه أنهما عثرا على جثّة قد تكون لزوجته . فلم يصدّقهما . قالا : هناك حلّ هو أن نقارن أسنان الجثة بصورة أسنان السيدة بلانشو . فوعد أن يكتب في الموضوع الى طبيب العائلة . يوم الثاني عشر من ماي غادر الأستاذ بلانشو سويسرا متوجّهاً إلى لندن ومنها إلتحق بفانكوفر . وبعد مدة توصّل البوليس بصورة سينية لفكّ السيدة المفقودة وتابع تحرياته . ثم وقعت المفاجأة . ذهب الأستاذ عند الشرطة الكندية واعترف انه زوّر الصورة . لماذا ؟ لأنه حسب زعمه لم يتحمّل فكرة إستدعائه للتعرّف على الجثة . لكن هذا التفسير لم يقنع البوليس السويسري الذي بدأ يتساءل : لماذا أقدم على التزوير ؟ هل ندم على ما فعل أم يحاول بإعترافه استدراك خطأ قد يؤدي إلى إدانته عندما يكتشف ؟ في الحادي عشر من يناير جاء الأستاذ بلانشو ليرأس جلسة في مبنى اليونيسكو فألقي عليه القبض لدى وصوله لمطار أورلي . اليوم يمثل أمام محكمة الإدانة للنظر في طلب تسليمه للقضاء السويسري . أمام القاضي تتكدّس رسائل من زملاء الأستاذ تشهد بحسن سيرته وتستبعد كلها أن يكون مرتكب جريمة . الأستاذ يشكو من طول السجن ومن إنقطاعه عن البحث والتأليف . المحامي يعترض على التسليم حيث أن الشرطة السويسرية لم تعط سوى قرائن متضاربة . إكتشفت الجثة عشرة كيلومترات بعيداً عن الحدود الفرنسية شهرين بعد إختفاء السيدة بلانشو . كيفية الموت مجهولة : لا أثر لضرب أو جرح أو تسمّم . . تاريخ الجريمة مجهول وكذلك مرتكبها . يسأل القاضي : يا أستاذ تدّعي أنك تحبّ زوجتك وترفض أن تتعاون مع

الشرطة السويسرية لمعرفة حقيقة ما وقع لها ؟ يجيب المحامي : سعادة القاضي إن الشرطة لا تتّهم الأستاذ بكيفية واضحة وانما تطالب بإحضاره . ماذا وراء هذا الطلب ؟ أليس هناك إستدراج ؟ إذا قلت شيئاً مبهماً أو فعلت فعلاً مثيراً ألا تستعمله الشرطة ضدّي ؟ هذه التساؤلات هي التي تدور بخلد الأستاذ وهي التي تقلقه . بلانشو رجل نحيف أصلع أصفر الشنبات من كثرة التدخين ، يحمل نظّارات سميكة . هذا رجل قتل زوجته ؟ مستحيل . الشرطي نفسه يتردّد عند نهاية الجلسة قبل أن يعيد الى يديه الأغلال . يصدر الحكم يوم الثلاثين من الشهر . هذه الصفحة الواحدة بعد المائتين والقصة لم تنته بعد .

ـ وماذا كان الحكم ؟

ـ لا أدري .

ـ قصة مثيرة . أودّ لو أقرأها .

ـ وأودّ لو أكتبها . إذا نجحت أربح مالاً كثيراً .

قال علي :

ـ يمكن أن تنطلق منها وتكتب ما تريد .

ـ لا شكّ . هكذا يفعل الناس . يقرؤ ون كل صباح عشرات الصحف ويستقون منها أفكارهم . . القاتل والضحية والقاضي والشرطي . . قصة واحدة تكتب وتعاد . . الخبّاز يخبز والجزّار يجزر والقصّاص يقصّ ، لكل صانع زبون لا يشبع ولا يسأم . .

يُسرّ ريكاردو لعلي :

ـ إنه يكتب قصصاً بوليسية تحت إسم مستعار .

تفضح خميطة السرّ :

ـ صحيح يا وليم انك تكتب سرّاً حكايات بوليسية ؟

ـ حبّذا لو فعلت ! كنت أعيش في رخاء . ليست الصعوبة أن تكتب قصّة بوليسية بل أن تكتب نفس القصة مراراً تحت عناوين مختلفة . أشكو من ضحالة مخيّلتي . لذلك لجأت إلى أدب الأسفار . في بلدي الكاتب لا يعيش إلا بالقصص البوليسي أو بأدب الأسفار . قد يعيش أيضاً ، ولكن بصعوبة ،

اذا كتب في فنّ البساتين أو الاقتصاد العائلي .

سأل خوان بتواضع بيّن :

ـ هذا لأكل الرغيف . . وما وراء الرغيف ؟

حدّق وليم في كأسه وكأنه لم يسمع السؤال :

ـ اللعنة على الأعمى البغيض الذي انتقم من أسياده وقاهريه بتفجير لغتهم . لا حقّ . . لا حقّ ! .

وخبط بيده اليسرى على المائدة :

أسرّ ريكاردو لعلي :

ـ عدوه الشخصي ، جويص الإرلندي ، عرفه في باريس وتتلمذ له ثم ثار ضده .

عاد خوان إلى السؤال بنفس اللهجة المتواضعة :

ـ وراء الرغيف ؟

ـ وصف أنواع الذباب . . كلام الذباب . . حياة الذباب الجنسية .

يلتفت إلى خميطة :

ـ لا عليك ، سيدتي المضيافة العاطرة . لا ذباب في مطعمك . إنما حولك . أركب زورقاً وأقطع المسافة بين طنجة وطرفاية . أميّز المناطق بذبابها . . كداروين في جزر السلاحف .

يشير إلى أندرو الحالم :

ـ لا يريد أن يصوّر الذباب . عرضت عليه مراراً أن نُخرج كتاباً نحن الأثنين . لا زال يعشق الثيران ويفضّل مرافقة خوان . لم يدرك بعد أنه جاء متأخراً بثلاثين سنة . لم تعد أسبانيا تجذب الانجليز . . نسوا كل شيء .

يرفع كأسه تجاه علي :

ـ الحقيقة أني لا أفهم ماذا تعني . أنظر إليك وأقول لنفسي : هذا رأيته في عدن ، في وطن عبد الله المجنون . . الشمس والذباب . . هنا ريح ونيلة ، هناك عواصف ومرجان . . لا أفهمك سيّدي ولا أنت سنيور .

تدخلت خميطة بحزم :

ـ فهمنا . ننتظر حتى تأتي على الكأس العاشر . أترك خوان ، هذا أمر .

ـ حاضر . . سيدتي الكريمة . لا أكلّم خوان البتّة . لا شيء يجمع بيننا . . أنا حرّ وهو عبد .

ـ خوان لا تجبه . لكن قل لنا : هل أنت عبد ؟

ـ نعم أنا عبد والعبد لا يتكلّم بحضور الأحرار . أعترف بعبوديتي وإن كنت غير راضٍ بها . أنا مقيم على عتبة السجن . . داخل خارج . . كل يوم بحاله .

طلب خوان زجاجة نبيذ . منذ أن بدأت الوليمة وهو يتذوّق أنواع النبيذ مع كل الأطباق . يأكل قليلاً ويشرب كثيراً كعادته . :

ـ أنا سجين الكلمة ، سجين دون كيخوته ، المرآة السحرية . تراها عن قرب وتقول سأبتعد . تبتعد فتراها كما رأيتها أولاً . تقول سأعكس المنظور تعكس فلا يتغير المنظر . الجدّ هزل والهزل جدّ . وبين يديّ أنا أيضاً يستحيل الهزل جدّاً والجدّ هزلاً . . غصباً عني .

علّق علي :

ـ عندنا عبارة تقول : فلان يدخل ويخرج في الكلام . عندكم ما يقابلها ؟

أجاب خوان وعليه آمارت الكآبة :

ـ أنا من الشمال . جئت إلى هنا لأرى شؤون وطني مقلوبة ، آملاً أن قلبها يردّ إليها وجهها الطبيعي . آمل والأمل غير ممنوع .

وفجأة وضع وليم كأسه دون أن يفرغه من سؤره على المائدة . في نفس الوقت مالت رأسه نحو ذراعه اليمنى الممدودة أمامه . فقطع الكلام على الجميع .

الجمعة 21/18

XIII

أذؤب هامت بلحمي فانتهاش وانتهاس

ابن زيدون

(83)

إعتلى الباشا الكرسي المغلّف بجلد مدبوغ قديم والمرتفع بالنسبة لباقي المقاعد المتناثرة حول الطاولة المغطاة بقطعة من الملف الأخضر . أخرج من جيبه علبة سجائر أمريكية واختار منها لفافة . فحصها من كل جوانبها ثم طقطق بها على سطح الطاولة كأنه يعلن عن افتتاح الجلسة . أثبت اللفافة بين شفتيه ثم أشعلها بولاّعة فضية كان يضمها في كفه اليسرى. رفع رأسه وأطال النظر في مجموع الحاضرين ثم قال :

ـ أرحّب بالأخوان وأعبّر عن فرحتي وسعادتي بحضوركم كلكم بيننا هذه الأيام . أعتذر لكم اني جلست في هذا الكرسي المتعالي لا لأترأس الجلسة . في الحقيقة أنا تعودت عليه وهو تعود علي (ضحك ضحكة لطيفة) وجلست فيه كذلك لأنكم قررتم الاجتماع في دار المخزن . ولكن النقاش بينكم حرّ . أنا لا دخل لي . أسمع وأسجّل الرأي المتّفق عليه . بالنسبة لنا كل فرد يعمل لصالح البلد هو نائب عن سكانها وممثل لهم بلا اقتراع ولا تصويت . لا فرق عندنا بين أعضاء المجلس البلدي وأعضاء لجنة المساندة . كل واحد منكم صاحب تجربة وعنده أفكار . أسجّل بارتياح أنكم ألغيتم كل الاعتبارات الشكلية وجلستم مختلطين حول هذه الطاولة . أمامنا اقتراح مهمّ يدعو إلى تنظيم مهرجان للطرب الشعبي . قبل أن نفتح باب النقاش أعطيكم بعض المعلومات . لما عينت باشا على الصديقية إطّلعت على ملفّ حول تنشيط المدينة وبين الإجراءات المقترحة كانت فكرة إحياء الموسم التقليدي في ساحة ضريح الولي صاحب البلد . لكن لمّا أردنا تحقيق الفكرة دخلنا في مشاكل لا حدّ لها لأن ورثة الولي غير متفقين ومتخاصمين هذه سنين وسنين . إرتأينا أن نترك الأمور على حالها حتى يصفو الجو بكيفية من الكيفيات . وكانت اقتراحات أخرى

لكن واجهت نفس الصعوبة لأن الموقع المعروف والتقليدي لتنظيم أي مهرجان أو اجتماع هو في حرم السيد . هذا بالطبع زيادة على مسألة الرخصة والإعانة . .

توقف الباشا فجأة وتلفت نحو سرحان :

ـ حسب ما سمعت أنت صاحب الفكرة ؟

ـ في الأصل . . لا . كانت رائجة في المدينة قبل وصولي . انما لما عرف البعض أني أهتم بالموضوع إتّصلوا بي . أنا أهتم بالفعل بتسجيل الغيطة ومستعد للمساهمة في المشروع في حدود إمكانياتي . فكّرت ان يقترن تنظيم المهرجان بعملية تعمير الملاّح . .

شدّ الباشا رأسه بكلتايديه :

ـ الملاح ؟ مصيبة !

ـ أنا فاهم . الملاح خرب وأصبح مزبلة تضرّ بصحة السكان . إذا حلت مشكلة الملكية يمكن للجمعية ان تتدخّل (مخاطباً أغرام) على ما أظن سي العامري عنده ما يقول في القضية .

أجاب أغرام :

ـ فعلاً مشروع سي عبد الجليل مهمّ . بالحق هذا خارج اختصاصنا . إذا خلطنا شعبان برمضان تبقى القضية في الهواء .

ـ الأمور متداخلة .

ـ صح ولكن لا بد نقبض رأس الخيط .

تدخل رئيس المجلس البلدي :

ـ سعادة الباشا هذه مشاريع ما عندنا بها خبر . لا باس اعطنا معلومات .

ـ يا الحاج مصطفى ما هي مشاريع في الحقيقة . هي أفكار . إقتراحات ، كلام طائر .

ـ خلّينا إذن نتكلم في الواقع .

ـ طيب . الأمور واضحة . ما فيه أسرار . حتى الآن لا يوجد فندق واحد في الصديقية . الوافد علينا إما يسكن مع عائلته وإما يقضي حاجته في

نفس النهار ويرجع من حيث أتى . سي عبد الجليل رجل خير ويحب الخير للجميع . فكّر انه لو أصلحنا الملاح ورمّمنا ثلاث أو أربع دويرات تكون للكراء . تنتعش بها البلد ومنها تنطلق حركة سياحية . مع المهرجان تتحول حومة الملاح القديم الى مركز دائم لنشاط ثقافي . بالحق الصعوبة دائماً هي الملكية . لا بد من دراسة قانونية وإتصالات مع ادارة أملاك الدولة .

علّق رئيس المجلس على عرض الباشا :

ـ الملاح معلّق والضريح موقّف . يبقى حلّ واحد (متوجهاً الى شعيب) هو النادي .

خطف أغرام الكلمة من فم شعيب :

ـ فكرة هائلة . نبدا ونشوف العاقبة . إلا إذا تفضّل علينا سي سرحان وفتح لنا قصر الكدية .

ـ مرحباً بكم جميعاً . . لكن لما يكتمل يعنى . .

قاطعه أغرام :

ـ نقبل الدار على حالها . في الصيف الناس ما تهمهم إلا الفرجة .

استشفّ الباشا سيجارته بأنفاس متلاحقة وأطفأ العقب بعناية ملحوظة في المنفضة الواسعة الموضوعة أمامه ثم قال ملخصاً أقوال المتدخلين :

ـ نبدا متواضعين بعروض موسيقية في النادي أو في دار سي سرحان . ولا بأس نسمي التظاهرة مهرجان الغيطة .

إستدرك سرحان :

ـ أفضل نخليه خاصاً بمنطقتنا هذي .

ـ لا . نسجن نفسنا من البداية ؟ نسمّيه مهرجان الغيطة والطرب الشعبي . على ما حال المسؤول هو سي سرحان ،(ملتفتاً إلى البحبوحي) ياك ؟

إبتسم رئيس المجلس ابتسامة واسعة :

ـ ما كاين غيره .

ـ سي سرحان أنت قابل ؟

ـ بمساعدة الفقيه .

ـ مفروغ منه بلا نقاش . متى نبدأ ؟
ـ حسب الإمكانيات .
ـ إذن في الصيف المقبل إن شاء الله .
سأل البحبوحي :
ـ والإعانة ؟
ـ نخلّيها في البداية عملية تطوعية ترعاها جمعية المساندة . سي سرحان هو المكلّف بمساعدة سي أغرام . الكل موافق ؟

سكت الجميع فاستغرب سرحان :
ـ وشعيب ؟
ـ لعن الله الشيطان . بمساعدة أغرام وشعيب . والآن أعطى الكلمة للحاج مصطفى .

نزع رئيس المجلس البلدي طربوشه ووضعه أمامه فوق الطاولة . ملأ كأساً بالماء ، شرب ، حمد الله بصوت مسموع ، حدق في وجه الباشا ثم في وجه الخلوقي ثم عاد الى الباشا ، تنحنح ثم قال :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . احنا في المجلس البلدي في مقدمة السكان . نرحب بكل مبادرة لا تتنافى مع الدين والتقاليد والتوجيهات السامية لصاحب الجلالة . لذلك رحّبنا بتأسيس لجنة المساندة مع أنها تأسست خارج المدينة . قلنا لا بأس هؤلاء أولاد عائلات معروفة في البلد وعلى كل حال نيتهم حسنة . بالحق قاموا بأعمال كنا نتعجّب منها ونتساءل هي داخل أم خارج القانون ؟ كنا نقول : الأعمال بنتائجها . انما الإجراءات اللي قامت بها الجمعية كانت على مسؤولية أصحابها ومسؤوليتهم وحدهم . أسّسوا الجمعية والفرقة الرياضية ، فتحوا النادي ، شرعوا في التداريب ، نظّموا المحاضرات . .نسمع أن السيد الفلاني وافق والشخصية الفلانية ترعى الفكرة وتمدّ يد المساعدة . لكن كل ذلك بالسماع فقط . بعدها انحلّت الفرقة الرسمية واختلط الحابل بالنابل وحار السكان حيرة ما بعدها حيرة . هذي فرصة نتذاكر في الوضعية الخطيرة . بالطبع انا أتكلم باسم جميع أعضاء المجلس .

سكت الحاج البحبوحي . لم يعقب الباشا على تدخله بل أشعل سيجارة وراح يدخن بتلذذ بارز فيما كان الخلوقي منشغلاً بتنظيف اظفاره وتقليمها . خيم الصمت مدّة فتطوّع شعيب :

ـ تعنى ان موضوع هذا الإجتماع هو بحث تأسيس فرقتنا بعد كل هذه الشهور ؟ عمركم ما ناقشتم المسألة بينكم في المجلس ؟

ـ صحّ . عمرنا ما ناقشنا المسألة . . رسمياً .

تلفّت شعيب الى العشّوبي :

ـ والتبنّي ؟

ـ انا نقلت كلام سي براهيم .

أجاب نائب الرئيس بلهجة حادّة :

ـ كلام حول مائدة الطعام . ماله صبغة رسمية .

عقّب الحاج مصطفى :

ـ محاضر الجلسات الرسمية عند الباشا . فيها إشارة واحدة لهذا الموضوع ؟ لا . كانت مبادرة فردية والمبادرة حرّة في هذا البلد ما لم تظهر لها عواقب سلبية .

انعقدت حواجب شعيب وبدأ يحكّ ذقنه بعصبية :

ـ أمر غريب . هذه شهور والبلدة قائمة قاعدة وانتم في المجلس ما عندكم خبر . كأنكم في قرطاخنة . اجتمعتم المرة بعد الأخرى وعمركم ما تشاورتم فيما يجري تحت أعينكم ؟ كلام جدّ هذا ؟

ضرب البحبوحي بكفّه اليمنى على الطاولة حتى اهتزّ طربوشه وقال متجهاً الى الباشا :

ـ احنا اولاد اليوم . . صفحة بيضاء . ها الباشا ! هاسي الخلّوقي ! نبدا النقاش من الأول وتبقى الأمور واضحة تماماً .

ـ لكن احنا جينا نتكلم على مشاريع المستقبل .

ـ نفرغ من البارح ونعود نتكلم على الغد . هذا هو المنطق .

أشاح شعيب بوجهه عن البحبوحي بحركة اشمئزاز تنمّ عن اليأس من صدقه واستقامته . جال بأنظاره على الباشا والخلّوقي والعشوبي وأغرام

وسرحان . كانوا كلهم مطرقين كالمنشغلين بهموم خاصة عمّا يجري حولهم في صالة الاجتماع . عاد شعيب ليتفحّص وجه البحبوحي :

ـ غريبة والله غريبة ! . (بعد برهة) يا الله تفضّل يا سيدي فاش الكلام ؟

ـ في كل شي . . الأسباب الدوافع الأهداف الوسائل النتائج المسؤول أولاً وأخيراً . عهد السيبة فات ومات . كنّا في راحة تامة قبل الأحداث الأخيرة . كانت الأمور واضحة هذا هنا وهذا هنا . الآن اختلطت الأمور . ما بقى يعرف الانسان راسه من رجله . عمرنا ما شفنا المدينة في حال البارح .

قاطعه شعيب متعجّباً :

ـ كلامك هذا هو اللي ما عنده رجل ولا راس . يسمعك البرّاني يظن أننا هجمنا على بلد آمن وأذللنا السكان وسرقناهم . .

ـ رحم الله عبداً اعترف بذنبه .

ـ آه هكذا ! إذن ما بقى كلام هذا هو الحد .

دار شعيب نحو الباشا وعلامات اليأس بادية على وجهه . ابتسم الباشا إبتسامة عريضة فيها التشجيع وفيها التوبيخ. جرّ سيجارتين من علبته وقدّمها تباعاً للخلّوقي ولأغرام . تناول كل واحد منهما السيجارة المقدّمة اليه ووضعها أمامه . قال الباشا :

ـ طيب نعود إلى النقاش الهادي الرزين والصريح . (متحاشياً النظر إلى شعيب أو إلى البحبوحي) بصفتي باشا الصديقية أنا فوق الجميع وفي خدمة الجميع . بالحق لا بد استمع لرأي ممثلي السكان . المدينة تبنّت فرقة النصر . الفرقة وقّفت نشاطها ولكن رسمياً ما زالت هي فرقة الصديقية . لكن من جهة أخرى نرحّب بنشاط لجنة المساعدة المكوّنة من أولاد البلد . والفرقة الجديدة اشتغلت حتى الآن في نطاق القانون . إذن لا حق لي أن أتدخل إلا إذا كان لواحد من الحاضرين شكاية . فليتقدّم بها ونناقشها في الحين .

رفع أغرام رأسه ألقى نظرة خاطفة إلى الخلوقي كأنه يستأذنه ثم قال بتردّد محسوس :

ـ سي عبد الجليل كما نعلم جميعاً هو عماد لجنة المساندة . أثّث النادي ، صرف على الفريق ، اعتذر عن الحضور ولكن أكّد لي مراراً وللإخوان كذلك أن الجمعية لا يمكن ان تتعدى حدود القانـون . إذن لا بد للمجلس ان يتبنّى الفرقة الجديدة .

قطّب الحاج مصطفى وردّ بحزم :

ـ في الظروف الحالية مستحيل . . الله رفيق بعباده وإلا كنّا البـارح دخلنا في المحظور . ما بقى بيننا وبين الفتنة إلا شعرة . . الله ! تعلقوا بقشّابتي كأني أنا صاحب المصيبة !

ـ ها وصلنا للحقيقة قلها من الأول بصراحة .

رفع الباشا يده اليمنى مشيراً الى البحبوحي ان لا يردّ على شعيب . أخذ عمر الكلمة :

ـ سي مصـطفى قلت التبنّي مستحيل في الـظروف الحـاليـة . يعني يمكن تقبل بشروط .

ردّ رئيس المجلس في الحين :

ـ انا عبّرت عن رأي الجميع .

بعد سكوت دام بضع ثوان دار الباشا نحو الخلوقي :

ـ ما بقى غير نسمع رأي سي بنعيسى .

فرك الخلوقي يديه كأنه يستحضر الجواب :

ـ المهم هو الجواب على سؤال أساسي : الفريق هدف (محـدقاً في وجـه شعيب) أم وسيلة ؟

تفحص شعيب وجـه الخلوقي . فأنكـر ما رأى . لم تبق أية علاقة بـين الشخص الجالس أمامه وبين الـرجل الـذي استقبله بحفاوة بـالغة في الـرباط واستدعاه الى بيته وقدّمه لأهله . ما زالت الإبتسامة المعهودة لازقة بشفتيه غير انها الآن تبعث على التردد والقلق لا على الطمأنينة والانشراح :

ـ يعني ؟

ـ يعني نحكم بنتيجـة اليـوم أو بنتيجــة الغـد . اليــوم لا بـاس ، نتبنّى فرقتكم وحتى عشر مثلها . لكن الغد فيه ما فيه .

ـ والغد يا سي الخلوقي هو بيدي أو بيدك ؟

ـ ما تتغافل يا الفقيه وتحوّل الكلام عن مجراه ! (بعد صمت) على ما حال لا بدّ نسمع لرأي ممثلي السكان . كل واحد منا يسافر غداً أو بعد غد ، أنت وحدك مقيم هنا في الصديقية . لا بدّ تتّفق معهم ، تسمع لهم وأياك تعارضهم أو تطعن فيهم .

أدار الخلوقي بصره على الحاضرين في انتظار أن يطلب أحدهم الكلمة . كانوا كلهم مطرقين . همّ أغرام برفع يده ثم تراجع وبسطها فوق الطاولة . قال الخلّوقي مشجعاً :

ـ تكلّم حميدة .

ـ (بتردد واضح) نعم . عندي اقتراح ، في الحقيقة سي عبد الجليل كلّفني بعرضه أمام المجلس . نسند رئاسة الفرقة لمدير المدرسة .

قفز نائب رئيس المجلس البلدي مبدياً فرحته . كان على وشك أخذ الكلمة لولا أن نظرة فاحصة من رئيسه ثبطت عزمه وأفهمته أن الإعلان عن الفوز لم يحن بعد . فعاد وأغلق وجهه .

ـ آش تقول في الاقتراح يا حاج ؟

ـ الآن يمكن نتكلم بجدّ .

حاول سرحان عبثاً أن يقرأ على قسمات شعيب انفعاله لإقتراح أغرام . رغم هذا تساءل بصوت مسموع :

ـ رئاسة شرفية أم فعلية ؟

أجاب الخلوقي على التوّ :

ـ ما عندنا خيار على شعيب . هو المنظّم والمدرّب . لا واحد فينا يفكر في غيره . مهمتنا نحن أعضاء لجنة المساندة التوفيق والمصالحة . ما كنا حاضرين لّما بدأت العملية . ربما وقعت أخطاء أو تجاوزات عن حسن نيّة . فعلينا ان نصلح ذات البين ونلطّف الجو .بتعييننا مدير المدرسة على رأس الفرقة الجديدة نحافظ على هيبة المدرسين . من الغد يرفع رأسه ويمشي في المدينة بوجهه أحمر . نتفق من الآن أن المدرّب هو شعيب بمعية موسى العشوبي . بالحق نترك المبادرة للمدير . ونترك له كذلك الحرية لإدخال

تعديلات في الفريق . هكذا تبقى الأمور منتظمة مسترسلة بلا فجوة . المهمّ ما تظهر طغرة في سير الأعمال .

ألقى الباشا نظرة بطيئة شملت القاعة فاتحاً فاه ليعلن للجميع ان الوحي قد نزل . علق أغرام بحماس :

ـ هذا هو الحلّ . الآن لجنة المساندة محمية من كل جهة .

تركزت ألحاظ الباشا والخلوقي وأغرام على شعيب في انتظار إعلان موافقته على الإقتراح . أحس بوقع الألحاظ فرفع رأسه باتجاه موسى . رآه مطرقاً لا يبدي أي استعداد لأخذ الكلمة . حينئذ قال بنبرة مدروسة :

ـ عملي كله تطوّع . أنا مستعد أعمل في أي إطار .

تلقى الحاضرون هذا الإعلان المنتظر بارتياح كبير . لكن شعيباً فاجأهم عندما استطرد بعد توقّف قصير :

ـ أمر عجيب . أعرف كل ما يجري في البلدة . قمت بتدريب شبابها سنوات وسنوات قبل أن يأتي إليها مدير المدرسة . لعّابة الفرقة الرسمية أعرفهم وأعرف عائلاتهم ، كانوا من البلد أو من الناحية . فأتساءل : عمرهم ماذاقوا الهزيمة ؟

قفز الحاج مصطفى :

ـ هذا عناد . الأمور واضحة يا سيدي . النصر والهزيمة بيد الله . هذا مفروغ منه . . لو خلّيتم الناس على الطبع . ولكن قلتم للكبير وللصغير إنكم إخترعتم خطة لا تقهر . ما تخطر إلا على أذهان الألمان وان العدو مهما كان لا بدّ مهزوم . اليوم وغداً انفخ القربة وزد فيها في النهاية لا بدّ تتفرقع . وهذا اللي حصل البارح . وكان يحصل أسوأ منه . غير الله سلّم . هذي المرة سمعنا من الدراري الكلام القبيح والمرة الجايّة يرجمونا بالحجارة . أنتم عملتم العملة واحنا خلّصنا ثمنها . هذا ما هو حق ؟

علا صوت البحبوحي واحتدّت نبرته وظهرت الرغوة على ملتقى شفتيه . مدّ ذراعه مشيراً إلى السور خلف النافذة الزجاجية . في نفس الدقيقة انطلق بوق الحافلة الرابطة بين السالمية والبيضاء يعلن لجميع السكان ان الحافلة تستعد لمغادرة الصديقية . لم يلتقط كلمات البحبوحي إلا جاره

الأيمن وشعيب الذي كان جالساً أمامه :

ـ بحال القائد التريعي لما طلع فوق هذا السور يموّه على الجهّال ويصيح : تقدموا كور النصارى بارد . حتى هو كان من أولاد الرمى . . ها هم طالعين هابطين كل جمعة ولما جاء يوم الحق تفرقوا مثل الذبان . .

عقّب شعيب وهو يعرض عن البحبوحي :

ـ لا . . كنت مع التريعي فوق السور . . كلام العجائز .

ـ كلام الحق بلا زيادة ولا نقصان . اللي يعوّل على حوله يسقط في وحله .

صاح الباشا وهو يدق بولاعته الفضية على الطاولة :

ـ اقفلوا النافذة . . صداع هذا . (**بعد حين**) الحاج . . الفقيه . . اللعنة على الشيطان . . كلام زائد ناقص . المشكل انتهى باقتراح سي أغرام وتوضيح سي بنعيسى . ما بقى مجال للنقاش . إذن بعد العصر يكون الخبر عند المدير وهو يتصل بالفقيه . (**بعد استشارة الخلوقي**) إذن نرفع الجلسة على بركة الله .

قام الحاضرون وتفرقوا على زوايا القاعة . التفّ الخلوقي وأغرام حول الباشا بينما راح البحبوحي وسي براهيم يحاوران موسى العشوبي . لزم شعيب مقعده وكأنه ينتظر أن تستأنف الجلسة بعد توقف قصير . إقترب منه سرحان :

ـ يا الله بنا ! انتهى الاجتماع .

أدار شعيب رأسه دون أن يهمّ بالقيام أو أن ينبس بكلمة . فأمسك به سرحان ورفعه من مقعده رفعاً حتى أوقفه على رجليه ثم سلب المقعد من تحته وجرّه نحو الباب بعد أن حيّا الباشا بالسلام من بعيد .

غادر سرحان وشعيب قصر البلدية من الباب الجانبي المطلّ على الساحة التي تقف فيها الحافلات والتي تفصل باب الزاوية عن المدرسة الإبتدائية . كان سرحان يفتكر : من حسن حظ خميطة وعلي نور انهما اعتذرا عن حضور الاجتماع . لو كانا الآن بين ركّاب هذه الحافلة القاصدة البيضاء بعد مشاهدة ما حصل لشعيب لأنطفأت في نفسيهما جذوة الأمل . أما انا فلا خوف علي

من هـذه الآفـة . جلدي سميـك صبغتـه الأسفـار والممـارسـات . لا أتـأثـر بالأحداث العابرة . لعبة برلمانية محكمة كان شعيب ضحيـة لها ؟ قـد يكون . لكنها أنقذت الجمعية من التفكّك والانتثار وهذا هو المهمّ . كان شعيب عـلى صواب إذ لم يعارض .

كانت الشمس فوق رؤوس الناس تبعث بأشعتها المحرقـة ، تمصّ الهواء مصّـاً وتغلف الأشياء بغـلاف ضوئي يفقـدها أشكـالها المتميـزة ويرجعهـا إلى مـادتها الأصليـة . الساحـة قـدر تغـلي . من الان وحتى ان يقـوم النـاس من القيلولة ويؤذن المؤذن صلاة العصر وتميل الشمس نحو أشجار الغابة في إتجاه المحيط والحـرارة لا تزال تـرتفع والألـوان تزداد نصـاعة وأصـوات البشر رقّـة وعنفـاً . في هذا اللون المختلط الأبيض الأصفـر يخـترق المـارة السـاحـة غـير المظلّلة في هدوء غائبين عن أنفسهم متـأنّين في حـركاتهم كـأسماك في حـوض زجاجي يضيئه من تحت مصباح كهربائي باهت .

اطلقت الحافلة بوقها آخر مرّة ثم درجت نحو القنطرة . قال سرحان :

ـ السفر في هذي القـايلة ! يا لـطيف ! (بعد صمت) وشّـان تغيب عن الجمع .

إسترجع شعيب وعيه :

ـ على ما حال حضوره أو غيابه على حدّ سواء . عائم في بحره .

ـ ما تعجبت من سير المناقشة ؟

ـ (بتردّد) كانت تكون أسوأ .

ـ ممكن تتّفق مع المدير وتتعاون في الظروف الجديدة مع موسى وأغرام .

ـ (بحزم) نعم . اشتغلت من قبل مـع كل واحـد منهم . المديـر رجل طيب وموسى لاعب ممتاز صاحب تجربة . . وأغرام باقتراحه أنقذ الفريق .

لجأ الاثنان الى الصمت وتابعا مشيهما محاذين السور حتى وصلا أمام باب المخزن . توقّف شعيب :

ـ الطريق الى المسجد أقرب من هنا .

لكنه لم يودع سرحان بل لبث واقفاً يتأمل . ثم قال بلهجة صارمة لا أثر للتردّد فيها :

ـ المهم هو أن تتمّ العملية . وبعدها نحكم على النتائج . ربما ارتكبنا أخطاء نؤدّي ثمنها الآن .

رفع يده اليمنى وراح يحكّ السبّابة بالابهام في حركة معلومة :

ـ الثمن . . إرث الجدّة . . في حكم المعدوم . (**بعد برهة**) تعرف آش عمل موسى ؟ نجح مع جعفر واسماعيل والرضي . زاد في الشطرنج بغلة . خلّيه على خاطره . المهمّ أن يشتغل .

قال شعيب كلامه هذا وابتعد مسرعاً كما لو كان يخاطب نفسه أو كأن مقالته لا تحتمل أي تعليق . تابع سرحان طريقه مخترقاً سوق الغزل بعد أن انعدم كل نشاط فيه وأوصدت جلّ الحوانيت . تجاوز ساحة السوق البراني والتحق بملتقى طريقي الخلوة والبحر فاستثقل فجأة الهواء الساخن الراكد . . إحساس عادي في مثل هذه الساعة من فصل الصيف لكن ما زاد في استثقال الهواء هو الشعور الغريزي أن الريح التي ستهبّ بعد حين ستكون جنوبية شرقية تحمل معها حبّات من الرمل تتسرّب إلى أعماق البيوت من كل شقة وخلل ، تغبّر الشعر تلهب الأجفان وتوتّر الأعصاب وتستمرّ في هبوبها ما شاء الله لها أن تستمرّ .

كان سرحان يمدّ خطاه متحملاً الحرارة المنحدرة من السماء والمنبثقة من الأرض ، يسبح في هالة ذهبية تمحي الأشكال والهيآت وتمنع الرائي من أن يدركها على حقيقتها . تغرق كل الأشياء وراء ستار من النبضات الضوئية . ومرة أخرى هجمت على مخيلته لوحة متحف جنيف ، لوحة انطباعية تعالت عن الطبيعة بعد ان خضعت لها كل الخضوع . . عامل يمشي في طريق ريفي وقت الظهيرة . يحمل شيئاً على كتفه ؟ عتلة ؟ منجل ؟ مقضب ؟ الشيء البارز في اللوحة هو ظل الأشجار المنعكس على الممرّ والمتلألىء كسطح بحيرة . لماذا أوحت هذه اللوحة بأكثر من محتواها ؟ لعل الموسيقى التي كانت تتهاطل من زوايا الصالة هي التي أوحت بأفكار كئيبة .

وصل إلى الدار الجاثمة فوق الكدية بعد أن تسلّق الطلعة بخطى لم ينل من ثباتها وقع الحرارة . فتح الباب الخارجي ومرّ كالظل بصالة الأرضي . لم يلحظ أحداً في البستان . طلع إلى غرفة العلوي التي لا تفتح نوافذها إلا بعد

العصر لتحافظ أثناء النهار على شيء من البرودة . أرتمى على السرير في الظلام وأغمض عينيه . أشفق على راحته أن تشعر الخادم بوصوله وتنادي عليه لكي يتناول طعام الغداء فاطلق المسجلة وكان ذلك إشارة معلومة لديها أن لا تزعجه وان تترك المائدة مجهّزة إلى أن يرغمه الجوع على النزول من الغرفة . انطلق من المسجلة صوت من منطقة البحر الأحمر ، صوت يشبه الناي ، حارّ تفوح منه رائحة حامزة خرقومية .

هل فهمت أقوال الشيخ العوني على وجهها الصحيح هل يستطيع أحد من جيلي ان يفهمها بالفعل الاسلام فوق الكدية فوق المسلمين فوق الزمان ما أكثر من قال في الماضي البعيد والقريب إن الدعوة المحمدية إنما هي تذكير بإسلام أزلي لبّ الأديان السماوية كلها مهما إختلفت طقوسها الإسلام دين الحنفاء غير ما آلت إليه كل دعوة قبل وبعد بعث محمد الأمين كتب على العرب والمسلمين أن يطرقوا كل طريق طرقه اليهود والنصارى من قبلهم الإسلام دائماً غريب هل هذا ما قاله بالفعل العوني ينفي أن يكون النبي العربي تطلّع إلى إمبراطورية جديدة يقول لا بد أنه أراد غير ما أراد كسرى وقيصر وإلا ما فائدة البعث والخلق تأسّست مملكة واسعة ثم تمزقت وانهارت أحداث تافهة لا تهمّني في شيء يقول العوني لكن يا شيخ إذا كنت بالفعل ممّن قال بهذا الرأي وما اكثرهم ما تقول في نتائجه الظاهرة البيّنة ظننت أنك اكتشفت حقيقة الإسلام فضحّيت في سبيلها كل حياتك طلّقت الدنيا واقفلتَ دونها الأبواب ولم تعد تسمع إلا ما تهوى إليه نفسك نعم قف حيثما شئت واتّجه أينما أردت سر إلى ما قدّر لك وكل سائر واصل يا شيخ إذا كان النبي العربي رسولاً للإنسانية جمعاء اذا كانت أمته هي أمة آدم ونوح وإبراهيم وكل الأنبياء والمرسلين الذين قفّوا أثرهم أين تضع العرب وما هو دورهم دُعوا فما استجابوا عارضوا وحاربوا وعندما هزموا قالوا بألسنتهم آمنّا ولمّا تؤمن قلوبهم ثم حرفوا وانحرفوا وها الرومي والفارسي والهندي والزنجي كلهم يقولون بلسان واحد نأخذ منهم الدعوة والداعي وندفعهم دفعاً إلى الربع الخالي نحن أولى منهم بها وبه وبالفعل لولا اللسان كلهم يسألونك يا شيخ ما وجه الجدّة الدعوة قديمة قدم الخلق والمذكّر مذكّر ولسان التذكير ليس لسان الدعوة ماذا

تجيب يا عوني الجواب ممكن لكنه خارج أفق المؤمنين أمثالك قبل وبعد فهو محتمل فقط لا سبيل إلى إفحام الاخرين به قم يا نائم ولا تنادي عوني عوني هو وفكره حال من أحوال الماضي أعترف له بميزة واحدة رفضه تأسيس زاوية أوّل واجتهد لكن لنفسه في مدينة الصمت الدائم ما تهمّني الدنيا بما فيها إن أنا نجوت بنفسي غير صحيح غير صحيح لا أحد يهجر الدنيا تماماً ويهمل الخلق تماماً العونى ربّى الخلوقي وفاتحني أنا وفي فكرته نفسها ما يدفع إلى إقناع الناس ثم إن هو اقتصد فسيأتي خلف يفعل بالإرث ما يشاء سوف نرى سوف نرى ما المانع أن تفرض الزاوية العونية فرضاً على صاحبها بعد أن يعود عاجزاً عن الاعتراض عنها العوني متكلّم والمتكلّم لا بدّ يبلّغ ويقنع إنما العوني يقفل باباً ولا يفتح باباً أنظاره متّجهة إلى الخلف لا يعرف للأمام معنى ألم يقل إن النبي العربي خاتم التاريخ القديم طاوي صفحة إسكندر وكسرى وقيصر العوني مات قبل أن يولد .

وبغتة حضر في فؤاد سرحان وجه الشيخ الشاحب الأليم المتحسّر على غربة الدين الحنيف فعلم أنه لن يقضي ليلته في هذه الدنيا التي طلّقها منذ ثلاثين سنة خلت .

(84)

إستيقظ وشّان في دار عمّته التي خيّم عليها صمت لم يشعر بمثله منذ أعوام وأعوام . كانت عادته في القنيطرة أن يفيق منزعجاً إما بسبب صفّارة القطار الرابط بين البيضاء وفاس وإما من جرّاء الخصام المتجدّد بين جاره الموظف في البلدية وزوجته . هنا في هذه الغرفة المغلقة قد ينام المرء ساعات وساعات دون أن يدرك هل الشمس مشرقة أم مائلة إلى الغروب . فتح عينيه على السقف الخشبي المبيّض بالجير وتذكّر أن عمّته مسنّة وحيدة فقيرة . فقام من الفراش وفتّش في جيبه ليرى كم معه من دراهم .

ـ صباح الخير ! ياك ما فيّقتك ؟

ـ صباح النور عمتي ! شهور هذي ما ذقت النوم بحال هذي الليلة . آش كاين ؟

ـ كاين الله . الماء فاير .

ووضعت العمّة يدها اليمنى على اليسرى رافعة عينيها إلى السماء .

ـ ما زال الحال ، خلّي المقراج يفور ها أنا خارج عند مول الاسفنج .

لما عاد يحمل في يديه قبضة نعناع وكيلو سكر وربع كيلو من الاسفنج المحمّر الساخن إبتسمت العمة قائلة :

ـ الله يزيد في عمرك . ما كان عليك تعذّب نفسك هذا العذاب .

ـ لا يا عمتي الواجب واجب .

جاءت بالصينية والوابور الأصفر الضاوي . فكّت عقدة شريط الدوم فانتثر الإسفنج فوق الصحن المعدني . جلست على هيدورة واشتغلت بتهيىء الشاي .

ـ قولي لي يا عمتي ذيك المرأة على باب سيدي ريشة . .

ـ ذيك ميمونة ، ساكنة وراء دربنا ، اللوية بعد الحمام . شغلها هو خدمة الفقيه التواتي لما يكون هنا في البلد ولما يغيب تبقى لا خدمة لا ردمة ودائماً ما خاصها خير . لا واحد يعرف من اين . الله قادر بعباده (قدمت لوشّان كأساً من الشاي الفائر) تفضّل يا وليدي كل خيرك . أنت محتاج للعناية . خمّم في روحك . أنت أولى . .

توقفت عن الكلام ورشفت من كأسها رشفة مسموعة . إستحلت دفأ الشاي ثم استطردت :

ـ ايه ميمونة ، اللي عنده غرض بالفقيه يتّصل بها ويحكي لها الواقعة وهي تسمع . . ما بيدها شي ولكن تعينك بالدعاء والنصيحة . إذا أعطاك الفقيه دواء أو نصحك بعملية تقوم بها ، ميمونة تفصّل لك الكيفية ، واذا نسيت تفكّرك وتشري لك الدواء عند العطّار . وطول المدة اللي يغيب فيها الفقيه تعقل على من اتّصل بها الأول والثاني والثالث . عمرها ما تغلط أو تقدم هذا على ذاك ، بلا كتابة ، حتى يجيء الفقيه تدخل كل واحدة بنوبته . مرة مرة يجي رجل من بلد بعيد يطلب منها تسبّقه ، بالهدية الكبيرة ، تقبل ولكن بعدما يوافق صاحب النوبة . هذي هي ميمونة ، أنت شفتها ، سوداء مصبوغة ، بالحق أعطاها الله البهاء والهيبة . والله يتصرّف في خلقه كما يشاء . (ملتفتة إلى المائدة) زدك يا وليدي ، لمن يبقى هذا الخير كله ؟ البنية غايبة . مشت عند والديها ، ما ترجع قبل يومين . . وانت يا وليدي عندك

غرض بالفقيه التواتي ؟ خير إن شاء الله !

تنهّد وشّان :

ـ يا عميمتي تجمّعت علي الغرائب ، في الدار في الخدمة في راسي .

فغرت العمّة فاها مستغربة ووضعت كفّها على خدها :

ـ يا حفيظ ! يا سلّام ! حق لك تصفّر .

ـ خاصني فقيه ، وفقيه صاحب حكمة يخفّف علي الصداع . أنا ماشي وورايي ماشنة تهدر .

ـ ومن اين جآتك المصيبة هذي ؟

ـ كافر معي في الخدمة . كان يتظاهر لي بالمحبّة حتى تمكّن وقلب لي وجهه الأسود . عاد يهاوشني حتى خويت له المحلّ .

ـ ياك ما فرطت في الخدمة ؟

ـ لا . طلبت استراحة .

ـ هذي مدّة ؟

ـ ايواه . على رأس كل ستّة شهور أمشي عند الطبيب . إما يمدّدها لي وإما يرجعني للخدمة . ولكن الآن انا ما قادر على خدمة . إذا تقابلت مرة أخرى مع عدوّ الله يقضي علي .

ربّتت العمّة على خدها في حركة ندب :

ـ عمرنا ما سمعنا بحال الغريبة هذي !

ـ ولا هي واحدة . ما في الأمر ما يتخبّأ . بدينا نكمّل . اللي زاد علي هو اني كنت من الخدمة للدار ماشي للراحة ، وإذا بي كنت من جهنم لجهنم . في الدار عندي عدو ثاني والله عالم بما بين الشيطان البرّاني والشيطان الدخلاني .

ـ يا ستّار !

ـ اليوم الدنيا غدّارة . ما يعرف الإنسان من أين الضرب . ياك عقلت على زواجي .

ـ إيه فرح وفرح .

ـ تزوجنا ومشينا بسلام . بقينا عشرة شهور ورجعنا للعطلة . ذيك المرة

جيت بنية الطلاق .

ـ كنت فرحان وسعدان .

ـ في وجه الناس يا عميمتي . إما الحق عيشتي كانت قطران . من الأول كانت خدعة أنا تعرفت على الأخ الكبير ولكن هو ما في رأسه ما يحكي . صاحبة العملة هي الأم . مرحباً من هنا مرحباً من هناك ، أدخل يا سيدي حتى يجي الحاج . كنت أدخل للصالة واجلس وحدي والبنت تحضر الطاس والصينية وأنا على نيتي أقول : المعنى ظاهر كأنها خطبة . كانت وحدها تدخل دائماً ، ما كانت تدخل مرة وأختها مرة . كانت في المدرسة سنة قبل الشهادة . قلت : ما زال الوقت . بقينا على هذا الحال مدّة ومرة كنت أتكلّم مع الأخ قال : أولاد اليوم ما فيهم فايدة . قلت : يعني . قال : هذي أختي تخاصمت مع الأستاذة وحلفت ما ترجع للمدرسة وإن تطابقت السماء على الأرض . كلام في كلام ولكن قلت في نفسي : الفاهم يفهم . جوّزت أويمات حتى جاء عندي الوالد رحمه الله وطلبت منه يفاتح الأخ في الزواج . وهكذا كان . نقصّر الحكاية . المهمّ يوم الرواح . البنت اللي دخلت عليها ما هي البنت اللي كانت تجيني بالطاس والصينية . .

قاطعته العمّة :

ـ البنت تكبر والصورة تتغير . . الأم نفسها تتعجب من بنتها .

ضرب وشّان يداً على يد :

ـ يمكن يا عمتي ولكن في ذيك الليلة حصل ما حصل . نزّل الله في قلبي الكراهية . ما قدرت حتى على التحقيق فيها . الحق خفت منها . صدقت صفية بحال الصمّ .

ـ ذاك الوقت كنت تبادر وتعمل الواجب .

ـ تراخينا . عرفت عادتنا الحشمة . أنا سكت وهي سكتت . حسّت بشي ولكن سكتت . وأنا بقيت أسأل نفسي : كيف حصلت القضية ؟ ظهر لي في الأخير إن البنت اللي كانت تدخل عندي في الصالة كانت هي الثانية وجآ من خطبها بالذات . قالت الأم : الرجل ما تحقّق منها ، كان يلمحها في الظلمة ، نسكت على الثانية ونعطي الكلمة في الأولى . الأخ بلا شك ما

دخل في اللعبة ولا الأب . الأم هي صاحبة الفعايل ، كانت امرأة ونصف ، أم الدواهي ، النهار وما طال وهي تدور على الجيران تعمّر وتحوي .

ـ بالصح يا وليدي كان لسانها يقطع الحديد .

ـ الشهور الأولى قضيناها في محنة . بالحق بدأت العقدة تنحلّ مع الأيام . وجدت فيها ما بغيت من جهة شغل الدار . لكن من حين لحين كنت أتفكّر وأقول : أنا رجَل بلحيتي ولعبت بي امرأة عقروشة . لما جيت هنا لعطلة الصيف كنت نويت الطلاق . ولكن جآ الحمل والوالد رحمه الله عارضني وقال لي : ما تعرف الخير في اين . أصبر ، كن نيّة والله يجازيك . وهكذا كان . لما ولدت البنية نوه . .

ـ نوّرها الله .

سكت وشّان وأطرق . . دامع العينين . ثم استطرد :

ـ تغيرت الأحوال وعشنا مدّة في هناء ، حتى جينا لمدينة المساخيط . . يا لطيف . . وعادت الأمور كما كانت . .

ـ حتى قبل ما يظهر ذاك الشيطان ؟

ـ لا . . حتى عرّى على وجهه لعنة الله عليه . في البداية بيّن محبّة ما فوقها محبّة . . أكل لي الدماغ ، دخل لي بين الجلد والعظم . الضحك اللعب النزاهة في غابة المهدية وأنا في دار غفلون . بالحق نوره بعقلها عمرها ما حملته . لما عرّى على وجهه عادت الجلالة على العين والهمهمة في الأذن وهي رجعت لصورتها الأولى .

ـ بسم الله عليك .

ـ الصورة تتغير : مرّة زينها يهبّل ومرّة صفراء مغبّرة كأنها خارجة من الفرّان . من ثمّة غلب علي السهر . المدينة نايمة وأنا أحسب النجوم .

قالت العمة بحزم :

ـ لا يا وليدي تعبت نفسك . السهر يشيّب الشباب .

ـ وانا لخاطري ؟ (بعد صمت) في عامنا الأول ، لما منعني الوالد من الطلاق جريتها للسيّد وحلفت لي على صحتها وراسها . وأنا إرتحت وحمدت الله . لما تغيّرت الأحوال جيت بها مرة ثانية . لكن ما عتّبت السيّد حتى

طاحت على ظهرها عينها غايرة .

ـ يا لطيف ! يا رحيم !

ـ جآت أمها عاد قالت لنا : هذي خليقة فيها ، من أين هي صبيّة وهي مرة مرة يبيضّ وجهها كالجير وتسقط بطولها بحال الصاري . قلّبها الطبيب وقال : قلبها صغير قدر كمشة الرضيع . ما بقي كلام معها . دايماً باكية واضعة يدها على قلبها طالقة لسانها : بغيت تيتّم أولادك ؟ تدفنّي قبل الأجل ؟

ـ يا وليدي مرض القلب يغيّر الوجه وأكثر من الوجه .

ـ صح يا عميمتي ولكن اللي في راسي ما يتبدّل . هذا ما أعطى الله .

ـ يا وليدي إذا كان هذا ما بك . جاور في السيّد وأنا أقوم بك .

فكّر وشّان طويلاً ولم يجب .

ـ وآش قال الفقيه ؟

ـ ما سألني ما أسمع مني .

ـ هذا حاله في المرة الأولى . ما يتكلّم ما يسمع . يشير عليك بورد او بدواء .

ـ أعطاني دواء (متسائلاً) الله يثبتنا على الشهادة .

فتش في جيوب السروال ثم في جيب القميص ثم عاد إلى جيب السروال فأخرج في الأخير من تحت البزطام ورقة مطوية غير مظروفة .

قلّبها وقال :

ـ البارح ما تبيّنتها في الظلام .

بدأ يبسطها فإذا بها فارغة . كتب فيها رقم 3 فقط . قالت العمّة :

ـ تمشي عند العطار وهو إما يعطيك الدواء وإما يردّك عند ميمونة . يا وليدي اسمع نصيحتي ، خذ الدواء وقم بالعملية حسب ما تشير عليك به ميمونة ، كل شيء مجرّب . وانت الله يحفظك من السوء فيك حاجة ؟

ـ أعميمتي فيّ حاجة . مرّة أحس براسي في طاحونة .

ـ الله يحفظك . اخرج من هنا وسرْ للعطّار . . اليوم يفتح النهار كله بسبب حضور الفقيه التواتي . هذي دارك لا واحد يضايقك فيها ، وسّع على

نفسك وإذا بغيت تجاور مرحباً .

ـ الوقت . . ما اتسع . في جيبي استدعاء من الطبيب .

قام وشّان متجهاً نحو الباب . فقامت العمّة بدورها وهي تقول :

ـ الله يفرج الكربة علينا وعلى جميع المسلمين .

كان الشارع مملوءاً بالمارة كما لو كان السكان يقصدون سوق الثلاثاء الذي يقام خارج السور أمام باب البحر . كانت الدكاكين مفتوحة كلها سوى دكان واحد لا شك أنه دكان عطار الفقيه التواتي . كل المواد التي تعرض على ناصية الطريق يوم الثلاثاء ـ ملابس مستعملة ، أحذية ، عطور ، قطع غيار ، كتب وصحف قديمة ـ كانت مطروحة فوق الأرض أمام المقهى المطل على باب البحر . أحس وشّان وهو يمرّ بباب مكتب البريد بأن الضغط على أذنيه قد خفّ فتوقّف يستحلي هذه الراحة المباغتة . فكّر : هل يشتري جريدة ؟ منذ شهور تخلى تدريجياً عن مطالعة الجرائد بسبب الغشاوة التي تغطي حدقته من حين إلى حين . الضغط في العين كالضغط في الشرايين أو في أنابيب الماء . هذا ما قال له الطبيب . منذ أن غادر دار عمّته لم يصادف وجهاً يعرفه . لم يتأثر لكونه أصبح غريباً في البلدة التي ولد وتربّى فيها . بالعكس إرتاح لذلك وقرّر أن يجلس إلى أحد الكراسي المصفوفة خارج المقهى . ورغم كل الكؤوس التي بلعها عند عمته طلب من النادل كأس شاي إذ لم يكن يستطيع أن يأمر ببيرة كما كان يفعل في مقهى **فلوريدا** .

ميمونة منتصبة على عتبة ضريح سيدي ريشه كالممرضة على باب صالة الفحص ، تقدّم وتؤخّر . قالت : غير ممكن ، عمري ما شفتك ولا سمعت بك ، الناس بمواعيدهم من شهور وشهور ، تبرّم يا سيدي من الطريق ، مرّة أخرى يحنّ الله علينا وعليك . ايواه ممرضة تماماً ما بقى خاصّها إلا الورقة والقلم والتلفون ولا حاجة للفقيه يتحمّل مشقّة السفر ويحضر بنفسه للصديقية . يمكن يعطي النصائح من بعيد بالهاتف . ميمونة تضبط المواعيد وتتابع تنفيذ الوصفات. قال الطبيب الروحاني : أركن في هذا القنت وسوّل نفسك . آش بغيت بالحق . انتحيت جانباً ، تفكرت وتفكرت فلم يخطر على

بالي سوى كلمة الله أكبر . بدأت أتلوها بسرعة وبعد حين سمعتها وكأن الفقيه هو الذي كان يتلوها بجانبي بصوت مسموع . مرّت دقائق وإذا بي انتقل خفيفاً من الدار العائلية كما كانت أول الأمر قبل ان تخرب إلى دارنا في الاقليم الشرقي إلى دار القنيطرة، غرفة غرفة، كلها فارغة حتى من الأثاث. طلّت ميمونة ثم إختفت . قال التواتي ظهر لك شي ؟ ـ لا شي فراغ في فراغ ـ . الوقت ما هو وقتك . خذ صحيفة من الصحائف واشتر ما فيها عند العطّار واتبع النصائح ليلة بليلة سبع ليالي ويكون خير إن شاء الله . ـ أبوح لك بما في صدري ؟ ـ عارف . بغيتها تحضر تحقّق فيها النظر تكلّمها وتردّ عليك الجواب . ـ بغيت الراحة واليقين . ـ هذا ما بيدي . أقرّب البعيد أبينّ الغابر والأمر الأمر بيد المكلّفين . سر يا وليدي بالسلامة قدامك أيّام بيضاء . جدّ واجتهد وجيني تلق ما تحب . هذا ما قال ، سبعة أيام ، الفقيه يحضر ويغيب ، تصبح ميمونة تطرق الباب ولا واحد يردّ عليها . الفقيه بات ما أصبح . وإذا كان غاب صباح اليوم آش أعمل أنا ؟ وحتى بقى يومين أو ثلاثة وكنت أنا غير مستعدّ ؟ إذن لا شي ، ضربة في الخوا . ليلة البارح ما كانت ميمونة يا ميمونة . لا عليّ ولا على بودميعة . حتى هو ما أفلح في شي . خرج من عنده وهو غارق في همومه وقصد النادي دون أن يقول كلمة واحدة . سألته على رأس الدرب : خير إن شاء الله ؟ ـ بلا فايدة . الفقيه شرط حضور الجميع ، حتى الحرز رفض يكتبه قال بإسم من ؟ بإسم الجميع ؟ ما يصحّ . ـ وما العمل ؟ ـ العمل إقناع اللعّابة وهذا فوق القدرة . الحاجز المانع هو شعيب ما يقبل ولو تطّابق السماء على الأرض . تفارقنا بلا نتيجة . إذا سافر الفقيه ما العمل ؟ أبقى هنا مع العمّة في الانتظار حتى متى ؟ البزطام فارغ . أرجع إلى الدار آخذ الدراهم ؟ ندخل في القيل والقال ، ما هي وما لونها . تصفرّ تخضرّ حتى يصبح لونها لون الخرقوم وتبدا تنفث السمّ . سر ما عندك سوق خلّيني أنا مع الأولاد بلا فلوس ، أدفعني للقبر ويتّم أولادك ، وزد وزد ، شيطانة عدوة الله لسانها مطلوق أحلى من العسل ، كل كلمة موزونة ، ما تسخى تفارقها كأن ابليس يملي عليها . خدعت الوالد رحمه الله

بعقله وقدره ، ولو كانت حاضرة هنا كانت لعبت برأس العمّة . ونوره كيف ألقاها وكيف أفارقها ؟ والطبيب ؟ الله يثبتنا على الشهادة . . ها ورقة الإستدعاء . الدوخة بالصح أو لا ؟ يا سيدي الطبيب كاين رجل عاقل يتلاعب بصحته ؟ قال : عدد من الرجال شوّهوا خلقتهم للإفلات من الجندية . الطبيب اللي يتكلم بهذا المعنى غير مجرّب جاهل ، ما عزف الخرخشة في الرأس ، ما سمع ما سمعت . وها انا مشيت عنده وإذا قال لي : ما بك بأس ، حالتك تحسّنت ، سمعك عادي ، الدوخة ما عندنا عليها حجّة ، كيف أردّ عليه . أنا ما راجع للخدمة ولو حلا ماء البحر . من يتوسّط لي ؟ عبد الصمد ؟ مشيت عنده حتى أصبح وجهي في قفاي . بنعيسى ؟ ما نفع . هو نفسه نصحني بزيارة عبد الصمدِ . لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا خوف عليك ، إطمئن . لو عرفت كيف أطمئن ما كنت جيت عندك يا سي بنعيسى ! وإذا قال الطبيب : طيّب حالتك لا تسمح باستئناف العمل ، خذ ستة شهور أخرى راحة . آخذ الفلوس وأعود إلى هنا وأسكن مع العمّة واستمتع بالهدوء والطمأنينة في حمى الولي الصالح . . الشيطانة ما ترضى، تخاف ، كانت دائماً خايفة . ولكن يمكن تقبل ، تتحرّر . . والآن هي حرّة . ما كان أحد في الدار البارح ! وعمرهم ما خرجوا في ظلام الليل . المرأة شيطانة بنت عقروشة تلعب بالفايق وعسّاك بالغافل النايم . من من يرد لي راحتي يزوّل لي الجلالة على عيني يحضرها لي أينما كانت حتى ألمسها أكلمها أستنطقها ؟ قال هذاما هو شغله. لا. شغله وإلا ما الفرق بينه وبين الشيخ العوني ؟ كلام النساء ، حيلة حتى يطوعك ويطوعني ، اليسر بعد العسر ، الفتح بعد اليأس ، الفرج بعد الشدّة ، التوسعة بعد الضيق ، شاف ما عندي حلاوة ولا تبييضة ، اليد خاوية والراس عاري . فقيه عصري جال في البلدان وعرف كيف يتصرّف مع الخلق . منك إليك ، منك فيك ، فكّر ثم فكّر واحمد الله تلق ما تطلب . . النيّة هي المادّة . يا سيدي الفقيه النيّة هي أصل البلا ، قتلتنا ودفنتنا . لولا النيّة ما كانت عجوزة عقروشة تلعب بنا وتبيع لنا بيضة فاسدة ! استغفر الله . . إذا كان هذا الفقيه من رجال السوء أتباع الشياطين فلا ردّه الله . يا

ربّ برّد قلبي من هذا المسخوط . إذا كان هو صاحب الفعلة أحسن ما يحضر قدّام عيني . المطلوب الحق ان تصفّي قلبي وتمحي الخرخشة من سمعي . هذا هو المطلوب لا غير . البارح فهم مني أو لا ؟ ما خلّاني أتكلم البارح كنا في حال واليوم أرانا في حال سبحان مبدّل الأحوال . كلام الليل يمحيه النهار . البارح كنت أقول : يا فقيه احضرها لي خاضعة طائعة مكبّلة باكية مستعطفة نادمة على ما فات منها . . والله أعلم ربما رأى في وجهي ما رأى أو سمع من ميمونة . .

وبغتة طلع سرحان من الطريق المؤدية إلى دار الكدية متجهاً نحو باب البحر يمشي منحني الرأس بخطى حثيثة . لمحه وشّان من بعيد وكان بينهما عدد من المارّة ومع ذلك قفز من مقعده كأنه سارق رأى شرطياً . دخل إلى المقهى وسأل عن بيت الماء . أجابه النادل بوقاحة :

ـ قدامك . . في التراب .

أخرج من جيبه النقود وأدّى ثمن الشاي ثم صدّ إلى الحائط وراح يعدّ ما فضل له من دراهم . وجد أن الكل لا يتعدى ثلاثة آلاف وأربعمئة سنتيم . غادر المقهى عائداً على أعقابه نحو دار عمّته . قدام مكتب البريد وجد حافلة صغيرة رابضة جنب الطوار تنتظر المسافرين . قرأ على واجهتها : السالمية والأسواق . سأل السائق :

ـ اسم هذي الأسواق ؟

ـ كلها حتى سوق الخميس . إذا بغيت تكمّل وتلحق بسكة الماشنة وكنت وحدك لازم تدفع عشر ريالات زيادة .

لم يعقّب وشّان على كلام السائق ورقي الدرج الحديدي . جلس قدام رجل وضع على ركبتيه ديكاً أسود . بعد دقائق درجت الحافلة باتجاه السالميه . تلفّت وشّان فلاحظ أن جلّ الدكاكين قد أقفلت باستثناء دكان واحد . فتخيل وشّان انه دكان العطار فتح أبوابه عندما كان جالساً في المقهى يحاسب الزمان .

(85)

يوم الاثنين 24 من الجاري الساعة العاشرة وربع . .

المطلوب من أصحاب الكلمة هو القضاء على أسباب الفتنة . . محجة بيضاء ليلها كنهارها . . النبي نفسه عجز عن هداية من أحب لأن الهادي هو الله المتصرف في خلقه . لو كان السلطان مسؤولاً على المال لبطلت حكمة الحساب . . لا تستغلوا السلطة فيما لم تخلق له ، لا تجبروا الناس على الايمان ومن فعل فإنما حاد عن سنن الخلق وغاص في مهاوي الخرق . هل أجبر النبي اليهود على الإسلام ؟ هل آخذ العرب بالإيمان ؟ رضي منهم بالشهادة وطالبهم بالإمتثال للرسول والخليفة . . قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا . . المطلوب نشر الإسلام بسط الطمأنينة والسلام . أما الايمان . .

كلما انحنى الخلوقي على مكتبه وفي يده قلم رصاص استحوذت عليه ذكريات الماضي وسمع صوت الشيخ الخفيض يسدي له النصائح . تتداخل في ذهنه نصائحه الأولى عندما شجّعه على تقلّد الوظيف والأخيرة عندما اشتدّت الأزمات حوله وحول غيره . تلح عليه النصائح فيسجلها المرة بعد الأخرى . يسجّلها دائماً على ورقة صفراء بالغة الرقّة بقلم رصاص بخط لا يكاد يقرأ . يسجلها رغم أنه يحفظها عن ظهر قلب . يراجعها بصعوبة ثم يضعها في ملف خاص ويبدأ تحرير ما عزم على تقريره . يكتب ثم يكتب معبّراً باستمرار عن فكرة لا تتغير : الإسلام هو الهدف البعيد هدف كل فرد حالفه التوفيق . اما الطريقة ، اما الأسلوب فإنهما خاضعان للضرورة ، وأحكام الضرورة معروفة ، يعرفها المكلّف المسؤول بالحدس ومن قال عكس ذلك فقد خدع نفسه والناس .

وبعد . . العملية ماشية حسب التوقعات . لم يحدث بشأنها إلى حدّ الآن ما يشوش البال أو يدفعنا إلى إعادة حساباتنا . أعني لم يحدث شيء ملموس . المدينة ما زالت هادئة مطمئنة . لم تتغير حياتها العادية . أما الشائعات فهي كثيرة . إننا لا نهمل الشائعات ، نأخذها بعين الجدّ ، نفحصها ونحلّلها ونتّخذ بشأنها ما يجب من إجراءات ، ولكن بعد الفحص والتروي وبعد التحقّق من أنها شائعات حقيقية ، جارية على ألسنة الناس متفتّقة عن أذهانهم وليست ناتجة عن تبرّم المسؤولين الخائفين على مراكزهم . والشائعات الرائجة الآن في الصديقية من النوع الثاني . أبرز نشاط الجمعية الجديدة عقم القديمة فمن الطبيعي ان تدّعي الثانية أن الأولى قد زعزعت

أركان الكون وان الرياح قد هبّت عاصفة والأمواج تدفّقت عاتية بعد تأسيسها . بالنسبة لنا لا يعنينا إبدال جمعية بأخرى إذ تقوم الجديدة بنفس الدور الذي كانت تقوم به الأولى. بل قد يكشف الإبدال عن فوائد غير منتظرة . وهذا ما حصل بالفعل . . لا بد ان نرعى ثقة الناس فينا . لذلك حرصنا على إظهار وفائنا لاصدقائنا القدامى . لم نسلم في أي واحد منهم مهما كان حكمنا على كفاءته ونباهته . هذا أحد أسباب العملية التي قمنا بها في الصديقية وهناك سبب آخر لا علاقة له بالأحداث وإنما كان من باب الزيادة في الاحتياط . إزاء علاقة سرحان بشعيب يجب ان أكون كالقنيصة التي تشمّ رائحة الصيادين من بعيد . شعيب معروف لدينا منذ سنوات ، أما سرحان فظاهره كباطنه حسب التّحريات ، لكن لقاءهما هو ما يبعث على القلق ، انه كالرائحة المحمولة من بعيد إلى شمّ القنيصة . كل شيء في الأقوال والأفعال داخل وخارج النادي يظهر طبيعياً عادياً معقولاً . الاهتمام بماضي الصديقية ، التداريب الرياضية ، دروس الشطرنج ، المحاضرات الثقافية ، الحفلات الموسيقية ، كلها أعمال عادية . قد يتشكّل السحاب في بعض الأحيان على صور عفاريت ، من يفزع منها سوى الأطفال ؟ غير أن فزع الأطفال قد ينتشر فيلحق الأمهات والأخوات ويتجاوزهن إلى الإخوة والآباء . العفريت في السحاب خيال ، دموع الطفل واقع لا تطيقه الأم . من هنا ضرورة الاحتياط. لهذين الإعتبارين عملنا على تغيير قيادة الجمعية . أولاً لنردّ الإعتبار إلى أصدقائنا القدامى دون أن نثني من عزم أصدقائنا الجدد . ثانياً لنؤثر في سير الجمعية دون أن نحكم عليها بالشلل . إختلطت الآن عناصر قديمة وأخرى جديدة فالمسؤولية عادت مشتركة . يتحمل الجدد حظهم من تبعات الفشل ان حصل ويذوق القدماء شيئاً من حلاوة النصر إن تحقّق . ليس في إجرائنا الأخير ما يدعو إلى تأويله كاعتراف ضمني بالتسرع عندما أعطينا الموافقة على تأسيس الجمعية وكمحاولة لاستدراك أخطاء قد برزت نتائجها في مرحلة لاحقة ، لأنه الى حدّ الآن لم تظهر أية نتيجة سلبية . أما ما حصل على إثر انهزام الفرقة فإنه كان منتظراً وأعطانا فرصة التدخل بكيفية لبقة . لولا تلك المظاهرات التافهة والتي لم تطل أكثر من عشر

دقائق والتي ضخم صداها أعضاء المجلس لدوافع واضحة لدفعنا إلى إتّباع أسلوب أعنف . حاصل الكلام أننا نضبط الموقف . .

قبل أن يكتب الجملة الأخيرة (ما زلت على اقتراحي الأول وأوصي بمتابعة التجربة تحت إشرافي ومسؤوليتي) نظر إلى الساعة الحائطية فرآها تشير إلى الحادية عشرة . ضغط على الزرّ فدخل في الحين شاويش :

ـ المدير وصل ؟

ـ لا . تأخر اليوم . . امرأة على الباب كتبت بطاقة .

أخذ الخلوقي البطاقة من الشاويش وقرأ : السيدة زوجة مختار وشّان من القنيطرة تطلب مقابلتكم لغرض شخصي . قال :

ـ دخّلها .

دخلت بجلباب ضيق فهوي سافرة مقصوصة الشعر مكحّلة العينين محمّرة الشفتين.تقدمت نحو المكتب بخطى ثابتة وهي تبتسم . قام لها الخلوقي ، لكن عرض المكتب منعه من أن يمدّ إليها يده . أشار إليها بالجلوس قائلاً :

ـ صباح الخير . تفضلي اجلسي . خير إن شاء الله .

جلست على حافة المقعد وانتظرت مبتسمة ومحدقة في الخلوقي . عاد وجلس وراء المكتب :

ـ تلاقيت مع سي وشّان في الصديقية هذي أربعة أيام . تكلمنا مدّة طويلة . .

أجابت :

ـ على ودّه جيت يا سيدي . كنت في البيضاء عند سي أغرام . نصحني . قال لي : ما ينفعك إلا سي الخلوقي . هذي رجلي من البيضاء .

ـ ولكن وقعت حاجة ؟

ـ خمسة أيام وما بان . خرج بتريكو وسروال ، حتى الفلوس كانت معه قليلة . قام في الصباح كالعادة . أفطر وقال لي : أنا ماشي عند أختي . ظنّيت يغيب يومين على الأكثر كالعادة . ولكن ما ظهر الليلة الثانية والثالثة . تشوّشنا . ركبت الماشنة للبيضاء عند أخته . لقيت ما عندها خبر . والله فكّرني إسم سي أغرام . مشيت عنده . قال لي : كان في الصديقية ، شفته

ولكن من بعيد ، ما كلمته .

ـ إذن ما زال في الصديقية !

كان الخلوقي يرى لأول مرة إمرأة وشّان سافرة . لاحظ انها كـانت تتكلم بهدوء واتّزان . قال في نفسه : فرق بينها وبين المختار . ثم فكّر وقال : فـرق بينها وبين فاطمة الزهراء ، لو وقع لي شي !.

ـ كلّمناصاحب البوستة من البيضاء . قال من يوم الجمعة ما ظهر . كيف عمل هذي الأيام كلها وجيبه خاوي ؟ عمّته في الصديقية ما بيدها شي .

ـ مـا تخافي عليـه . واش عمره مـا غاب ؟ بلدنـا والحمد لله مضبـوطة . كوني هانية ها أنت جالسة في دارك حتى يدخل عليك .

حدّقت فيه بعينيها العسليتين وقالت :

ـ ما نخاف عليه . . لو كان في حالة طبيعية .

ـ لا بأس . حتى حاجة ما كانت ظاهرة عليه يوم الجمعة !

تنهّدت :

ـ عيان الشكوى على الله فيه مرض قديم . يغبّ يغبّ ويعـاوده . لكن هذي النوبة . .

ـ يتداوى ياك ؟

ـ مـا خلّى حتى طبيب . دائـماً الحبّات والشـوكة . قلقنـا هـذي المرة من حيث ما معه دوا ولا فلوس . (**سكوت**) الله يخلّيك لوليداتك .

ـ للاّ كوني هانية . قلت لك بلادنا الحمد لله مضبوطة محـروسة . فـين ما كـان يوجـد بحول الله . عـودي لدارك وأولادك . خلّي القضية في ذمتي . أنـا متيقن انـه عند صـديق أو عند واحـد من العايلة . كيفـما كان الحـال أخبـاره تكون عندك غداً أو بعده .

قـام الخلّوقي وقامت فـطّومة . وهـذه المرة ابتعـد عن المكتب ومـدّ اليهـا يده . قادها لى الباب وهو يضغط على يدها . قالت بصوت هادىء :

ـ رجانا في الله وفيك يا سي الخلّوقي انت دايماً مذكور بالخير .

فتح الباب . ودّع الزائرة ثم سأل الشاوش :

ـ وصل المدير ؟

ـ وصل هذي خمس دقايق وسأل عليك .

رجع الخلّوقي إلى مكتبه . أخذ الملفّ المهيأ وهمّ بطرق باب المدير . فرن الهاتف . رفع السماعة ومن أول كلمة عرف المخاطب رغم أن الصوت كان مبحوحاً كما لو كان صاحبه مزكوماً .

ـ آلو . . ارفع صوتك يا سي محمد . ما سمعت . .

ـ . . .

ـ مالُه .

ـ . . .

ـ يعني ؟

وضع الخلوقي السماعة فوق المكتب والصوت البعيد يلح بقوة : آلـو . . آلو . .

ـ أنا معك .

ـ . . .

ـ توفي البارح وما خبرتني حتى اليوم !

ـ . . .

ـ اسمعني . . الشيخ عيّان . سمعت . . عيّان . اجمع أصحاب الفقيه الزرهوني كالعادة . . لقراءة الحزب . . وانا عندكم بعد الظهر . . فهمتني ؟ . عاود . .

ـ . . .

ـ والسلام .

لمّا طلع الخلوقي على رئيسه أدرك هذا الأخير ان أمراً خطيراً قد طرأ .

ـ لا بدّ أسافر مرة أخرى للصديقية . الشيخ نسيبي توفي البارح .

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون . كيف مات ؟

ـ كلّمني الآن في التليفون ولده الكبير . كان البارح بخير وعلى خير . جلس على كرسي قبل صلاة العصر . طلع المؤذن وهو ما قام . بهذا عرفوا ان صاحب الأمانة أخذ أمانته . أخّروا الدفن حتى يتصلوا بي .

ـ البركة في راسك .

ـ عزاؤ نا واحد . . كنت استشير الشيخ في كل شي

ـ كان عندك بي غرض ؟

ـ قضية نادي الصديقية . . بلا استعجال .

ـ إذن سر في حفظ الله . وأنت عارف الوقت ضيق .

ـ المهم هو حيازة أوراق الشيخ . لا بد أن نحافظ على أفكاره . نتكلم في الموضوع لمّا أرجع .

ـ اصبر يا سي بنعيسى اصبر . الله تفكرك .

قام الرئيس من مكتبه وعنّق الخلوقي في تأثر .

الثلاثاء 17/18

XIV

فآب بها جذلان ينفض برأسه
كما آب بالنهب الكميّ المخالس

المرقش

(86)

الثلاثاء الثامن عشر من رمضان . تفاوت كبير في درجات الحرارة بين شمال وبين وسط وجنوب البلاد بسبب اضطراب يخيّم الآن فوق الجزيرة الإيبرية ويتحرك ببطء نحو المغرب . . تتراوح الحرارة في البيضاء بين عشر درجات كحدّ أدنى واثنتين وعشرين كحدّ أعلى . تشرق الشمس على السابعة وثلاث دقائق وتغرب على الخامسة وسبع وعشرين دقيقة . . اليوم تحطّ مركبة غير مسكونة على سطح القمر . اليوم يتقابل الفريق الوطني وشباب المحمدية ويرفع الستار على مقابلة تجريبية فريدة من نوعها كثر الكلام حولها منذ أيام . .

سرحان جالس جنب شعيب في مؤخرة الحافلة وهي في طريقها إلى البيضاء، منخره مملوء برائحة البنزين المحروق وبعرق اللعّابة المغلّفين بملابس رياضية قطنية زرقاء وصفراء . لا يتحاورون لا يضحكون لا يغنّون . السائق ساكت . الحافلة من حافلات الشركة الوطنية للنقل . تصل كل سبت إلى الصديقية وتبقى تحت إشارة الفريق إلى غاية صباح يوم الإثنين . . حسنة من حسنات الباشدور .

في انتظار وصول الاضطراب الشمالي البطيء الحركة الذي قد يحمل معه بعض المطر لا زالت الصفرة غالبة على الأرض الموزعة إلى حقول تفصلها حواجز من كافور وطقسوس وليمون . جوّ هادىء مكهرب . أطلّ الخريف بداية اكتوبر ثم عاد إلى مرقده وترك الميدان لصيف متجدّد يحرق ما بقي في الحقول غير محروق . هدوء في الجو وصمت داخل الحافلة . . كما لو كان اللعّابة ذاهبين إلى امتحان . لا أحد منهم يرى في تنقلات الفرقة فرصة للنزهة والانشراح . . أثر تربية شعيب أم عدوى عقلية موسى الحزين ؟ قبل كل

مقابلة ، مهمة كانت أو ثانوية ، ينعزل موسى في الخلوة . يقول إنه يصلي الليل كله مناجياً ربّه وداعياً للجميع بالتوفيق . (أقول دائماً في الختام : والعاقبة للمتّقين ! والله يجيب دعوة الداعي المؤمن المخلص . صح أو لا ؟ رآنا طالعين درجة درجة إلى ما شاء الله !) والحق ما قال . . منذ ان تكونت الفرقة الثانية والأمور ماشية على ما يرام . لو وقع الأمر في مدينة غير الصديقية لقامت القائمة وكثرت الأقاويل وتعدّدت الآراء .

وجّه سرحان نظره صوب شعيب الغارق في تأمّلاته :

ـ أنشط يا فقيه ، هذا يوم عزّك .

أدار شعيب رأسه . حدّق في سرحان ثم ابتسم في إستحياء وعاد إلى مشاهدة الحقول العارية .

ـ بالفعل تستحق التنويه . أنا أسميها معجزة .بعد اجتماع البلدية تشاءمت .

إستيقظ شعيب :

ـ بالعكس الاجتماع كان بداية خير .

ـ صحيح إتّجهت الأمور إتّجاهاً حسناً . لكن كان يمكن العكس .

ـ ما أظن . قمنا بعمل ضخم قبل اجتماع المجلس وهذا هو المهمّ . الجديد غلب القديم ، إختلط به وهضمه . الحقيقة لا أحد يقبل الهزيمة ويرضى بها . اقلب يا سيدي وشقلب بشرط أن تربح .

فكّر سرحان ثم قال :

ـ نجحت التجربة لا شك في ذلك . لكن ما هو السبب ؟ رضى الوالدين ؟ الحظ ؟ توسّلات موسى ؟ حنيت الراس ، صبرت ، حتى هدأت الزوبعة ثم أنهيت شغلك . واحد غيرك كان عمل العكس ، كان تنطّع ، سيّب الأمور ، تركها ترجع لحالتها الطبيعية، أعني حالة اللاّمبالاة والإهمال والخمول .

ـ عارف أولاد البليدة . حفيت معهم عقلي سنوات وسنوات . هذا عارضك ، قام في وجهك كالصاعقة ؟ ابتسم وقل له : كما قلتَ البارح . . وكمّل من عندك ، رأيك يعود رأيه إذا طبعته بإسمه . هكذا خلقهم الله .

ـ رغم كل شيء ، نجاح وأي نجاح !. أن تلعبوا ضد فريق معروف منذ سنوات ، أمر لا يتصوّر في بلد آخر . . قضية الكفاءة كما في الزواج .

ـ احنا في نظرك سوقة عوام نتطلع إلى رتبة الأشراف ؟

ضحك سرحان :

ـ حق أو لا ؟ فرقة صغيرة من بلدة صغيرة . صحيح حققت نتائج جيّدة . لكن قد تكون صدفة والأحكام لا تقوم على الإستثناء .

ـ تتكلم بجدّ ؟

ـ أتكلم كلام الآخرين .الصغيردائماً صغير وإن ظهرت عليه دلائل الخير . انت أعرف مني . « **ما بعث الله نبيّاً إلا في منعة من قومه** » . وإلا أين الهيبة ؟ والتقاليد ؟ والأصول ؟

ـ زد يا سيدي ، قل ما عندك !

ـ أنا أقول وأنت تجيب. من أين هذا النجاح الباهر والفوز الظاهر ؟ سنن الله معروفة وثابتة . كيف يظهر النبوغ في بلد العوام ؟

ـ أنا لا أجيب . أنا احضر ألعب أغلب وأذهب .

ـ الله الله على أسلوب يوسف بن تاشفين ! اسكت ما بدا لك ، السؤال دائماً قائم .

قال شعيب وهو ينظر إلى الحقول خلف النافذة :

ـ عليهم السؤال وليس عليّ الجواب :

أدرك سرحان ان شعيباً يريد أن يرجع إلى نفسه وان يرسم في مخيلته ، ساعات قبل وقوعها ، صورة المقابلة ، ليتهيأ نفسانياً للأحداث ، حسب تعبيره المعتاد .

قام فجأة الحسين الجالس إلى يسار سرحان ، وحاول أن يفتح النافذة . تعكّست الزجاجة . فطلب من جاره الرضي أن يعينه . قام الأثنان . أخذ كل واحد منهما بإحدى المقبضين الحديدين وضغطا بكل ثقلهما على الزجاجة . فانفتحت النافذة وهبّت ريح عاصفيةحملت معها داخل الحافلة غباراً أيقظ على السواء من كان في إغفاءة خفيفة ومن كان غارقاً في حلم عميق . صاح الجميع صيحة حمير الوحش معترضين على فتح النافذة . فاضطر صاحبا

العملة إلى إقفالها من جديد .

حدّث سرحان نفسه : المسؤول هو الشدّادي . لولا مقالاته في الصحف لما فكّر أحد في تنظيم المقابلة . لا ، السبب غير كاف . المقال لا بدّ له من قارىء يفهمه ، والقارىء ، ليتدخّل بكيفية فعّالة ، لا بدّ له من معارف ، وإلا نسي المقال في الحين . . حبر على ورق ، فراغ في فراغ ، كلمة في مهبّ الريح . .

(87)

هذا يوم الفصل كما أراده الشدّادي . قال في مقاله **سبب الإحباط** : كان يمكن أن أعبر عن شعوري نظماً لو كنت شاعراً أو رسماً لو كنت رسّاماً ، لكني حامل قلم أعلق على المقابلات بأسلوب أحاول أن أجعله مجرداً مثل الحركات المضبوطة التي تنبني عليها الرياضة . أقتصد في كلامي وأقول : نبحث عن جذور التشاؤم الذي نغّص علينا عيشنا منذ أن توالت الهزائم على فريقنا الوطني وأصبحنا نشك في مؤهلاتنا الذهنية والجسمانية كأننا خلقنا من طينة غير طينة باقي البشر . السبب واضح ، سجنا أنفسنا في نطاق ضيّق ، لا نتجاوز أسوار المدن الكبرى ظنّاً منا أن سكانها هم صفوة الصفوة ، في حين أن العكس هو الصحيح . المدن الكبرى قتّالة فتّاكة لا تنتعش إلا بمن يفد عليها من الآفاق . شاهدت يوم الأحد الماضي ،صدفةً ، مقابلة لم أسعد بمشاهدة مثلها منذ سنوات . . مقابلة رائعة من حيث مستوى اللعب ، من حيث جوّ الفرح والابتهال الذي أحاط بها . حتى الأطفال كان لا يسمع لهم دوي ولا صياح . كانت المقابلة حفلة لتمجيد الإنسان ، يلعب اللاّعب وهو نشوان ، يهنىء نفسه ويشكر ربّه ويبادل المشاهد فرحة بفرحة وسعادة بسعادة . يلعب فتعلق به دوافع الأمل وتساقط عنه دواعي الخيبة واليأس . حضرت الرياضة وحضر معها الطرب وكذلك النظام والانتظام . الآن أفهم ماذا يعني زميلي الشاعر : إن الرياضة في حدّ ذاتها شعر وطرب ، نشيد ومناجاة . أعجوبة ما كنت لأتصورها لولا أنّي رأيتها بعيني . والغريب أن المقابلة بدأت عادية غير متكافئة ثم ما لبث لعب الفرقة الزائرة ان تغيّر متأثراً بتعبئة الفريق المضيف دون أن

تتحول المقابلة إلى دورة تدريبية مملّة. وما فعله الفريق المضيف ، إختيار خطة ترغم الخصم على الإرتقاء بلعبه من مرتبة إلى أخرى أجود وأعلى ، أمر غير عادي لا يتأتّى إلا لمن يملك قدرة خارقة على تنويع حركاته . أعجوبة في بلدة منسية على شاطىء المحيط . لذلك أصرخ في وجه المسؤولين الذين يدّعون أنهم يبحثون جادّين عن مواهب جديدة . . لا تنخدعوا بالأسماء واللاّفتات تخطوا الأسوار . سيقول المرتابون : مغفّل ، إنفعل فرأى حلمه حقيقة ، لو كانت الأمور كما يقول لتنامت إلينا أخبارها وهل يحفظ السر طويلاً في مغربنا العزيز ؟ ليرجع بعد أسبوعين للملعب نفسه فسيقتنع أن الواقع لا يرتفع . طيب ، أنا أثبت وأنتم تنفون . ماذا نفعل ؟ نتجه جميعاً إلى رئيس العصبة ونطالبه بتنظيم لقاء يفصل بيننا . **قالوا يا موسى** . .

سألت الشدّادي : لماذا لم تدخل في التفاصيل ، كيف تكونت الفرقة ، كيف تمّ إختيار اللعّابة ، كم طالت مدة التهيّؤ ، كيف ينظم التدريب . ـ نتكلم على كرة القدم بأسلوب الملاكمة . لا بدّ في البداية من خطفة ، ضربة بطن ، تفيق النعسان . كلّمْهم على التداريب الوسائل الأهداف فلن تزدهم الأرغية في النوم . قل لهم : هذه أعجوبة غريبة معجزة ترهم واقفين منصتين . ـ سمعت بلا شك ما يروج في البلد ! والله هذا هو السحر الحلال ! ـ ما سمعت ولا بغيت أسمع ، جرّبت بنفسي ، رأيت بعيني ، واجبي أن أنقل تجربتي الشخصية للقرّاء . إكتشفت بالفعل ما لم أكن أحلم به . قضيت خمس عشرة سنة في الملاعب ، عمري ما شعرت بنفس الشعور ، الرياضة بالجد هي طريق السوبرمان . ـ طريق من ؟ ـ السوبرمان ، برنارد شو ونيتشه . ـ آه ، تعني الإنسان الكامل ؟ ـ بالضبط . ـ سمعت بموسى الحزين بودميعة والفقيه التواتي وميمونة ؟ ـ قلت لك لا أريد أن أفسد علي تجربتي الغضّة . شفت ما شفت ، شعرت بما شعرت ، إرتفعت عن عيني الغشاوة ، أريد أن يشاركني غيري تجربتي هذه . المتفرج يذهب إلى الملعب ليدخن ويصيح حتى يبحّ . أنظر من حولك واسأل نفسك : أصحاب الملاعب ماذا ينقصهم ؟ لا أحد فيهم يعرف أن الرياضة غير تمضية الوقت وتسخين الدم قبل الشروع في أمور أخرى . ـ عجيب ، مثلك مثل شعيب .

كدّ واجتهد ، يسمع الشائعات عن السحر الحلال فلا يتأثر . أقول له : موسى في الغار فيردّ : ومن بعد ؟ المهم أن يصل كل يوم الثلاثاء في الوقت المحدّد صحيح الجسم قوي العضلات حاضر الذهن . أنت وشعيب من جنس واحد . عندك وعنده الرياضة رياضة لوجه الله . .

وها المقابلة قد نظمت وها نحن في طريقنا إليها ! قال رئيس العصبة : شبعت من الانتقادات ، سي الشدّادي إكتشف أعجوبة ؟ خلّينا نتفرج عليها . ودخل الصحفيون في المعمعة . قال أحدهم متشككاً : هذه حيلة لجلب المتفرجين في بداية الموسم . وناقش آخر بجدّ قضية النجوم الساطعة : كانوا في الماضي أصحاب مواهب ثم أفسدتهم الشهرة . ظنوا أنهم فوق البشر ولن يرجعوا إلى الصواب إلا بظهور مواهب جديدة وعناصر شابّة . وتساءل ثالث : هذه الميزة التي يتكلم عنها الأستاذ الشدّادي التي يتحوّل بها الإنسان إلى ما فوق الإنسان والرياضة إلى ما بعد الرياضة ، ما هي بالتحديد ؟ أجاب الشدّادي بكلمة واحدة : التوازن الحركي . فعلق الصحفي المتحذلق الحاقد على الأسماء الجديدة : قائمة بذاتها أم لاصقة بالموصوف ؟ يمكن إقتناؤها من سوق الأكسسوار ام هي حكر على سكان المدن المحاطة بالمساجد والأضرحة ؟ وبعد أن برهن كل مشارك في النقاش على طول باعه في المناظرة والنقد إقتنع الجميع أن لا سبيل إلى الفصل في المشكل بالإقتراع واعتماد الاجتهاد الفردي وأن الحل الوحيد هو اللجوء إلى المبارزة : الغالب هو الراجح والمغلوب هو المرجوح . فرضت المقابلة فرضاً حتى على من كان يرى انها عين الغبن وان بها تنهار القيم وتنقلب الموازين .

ـ انعقدت الأسباب فجاءت النتيجة . .

التفت سرحان فوجد شعيباً قد وضع رأسه على زجاج النافذة تاركاً جبهته العريضة ، المهددة بصلع مبكّر ، تحت رحمة الأشعة الشمسية المنكسرة عبر سقف شفّاف معدني مكوّن من ضباب وغبار . فشعر فجأة بالحرارة وفتح ياقة قميصه . نظر خارج الحافلة فرأى الأشجار تتوالى مغبّرة مائلة . قال في نفسه : الشرقي يصارع مقدمة رياح الشمال ، المعمعة صاخبة فوق البيضاء ، هذا الصيف يقف وقفة الشرف قبل أن يتخلّى عن سلطانه ويتراجع

إلى مشتاه . . هل تؤجل المقابلة إذا هبّت العواصف وتهاوت المباني ومالت الصواري وانقطعت الأسلاك وتطاير القش وتعالت الزعاريد وتنادى الصبيان وتسابق الرجال ونبحت الكلاب . . ؟ ذاك اليوم الموعود . . لا إعفاء ولا إستعفاء . . الملعب غير مهيأ للمقابلات الليلية . . اقبضوا على هذا الصيف الملحاح المعاكس ، اطرحوه أرضاً وكبّلوه واتوني بسكين . .

(88)

صاح أغرام :

ـ رحم الله اللي جآ وجاب . سبقتكم العلامة . عمرنا ما شفنا عجاجة مثل هذي ، يا حفيظ يا ستّار . الإخوان كلهم حضروا إلا وشّان. الله يعفو علينا وعليه .

ثم بعد سكوت :

ـ وبعداك عندك أخباره ؟ جات امرأته عندي تسأل . قلت لها : الخلّوقي وحده ينفع في هذي الحصلة .

ردّ سرحان :

ـ ما عندي جديد . الخبر كله عند موسى .

ـ فصّلْ لي القضية يا سي سرحان ، أنا ما سقيت الأخبار من منابعها .

ـ تلاقى به في الغار ، إما صدفة وإما لغرض . على ما حال بقى معه حتى تناصف الليل ورجع معه للمدينة . لما كان الغد فتش عليه . ما وجده . قال : هذا رجع للقنيطرة . ما انتبه حتى سمع أن امرأته قلبت الدنيا . تذكر انه كان يفتش عليه سمع انه ركب حافلة سوق الخميس . وهذي ما هي وجهته . بحث على السايق وركب معه حتى وصل المحل اللي هبط فيه وشّان . وثمة انقطع الحبل .

ـ كيف ؟

ـ هبط وشّان من الحافلة مع الراكبين وتابع طريقه على رجليه ، حتى واحد ما انتبه له . موسى وصل بالمركوب لسكة الماشنة وقت المغرب ، اذن وشّان على رجليه وصل لما ظلم الليل . حتى المهتم به ما كان يلحقه . الحاصل لا خبر ولا أثر .

ـ لكنه موجود ، ميّت أو حيّ .

طأطأ سرحان :

ـ أرض الله واسعة ، فيها ما يكفي من المخلوقات والإنسان مسيّب بين الجوع والخوف .

ثم غيّر نبرته :

ـ لكن الخلّوقي يخرجه من قاع البير ، ياك !

ـ ما فيه شك .

قال أغرام كلمته بحزم ثم جال بنظره يميناً وشمالاً كأنه يبحث عن شخص بعينه بين المتفرّجين . بعد قليل ضغط على ذراع سرحان صائحاً :

ـ شف . . علي وامراته . . علي وخميطة . الأمر واضح . هذي حسنة من حسنات الجمعية . قرّبت بين أولاد البليدة .

إلتفت سرحان إلى حيث أشار أغرام وفكر : التين والزيتون ، عنبة فوق جبنة . . هو نحيف وهي فتخا ، هو أسود وهي بيضا . يوماً من الأيام ستقول لها امرأة بعين الحرباء : لازم أنت أمه فتجيبها بلسان ذلق وبرودة أعصاب : لا أنا جدته . حكاية متداولة ، سمعَتْها بلا شك من أحد الكتاب الانجليز أو الامريكان الذين طالت معاشرتهم لها . . نبيهة ، متعلّمة . أخته ؟ جدّته ؟ أمّه ؟ لا يا شيخ . الجلسة علامة كافية . يبدي الجسم ما يخفي الضمير . . التجاوب والتوادد . صدق حميدة : هذي حسنة من حسنات أبناء الصديقية .

جال سرحان بنظره على المتفرجين . كانت المقاعد مملوءة كلها تقريباً . بل إزدحم القاعدون في الصفوف العليا إزدحاماً غير طبيعي في مثل هذا اليوم الحارّ . المدينة ملفوفة في غطاء حجري مشبع بحمرة جهة الشرق . الهواء كثيف يحمل معه غباراً أدمع العيون وملأ المناخر وسوّد الجباه . سكنت الأوراق واستقامت الغصون واستجابت الأعلام المرفوعة فوق العمارات الرسمية الى قوة الجاذبية كما لو طليت بطلاء سميك . تحولت البيضاء إلى مدينة جنوبية رمّانية اللون . ومع هذا الطقس الغريب ، في هذا الفصل من السنة ، جاء المتفرجون ، نساءً ورجالاً ، ملفوفين في ألبسة شتوية ، جلاليب

سرجوية ، معاطف غبردينية ، صدّاريات صوفية ، بل أطلق البعض على وجوههم طواقي جبلية لا يرى منها إلا فتحات العيون . المتفرجون حول أغرام وسرحان وعلي وخميطة من قراء الصحف ، قعدوا مستقيمين كأنهم ينتظرون في قاعة الأفراح بداية محاضرة عمومية . كل الهياج والصياح كان يأتي من الجوقة المتجمعة في الجناح المقابل لمخرج اللعّابة . من حين لآخر تنبو كلمة مفهومة فوق هدير الأصوات فتتلوها ضحكات وأغاني . . يا البراني ، لا تبكي عليّ ، انا صحيح ماني فاني ، يا البراني . . وينفخ في البوق فتتدفّق أمواج الضحك مرجّعة مغرغرة .

ـ حاجة واحدة ما تتغيّر أبداً ، الاستخفاف بالمواعيد !

(89)

غادر أغرام مقعده وحاول أن يمرّ بسلام بين القاعدين . يبتسم لهذا ويستأذن ذاك . كلما لمس برجله أحد المتفرجين رفع هذا الأخير رأسه وحدّق فيه دون أن ينبس بكلمة ، غير ساخط ولا راض ، غير مشجّع ولا متوعّد ، متعجباً ممن يريد أن يغير مقعده في هذا الوقت وهذا الجو .

ـ تعطلوا . . عندك الساعة ؟

ـ سكتت .

ـ حتى ساعتي سكتت . كل الساعات توقفت دقّة واحدة ، دخلها الغبار .

لوى أغرام على يمينه ودخل باب الرواق المؤدي إلى قاعات استقبال الرسميين . استقبله جو حارّ كنفس فرن . الرواق عادة يعجّ بالقيّمين على العصبة وبأصحاب الشرطة وأحياناً بالجنود . هذه المرة كان فارغاً مجرداً حتى من صفير الريح . تقدّم في نور متناقص حوّل الرواق إلى دهليز . دخل أول قاعة مفتوحة فلمح شعيباً واقفاً جنب موسى وعلى مقربة منها جماعة لا يعرف من أعضائها إلا الشدّادي . يخيّم على الجميع صمت زاد من وقعه فراغ الرواق وشحّة النور ، كأنهم يقفون على باب ميّت ينتظرون خروج النعش .

سأل أغرام :

ـ حصل شي ؟

لم يرفع شعيب رأسه . أدار وجهه صوب الحائط مردّداً :

ـ حصل شي ؟ حصل شي ؟ خوى بنا الحكم هذا هو الحاصل .

خاطب الشدّادي الحاضرين :

ـ ما هذي أول مرّة بلا شك ؟

ثم انطلق يحاور نفسه :

ـ الرجل الوحيد في المدينة كلها الساخط على السيارات ! . ما ينتقل إلا على رجليه أو على درّاجه . هذا عنده من توابع الحرفة . أرحمنا يا رحيم من عواقب الجهل ! بالطبع هذي مقابلة ثانوية في نظر سيادنا . . نفتح بها الستار ، يجي الحكم أو ما يجي ، تدوم ساعة أو نصف ساعة ما يهمّ . من يدري حتى الفرقة الأخرى يمكن تطلع ناقصة ! والله اهمال هذا تلاعب مسخرة ! !

لا أحد من الرجال الحاضرين همّ بالاعتراض فتابع الشدّادي :

ـ سيادنا جايين للمقابلة مجرورين بالأحبال والسلاسل . كثر القيل والقال ؟ يا الله نحني الراس ولكن احنا ما عطينا عقلنا لغيرنا . وحتى لو ألغينا المقابلة ما كاين باس ؟ على الأقل ، لو كان الجد ، التفكير فيمن يخلف الحكم !

شعيب يجوب الصالة كالسجين من زاوية إلى أخرى ، أصابعه مشتبكة وراء ظهره وشفتاه تتحرّك بسرعة . اقترب منه أغرام :

ـ ولا مقعد فارغ والصمت التام .

توقف شعيب لحظة ثم استأنف السير .

ـ الساعة الكبيرة متوقفة !

أطلق أغرام هذه الملاحظة غير موجّهة لأحد وغادر الصالة يحثّ الخطى في السرداب المظلم . لما استوى فوق سطح الميدان وجد أن وجه الأرض لا يقلّ ظلمة عن باطنها .

(90)

سرحان يفكّر . مركبة غير مسكونة على وجه القمر مركبة مسكونة على

وجه الأرض أرض خضراء تكسوها غابات وأدغال بدت زرقاء ثم دكناء ثم خضراء عادت المركبة إلى حيث أتت تاركة وراءها من جاءت بهم مكرهين مبعدين موبخين أو . . ونكتب من جديد تاريخ البشر بل تاريخ الحياة بل تاريخ البلّوريات والآن فصل على وشك الانتهاء وصلت المركبة في يوم عاصف كيومنا هذا ونحن قاعدون متطفلون نشاهد نهاية الفصل كما نحن مجتمعون اليوم في هذا الملعب ننتظر مقابلة يتطلع إليها من يتهيّبها ويخشاها من يَكرهها قد يقول وما شأن الدانمرك ؟ هل نحن دانمرك ؟ هل نعرف ما يجري في الدانمرك ؟ يقال إن الدانمرك يتناقص ربما لذلك السبب بالضبط رغم انه من أهل الدار إن شاء وشاء غيره شأن الدانمرك . . .

استعاد أغرام مقعده والأنظار حوله هذه المرة مستغربة مستنكرة كما لو كان وسط قاعة هائمة في أثير معزوفة خلابة فقام مصفّقاً قبل الأوان .

قال :

ـ نظرة العسكري في مونته .

ثم ساق الخبر لسرحان :

ـ ما كاين حكم . الرجل معروف في البلد ، حالف عمره ما يركب سيارة ، إما على الأقدام وإما على دراجة . مع هذا العجاج نطلب الله تخرج الجرّة سالمة . الشدّادي ينفخ كالثور . فسدوا عليه العملية كلها وهو مقتنع انها مؤامرة .

وافق سرحان :

ـ كل شي ممكن .

فضحك أغرام :

ـ حتى الطقس داخل فيها . عمره ما غوبش بحال اليوم . هذا يوم الحسم بين عفاريت الشرق والغرب . قل لي يا سي سرحان لما كنت تقطع الأرض بالطول والعرض مثل سيدنا الخضر أو سيدي ريشة عمرك حضرت عَملة مثل هذي ؟ الساعة ساكتة والعجاجة حامية والحِكم مدلّي رجليه .

ـ يوم بن يوم حسبناه يوم فوز ونصر . وشعيب ؟

ـ يحسب ويعاود ، من قنت لقنت كالسبع في القفص . لكنه متعوّد !

ـ كلمة ثقيلة !

أطرق أغرام نادماً على ما تسرّع به لسانه . أخرج منديلاً ثم أغمض جفنيه وراح يمسح جبهته وذقنه . بعد قليل فتح عينيه وأجال بصره على الحاضرين ولاحظ :

ـ ولا واحد يشرب . يوم العجائب : عجاجة بلا صيف وحرّ بلا عطش !

ـ وموسى ؟

ـ واقف كالصاري يسمع ما يتكلم .

ـ نادم . . قصّر في الاعتكاف . بالفعل سبقته الأحداث .

ـ بسبب الشدّادي . هو اللي نفخ فيها حتى حمت . . مقالات ، إتّصالات :

ـ وصل الخلوقي ؟

ـ ما بان لي لا فوق الأرض ولا تحتها . وقضية الشيخ العوني ما فعل الله فيها ؟

ـ دفنوه في داره . حضرت الجماعة كالعادة ، قرأوا القرآن ، صلوا ، أكلوا وتفرقوا . وما تخطوا عتبة السطوان .

ـ جنازة عجيبة !

ـ سجن الشيخ نفسه . ما خرج من داره وهو حي ما يخرج منها وهو ميت .

ـ إذن الدارهي الزاوية .

ـ قبل ما يتوفى كان كلام كثير على بناء زاوية عونية . إما الآن ما سمعنا إلا ان العايلة راحلة للرباط عند الخلوقي والدار يقوم بها مقدم .

ـ من يكون ؟

ـ غاب اسمه على بالي . كان يتردد على الدار .

ـ آه . لا بد يكون الزهروني الفضولي . . وما ظهر شي ؟

ـ ما ظهر شي . خيرنا بين يدنا لا برّاني بينا . الشيخ حسب واحتسب والله جازاه على قدر نيّته . أولاد الصلب خرجوا بلا فايدة ، قيّض الله له من

يستر حاله .

ـ دفنوه هو وسره .

ـ حتى تنكشف كل الأسرار .

(91)

جلس عمر الغربي وسط متفرجي الملعب الشرفي كما جلس في مطعم المرسى ، كما جلس في بار فندق المنصور ، كما قاد سيارته من الرباط إلى البيضاء . . غائباً عن ذاته يسمع ويجيب وذهنه مشتّت بين دار السويقة ودار أعلى أكّدال . في الدارين معاً شجرة موز سامقة مورقة تشيع خضرة الجنان في الفضاء المحيط بها وتبعث فيه نسيماً يبرّد الجباه الحامية ويتخلّل الشعر الملبّد . . في الدارين زقزقة الدوري وغرغرة الحمام . . في الدارين فتاة حليبية البشرة شيبية الحدقة واقفة جالسة في إحداهما ومستلقية ممدودة في الأخرى ، تهوى إليها النفس وتتقبض عنها اليد إشفاقاً عليها من ان تتساقط وتنهار أو تتفتّت وتطير ، ليس في لونها ما ينمّ عن جريان دم أو نبض قلب ، تنبو عنها كلمات عتيقة كأنها محمولة على جناح الريح من وراء المضيق ، فتاة غير محرّفة ، حروف وجهها باهتة وحروف كلماتها متداخلة . يقول عمر ويعيد : أستمع إلى صوتها ، أرى خيالها ولا أمسها ، في المسّ خطر عليها ، في السعي والرغبة أذى لها . . وها هي بعد شهور . . هي ؟ هي ؟ من قال إنها هي ؟ ومن تكون إذا لم تكن هي ؟

ـ غريب ، لا زحام ولا صياح ، لا بوليس ولا جيش ، الأبواب كلها مفتوحة .

ـ مزية لولا هذا الحرّ .

ـ حرّ يذوب المخّ . على ما حال راحة ونظام ، شي غريب .

رأيتها دائماً إما مطرقة تمشي وراء أمها وإما جالسة منحنية على العود . عمري ما تخيلتها داخل دار أكّدال بين زينب ومنصور ، ليست من عنصرهما . دار أكدال بيت مريم الهاربة بنفسها وأولادها وحريتها ، رتّبته على شهوتها وهو إلى الآن كما تركته مع ان الأمل في عودتها إليه شبه منعدم .

هكذا أوفيت بعهدي لها ولنفسي . . جالس في المكتب وسط الليل أجيل النظر فيما حولي من كتب مصفوفة وصور معلّقة وتُحف مبعثرة . تمرّ الدقائق ولا أتضايق من بطئها ، لقد تعلّمت الصبر طوال هذه الشهور من البطالة . . منصور مسافر وزينب في استراحة ، أعيش لوحدي ، أقضي أمسياتي مع أحد المسؤولين على السياحة ، لا أكاد أبرح الغرفة المحجوزة له في فندق حسّان . . خلف النافذة تتمايل تتحرك تضطرب أوراق شجرة الموز ، أتابع تسارع حركاتها وأتخيّل أنها مسكونة متضايقة من عدم قدرتها على التنقل . . أطلع الدرج متأنياً حذراً كأن ساقي ما زالت متأثرة من الكسر . اجتاز درجة وأتوقف لا لسبب سوى كسب الوقت . أعلم انني بعد ثوانٍ أدفع باب غرفة النوم وأجدها كما وجدتها البارحة وقبل البارحةوقبل قبل البارحة ، غرفة غير مرتّبة تذكرني بمأوى طالب متوحّد مغترب . . أرفع الرأس فأنكر ما أرى ، كل شيء على معهود حاله سوى شيء واحد غيّر الغرفة كلها ، شيء زائد ملقى على السرير . . الوجه صوب النافذة والساق متدلية . هيئة طبيعية ؟ هل جاءت على رجليها وتساقطت على الفراش أم حملت إليه وطرحت بدون إكتراث ؟ كيف عرفتُ وتحققت انها هي ؟ كيف لاحظت كل هذه الأشياء الدقيقة ولم أمكث في الغرفة سوى ثوان معدودات ؟ من يصدّق شهادتي ؟. ها أنا من جديد داخل المكتب أتأمل تحركات أوراق شجرة الموز ، أشباح في ظلمة الليل ، أمنّي نفسي أني لم أطلع بعد إلى غرفة النوم . لم أتكلّف مشقّة إيقاظ مسعود وإستنطاقه عمن طرق الدار في غيابي . صمّمت على محو ما رأيت من ذاكرتي مركزاً انتباهي على السفر إلى البيضاء ، على الموعد مع العامري ، على المقابلة . لماذا الهروب ؟ كيف أيقنت انها هي ؟. وإن لم تكن هي فمن تكون يا ترى ؟ لم أستضف أي فتاة منذ أن غادرت مريم البيت . إن لم تكن هي لماذا تخيّلتها من بعيد جثة هامدة ؟ لماذا لم تخيّلها فتاة كانت تنتظرني ثم غلبها النوم فاستلقت على السرير مستبشرة فرحة؟ لا بد أن شيئاً ما في هيئتها دفعني إلى الفرار من الغرفة دون أن أتحقّق من هويتها . . إنحراف الرأس ؟ تدلّي السّاق ؟. جالس في المكتب المظلم أسمع الريح تهفّ في الغصون وأتسا ، : كيف عرفتْ الدار ؟ من أطلعها على عنواني ؟ كيف

تسرّبت إلى الغرفة ؟ مسعود حارس شديد لا يترك أحداً يقترب من الباب فكيف يفتح لفتاة لم يرها قط ولا يخبرني بشيء عند عودتي ؟ يعلم ان زلّة مثل هذ نعني الطرد الفوري . . حان وقت الفجر ولا فجر ، ظلمة منتشرة وريح عاصفة أقول لمسعود : سمعت . . ما رجعت من البارح ، من الساعة الخامسة ، الليل كله وأنا خارج الدار ، قلت لك على العتبة ما تنتظرني ، أقفلت الباب ونمت حتى الصباح ، فهمت كلامي أو لا ؟ أشار مسعود برمشة أنه حفظ الجواب وفهم المقصود . إتجه نحو باب الكراج دون أن يفوه بكلمة . الريح تهبّ بقوة متزايدة ، ريح شمالية شرقية تدفع السيارة دفعاً . . يا ربّ خلّيها عاصفة تعصف بالكلّ .

قامت الريح بعد الرابعة ثم هدأت ثم هبّت من جديد ، أحسّ بها تتقوّى كلما فتحتُ النافذة . وعندما وصلت إلى باب فندق المنصور وجدت أن البيضاء قد اكتست ثوب مراكش في بعض أيام أواخر شتنبر . أعطيت مفتاح السيارة إلى الحارس وسجّلت نفسي عند المضيف . كلّمته لكي ألهيه وأنا أثبت تاريخ البارح على ورقة الاستقبال . جلست في البار أحسو قهوة الصباح معيداً في ذاكرتي كل ما لاحظته في غرفة النوم . هل جاءت على رجليها أم حملت إلى السرير حملاً ؟ كل الاحتمالات واردة . أترأ ما خلف النافذة الزجاجية البصر وأحس إحساساً قوياً بتجهّم الجو وأقول أنا وحدي في هذه المدينة أرحب بهذا الطقس. جاء العامري وحاورني طويلاً حول العاصفة وتأثيرها على نتائج المقابلة . ثم قال فيما قال : كلّما طالت المدّة ابتعد عنك الخطر . أي خطر ؟ القديم أم الجديد ؟ ربما هو خطر واحد ذو فصول وأطوار . ذهبنا إلى مطعم الميناء حيث اجتمع الجمع . ماذا تناولت من طعام ؟ لا بدّ أني أكلت وإلا كان العامري تنبّه لحالي . لماذا لم أتصور دقيقة واحدة أنها جاءت إلى دار أكدال بايعاز من أمّها لتفرض نفسها فرضاً وتحلّ محلّ مريم الغائبة، إنها تحايلت حتى اكتشفت العنوان ثم اشتكت وبكت حتى رق لحالها مسعود وفتح لها الباب ووعدها بكتمان السر ليعطيها فرصة مباغتتي والتحكم في مشاعري . لا ، هذا حلم وعالم الحلم هادىء لا عاصف فيه . بل جاء بها شخص يعرف الدار وما فيها ، ألقاها على السرير ، أدار وجهها

نحـو النافـذة ، ترك سـاقها متـدلية عمـداً لأفهم من بعيـد ان الفتـاة لم تـأت بمحض إرادتها ولم تلق بنفسها على السرير . اذن ما الفـائدة في تلقـين مسعود الجـواب ؟ سيقول الـواقع وربمـا قال دائـماً الـواقـع ، حـارس بـاب لا كـاتم أسـرار . . يـا ربّ خلّيهـا عـاصفـة إلى آخـر الـزمن حتى يختلط الأخضـر باليابس ! .

- (وسبب الخصـومـة ؟ - الله أعلم ولكن أصبـر حتى تلحقنـا المـوجـة .
- قال له ربيب اليهودي جاوبه يا ولد عزّي . - وعلى هذا قامت القيامة ؟ - يا أخي الشيطان عامل عمايله) .

قال العامري :

- شف ثمة شف واحد قدام الآخر .
- ما تحققت .
- الوقفة بحال وقفة شله .
- شله ؟
- نسيت يـا سي عمر ؟ لعبنـاها جمـاعة مـايـة مـرة ومـرة وأنت صغـير . تفكـر . أنت شايله . . أنـا ماشـايله . ومن يشيله ؟ . هو يشيله . . هـو ما يشيله . . الخ .
- وفيه فايدة ؟
- التمرين على الكلام والخصام .
- يعني لعبة القباحة والغوات .
- كلنا غوّاتة . هذي حرفتنا على الأقل فيما بيننا .
- آخر مرة جيت لهـذا الملعب كنت في المنصّة الـرسمية . كـانت الشمس بارقة والميدان يلمع كأنه مسبح والشرطة في كل قنت والطبل والغيطة . . اليوم المنصّة فارغة والعجاجة سكّتت الناس .

- سكّتت النـاس ؟ ما انت معنـا يا سي عمـر . اسمع اسمـع هـا ذات اليسار بعد ذات اليمين واحد يرمي والآخر يعقد .

(النار النار والضمار . . جاء وقتـه بلا غـرار . . النمس النحس . . ما خلافي الدار ما يتلحس . . النار هدم الدار . . قم يا العايم في العار . .) .

ـ هذي لعبة أخرى .
ـ أو نفس اللعبة في شكل آخر ، تتنوّع من بلد إلى آخر ، كل واحد يبزق في وجه الآخر .
ـ حتى لاين ؟
ـ يغلط واحد أو يسكت .
ـ بالحق ، بدا الصداع ،كان لا بد منه مع الحرّ والظلمة والغبار .
ـ لا عليك تبدا المقابلة تهدا الحمية .
ـ إذا بدأت . . في هذي الظلمة ؟ أنا ما قادر أفرز الجالس تحت الدرج .

وقبل ان يجيب الباشدور ارتفع من الصفوف الأولى صوت رخيم كأصوات المرتّلين الذين يضعون ايديهم على آذانهم استلذاذاً برنّة أصواتهم فتنهمر الدموع على حدودهم من ثقل الوقع وشدّة الوجد : « ما لغيرك رحيلنا يا حبيب الله » ! في نفس الوقت أضيئت المصابيح ،الكبرى العالية المحيطة بالميدان ، والصغرى المثبتة في الأرض والمعلقة في جدران المنصّات. وخرج اللعّابة من مخبئهم يقودهم الحكم وهو يصفّر تصفيراً متواصلاً كتصفير سيارات الإسعاف . انتعشت الريح وهبّت مغبرة لافحة .
ـ يا حفيظ ، الشيطان تنفّس .
ـ باب جهنم تفتح .
إجتمع اللعّابة وسط الميدان وكفّ الحكم عن التصفير . لا أحد يصفّق أو يشجّع ، لا بوق ولا طبل ولا غيطة . . عمّ الصمت جنبات الملعب باستثناء جهة واحدة ، تلك التي وقف فيها شبحان يلعبان لعبة شله حسب قول العامري . يبدوان الآن بكل وضوح لجميع المشاهدين بين جماعة تستمع إليهما تحكم بينهما تشجّعهما تحميهما . .

(92)

خميطة مسرحة الشعر مكحّلة العينين محمرّة الوجنتين مصبوغة الشفتين قاعدة بجانب علي نور وفي عينيها حنان الأمهات ، جبهتها عالية ، بشرتها

صافية رغم ما تكدّس على وجهها من مساحيق وأصباغ وغبار ، عنقها مثخن أملس ، صدرها طافح بالحياة قادرة على إرضاع عشرة أطفال . علي نور يرافقها ويناقضها مستدق الرأس عالي الجمجمة آجُري السحنة دقيق الأنف نحيف الأصابع أفلج الأسنان . يده اليمنى موضوعة على يدها اليسرى ، أصابعهما مشبكة . دار نحوها وحدقة عينيه جمرة متّقدة وسط جو مغبّر مغمّم .

- ماذا يقولون ؟

- إنها لعبة تلهي الحضور ريثما يخرج اللعّابة .

سكتت قليلاً ثم قالت :

- ماذا قررت ؟ مسافر معي إلى طنجة أم عائد إلى سفح الجبل ؟

لم يتردد :

- إذا قلت لي الآن : رافقني فعلت .

- هذه كلمة لن أنطق بها ابداً ، تعرف ذلك . اختر لنفسك .

رفع علي نور اليدين المشبكتين وداعب بشفتيه ظهر يد خميطة .

- اخترتك قبل ان ألقاك . لا شيء يعادلك . أنا بين يديك . . كالميت بين يدي الغاسل .

- تشبيه غريب !

ضحكت خميطة ضحكة مكتومة وأقدمت على ما لم تقدم عليه منذ أن وعت بذاتها وجنسها . أحنت صدغها الأسير على كتف علي اليمنى وأغمضت عينيها . أحسّ علي بتثاقل يدبّ إلى جفنيه ، لكن صوتاً وراءه ردّه إلى وعيه :

- ولا شي . . كل مرة بحال بحال . . يتلاقى حتروف من مرس السلطان وآخر من بوشنتوف وتبدا المشادّة : يا بغل ! - يا شفّار ! - لو ما كنت ما تقدر تعيش . - لو ما كنت ما مشيت فوق الأرض . . هذا ينفخ وهذا يحوي الزيت . . والله يهدي ما خلق .

- قلتها يا ولد الأجواد . . يهدي ما خلق . . صمّ بكمٌ لا يفقهون . . وهذا الفار ؟

- الله يعفو علي وعليك . . البارح كلب ، اليوم فار وغدا حمار ، كل نهار

بحكمه . . بلا شك هذا الغوّات ساكن جنب سقاية ، هجم عليه جيش من الفيران ، فايق طول الليل . . هذي مناسبة ينتقم من الفيران ومن غير الفيران ويفرج على نفسه . .

فكّر علي نور . النار في الحطب . همّ ان ينبّه خميطة ويذكرها بكلام ريكاردو جول الموضوع الغائب المعجز ، لمح إبتسامة على شفتيها فتركها تحلم في غير نوم وقال في نفسه : الموضوع هو ما أسمع الآن ، ما يقال وراء ظهري ، ما يطرق سمعي رغماً عني . الموضوع هو تجاوب الصوتين معاً . الموضوع حاضر مع الحاضرين هنا ونحن نجري وراءه منذ عقود في ربوع خالية حيث لا حركة ولا حياة ، حيث التقاطيع والتقاسيم ، حيث تتناغم الأصوات الخالية من أي مضمون . الموضوع في التقاليع ؟ والله مهزلة وأية مهزلة !. آه ، لو كان سمعي حادّاً مدرّباً على إلتقاط أدقّ تغيير في الدبدبة . . لكن الترجيع أورثني كما أورث غيري الصمم . . هذه تطلّعات صاتت فيها ريح عاصفة ريح شرقية في غير موسمها . . خميطة تحلم بجانبي وأنا بجانبها عاجز عن الحلم بعد ان حلمت طويلاً في غيابها . لم أندم على حلمي المبدّد . . فاتني الموضوع وسيفوتني باستمرار . . خميطة . . خميطة . .

فكّر سرحان . من شبّه الأوبرا بلعبة بهلوانية ؟ همّ البهلوان ان يتحكّم في جسمه ويضبط حركاته ويوهم المشاهد أنه يوشك في كل لحظة أن يهوي على الأرض ويكسر عظامه . . توازن مهدّد . . يسقط ؟ لا . . ساقط ؟ لا . يتسلّق البنيان الشاهق ، يقتحم القمّة ويغيب في السحاب . كذلك الموسيقى الدرامية ، نغمة تعارض أخرى ، تناقضها تناقضاً يحزّ في قلب كل سامع يؤمن أن في الكون نغمة خفية وحيدة موحدة تذوب فيها النغمتان ، البيضاء والسوداء ، المزينة والعاطلة ، المريّشة والعارية . . تقتربان منها وتقتربان ولا تدركانها أبداً ، لغياب شيء لطيف غياباً هو السبب العلّة الدافع المحرك .

قالت خميطة :

ـ هؤلاء على الأقل يتحركون ، أما أصحابنا ؟

ضغط علي نور على يدها :

ـ هذه خطة ، الكرة هي التي تتنقل . .

(93)

بـدأت المقابلة بـدون مقـدمـات في جـو حـارّ كئيب رغم تـدفق أضـواء المصـابيح . قبـل دخول الـلاّعبين إلى الميـدان كان جـلّ الحاضـرين ساكتـين صـابرين ، بـانشعال الأضـواء وإنـطلاق اللعب إختلطت همهمـة الأصـوات وعجيج الرياح ، الصوت والضوء والحركة قوى متعاضدة متراثّة . . الهمهمـة تـداعب الأسماع كـأمواج متعـالية تـلاطف رمال الشـاطىء قبل ان تهـاجمهـا وتكتسحهـا . . تبدأ المـوجة جـداراً زاحفـاً لا يقـاوم ثم تقتـرب وتقتـرب من الشاطىء فتنهار وتتبدّد تاركة وراءها فقّعات تعكس أشعة الشمس . . كذلك الهمهمة تبدأ صيحة قويـة في الصفوف العليـا البعيدة ثم تتفتّت ألى مفـردات تطرق الآذان طرقاً وتهدّ الفؤاد هدّاً : العار . . الدار . . الضمار . . وتتوالى الموجات وتتكرر الصيحات .

(94)

شعيب جالس على طاولة غـير بعيد عن الميـدان يتابـع المقابلة . بجـانبه قاسم ذو اللحية الكثيفة البارقة تحت الأشعة الكهربائيـة كأنها مـدهونـة بزيت العـود وعـلى يسـاره المخفي القصـير النحيف ، تخـالـه طفـلاً دون السـادسـة عشرة ، يذخره شعيب ولا يدخله إلا في الشوط الثاني عندما يحسّ ان الخصم بدأ يتعب . ينطّ كالقرد ويسبق إلى الكرة مهما كان طول المنافس وضخـامته . يضرب الكرة بداخل رجله وهو يواجه الجمهور فاستحقّ لقب بوجنيبة .

قال شعيب :

ـ بوجنيبة ما عندنا بك غرض اليوم .

ـ الله على سعد ، يوم الفوز والفرحة ما أنا حاضر فيه .

ـ حظك ! التعبئة تمّت ومـا بقى إلا الاشـتبـاك بلا ضيـاع وقت ، وإلا إنتبه الخصم وهذا هو الخطر . لا بـد أن يظن ان اللعب كله فـردي عشوائي وان الإصابة هدية من عند مولانا .

تدخّل قاسم :

ـ زكي ساخط وزايد يرقص بالخفّة .

ـ خلّيه يتحرّر. كان من أصحاب الحَرْكة ومنعناها عليه هذي مدّة . . اليوم رفعنا القيود .

طلع عليهم أغرام وهو يلهث :

ـ هذا فنّ والله فنّ . الله يكمل بالسلامة .

ردّ شعيب بصوت خافت :

ـ قلت لك يا سي حميدةما تسخط علينا .

ـ حاشى ! حاشى ! ما يسخط على الأصحاب إلا مسخوط الوالدين . ذاك من المحبّة والغيرة على سمعة البليدة .

ـ ولا عليك أقعد وتفرج ، ما زال الخير .

ـ بالحق ما تفرط خلّي في المزود . .

قبل أن يتم أغرام نصيحته حضر الخلّوقي بعد أن لم يعد ينتظره أحد .

ـ تأخرت يا سي بنعيسى ، فاتك ما فاتك .

ـ الشغل يا أخي الشغل . كيف القضية ؟

ـ عجيبة . عجيبة . جي معي عند الباشدور والغربي . ما نضايقسي شعيب .

إبتعد الأثنان . أغرام يقفز بين المتفرجين مطرقاً خجلان والخلوقي يلتفت يميناً وشمالاً ساهياً عن إحتجاجات الناس .

ـ وعلي نور أين هو ؟ انا عارف انه هنا مع خميطة .

ـ دخل من باب آخر . كانت الظملة ، كل واحد مدهي بحاله .

إنحنى العامري على ظهر أغرام الجالس بجانبه :

ـ لا باس ؟

فأجاب الخلوقي وهو يخزر الى الجهة المقابلة حيث يتبارى الشبحان في لعبة شِلّه .

ـ اليوم الناس مشغولة ، لا من يسمع !

شعيب يتابع المقابلة ووجهه خالٍ من أي انفعال . يتابع زايد وهو يراوغ ويبتعد عن موسى قلب الهجوم . وبغتة فتح باب فرن أو تنفس محرك حافلة قديمة وهي تقتحم طلعة صعبة تحت همز سائقها . فلطمت أوجه المتفرجين يد

عفريت في قفاز من جلد خشن .

ـ يا حفيظ ! يا لطيف !

وفوق الميدان لا تبرح الكرة أرجل لاعبي الفريق الزائر الذين أظهروا منذ البداية عزيمة وبرودة أعصاب ، همّة وحلماً ، قوة ودهاء . كل لاعب منهم مسيطر على حماه ، يدافع عنه برجولة الفرسان وحزم العقلاء لا يغادره إلا لمهلة وحتى في حالة التنقل يحافظ على سلامة الانتشار . يبدو ذلك واضحاً للمتفرجين وإن غاب ربما على الخصوم فوق الميدان . يهم إسماعيل بالحركة فتظن أنه سيستقبل الكرة لا محالة وإذا بها تنتهي عند الرضي ، التفاهم بينهم بواسطة تحوّل الأجسام لا بحركات اللسان . تتزاوج النغمة مع الأخرى ولا تتمّها . في الإتمام راحة وسكون . النقص سرّ الإندفاع . الحاجة إلى الإكتمال مبعث السعي والحركة . يتقدم ويتأخر الفريق الزائر في محاولات متكرّرة لتحقيق صورة هندسية تتولّد عنها هجمة ناجحة . والفريق المحلّي يجري وراء الكرة جرياً عشوائياً فيه كثير من الحماس وكثير من العبث . التمريرات مركّزة في الحيز الوسط أمام أو خلف منتصف الميدان . من يفتح عينيه عرضاً ويلقي نظرة عابرة على اللعب يظن ان لاعبي الفريق المحلّي هم الذين يقودون الهجوم ، هم الآخذون بزمام المبادرة ، هم الذين يتبعون الكرة في كل الجهات بدون كلل أو ملل ، رغم أنهم يمسونها قليلاً ويضيعونها كثيراً . يركدون ذات اليمين وذات الشمال ، لا هم يتقرّبون من مرمى خصومهم ولا هم يتراجعون نحو خطهم الدفاعي . الكرة لا تتعدى وسط الميدان ، يتلقاها زكي في الميمنة أو جعفر في الميسرة فيوجهها إلى المؤخرة نحو الحسين أو حنفي قبل أن تعود إلى المقدمة عند موسى أو المحجوب . ثم كالعادة دون ان ينتبه أحد ، بعد ان تعوّد المتفرجون على توالي التمريرات العقيمة ، وقع الاختراق . حاز الكرة موسى فتراجع بسرعة ورافقه قلب الهجوم المحجوب في حين لزم الجناحان إسماعيل والرضي موضعهما . تلقى زكي الكرة وتقهقر ثم غيّر الإتجاه وصوّب الكرة نحو إسماعيل الذي كان قد تحرّر من مراقبه دون الوقوع في فخّ التسلّل . اقترب إسماعيل من المعترك . ضبط الكرة وقدّمها للرضي على يساره . ردّها إلى موسى . تراجع بها . لم

يرافقه المحجوب . توهم الجميع أن اللعبة ستكون كسابقاتها لكن موسى رفع الكرة بلطف إلى الأمام . اندفع نحوها المحجوب . دون توقف قذفها باليسرى قذفة قوية من بعد ثلاثين متراً . دخلت الشبكة محادية العارضة . صفّر الحكم . صفّق البعض . معجت همهمة الأصوات . انفجرت صيحة لم يفهم منها سوى الفواصل : النار . . العار . . الدمار . .

(95)

قالت خميطة :

ـ مساكين ! من يطبخ لا يأكل . تعرف يا علي حكاية الجبلي ؟ دخل لأول مرة إلى مطعم عصري . قدّم له طبق زيتون . أخذ الشوكة وهمّ أن يغرسها في زيتونة فأخطأها فطارت الزيتونة واصطدمت بالحائط واستقرّت في الجانب الآخر من الصالة . قام الجبلي غاضباً وأعاد الكرة بنفس النتيجة . والنادل ينظر إليه يجري وراء الزيتونة الطائرة . أخيراً اقترب منه وأخذ الشوكة وبأناقة غرس أسنانها في الزيتونة وقدّمها للجبلي . نظر هذا إليه شزراً وقال : النّاه ! النّاه ! حتى عرقتها لك !

(96)

بغتة انتشر الظلام وهمزت الريح وسمع من بعيد كزئير الأسد . أحس شعيب أن قوائم الطاولة تنغرس في الأرض كأنها حملت من الأثقال فوق ما تطيق . رأى رأس المخفي يتباعد وركبته تصطدم مع كتفه وشعر بوقر في أذنه . هذا ما وعد ربّك .

هبّت الزوبعة وانقطع تيار الكهرباء ومادت الأرض فنهض المتفرجون متصايحين : يا لطيف ! يا رحيم ! وفوق صيحة الفزع والاستغاثة طغا صخب من نوع آخر يدعو إلى محو العار وسحق من عاث في الدار وخلّف الخراب والدمار . ارتمت خميطة في حجر علي وطوقت حزامه بذراعيها . إنحنى عليها علي وضمّها إليه . ولزم الاثنان موضعهما رغم تدافع الناس حولهما ورغم الضوضاء المتزايدة في الظلام . شعرت خميطة بالطمأنينة ونسيت ما حولها من تزاحم وتصايح . وشعر علي بنشوة تهمّ هميم الخمر من صدره

إلى سائر أعضائه . فانفصل عن الدنيا ولم يعد يلتقطَ منها إلا هينمة فاترة . لم يتساءل هل استقرت الأرض أم لا ، هل عاد الضوء أم لا ، هل سكنت الريح أم لا . لقد تحقّقت آماله الخفية بعد سنوات من الوحدة والخيبة . ماذا يعنيه إذا تحققت والأرض سائخة والجو قاتم والناس في همّ ولمّ ؟

(97)

ـ يا الله ! يا الله !

قام الخلّوقي بعد أن جذب كمّ الباشدور ولمس كتف عمر . واندفع الثلاثة متتابعين نحو أرضية الملعب ينير طريقهم كشّاف قوي كان الخلّوقي يحمله كقضيب يدافع به عن نفسه ويخوّف به كل من يعترض سبيله . كان المتفرجون بين منتصب يصيح في الظلمة وقابع في محله يتمتم بصوت يكتمه الفزع : النجاة ! النجاة ! يا رسول الله . والخلّوقي يطأ أرجل الجالسين ويصدم سيقان الواقفين فلا يعبأ بصيحات الساخطين ولا يلتفت لآهات المتألمين . اجتاز أربعة صفوف ثم قفز وحطّ قرب باب قاعة الانتظار والاستراحة . أضاء نور الكشّاف جماعة التّفت حول شعيب يحمل بعض أفرادها أعواد وقيد مشعولة .

توجّه الخلّوقي الى شعيب وأغرام بالأمر :

ـ أتبعوني كلكم .

واندفعت الجماعة وراء الكشّاف القوي داخل الرواق الذي انتهى بباب خلفي . نقره الخلّوقي نقرتين متتابعتين ثم نقرة قوية فانفتح إلى الداخل وكشف عن حافلة مصفّحة . إنحاز الخلّوقي إلى يمينه وتقابل مع الشرطي الذي كان يحرس الباب ثم أمر الواقفين :

ـ تصافّوا واطلعوا واحد بواحد .

صعد اللاعبون في هدوء وانتظام ثم تبعهم أغرام ثم العامري ثم الغربي . فلم يبق إلا الخلّوقي ليتمّ السرب . همّ الشرطي بإغلاق باب الرواق وإذا به ينزع منه نزعاً ويطلع وجه سرحان مبهوراً مبللاً بالعرق في دائرة ضوء الكشّاف .

رحّب به الخلوقي :

ـ أركب أنت مرضي الوالدين .

ثم جرّ باب الحافلة وبعد أن أحكم إقفالها دقّ على الصفيحة السميكة التي تفصل السائق عن الراكبين . أشعل المحرك ودرجت الحافلة بضعة أمتار ثم توقّفت . انتظر الجميع أن تستأنف سيرها ولما طال الانتظار قام الخلّوقي وغادر الحافلة دون أن ينسى إقفال الباب من ورائه . فأدرك الراكبون أنهم مفصولون معزولون عن العالم المحيط بهم . لم يستطع أحد منهم أن يسمع ماذا قيل بين السائق والخلوقي وبين من أوقف الحافلة ، كما لم يلتقط أحد منهم شيئاً من الصيحات المروعة التي كانت تطلق داخل وخارج الملعب ويتردد صداها طويلاً في أرجاء الظلام .

كانوا قاعدين على صفين متقابلين مطرقين خاسئين كأنهم ضبطوا متلبّسين بجرائم مختلفة أثناء مظاهرة صاخبة تحوّلت إلى حملة تخريبية إنتقامية أو داخل نادٍ ليلي جنّ بغتة أحد زبنائه وراح يصفع الحاضرين ويكسّر المقاعد والموائد . لا شعيب ولا الباشدور ولا أغرام إعتنى بخبر الحافلة الأخرى ؟ اختلط عليهم الأمر وظنوا أن هذه هي تلك ؟ مستحيل . اللون مختلف وكذلك التجهيز الداخلي . قيل لهم أطلعوا فطلعوا كما لو كانوا ينتظرون الأمر منذ البداية . البداية ؟ نعم . الخلوقي أحد أولاد البلد ظريف لطيف أمين مأمون تقي حنون يحمي اليتيم ويقري المسكين ، لا أحد يربط شخصه بعمله ، رجل عادي يعاشر سائر الرجال يجالسهم يؤاكلهم يزاوجهم . .

وبغتة رنّت في ذاكرة سرحان أغنية كانت شائعة أيام المريكان : فين رايح يا الغادي بيّا . . هزّ رأسه ، لحظ القريب منه ، لمح البعيد عنه ، حدّج المقابل له . . كلهم قعود سكون لا أثر فيهم للرجّة ، كل واحد غائب عن جاره كجماعة عيساوة بعد الحضرة . يزيد من كآبة الوجوه واسترخاء الأعضاء ضوء المصباحين الملوّنين .

وخرقاً للعادة وخرماً للصمت فتح موسى بودميعة فاه وقال بصوت من يناجي نفسه :

ـ نشطوا والله نشطوا . . قبل الوقعة .

عندها إعتدل الخلوقي وأسجد النظر في شعيب الذي كان قبالته . لو

كانت أشعة البصر ملوّنة لرأيناها تحفر كالخراقة أعلى جمجمة شعيب . وأخيراً إضطرّ شعيب إلى الاستجابة . خرجت الكلمة من جوف الخلوقي كالرمية يرافقها صدى الغور :

ـ فرحان ؟

لم يستغرب شعيب . لم يستنكر . لم يعارض . لم يقل : نعم فرحان لأن الأولاد لعبوا لعب الأبطال ، ولقنوا درساً فنياً للجميع ، لأن الشدّادي كسب الرهان ، لأن ، لأن . . وغير فرحان لما وقع خارج الميدان ، لصيحة البشر ورعشة الأرض . . على م سؤال الخلوقي الذي لم يصدر عن لسانه وعبر شفتيه بل إنفجر داخل فؤاده ، بركان عاد إلى النشاط بعد سنوات وسنوات من الخمود ونفج نفجاً سمعه شعيب ورفاقه على شكل كلمة كانوا ينتظرونها ، كلمة سمعت داخل حافلة مصفّحة داكنة وستُسمع عن قريب بين جدران أربعة . ـ فرحان سي بنعيسى ؟ لعبت وخسرت . ـ انت انت قلت لي مراراً أن الرمّاي الحقيقي هو صاحب الضربة الثانية ، الأول للقياس والثانية هي القاضية . الآن حصل ما حصل . سبقتنا الأحداث ، فيها خير لأنها كشفت عن الكاين . الآن عرفنا . ـ أعذار ! كلام غير مقبول مخالف للمسطرة ! نعتمد على الصدفة ؟ أنت وزهرك ؟ لا يا سيدي ، ما عرفت حدّك وقياسك يا سي الخلوقي . ركبت السيارة همزت وسرت على الله ، طلعت طلعت وانت ما حسبت حساب الهبطة . بعد كل طلعة هبطة ياك أو لا ؟ حتى مالت وملت معها . ما كان هذا المظنون فيك يا سي بنعيسى ! ـ لا ، أنا نبي الله سليمان بيدي مهبّ الرياح ؟ ـ سبّة هذي ما نافعه . حكمنا على العملية كلها من الأول للآخر ، على سلسلة الإجراءات . لو قمت بالواجب ما كان عندنا معك كلام . حتى لو حصل ما حصل كنت في أمان الله وحفظه . لكن قصّرت وقصّرت . السيارة على راس العقبة لا بد تنحدر وتخرج عن الطريق . تلاهيت عليها .

أطرق الخلوقي بدوره . لا فائدة ، لا فائدة ، سرّ القضية ما هو عند شعيب ولا عند الشدّادي ولا عند هذا بوشعيرة سوداء . خليهم بحالهم . السرّ السرّ في موت الشيخ . ثمّة خرجت عن الطريق ، ثمّة وقع ما وقع ،

ثمّة سهيت عن السيارة ، ثمّة انفصلت عن الأشغال وانغمست في شؤون العائلة . . المسؤولية علي ، تصرفاتي كلها كانت خارج القواعد . . لو وقع لي حادث كنت مشيت بسرّي . القضية همّتني عملتها خاصة بي لا دخل لغيري فيها . والقيود ؟ والقوانين ؟ كلام ضائع . البكاء على الميت خسارة. بيد الله وتحت رحمته. المدد المدد يا ولي الرحمان .

سأل بصوت هادىء :

ـ واحد فيكم عمره شاف علي الكرافس وبنت القاضي في المدينة ؟

أسرع أغرام بالجواب :

ـ لا ، الطريق طويلة . حدّ الدعوة كانت البيضاء .

علّق العامري :

ـ ثمة سبب آخر ، الحب . الحب يعمي ويوحّش .

(98)

دخل القطار محطة طنجة على الثالثة إلا ربعاً . نزل علي من العربة يحمل في يمناه جريدة مطوية مبلّلة بعرق يديه . وقف فوق الرصيف ومدّ يده إلى خميطة ليعينها على النزول . لا شيء في هيئته تنبىء بأنه لم يغمض عينيه منذ ساعات وساعات ، عكس خميطة التي كانت تبدو على وجهها واضحة آثار الألم والتعب والخوف . وضعت قدميها على الأرض وانكفأت على كتف رفيقها كأنها تحرص على ان لا يراها هو ولا يرمقها غيره . فرق كبير بين محطة اليوم ومحطة الأمس عندما جاء علي نور ليكتشف مدينة البوغاز وحضرت خميطة لترحّب به . كانت بالأمس غاصّة بالمسافرين والمودعين المرحبين وها هي اليوم فارغة كئيبة كمحطة سيدي العايدي ظهيرة يوم من أيام يوليوز . بالأمس كان يخترقها من باب إلى باب نسيم عطر ناعم واليوم يغلّفها ضباب كثيف يحجب أشعة الشمس ويمنع الحرارة المتجمعة فوق البسيطة أن ترتفع وتتبخّر في الفضاء .

على شاطىء البيضاء مكث علي وخميطة ساعات طويلة لا يتبادلان سوى ملاحظات حول ما يحيط بهما من أحياء وأشياء وما يصادفهما من أحداث ،

ملاحظات عادية تقال لكي تنسى. أما شعورهما العميق فكانا يعبّران عنه بلغة الأجساد، بالتصاق الكفّين وتشابك الأصابع. لم يتذكر أي منهما كيف إنفلتا من الملعب، من أي مدخل وبمساعدة من. عادا إلى وعيهما وهما يمشيان على الشاطىء غرب المسبح البلدي يفكران في أسهل سبيل لمغادرة البيضاء. قطعا ثلاث أو أربع مرات المسافة الفاصلة بين رأس الحجرة وحائط المرسى. لا سبيل إلى الخروج من المدينة قبل السادسة. يقضيان ما فضل من الليل في فندق الأكسلسيور؟ غاب عن ذكرهما الاثنين أنهما نزلا في الفندق وتركا فيه أمتعتهما. إخترقا المدينة القديمة من الغرب إلى الشرق ثم خرجا من باب ميلران وتابعا طريق السور حتى جوطية باب الخميس ومنها إلتحقا بالمسبح البلدي وجلسا إلى حائطه يواجهان البحر وينتظران إنتهاء الليل الطويل. مقاهي حي كوبا مقفلة والشاطىء خالٍ تماماً من السكّيرين الذين يغشونه عادة. خمد الدروج وسكتت الزفزافة وبرد الجو فسكنت نفس علي وغابت عن ذهنه تساؤلات رافقته طول مقامه في سفح الجبل. ماذا يعنيه، بعد أن وجد ما وجد ورأى ما رأى، من أمور الموضوع والوصف والحوار والطبيعة والحركة والتعبير؟ هذه هموم عالم آخر، وجدان آخر، ذهن آخر، علي آخر. بجانبه خميطة صامتة لا تتعجب ولا تستفسر كأنها تعلّمت من طول معاشرتها لضحايا الزمن ان الوقائع لا ثقل لها ولا ثبات. تحدث لكي تذوب في بحر النسيان. والموج يصارع الصخر بلا تعب أو ملل، يصدم حاجز المرفأ ويتطاير قطرات ساطعة في شحوب الفجر المتأخر.. الهدوء بعد الهوجاء والنسيان بعد الواقعة، هكذا يتجاوب الإنسان مع الطبيعة. إبيضّت السماء وتميّزت عن ماء المحيط. فقام علي وخميطة وقصدا محطة القطار. لم يصادفا في طريقهما لا شرطياً ولا حارساً عائداً إلى بيته ولا عاملاً ذاهباً إلى عمله، عندما مرّا أمام مدخل المرسي الرئيسي ترامت إلى سمعهما ضوضاء مبهمة تتداخل فيها دكّة أرجل الماشين وحشرشة فراميل الحافلات ونشنشة الدراجات على البلاط المبلل. وداخل المحطة وقفا ينتظران من جديد، أن تصفّف مقاعد المقهى، ان تسخن آلة القهوة، أن يعود النادل بالحليب والرغائف والهلاليات.

عندئذ تمطّطت الدقائق التي قدرت لهما أن يقضياها بعد في البيضاء ، البيضاء التي جمعت بينهما ثم بدا لها وقرّرت أن تباعد بينهما . أخفقت في محاولتها الأولى وقد تعيد الكرّة بعزيمة أقوى وتصميم أدقّ وتنجح . لا بد من التملّص منها في أول فرصة . الطبيعة تخدع الإنسان وتقوم ضداً عليه إن هو تأخّر ولم يتجاوب معها عند الدعوة ، الطبيعة تغار منه إن هو تفاهم مع أخيه الإنسان ونسي أنها تحيط به من كل جانب ، إنها تطعمه وتسقيه تحفظه وتأويه ، الطبيعة هي الأخرى تفرّق لتسود . استسلمت خميطة للقدر وارتمت في أحضان علي . حنا عليها وصمّم ان لا يستذكر الماضي وأن لا يلهو باستشناف المستقبل . عاد النادل وشرع في تنضيد المقاعد . سخنت آلة القهوة وفاحت منها رائحة ممسّكة . قام علي وخميطة من موضعهما وقصدا الكنطور . وبعد قليل حضر بائع الجرائد . إشترى منه علي نسخة وتصفحها بسرعة . فلم يجد فيها شيئاً مما كان يتوقع .

الساحة الصغيرة أمام محطة قطار طنجة خالية من سيارات الأجرة ومن الحافلات كأن أسفار البر والبحر قد ألغيت إلى أجل غير مسمّى ، ساحة معتمة كئيبة يزيد من كآبتها سكون أشجار النخيل الباسقة . علي يقود خميطة بخطى متمهّلة كزوج يعود بزوجته من المصحّة بعد وضع صعب . طلع الدرج المؤدي إلى زقاق مطعم المنزه مستريحاً بعد كل درجة ثم مال على يمينه وإذا به يصدم بشيء غير طبيعي في الهواء في ضوء النهار في دوي البشر . رفع بصره فأنكر ما رأى . قُطع رأس الزقاق كأن قنبلة مدفونة منذ الحرب العالمية ظنّها حافر آبار فكرون الماء فهوى عليها بملطاسه حيث لا يجب فطار شظايا في الهواء وطار معه كل ما يحيط به من مباني وأثاث . سدّت الطريق بحواجز خشبية يحرسها شرطيان . طلب علي من خميطة ان تنتظره مستندة إلى ما تبقّى من الحائط وتقدم نحو أحد الشرطيين .

ـ السلام عليكم . الله يحفظ .

توضّحه الشرطي ثم فصل عنه بصره ولمح خميطة ثم عاد إليه .

ـ عندك غرض هنا ؟

ـ الله ، العايلة كانت ساكنة فوق المطعم السبانيولي . جيت من الدار

البيضاء لصلة الرحم . الله سلّم ياك ؟

ـ ما عندي خبر عن الحي أو عن الميت ، ولكن خسارة !

ـ واش وقع بالحق ؟

ـ الكافر بالله ولد الزنى طبّاخ المطعم هو صاحب العملة ، والباترونة غايبة . الكوميسير منتظرها .

ـ ولكن آش وقع ؟

ـ قلت لك ما عندي شي بغيت أكثر سر للكوميساريا . . والبنت الواقفة هناك معك ؟

ـ من العايلة حتى هي .

وصدّ علي عن الشرطي قاصداً خميطة . أخذ بيدها وقادها نحو ساحة المحطة .

ـ إسم طباخ المطعم ؟

ـ المامون .

ـ لا أدري ما فعل المامون ولكن يبدو أنه سبب هذه المصيبة . رفض الشرطي ان يفصّل لي الخبر . قال لي ان الضابط ينتظر صاحبة المطعم .

تسمّرت خميطة في محلها . عدّلت قامتها . مرّت يدها على شعرها وقالت بحزم :

ـ يا الله نمشي عند الضابط .

ـ لكن ؟

ـ المطعم هو كل ما أملك . أين نذهب إذا غادرنا طنجة ؟

(99)

ويوم الاثنين 24 من الشهر نشرت صباحية البيضاء على صفحتها الخامسة مقالاً تحت عنوان **رباائب الشيطان** ، جاء فيه : بينما كانت تجري المقابلة التي فصّلنا وقائعها في الصفحة الأخيرة إنقطع التيار الكهربائي لمدّة قصيرة . فاستغلّ الفرصة ربائب الشيطان ليشيعوا الرعب بين صفوف المتفرجين ليسلبوا الناس امتعتهم . لكن رجال الأمن كانوا لهم بالمرصاد وفي أقل من

لمح البصر عزلوهم عن باقي الحاضرين وألقوا عليهم القبض . فعاد الهدوء إلى رحاب الملعب . ويقول المسؤولون ان المشوشين معروفون عندهم .

(100)

وبعد يومين نشرت الصحيفة في نفس المكان مقالاً آخر تحت عنوان :

ماذا جرى في ميسور ؟

غادرنا فاس على ساعة مبكّرة باتجاه الشرق . وطول مائة كيلومتر سارت بنا الطريق في منعرجات مذهلة عبر تضاريس الأطلس الوعرة . بعد بولمان بدأنا ننحدر نحو نجد ملوية العليا مارّين بمسافات قاحلة مجذبة تتخللها بقع داكنة من الحلفاء ، النجم الوحيد الذي يصمد لقساوة طقس تلك المنطقة المتميز بالحرّ نهاراً وبالقرّ ليلاً ، وبعد مائة كيلو متر تقريباً من أعالي الأطلس أطللنا على وادي ملوية الخصب وتراءت لنا ميسور على الضفة الشرقية . اجتزنا قنطرة عظيمة يبلغ عرضها ثلاثين متراً ودخلنا المدينة وقت الظهيرة .

ماذا جاء بنا إليها ؟ الشائعات التي روّجها الوافدون على فاس من انها تعرّضت منذ أيام لهزّات أرضية عنيفة . جئنا لنرى الأمور في عين المكان . تعجّبا أول الأمر من الهدوء البادي عليها . لم نلاحظ أي توتّر على وجوه المارّة ولا أي شقق في جدران المباني . جلسنا إلى إحدى موائد المقهى الكبير بجانب رجل دون الثلاثين . بادرناه بالتحية فأطلق لسانه وراح يقصّ علينا تفاصيل ما وقع يوم الإثنين السابع عشر من رمضان الأبرك : ارتعشت الأرض خمس مرّات إلى الآن ولا ندري ماذا تلد الأيام غداً . هذا القلق عام لدى سكّان ميسور الذين يتوجّسون حواسّهم لالتقاط أي إشارة تقودهم إلى فهم ما حصل .

أول هزّة سجّلها السكان كانت يوم ثاني رمضان على الساعة التاسعة ليلاً . سمعوا انفجاراً قوياً في باطن الأرض . اضطجع النائم ونهض من كان ينصت إلى الإذاعة أو يشاهد التلفزة . ثم تجدّدت الهزّات يوم الثامن والتاسع في نفس الساعة أي الحادية عشرة صباحاً . ثم يوم الحادي عشر أثناء

المساء لكن هذه الهزّة كانت ضعيفة . وبعدها وقعت الرعدة القوية التي أرغمت السكان على مغادرة منازلهم . وخلت المدينة مدة يوم كامل . روى أحد الطلبة : « كنت مساء يوم الثلاثاء مستلقياً على الفراش استريح لأنني كنت قد قمت بتدارب رياضية . وأغفيت وإذا بإنفجار قوي يوقظني . فنهضت منزعجاً وخرجت من البيت إلى الشارع حيث وجدت أغلب السكان قد إستولى عليهم الهلع » . غادر هذا الطالب المدينة كسائر السكان . بعد يوم الثلاثاء خفّت الهزات وعاد البعض إلى منازلهم .

كانت الإدارة قد أقامت الخيم لإيواء المهاجرين في أفنية المدارس وخارج المدينة . وبعد أيام وصل من العاصمة خبير في فيزياء الأرض لدراسة الوضع ولطمأنة السكان . لكن يبدو أنه لم يتوصل هو نفسه إلى التيقن من حقيقة الواقع . لذلك فضّل الناس ان يتركوا خيامهم مضروبة خارج المدينة تحسّباً لأية مفاجأة .

لكن ما يجب تسجيله هو أن الهزّات رغم تعددها لم تخلف لا خسارة في الأرواح ولا ضرراً في الممتلكات. كل ما حصل هو إنقلاع صخرة عن الجبل في دوار إيجلي جنوب ميسور . أما سكان الأحواز فإنهم على ما يظهر لم يشعروا بشيء . صحيح أن سوق الأربعاء لم يعمر كالعادة ولكن قد يكون ذلك لأسباب لا علاقة لها بما وقع .

السؤال الجاري على الألسنة هو : هل الحادث زلزال أم إنفجار بركان ؟ إلى حدّ الساعة لم تعط الدوائر الرسمية أية إيضاحات . لم تحدّد حرصة الهزة ولا مقدار قوتها على سلّم ريشتر .

لذلك توجهنا بأسئلتنا إلى الأستاذ عبد الكريم الصيّاد المعروف ببحوثه عن تكوّن المغرب الجيولوجي . وجدناه بفاس منكبّاً على خرائطه في مخبره التابع للمدرسة العليا للأساتذة . فزوّدنا بمعلومات وافية نلخّص ما يهمّ القرّاء فيما يلي :

توجد منطقة ميسور ضمن المجال الأطلسي ، الكبير والمتوسط ، وبالضبط ضمن هضبة ملوية العليا التي ترتفع إلى علو ثمانمائة وثلاثين متراً

عند ملتقى واد شوف الشرق وواد ويزرت . هنـاك سهل فيضي محمـول على مكوّنات تـرجع إلى العهـد الجيولـوجي الرابـع ، أي إلى ما بـين ستة وأربعـة ملايين سنة ، وهذه بدورها ترتكز على مكوّنات ميوسينية طفلية يعـود تاريخهـا إلى ستة وعشرين مليـون سنة . المهم هـو أنه لا يـوجد أي بـركان يـرجع ألى ذلـك التاريـخ في ناحيـة ميسور . هـذا أمر لا جـدال فيه . تـوجـد بـراكـين ساكنة ، غير نشيطة ، ولكن بعيدة عن المنطقـة المذكـورة في الأطلس المتوسط تعود إلى العهد التـانسيفتي المعاصـر لانجلاد ريس في أوروبـا (يعني إلى مائـة وأربعين ألف سنة) .

كيف نفسّر إذن الرعشات الحالية ؟ بتحركات بنائيـة في جوف الأرض . وفي هذا الصدد نذكر ان منطقة ميسور داخلة في مجال الإنتهاض الألبي الذي بـدأ قبل خمسـة وستين مليـون سنة ومـا زال يجري مفعـوله إلى يـومنا هـذا في مجموع حوض المتـوسط . وهنا نلفت النـظر إلى أن طبيعة سهـل ميسور يقلّل من خـطورة التحركـات الأرضية . الغـطاء الرسـوبي الذي تكـوّن عبر آلاف السنين بعمل البحر والمجاري المـائية منـذ العهد الـرابع إلى الآن يحـدّ من قوة الموجات الزلزالية وبالتالي يخفّف من رعشات وهزّات الأرض .

إذن أسباب حادثـة ميسور ؟ الأقـرب إلى تصورنـا أنها ناتجـة عن تصادم طبقات الأرض في الأعماق ، وذلك لأسباب مجهولة .

ويختم الأستاذ الصيّاد عرضه الممتع والدقيق قائلاً :

في إطار المعطيات المتوافرة لدينـا يمكن أن نجزم أن لا وجـود لأي إنفجار بركاني . فليـطمئن السكان إذن . والهـدير الـذي سُمـع يـرجـع إلى تعـامـل الفجوات الفاصلة بين التراكمات داخل الصفّاحة الأرضية .

الأربعاء 23/27

XV

الصحراء في قلب أمريكا!

ت . س . إليوط

(101)

يوم الأربعاء السابع والعشرين من ذي الحجة . طقس قارّي على هامش اضطراب داخل المحيط . ضباب كثيف ينقشع تدريجياً في الصباح ويتكوّن من جديد في المساء . رياح ضعيفة جنوبية إلى جنوبية شرقية . الحرارة معتدلة . علو الثلج بالأكايمدن متر ونصف في القمة . . بعد أن وطأ ملاحو أبولو الرابع عشر يوم الجمعة أرض القمر يبدأ التفكير في مهمّة أبولو الخامس عشر . . بوادر انفراج في الشرق الأوسط ومرونة في المواقف . . حجز أربعة مراكب صيد إسبانية عرض أزمور . . تدشين فندق الأطلس بأكدير . . مسرح عصري فاخر في مدينة الدار البيضاء . . المغرب يستعدّ لمواجهة العربية المتحدة في مباريات كأس أفريقيا . .

كان سرحان جالساً في البهو ينتظر وصول الأستاذ حسن الزبير المحامي من الدار البيضاء . منذ ثلاثة شهور انتهى العمل في الحديقة . علت أشجار الحور والتوت وانتعشت شجيرات البلوط والسرو والدلب التي اشتراها من المنابت البيضاوية ونوّر الأقحوان والقرنفل والورد المجلوبة من مراكش .

سمع غرير محرك قوي غطّى دكدكة مضخّة البئر . أرهف السمع ليلتقط صرير العجلات على الحصى . قام من مقعده متّجهاً نحو الباب الغربي حيث تنتهي الطريق المعبّدة الجديدة . فتحه وعلى لسانه عبارات الترحيب . وجد ضيفه قد ابتعد عن السيارة يتأمّل شجرة التين العتيقة المترامية في كل الجهات بأوراقها الواسعة وفروعها المعقودة كأذرع عجائز البادية .

ـ على السلامة جيت في الوقت . كنت في انتظارك بالقهوة .

إلتفت إليه الزبير مبتسماً ثم عاد ليطيل النظر إلى الحقول المنحدرة نحو الغابة . تثاءب . استنشق الهواء المليء بروائح الكافور والسنط والوزال ثم

اقترب من سيارته . أخذ منها محفظته وتبع سرحان داخل الدار .

صفّق سرحان . طلع في الحين ولد خدوج الخادم يحمل صينية تفوح منها رائحة القهوة المطعمة بالقرفة . تنهّد الزبير تنهيدة عميقة وقال :

ـ خسارة ! والله خسارة ! بعد هذه الجهود . . هكذا خربت قصور وانهدّت منازه . . لكن الأمر بيدك . أفعل ما تشاء .

قدّم له سرحان فنجان قهوة . تناوله الزبير ورشف منه رشفة ثم استعد لإشعال سيجارة .

سأل سرحان :

ـ ماذا قال بالضبط ؟

ـ عندي لك خبر سارّ : ردّ إليك متاعك كله . في الحقيقة تخلص منه . هو غاضب عليك لأنه ضيّع ساعات وساعات يستمع لموسيقى لا تعجبه . هو لا يحب سوى الطرب الأندلسي . العيطة بالنسبة له نعيق حمير حتى ولو جاءت من أرض جاوه وسرنديب . لكن تسامح وقبل أن يفرج عليك . ها انت الآن عندك ما يونسك . بالمقابل ، يطلب منك ، ينصحك ، توسل بي ان اقنعك ، ان تعود إلى البيضاء . قال : كبر وتربّى في البيضاء يرجع للبيضاء . . عاش سنين وسنين في عواصم كبرى والآن دافن رأسه في الخلا الخالي . . كيف تفسّر لي هذا السلوك ؟ . . آه ، صح ، سئم المدن وصداعها ! عذر واه لا يقبله أحد . . لو كانت معه فتاة غزالة من الغزلان ، خاف عليها من عيون الشيطان ، نفهم ، ولكن هو وحده مع الاسطوانات ؟

إبتسم سرحان ابتسامة حزينة :

ـ قل له الأطبّاء نصحوه بالصمت والهدوء .

حرّك الزبير سبّابته اليمنى يميناً وشمالاً ثم وضع يده اليسرى على أذنيه :

ـ حاسبه من الغافلين ؟ ولده الكبير ينصت باستمرار للموسيقى ، في قلب المدينة ، بسمّاعات البلاستيك .

واستطرد :

ـ قابلته مراراً ، ناقشته في القضية نقطة نقطة . لا أنا اقتنعت برأيه ولا هو اقتنع برأيي . أنا أقول : كل ما حصل حصل صدفة واتفاقاً . وهو يردّ

علي : صح في نظرك لأنك وكيل . لكن إنزل للشارع ، خذ أول رجل أو امرأة أو طفل ، كائناً من كان ، إحك له الحكاية من أولها لآخرها ، ثم اسأله عن رأيه واسمع هل يصدق حكاية الصدفة والإتّفاق . كيف أستطيع أنا أن أقفل الملفّ وأكتب عليه : صدفة واتفاق . . لو كانت قضية واحدة، يجوز، لكنها قضايا وقضايا الواحدة متولّدة عن الأخرى . . في كل مرة تقول : مصادفة . إذن لماذا البحث والتحقيق ؟ لماذا التحرّي ؟ ماتت الحرفة .

ـ عنده إذن رأي في القضية .

ـ لا . حتى الآن ما عنده رأي . لذلك رفض يقفل الملف . قال : أنا تساهلت تسامحت تعاميت ، عملت أكثر من الممكن ، خلّيت الناس في حالهم ، ما طلبت بتحقيق موسّع ، انت عارف المسطرة يا سي زبير ، لا تطلب مني المستحيل . في الملف شهادات أعضاء المجلس البلدي . . طرحوا أسئلة تقوي بعضها البعض ، كيف أتجاهلها ألغيها أتجاوزها ؟ أول من يقرأ الملف بعدي ينتبه للإهمال . زيادة على ذلك تلقيت إعترافات الخلّوقي . جلس هنا في هذا المقعد ومدة ساعة ونصف أفرغ علي ما في قلبه وأنا غير قادر على ايقافه رغم ان باب المكتب غاصّ بالمنتظرين . إعترف أنه ارتكب أخطاء كثيرة وترك عند رئيسه الإنطباع الخادع ان القضية تافهة . صرّح وأكّد انه لا يدري ما وقع لكنه على يقين أن شيئاً ما حصل يجب البحث فيه بدقّة . قال إن علاقات الصداقة وذكريات الصبا حجبت عنه الحقيقة وجعلته يغفل عن أهمية دور الترفيه . كان على وشك الإنهيار . بدأ يعتذر لي وكأني أنا صاحب نعمته . قال إن وفاة صهره الشيخ العوني أثّرت على نفسيته فضلاً عن أنه منذ البداية لم يعط للقضية ما تستحق من عناية . . هذه إعترافات مسجّلة واضحة لا تحتمل أي تأويل . لذلك يستحيل علي أن أقفل الملف في الظروف الحالية . أمثّل القانون والقانون مؤسسة . توقف قليلاً ثم أردف : أقول هذا مع أنك تعرف ذلك مثلي وأكثر مني . لو كنت في محلّي وأنا في محلّك لقلت لي نفس الكلام . حتى في غياب إعترافات الخلّوقي هناك وقائع لا تفهم . . توقف مرة ثانية وحدّق في طويلاً ثم قرّر : هنا ما هي أمريكا ! تعجّبت . دار بينك وبينه كلام في هذا الموضوع ؟

ـ أبداً . مرة واحدة سألني عن حياتي فاعطيته بعض المعلومات .

ـ ربما فهم من كلامك أن كل شيء يفسّر في أمريكا بالصدفة . على ما حال فتح الملف . أخرج منه ورقة وبدأ يسرد علي . يسأل ويجيب . يقول : فسّر لي هذه النقطة ؟ صدفة واتفاق . وهذه ؟ صدفة واتفاق . وهذه ؟ صدفة واتفاق . . لكن إذا كانت الأمور هكذا ما الفائدة من التحقيق ؟يا سيدي لو كان كل ما يحدث يحدث بالصدفة أي مبرّر للشرع والقانون ؟ وضع الورقة فوق مكتبه ، مسح وجهه بكفّيه ثم قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وبعد أن استرخى في مقعده ابتسم وأسرّ إلي : يا أستاذ فهمت القضية ؟ عملت جهدي أعمل أنت جهدك . عاونتك عاونّ . أنا طالب راغب . الملف صدّعني ولا غرض لي به . إذن برية ، كلمة واحدة ، زمام صغير . نغلق الملف ولا نعترف بالعجز ، نريح ونستريح .

سكت الزبير . رشف من كأسه رشفتين . انتظر سرحان أن يستأنف الزبير الكلام . ولما طال سكوته قال :

ـ ومن بعد ؟

حدّج فيه الزبير ثم قال :

ـ تعرف جواب شعيب . قال : أنا لا أعرف حقيقة ما حصل وأحب أن اطمئن . ما عندي ما أقول لأي أحد . أضع ثقتي في الشرطة وأتمنّى صادقاً أن تكشف عن الحقيقة .

تأمل سرحان ثم سأل :

ـ ممكن أقابله ؟

ـ آخر كلمة فاه بها : لعن الله الجهل والجهال . فسدوا علينا حتى منطق اللهو . يرفض مقابلة اي زائر . همّه الوحيد مستقبل فائق ولده .

كان صمت الظهيرة ثقيلاً يكاد يسمع رغم دكدكة مضخّة البئر . قام سرحان وتبعه الزبير . تجوّلا في البهو ، كل واحد منهما يمرّ بيده على الحافة المزروعة باليزيغ المخضّر .

ـ وخبر الآخرين ؟

ـ تسامح . في الحقيقة رجل طيّب يقوم بعمله في حدود المعقول ، بلا

تشدد أو إفراط ، لا يحب بهذلة الناس . يبحث أيضاً عن مخرج . خلّي الأمور راقدة . هذا مقابل ذاك . لا يقفل الملف ولا يتابع . . إلا إذا جدّ جديد .

ـ والكبش هو شعيب .

ـ باختياره ورضاه .

ـ ورضاك أنت .

ـ ما أنا غير وكيل .

بعد قليل :

ـ نفس القضية مع خميطة .، نجاها الكوميسار رغماً عنها . ولكن لا يمكن اقفال الملف . الرجل مات . إلى الآن ما ظهر أحد من العائلة ولكن في اي لحظة يمكن يظهر . تتصور أنها كانت بلا تأمين !

ـ لا اتصور ذلك منها .

ـ على ما حال رحمها الله أن البناية كانت فارغة . أما لو كانت كبيرة مسكونة !. وحسب ما فهمت من التقرير مامون الطبّاخ معروف في المدينة بأعماله وأخلاقه مسخوط مطرود ، وهي شغلته ! لا أقل ان تسحب منها الرخصة .

ـ وعلي نور ؟

ـ مشكلته مختلفة . كان يتغيب بدون اذن .

ـ لا يصدّق .

ـ أقول لك ما هو محرّر في المحاضر . أما حقيقة الأمور فهي عند ربّ الأرباب . المسجّل في المحاضر منطقي مقبول لا يمكن معارضته إلا بالحجج الدامغة ومن أين لي بتلك الحجج إذا لاذ صاحب الأمر بالصمت . ما انا إلا موكّل . لا أتدخّل إلا إذا طلب مني ذلك . وإلا كنت صاحب فضول والفضول في مهنتي خطر قاتل . وأنا ما عندي ربح في كل هذا . انما هي التربية . من تربى على شيء مات عليه . أحكي لك ما سمعت لأني أعلم انك تهتمّ .

ـ نعم أهتمّ . اللي استراح هو وشّان .

ردّ الزبير بشيء من العنف :

ـ غالط يا سي سرحان . الحقيقة تطلع تطلع وهذه هي المناسبة .
ـ صحيح ؟
ـ العمر طويل والملف دائماً مفتوح .
ـ هو مفتوح أو غير مفتوح ؟
ـ مجزأ . أقسام منه مدفونة موقتاً . مرة مرة يطلع منها قسم .
ـ عند الحاجة .
ـ نعم عند الحاجة .
ـ مثل ما وقع لعمر .
ـ تماماً . كان في الناعورة ، شهور وهي واقفة ثم تحرّكت . الأخرى شائعات سمعتها من الزملاء ، أما أخبار عمر فأنا استقيتها من منبعها . قضيته الأولى معروفة ، كانت معلقة أربع سنوات . ما حمد الله . زاد عليها قضية ثانية . تسبّب هو فيها ، فتّش عليها بيده ، لما طالب بعودة زوجته الهاربة . دخل في تشابك القوانين . بحث على فتاة ، صيدها ثم خلاها . جرت هي عليه ، اليوم غداً ، اليوم غداً ، وأخيراً . .
ـ دخلت الدار بلا مفتاح ، القت نفسها على السرير ، دورت التليفون لشرطة الانقاذ ، الشرطة وصلت في الحين . .

قهقه الزبير :
ـ لكن الجواب موجود : الصدفة والاتفاق .
ضحك سرحان بدوره وقال :
ـ دقيقة واحدة وأشك في نفسي .
أدار وجهه نحو البناء الجديد ثم إلى أشجار الحديقة وأردف :
ـ من أين لك هذا ؟ وهذا ؟
ـ هذا بالضبط ما سمعت من أشخاص كثيرين .
ـ غرضك أن أبحث عن مسكن غير هذا ؟
ـ بالضبط . لكن الخيار لك . وأنا تحت الإشارة .
إلتفت سرحان إلى الزبير وبكل برودة حدّق فيه طويلاً كأنه يحاول أن يفهم عبارة غامضة في كتاب صعب . ثم استأنف مشيته .

تبعه الزبير ملاحظاً :

ـ طبعاً ممكن تحتفظ بها كدار إصطياف . . والله عار يستولي عليها رجل لا يعرف قيمتها . اللي بدا يكمّل .

ـ هذي نصيحة ؟

ـ نعم . . وموافق عليها .

ودار بينهما كلام طويل حول منافع الخروع والنعنع وحول سمق وظل الحور والدلب ، إلى أن ارتفع في الجو الهادىء صوت المؤذن يدعو الناس إلى صلاة العصر . عندئذ شعر سرحان أن وقت الفراق قد حان فقال في نفسه : لا بد أن أزرع في فؤاده بزرة قد تموت وقد تحيى .

قال :

ـ أنا ماشي للمدينة . أرافقك في السيارة . حطني عند باب البحر . عندي حكاية لك تونسك إلى البيضاء.

(102)

حكى سرحان :

بعد ان قال لي الخلّوقي : اطلع انت مرضي الوالدين ، وجلست مع الآخرين داخل الحافلة المصفّحة ، كلنا مطرق يعاود في ذهنه الأحداث الغريبة التي مرّت به ، عادت بي الذاكرة إلى سان فرانسيسكو . . كتبت لي بيدها اليسرى وبخط صبياني العنوان ورقم الهاتف وزادت دونت فورجت . . هذه الجملة هي التي أنقذتني . . مرضي الوالدين حقاً . اجتزت المبنى رقم ستة ورأيت بعده الرقم عشرة، أين الرقم ثمانية ؟ قطعت الطريق إلى الجانب الآخر لأتحقق من الأمر ثم عدت إلى الجانب الأول . وأخيراً تقدمت نحو بيت غير مرقم وقرعت الباب . أحسست بخامية تزاح ولم أسمع أي صوت . قرعت الباب ثانياً . فأجابني صوت امرأة كأنها تكلّمني من غرفة بعيدة . من أنت ؟ فهمت في الحين أني ارتكبت غلطة . ترددت . ماذا أقول لشخص مجهول محجوب . إعتذرت وابتعدت بسرعة . عدت إلى الشارع ومن بعيد سمعت وقع الخطى . تابعت طريقي وإذا بكشّاف قوي

يضاء مباشرة في عيني ويبهرني فيما يأمرني صوت حادّ كطنين المعدن : سيدي عليك أن ترافقني . بعد حين توضّحت صورة الرجل ، مرتكزاً على رجليه متأهباً لردّ أي عدوان . أعطيته الورقة التي كانت بيدي . أخذها دون أن يحيد بصره عنّي . انتظر أن يلحق به زميل له ، كلّمه بدون شك عبر الهاتف المحمول . أمره بمراقبتي وابتعد . بعد دقائق عاد مع الفتاة ، يكلمها وربما يمازحها . . شابّ بجانب شابّة يمشيان في الليل لموعد غير موعدهما . اعتذر ثم قال غير مازح : مرة أخرى سيدي لا تطرق ابداً بيتاً لا ينتظرك فيه أحد .

جلست حيث دعتني الفتاة وأنا أفتكر : لو نسيتُ ! لو تأخرت ! وتخيلت وتخيلت . . الليلة في المغفر ، الأسئلة المعادة ، الأجوبة المحرّفة وأخيراً تلاوة الصكّ الطويل المفصّل ، بنقطه المرقمة المسلسلة ، قبل المساومة . . إما وإما . . اختر لنفسك أنت حرّ . . جئت بمحض إرادتك . . تجهل القوانين ؟ هذا عذر لم نعد نقبله منذ أواسط القرن الماضي . . لدينا شهادة الفتاة شهادة صريحة مقنعة لن تستطيع أن تدحضها حتى ولو استفدت من خبرة أحذق محامي المافيا . .

من حين لآخر كنت ألتفت إلى الفتاة أحدّق في عينيها الزرقاوين زرقة البحر قرب الأفق استمع إلى ما تقول : نعيش تحت ظل الرعب . عرفوا أنهم أقلية أبدية فاختاروا أن يحكموا الناس لا بالقهر والاستغلال وحسب بل أيضاً وأساساً بالرعب المبرمج . . إستبداد من نوع جديد ، خفي ذكي . . ساكن هذه القارة خائف باستمرار على حياته على ماله على شغله مع أن الدستور يؤكد أننا في كومنولث يضمن الأمن للجميع . . الأمن يردّ الناس إلى رشدهم وهم لا يريدون ان نرجع إلى رشدنا ، أن ننظر إلى شؤوننا نظرة النضج البرىء ، يودّون لو يبقى كل واحد منا قابعاً في حجره كالحيوان السابخ من الجوع والبرد لا يأتمن أخاه الإنسان ، لا يفتح له بابه ولا يكلّمه أبداً إلا وبينهما حاجز من آلة ، هاتف سلكي ولا سلكي قارّ ومحمول . . يتكلّمون عن عهد التواصل والإيصال لأن الناس لم يكونوا أبداً أقل إتّصالاً بعضهم ببعض . . أمس أمام مدخل الجامعة الرئيسي شهد خمسون متفرّجاً منظراً من المناظر التي تمثل لزائري استودوهات يونفرسل . إعترضت الشرطة

حافلة عائلية نزل منها شاب يحمل مسدّساً وقبل أن يرفع ذراعه سقط صريعاً وفي المساء قرأنا في الصحف أنه كـان مطارداً منـذ شهرين لجـرائم عدّة . وفي نفس الليلة كانت طالبة تنتظر البـاص برفقـة صديقـة لها ، عـائدة من زيـارة جدّتها في أحد الملاجىء الخاصة بالمعمّرين . مرّ بجانبهـا شابٌ لم تنتبـه إليه . تجاوزها بخـطوتين ثم ارتـدّ وطعنها بسكّـين . . لا تعرفـه ولا يعرفهـا حسب الصديقة . . ومثل هذه الحوادث تقع كل يوم . . متى فتحت المذياع أو التلفاز استمعت إلى نفس النصيحة : أقفلوا أبوابكم وأحكموا الإقفال ولا تفتحوا لأي كان ممن لا تنتظرونهم . . كيف لا تشعر إننا ننزلق نحـو حكومـة إستبدادية منذ اغتيال كنيدي . . الأمل الوحيد هو مقاومة العالم الثالث . . لا قوة في الداخل تستطيع أن تغيّر الإتجاه وتعود بنا إلى تطبيق الدستور . .

أستمع إلى كلامهـا الحلو البليغ وأرى في عينيهـا الزرقـاوين البريق ذاتـه الذي لمحته في عيني الشـرطي الشاب عنـدما اعتـرضني . أستذكـرت مشيتهما جنبـاً إلى جنب بخطى متـوازية . تـرمش العين ويتـألق البريق ويتحـوّل لون الحـدقة من أزرق إلى أسـود . ألقيت نظرة إلى خـزانة الكتب فلم أجـد فيهـا قصة واحدة . فتاة لا تقرأ القصص ؟ قالت : الواقع أجدى من الخيال .

وعادت إلى موضوعها : قـطعت كل عـلاقة مـع أبي عندمـا اكتشفت أنه إشتغـل مع الـوكالـة عندمـا كان بسنغفـورة ، أي جست هيت هيم . ويتألق البريق كسيف يهوي في الظلام . نطقت بكلمتها العدائيـة كأنها تـواجه أبـاها وتـوشـك أن تلجـأ إلى أحضـانـه مجهشـة بـالبكـاء . أحببت يـدهـا في كفّي وضغطت على أصابعها الـطويلة الأنيقة . ألتقت عينـانا . إختفى البـريق من حـدقتهـا وخفّت زرقتهـا . قلت : حـذار حـذار من النـدم حيث لا ينفـع الندم ! . لكل منـا أب واحد لا يعـوض . لا تحكمي عليه . أنت حـرّة وهو حـرّ . تـرفضـين أن يتحكّم في حيـاتـك وأنت تتحكمـين في حيـاتـه الحـاليـة والماضية . بأي حق ؟ الحرية تبدأ من هنا . ووضعت أصبعي على صدرها .

إسترخت واستعادت بسرعة مذهلة صوت الـطفولـة : أنت حكيم تقول أشياء لم نعد نسمعها حتى في دور العبادة . تبسّمت متسائلاً : سـاذجة ؟ ممثلة بارعة ؟

فكر في هذه القصة يا استاذ . سقتها لك لتأنس بها أثناء الطريق . فكّر فيها لعلّك تجد فيها ما ينفع .

(103)

متى دخلت إلى المدينة العتيقة ، من أي باب ، نسيت في الحين الفصل الذي أنت فيه ، فقدت كل معيار تميز به الصيف عن الشتاء الخريف عن الربيع . ظلّ دائم ، نشيش من جهة النهر ، رائحة الحبق والحناء ، صمت ثقيل عميق مركز ، صمت يسمع ويمسّ ، يجعل من المارّة أشباحاً بل يطارد الأشباح في الممّرات . لو لم تكن تعلم أنك بعد دقائق معدودات ستدرك باب المخزن أو باب الزاوية وانك ستخرج إلى عالم الشمس والضوضاء والذباب اللاسع لجمد الدم في عروقك ولأحسست بالأرض تهوي بك إلى ما لا نهاية .

يمشي سرحان في شارع الفتح المؤدّي إلى المسجد الكبير ولأول مرة يلاحظ أن الشارع منحدر وان المسجد يكاد أن يكون مدفوناً تحت الأرض إذ ينزل المصلون إليه بدروج . مرّ بجانبه عشرات المرّات دون أن ينتبه إلى هذا الواقع . كم من أشياء مرّ بها ولم ينتبه إلى حقيقتها ؟ لاحظ أيضاً غياب الحيوانات ، لا كلاب في الأزقة ، لا فراخ في البيوت . والقطط ؟ مع رطوبة النهر تكثر الفيران، أين القطط لمطاردتها ؟ لا بد ؟ لا بد ؟ حسب العادة . . العادة أن المدينة تنشأ لتسكن ، العادة أن السكان آدميون يتكلّمون ويمشون في الأسواق . . وهذه مدينة أسواقها فارغة ، حوانيتها مقفلة قبل وبعد العصر ، لا تأمل أن تجد فيها تماثيل من نحاس وأنصاباً من رخام . .

يردد سرحان : أنا آخرهم . أنا آخرهم . حلّوا بعدي وارتحلوا قبلي . أنا الآن بمفردي ، فوق الكدية بين جدران جدّدت وأشجار نمت وأزهار غرست ونوّرت ، أعدّ الأيام فتجري جري الفلول ، أسابق اللحظات ، في كل لحظة أرى المقبلة ، أيام الصيف أستبطىء الخريف ، يحلّ الخريف وتزمت ظهائره فأتطلع إلى الشتاء وعواصفه الممطرة . يحضر شتاء التقويم وإذا برياحه مقبوضة وأمطاره محبوسة . أرفع وجهي إلى السماء ، أرى في الأفق طرف سحاب فأمنّي النفس : غداً يلتئم بأخيه فيغشانا ويسقينا . يمرّ الليل .

أفتح النافذة فأجده مفكّكاً صوب الشرق . تصفو السماء ويدفأ الهواء ومرّة أخرى ألتفت نحو الغرب . ثم تدركنا مقدمة الصيف وتتساقط قطرات متفرقة لا تمكث طويلاً فوق الأرض . وهكذا يمحو الليل النهار والريح السحاب وأنا أمحو أيام حياتي يوماً بيوم . فوق الكدية أشعر شعوراً حادّاً بتتابع الفصول ، لو دفنت نفسي في قلب المدينة لما شعرت بشيء لما تألمت من شيء . . المثل كاذب . . الأمل يطوي العمر ويفرغ الحياة .

من باب القنطرة طلعت عليه امرأة مكفّنة في حائك أبيض ناصع . تمشي وكأنها تزلج على الأرض . رأى مثل هذه المشية في بلد ناءٍ . أين ؟ عندما قربت منه المرأة وأوشكت أن تتجاوزه التفتت وحدّقت فيه فرأى سواد عينيها من خلف فتحة الحائك وأفرغت في قلبه ما اختلج في فؤادها . . خطاب من عمق الصمت المتحكّم . . تابع سيره ومن باب القنطرة وقف ينظر ألى النهر وقد دفع فيه البحر فعلاه ماء أزرق إحتفظ بشيء من بياض الرغوة . دار إلى يمينه فلمح جانباً من المدرسة الابتدائية ومن ورائها الميدان الذي كان مسرحاً لمقابلات شعيب .

(104)

النفس المطمئنّة . . لم يعلن العالم الجرماني رأيه بصراحة لكن كان واضحاً أنه رغم السنين الطويلة التي قضاها متمثلاً للثقافة الإسلامية ، رغم مئات الكتب التي تصفّحها في خزانات برلين وفينّا وأكسفورد، لم يكتشف بعد سرّ تلك النفس . هل يمكن ؟ . كيف يمكن ؟ . يتخيّل أحياناً أنه اطمئنان الجاهل ثم يعود إلى كتبه يقرأها ويتأملها فيقول : ليس هذا من الجهل . إذن ما هو ؟ لقي سمع حاور كبار الأحبار والقساوس ولم يشعر أبداً عندهم بشيء ينمّ عن ذلك الاطمئنان . . الذي يتساوى فيه الكبير والصغير المثقف والأمي معاصر هيرقل ومعاصر ستالين .

لقيه يوماً أثناء حفلة نظمتها اليونيسكو على شرف عازف سوداني . طالت السهرة والعازف يبدي ويعيد كأنه يبحث عن تقسيمة إكتشفها مرة ثم افتقدها ويحاول إستحضارها بمساعدة رغبة وأماني الحاضرين ، آمراً تارة وأخرى

مستعطفاً ، يشعر أنها حاضرة في القاعة تلهمه وتَسْتقرِبُه فيسرع الايقاع ويتحفز للوصول وإذا به ينكسر ويهوي لسبب غير مضبوط . فيتجلّد يستريح ويعيد الكرة . وأخيراً بدأ بعض الحاضرين يغادرون القاعة فأدرك الباقون في الحال أن كل محاولة جديدة تزيد الفنّان بعداً عن تقسيمته المنشودة . وفجأة توقّف وابتسم معتذراً .

جلس الاستاذ الجرماني إلى مائدة المطعم ، ساحة المدرسة الحربية ، وقال : كلما استمعت إلى الموسيقى الشرقية تخيّلت اني سفير عثماني لدى بلاط فينا استمع لابساً الفراك إلى سمفونية هايدن . . ملاحظة عابرة لا قصد من ورائها ؟. ثم غيّر الموضوع : زرت المغرب سنة 1932 ، ركبت القطار من وهران إلى فاس ومنها إلى البيضاء ، مناظر عنيفة تغشي العين تسطو على الوعي تباغتك ترعبك كالأسد الكاشر . . وابتسم إبتسامة عريضة سطعت أواضحه في وجه أحمر حمرة الخشخاش . . كان يحب الكلام المتشابه يزيده إبهاماً بما يشفعه به من تغيير القسمات وتحريك الأصابع . وكالفراشة تجرس بين الأزهار المتباعدة كان يتنقل من موضوع إلى آخر . يصغي باهتمام إلى ما تقول ثم يقفز دون سابق إنذار إلى موضوع مغاير لكي لا تظن أن للنقاش خاتمة . يحبّ الإسلام أم يكرهه ؟ يعرفه أم يجهله ؟ يكبره أم يزدريه ؟ لا أدري ولا أحد يدري .

عاد إلى موضوعه المحبّب : النفس المطمئنّة . ما ثمن الاطمئنان ؟ لا بدّ من ثمن يؤدّى لكي لا يختلّ التوازن . . الطريق واحد . . أقارن فاكتشف في أوروبا بيزنطة بغداد المسائل نفسها الحلول نفسها في أوقات متقاربة ، إذن لا تأثير لا استجلاب وإنما استنتاجات لمقولات واحدة . . إذا ظهر هنا شيء لا بدّ أن يعادله هناك شيء آخر . . هنا النفس المطمئنّة لا بد أن يعادلها شيء هناك . . الموجود هناك منعدم هنا . . لكن ماذا هو ؟. ويبتسم ابتسامة واسعة . لا يجيب على سؤاله ، لا يحاول أن يجيب ، لا يحب أن يجيب ، يفضّل أن يبقى السؤال معلّقاً . . ثم قال وكأنه يعقّب على كلام غير كلامه : كل حضارة إلى إخفاق . أول حضارة وعت الدرس وتأهّبت للاحتماله حضارتنا ، ولهذا السبب بالذات قد تضمن لنفسها البقاء ، بشكل من الأشكال . .

لم أتـذكر شيئـاً مما قلت تلك الأمسيـة سوى أني قـاطعته مـرّة : الإسلام عنـدي هو الـطهارة . . مـاذا عنيت ؟ على أي سؤال أجبت ؟ أُخـذ الأستـاذ الجرماني على حين غرّة ، حدّق في طويلاً كأنه يريد أن يتحقّق هل كلامي جدّ أم هـزل ، ثم أعرض عنـه وعاد إلى مـوضوعـه . الآن فهمت إنه لم يحـاورني أبداً ، وإنما حاور باستمرار من خلالي أمثـال الفقيه العـوني . تلقّى قولي عن الطهارة كلغز لا يستطيع له تـأويلاً . . وهكـذا كان بـالفعل . سمعت لـه ، سمعت للشيخ العوني ، أحتفظ بأقوالهما في ذاكرتي . . إلى حين . .

(105)

غادر سرحان باب القنطرة واخترق من جديد ساحة السوق الدخلاني ثم لوى على يساره قاصداً باب المخزن ليدرك حي الـزاوية . بعـد خطوات ودّع عالم الظل ودخل عالم الشمس المحرقة . كيف يتوقف الضجيج عند باب غـير موصد ؟ ربما لأنه ضجيج لا يناقض الصمت ، صمت من نـوع آخر . . هـا المـدينة قـد استعادت وحـدتها ، إتّفقت مـع نفسها ، أحيـاء الظل مـع أحياء النور ، أحياء الصمت الفارغ الشفاف مع أحياء الصمت المليء الطنّان .

تحاشى سرحان باب النادي الذي أقفل وأفرغ من كل محتوياته . من بعيد لاحظ أن حائطه قد طلي بالجير . وصل إلى دار درب العرصة فوجد على العتبـة طفـلاً بقميص أزرق بـاهت وسـروال جـين ضيق يلعب بشقف الـزليـج ، يصفّفها يعدها يبعثرها ثم يصفّفها من جديد . طرق سرحان الباب فلم يجـب أحد . . طرق ثانياً طرقاً أقوى وانتظر طويلاً . بعد مدّة شقّ الباب وبدا وجه عجـوز أصفر مجعّـد عليه أثـر الوشم . عـرفته أم شعيب فجرّت إليها الـدفّة قائلة :

ـ مساء الخير يا وليدي جاتك البركة .

والتفتت إلى الصبي :

ـ فايق ادخل سلّم على عمّي .

قال سرحان :

ـ خلّيه يلعب . . ما زال الحال .

وتبعها إلى داخل الدار ، مقوّسة الظهر تهدج واضعة يدها اليمنى على فخذها ، شعرها مطلي بالحناء مشدود بسبنية خفيفة صفراء ، قادته عبر سطوان قصير إلى غرفة شعيب المقابة للباب المظلّلة بظل الخوخة المشهورة في المدينة كلها . جلس وجلست دون أن ينبس واحد منهما بكلمة . تحدّق أمامها في لا شيء ، حاضرة غائبة ، متوقعة أن يطول الصمت إلى ما لا نهاية . . للصمت حضور وفائدة ، يعود به المرء إلى وعيه ويتنصّت لعظامه . .

ـ كيف حالك أميمتي ؟

ـ الحمد لله . رنا نعدّي مع الأيام :

افتكر سرحان : نعدّي ونعدّ بحال فايق .

ـ والأخبار ؟

ـ من عندك يا وليدي .

ـ ردّوا لي حوايجي كلها . . قالوا القضية هي هي . . ما عندهم شي به يقبطوا ولا شي عليه يطلقوا . قالوا : احنا أطلقنا الكل ولكن القضية تبقى مفتوحة لا بد ، ما زال عندنا شك .

ـ وليدي وحده عندهم فيه شك .

ـ قالوا : لازم نتحفظ بواحد . . هو الراس .

ـ ايه المسطر مسطر .

ـ قالوا : المخرج معروف . يعمل بحال الناس ويتوسل . عنده عايلة . . أم عجوز وطفل صغير .

ـ وهذا هو الكاين .

ـ هذا هو الكاين . يقول عايلته محتاجة به وما يكون إلا الخير .

ـ ايواه . . الله يهدي الجميع .

ـ قلت لهم : هذا دليل انه مظلوم . لو كان في راسه شي كان كتب . ما عنده غرض . عارف أن أمّه محتاجة به وولده معول عليه . ولكن حاسّ انه مظلوم . . الأولى الثانية الثالثة . . الظلم يقهر . ما بقى له صبر . ولكن من يسمع ؟ الراسخ في الراس راسخ .

قالت أم شعيب وكأنها تتابع كلامها هي :

ـ جاني الوكيل ومشيت معه عند وليدي وكلمته ورغبته . جوابه هو هو ما تغيّر . الغابر أحسن من الظاهر في هذا الوقت . أنسوني . فايق وحده فكروا فيه .

ـ فايق في المدرسة ياكـ ؟

ـ الجامع السكويلة هذا فين مشت صحتي . إذا كانت غير المدرسة أنا قادرة بها .

ـ أميمتي كاينة المدرسة وكاين غير المدرسة . على ما حال أنا معك .

ـ كثّر الله خيرك وطوّل في عمرك . عرفتنا وعرفناك . قلت لوليدي شعيب : سي سرحان باقي معنا وفيه الكفاية .

أخرج سرحان علبة وأوشك أن يأخذ منها سيجارة ثم عدل عن فكرته وردّ العلبة إلى الجيب . وقال :

ـ الفقيه حسب حسبة أخرى . يعيش الولد في مدينة كبيرة ويتعرف على الناس وتتوسع في عينه الدنيا . الفقيه يتكلم من تجربته .

مدّت أم شعيب أمامها يدها اليمنى المسودّة من كثرة طليها بالحناء . نظرت فيها طويلاً ثم أجابت :

ـ فراق الوالدين ما فيه خير . يُتم الولد حرام . أمه سمحت فيه ، بالحق ما زال عنده من يقوم به ، ما هو يتيم . اللي يسامح في كبيدته كيف يلقى ربّه يوم الحساب ؟

ـ أميمتي كل واحد وفكره . على ما حال هذا كلام انتهى . لما كان عمر وحده في دار قدّ القصر ربما تكلم مع شعيب في القضية ، أما الآن عمر غارق في بحره . .

تنهّدت :

ـ وليدي بو شعيب حنين !

قام سرحان مستأذيناً . قالت :

ـ اجلس . تمشي بلا ما تشرب !

ـ لا . ما تعذبي نفسك . عارف الحال . جيت أطلّ عليك . شفتك على خاطرك والحمد لله . هذا هو المراد .

تقدّم سرحان نحو الباب . تبعته أم شعيب وهي تؤكدّ :
- الله يرضي عليك ، عمرك ما خيّبت الظن .
على عتبة الباب كان فايق لا يزال يتلهّى بشقف الزليج .

(106)

مشى سرحان في إتجاه الخلوة ثم حاد نحو شاطىء النهر . رأى صياداً جالساً على فهرة يتأمّل وقصبته مغروسة في الحمأ بالقرب منه فقال : انه حائر لا يدري هل يلقي مرّة أخرى أم يقنع بما اصطاد ويعود إلى بيته . رأى نساء عائدات من الزيارة فقال : إنهن يئسن من عودة التواقي إلى المدينة . طرق ذهنه إسم موسى الحزين فانتشله انتشالاً وفزع إلى إسم الشيخ العوني وقال : مات قبل الأجل ، كفّن نفسه في ظل المدينة ، دفن نفسه في قبر المدينة . من سواه يعرف عن الفناء ما لا يعرفه الأموات ؟ هو وأمثاله أحياء أموات ، أتركوهم يواسون بعضهم البعض ، لا تدخلوا عليهم فإن الظل يقتلكم ، لا تخرجوهم فإن ضوء الشمس يعميهم . .

توقّف سرحان . . لم يرد أن ينتهي به الطريق إلى الخلوة . إذا كان لا بدّ أن ينتهي طريقه إلى شيء فليكن البحر . لوى على يساره قاصداً دار الكدية . . في السماء سحب بيضاء وربداء مفكّكة لا تعكس أشعة المغيب ومن فوق الكدية ينحدر صوت محرك البئر يكحّ ويكح متعثراً مسترسلاً . مشى مولّياً ظهره لموسى ولغيره من أولياء التواقي الأدلم . وفجأة انفتق الحجاب ، انفرجت الجنّة ، وأدرك الهدف من أوبته إلى الصديقية بعد أن ناجاه صوت مجهول في متحف جنيف . منذ سنوات ، حتى عندما كان يتردّد بين القارات الأربع ، كان يشعر في قرارة قلبه أن الوقت يقترب ، وقت الأوبة والحساب . لم يفارقه شبح ذات الإسمين ، الفتاة اليتيمة النحيفة ابنة الحرب والهجرة . يشعر من حين إلى حين بوخز الضمير فيثور . أي ذنب اقترفت ؟ أي قانون خرقت ؟ شاب يعاشر شابّة ثم يفارقها . أفي هذا ما يدفع إلى المحاسبة والعقاب ، إلى الندم والتأنيب ؟ يغلّب العقل ويتوارى الشبح . . إلى حين . . ثم في متحف جنيف حضرت ذات الإسمين ، لم

تساعد ولم تختف ، بقيت إطاراً ثابتاً لصوت يردّد : هيهات ! هيهات : الدين الدين ، أدّ ما عليك قبل الفوات ، لا يغلبنك فيه الأمل ، لا يطولنّ عليك الأمد . دين أي دين ؟ أرجع ألى نفسك ، هي أدرى بما عليك أولك . مرّت الشهور ومرت الأعوام . اتّضحت الأمور وها هي اليوم ساطعة باهرة .

سأخاطبها . يا ذات الاسمين ! إذا لم يجدّ جديد ، إذا كنت ما تزالين على العهد ، الآن وقد اشرفت على التقاعد ، الآن وقد عدتُ إلى المنطلق ، الآن تهيأت الظروف . هذه الأعوام من الفراق كانت ضرورية . . كان في جسمك آثار المحن والمعاناة ، كان ذهني فارغاً من مناظر غير خيالية ، راعني ما في نظرتك من حدّة وعمق وما في ابتسامك من حزن وأسى ، تراجعت وابتعدت . والآن اخترقت الظاهر الحاجب ، تجاوزت الفرح الحركة اللغو . أهذا عدل ؟ يحلو لك أن تتخيل انها أنتظرتك طوال هذه الأعوام وهل كلّمتها ؟ هل ذكرتها ؟ هل حاولت ان تتصل بها بعد أن مكثت مراراً في مدينة مقامها ؟ العدل . من منا يعدل وقد قيل لأعدل الخلق أعدل . العدل نتشوق إليه ، نحلم به ولا ندركه زلّف ولا تخف . اطلق لسانك قبل ان يصدر الحكم في حقك يا هذا ! الخلق غير الخلق مدة ليلة واحدة ، ليلة مستبهرة غار فيها القمروقبضت الريح ، لا صيفية ولا شتوية ، ليلة في بلاد الصحو الدائم ، صحو يصوح . .

في الحديقة المظلمة أومض من شقق بيت خدوج ضوء ضعيف كمصباح مركب صيد يبتلعه الأفق . يحيط بكل شيء صمت ثقيل يضغط على الأذن ، حتى الكلاب لاذت بالأخصاص خائفة . الحقول مغلفة في كفن من مداد مترامية إلى جرّة فاتحة لعلها البحر أو السماء . نوى سرحان أن يقطع الحقول ويخترق غابة الصنوبر ليرتمي في أجيج البحر ويحرّر في ذهنه الخطاب الذي قرّر أن يرسله إلى ذات الإسمين تلبية للدعوى التي سمعها في متحف جنيف . نوى ثم عدل ولجأ إلى غرفته .

. . قال كاتبهم المهدار العملاق الأكول : اننا في امريكا تائهون إلا اننا سنهتدي يوماً إلى الطريق السوي . . خلبهم الخوف منذ البداية : الخوف من ظلمات البحر وعودة المسلوب وثورة المجلوب ، الخوف من الإخفاق بعد

المغـامرة ومن النـدم بعد المبـاهاة ، الخـوف في الفؤاد وفي الشارع . اختـطوا الأمصار لتكون لهم حمى فإذا بها مرتع إرهاب ومبعث هلع والخائف لا يكـون أبـداً أعزل . . لسنـا في أمريكـا ! لهم الحق أن يقـولـوا ذلـك . متى طـرقت الموضوع؟ مع شعيب ؟ أمام الخلّوقي ؟ في النـادي ؟ لسنا في أمـريكا نحن في صحراء . بل الصحراء فينا . قلب أخيـك صحراء وقلبـك أنت وقلب ذات الإسمين . عرفت ذلك منذ البداية رغم خفّة الروح وحضور البسمة . عـين ذات الإسمين لا تستقر على لون دائماً متأرجحة بين الأخضـر والكستنائي كـما يتأرجح لـون عين فتـاة فريسكـو بين الأزرق القـاتم والأربد . هـذه ساذجـة وتلك ؟ مجرّبة . قد يكون وقد لا يكون . ماذا تعرف عن الفناء أنت الذي ما زلت تبحث عن مُدخلك ومُخرجك ؟

. . فتح عينيه في ظلام دامس وتمايل على الفراش لاغمّاً ولا ألماً وإنما حزناً وأسفاً على ما كاد أن يكون ولم يكن . تسمّع فلم يلتقط أي حس ، لا نبحـة كلب ولا معجة ريح ولا هفهفة هامّة ، كما لو حرص الكون على ان لا يغويه عن نفسه . . الخوف في أمريكا وفي غير أمريكا . الخوف من الحيـاة . الخوف حيـاة . ولكم في الخوف حيـاة . لو . . لأعجبـوا وتعجّبوا وفصّلوا ودقّقـوا . ـ أسكت هـا قـد تـظلم نفسـك في الليلة الخـالصـة ! ـ نعم أجـدى لي أن أسكت . كنتُ في شبابي أعيش بجسدي في المدينة القديمة وبمخيّلتي في **غاري انديانا** وفي **لوزفيل ميزوري** . ثم سافرت هنـاك فوجـدت طليطلة واشبيليـة ومكة ، وجدت ثمان قرطاجات ، وجدت دمشق ماريلند ودمشق **فرجينيـا** ، وجدت قاهـرة **إلينوى** وقـاهرة **جـورجيا** ، وجـدت طنجة **فـرجينيا** وصـويرة **أوهـايـو** . . قلت أدور عليهـا كلهـا واحـدة واحـدة وأكتب ملحقـاً لكتـاب البلدان . . ومنها حماه على بعد ثلاثين فرسخاً من البحر وهي الثالثـة من المدن التي تحمل هذا الإسم . قيل إن سكانها الأولـين جاءوا ليسهـروا على الجمـال المجلوبة من الشام وكانوا من المدينة الشامية المشهورة .

يقول الأب يواكيم بصوت مسموع وحماس غير عادي دين الصحراء دين الإنسان المجرّد من كل مال المتحـرّر من كل ثقـة لا بدّ منـه لا غنى عنه لـو لم يكن لبطلت الحكمة تكون الصحراء طبيعةً ولا تكون وجداناً !

الصحـراء في القلب عوداً إلى الشيـخ العوني الـذي اختفى وأخفى سـرّه النغمةُ الفريدة الناقصة التي بها يكتمل المدى نـغمـة لا وجود لهـا لا دوام لها سرٌ العوني كالنغمة النـاقصة بـدا يومـاً ثم توارى وجـده ووجد بـه أبصر إليـه وبصر به من ذلـك اليوم طبـع على قلبـه وذهنه يصبـح ويمسي يحلم ويفيق لا أمـل له سـوى استشعار الـوجد سجن نفسـه استحضـاراً للذكرى قتل نفسـه استعداداً لهتك الحجاب .

كلمة واحدة قد ينفتح لها قلب ذات الإسمين لم نعش معاً أفلا ننتظر معاً من قال لك يا هذا إنها تنوي ما تنوي إنها تأمل ما تأمل يا عجباً تريد أن تختم بما فتح به غيرك إذا كان هذا ما أوحت لك به المدينـة العتيقة المـدينة الـدائنة فاحرى أن تقيم بينكما سـدّ هـاجوج ومأجـوج نجح الـزبير ومن نفث في أذن الزبير .

أحس بالفراش يهدهد كحشية مطاط فوق ماء جون ضيق وشعر بدفأ يدب من وسط جسمه إلى يمين رأسه .

لم تـدم الرغبة لم تعل الهمّـة لم يـطد العـزم لا أدعـوك أن تلحقي بي لا أرجوك أن تصغي إلي أي حق لي عليك يا ذات الإسمين بنت الزمان الأشيب الذي نسي نفسه وراح يحكي مـا وقع ومـا كاد أن يقـع نسي نفسه ولم يضغط عـلى زرّ من الأزرار فهوى قسم من الممكن كنّـا ضمنه سكنّـا الصحراء حلّت الصحراء في قلب أخيك يا من تجاوز حدّه وظلم نفسه يتمتم الشيخ العوني في لحيتـه لُعنت الـدنيـا أنت الـدنيـا دار الـزمن أنت الـزمن نسيت نفسـك أمتّ جسمـك عـطلت دنيـاك قلت للشمس إشـرقي أو اغـربي فـأنـا للظل مـلازم وللســور راكن انطق الإنسـان يمضغ ويبلع يهضم وينمـو من حين لحـين يشدّ حبال الحلق يجري فيها ريح النفس يلوي شـدقه فيسمـع له صـوت ألصق به معنى البعض قـال نعم البعض توقّف انت تتسـتر بالمـوسيقى المـوسيقى شيء الطرب شيء قلت هذا مـراراً آن أن تنطق حـلّ الفريق وحـرّم اللعب خمدت النار وعاد السكون همدت الأرض واستقـرّ الكون لن أخـاطب ذات الإسمين لن أتكلف بفايق .

ترجّح به الفراش كحشية مطاط طفت عـلى وجه البحـر في صهد صيف جاء بعد شتاء ممطر .

الفريق

الدكتور عبد الله العروي

الدكتور عبد الله العروي من مواليد 1933 في مدينة أزمور على شاطىء المحيط الأطلسي .

درس في باريس التاريخ والعلوم السياسية والإسلاميات .

له مؤلفات في تاريخ المغرب العربي والايديولوجيا العربية المعاصرة .

في المجال الروائي صدر له **رجل الذكرى** (1971) ، **الغربة** (1971) ، **اليتيم** (1978) .

يعتبر رواية **الفريق** أصدق عبارة على واقعه الفكري والشعوري .

أستاذ التاريخ المعاصر في جامعة محمد الخامس بالرباط .

عضو أكاديمية المملكة المغربية .

أين المضمون ؟

انفلت ونحن نجري وراءه بدون أمل . المضمون الحق لا ما نتخيّله مضموناً وهو صورة باهتة لما ذوى واندثر ولم يبق منه إلا شذرات محنّطة في الكلمات والجمل ، في الأبيات والأمثال . لا نملك سوى الكلمة والكلمة ذات معان مختلفة وكذلك الجملة وكذلك المقطع وكذلك الصفحة . ماذا أفعل أنا وقد غدر بنا الموضوع ويقينا بلا إيمان ؟ أعطيك مرآة وعليك أنت أن تعكس فيها حياتك . .

[علي نور ، ص 261] .

ونحن العرب

لم نكن أبداً أجلافاً حتى في جاهليتنا . شاركنا في الحضارة القديمة بالنيابة حتى قبل أن نساهم فيها بالأصالة . طال بنا الزمن وعفّت عن أرضنا آثار الفواجع .

نفهم الآي حسب هوانا
نقول دنيانا لعب ولهو
ونقول لا خوف علينا
نحن هنا باقون ما بقيت الأرض ثابتة . .

[سرحان ص 225]

الإسلام . . الإسلام فوق الصومعة يرى وينتظر ، يرى ما يقع في الأودية المحيطة به ، يتألم ويقول إنا لله وإنا إليه راجعون . . لا يستعجل ولا يستبطيء وإنما ينتظر بصبر أمر الله .

[الشيخ العوني ص 200]

المركز الثقافي العربي - ص . ب 4006 الدار البيضاء .